تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

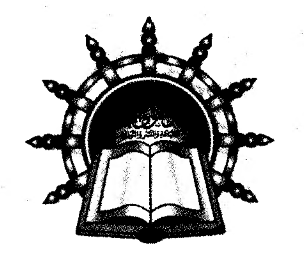
مكة المكرمة

المجلد الأول

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن



شعر

بُـورِكَ حـدائـق الـرَّوح والـريـحـان   كـمـا بُـورك جَـنَـا الـزَّيْـتُـونِ والـرُمَّـان
كتابٌ حَوَى مِنْ جَنَا التَّفسير أفنانا   فالحَمْدُ للمولَى على ما قد حبانا
كـتـابٌ لـو يُـبـاع بـوزنـه ذهـبـاً   لَـقَـدْ كـان الـبـائـعُ فـيـه الـمـغـبـونـا

آخر

بِـلادُ الله واسـعـةٌ فَـضَـاءُ   وَرِزْقُ الله فـي الـدُّنْـيـا فَـسِـيـحُ
فَـقُـلْ لـلـقـاعـديـن عـلـى هَـوان   إذا ضـاقـت بـكـم الأرضُ فَـسِـيـحـوا

آخر

سـافـر تـجـد عـوضـاً عـمـن تـفـارقـه   وانصب فإن اكتساب المجد في النصب
فالأُسْدُ لَوْلاَ فِراقُ الخَيْسِ ما افْتَرَسَتْ   والسَّهْمُ لَولاَ فِراقُ القوسِ لَمْ يُصِب

آخر

بِـلاَدِي وإنْ جـارَتْ عَـلَـيَّ عَـزِيْـزَةٌ   وأَهْـلِـي وإنْ ضَـنُّـوا عـلـيَّ كِـرامُ

المجلدُ الأول، من تفسير حدائق الروح والريحان، على الحزبِ الأول من القرآن الكريم ولعل مؤلفه قصد أوّلاً: أن يخص كل حزب من الأحزاب الستين بمجلد، فيكون الكتاب إحدى وستين جلدة مع المقدمة.

فائدة: قال مؤلفه وكان التاريخ الشروعى لتفسيرنا هذا مع التوائق والمعائق بتاريخ ١٤٠٦/١/٢ هـ وكان التاريخ الانتهائي منه مع المقدمة بتاريخ ١/١٠/١٤١٧ هـ.

فلله الحمد ما أسدى وأولى

ونعم المُولِي ونعم المَوْلَى



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

نحمدك يا فارق الفرقان، ومنزل القرآن بالحكمة والبيان، على عبده محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، ولطريق الحق سراجاً منيراً، كتاباً كافلاً ببيان الأحكام، متوشِّحاً ببيان الحلال من الحرام، قاطعاً للخصام، شافياً لصنوف السقام، مرهماً مجرباً لكل الأوهام، العروة الوثقى لمن تمسك بها، والجادة الواضحة لمن سلكها، فأي كلام يستحق من التعظيم، ما يستحقه كلام الرب الحكيم، كتاب أعجز الفصحاء، وأفحم عن دَرْكه البلغاء، فإن فصاحتهم وإن طالت ذيولها، وبلاغتهم وإن سالت سيولها، فإنها تتقاصر عن دَرْكِ أوصافه، وبلوغ أدنى أطرافه، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقُّه من التقدير والإعظام، أولى وأحرى لجميع الأنام، وأوفق بما يقتضيه الحال والمقام، وكيف لا، فإنه كلام من لا تدركه الأوهام، ولا تحيط بوصفه الأفهام.

ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: فيما أخرجه الترمذي، وحسَّنه من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه» فإنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أَمَرَ فيه وزَجَرَ، وبشر فيه وأنذر، ذَكَر فيه المواعظ لمن يتذكر، وضرب الأمثال لمن يتدبر، وقص فيه القصص لمن يعتبر، وذكر فيه دلائل التوحيد لمن يتفكر، ثم لم يرض منا بسرد حروفه، بدون حفظ حدوده، ولا بتجويد كلماته،

بدون العمل بمحكماته، ولا بتلاوته بلا تدبر قراءته، ولا بمجرد دراسته، بلا تعلم حقائقه، وتفهم دقائقه، ولا وصول إلى هذه المقاصد منه، إلا بدراية تفسيره وأحكامه، ومعرفة حلاله وحرامه، وتناسق آياته، وأسباب نزوله وأقسامه، والوقوف على ناسخه ومنسوخه، والتطلُّع على خاصه وعامِّه، فإنه أرسخ العلوم أصلاً، وأسبغُها فرعاً وفصلاً، وأكرمها نتاجاً، وأنورها سراجاً، فلا شرف إلا وهو السبيل إليه، ولا خير إلا وهو الدالُّ عليه، وقد قيض الله سبحانه وتعالى له رجالاً موفقين، وبالحق ناطقين، وللبدع قامعين، وللسنن ناشرين، وللتفسير متقنين، حتى صنفوا في سائر علومه المصنفات، وجمعوا شوارد فنونه المتفرقات، كلٌّ على قدر فهمه، ومبلغ علمه فشكر الله تعالى سعيهم، ورحم أسلافهم وأخلافهم، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادةَ مَن أقر بربوبيته، وصمم بوحدانيته، وصدق بكتابه، واقتدى بمحكمه، وآمن بمتشابهه، وقال بما قال الراسخون منا، آمنا به كل من عند ربنا.

وأشهد أن سيدنا محمداً ﷺ عبده ورسوله، وصفيه وخليله. أرسله رحمة للعالمين، ومبيداً للعدا والكافرين، أنزل عليه الكتاب المستبين، والفرقان المبين، نوراً هَدَى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، حكم بالرضوان لمن اتبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه، عجز الخلائق عن معارضته، حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله.

اللهم يا ذا الجود والإنعام، ويا ذا الجلال والإكرام، صلِّ وسلم أفضلَ الصلاة وأزكى السلام، على سيدنا ومولانا محمد مَن أرسلتَه رحمة للأنام، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وأهل بيته السادات الكرام، صلاة وسلاماً أرقى بهما مراقي الإخلاص، وأنال بهما غاية الخلاص، دائمين بدوامك، باقيين ببقائك، عدد ما أحاط به علمك، وجرى به قلمك.

أما بعد: فإن علم التفسير، لما كان أعظمَ العلوم مقداراً، وأرفعَها شرفاً ومناراً، ورئيسَ العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، عالي القصور والبنيان، وسيعَ الرحب والميدان، طالما رغبتُ في الدخول من أبوابه،

متطفلاً للقعود في محرابه، لأكون متشبهاً بالفرسان من أحزابه، وممتصًّا من بقية شرابه، وإن لم أكن من فرسان ميدانه، متمثلاً بما قال الأول:

إنْ لم تكُونوا مثلَهُمْ فتشبَّهوا   إن التشبُّهَ بالكِرام فلاح

ومتسرِّقاً بما قال الآخر:

تطالبني بخدمة القرآن نفسي   وفيها قُرَّتا بصري وسمعي
فقلت لها: التفاسير ليس تحصى   وما رُمْتِيْهِ يقصر عنه وُسعِي

على أنه لا يليق لتعاطيه، والتصدِّي للتكلم فيه، إلا من برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية، بأنواعها وأسْرها، فتردَّدْتُ في ذلك زماناً طويلاً خوفاً من الدخول في قوله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار» وفي رواية: «من قال في القرآن برأيه» أخرجه الترمذي.

وفي قوله ﷺ: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود والترمذي. فلما اشتد عزمي، وغلب سهري على نومي، ناداني منادي القلم، شارباً من مِدَاد الكرم، أما تسمح أيها المَهين، ويا سمي محمد الأمين، بخدمة كتاب ربك المتين، بما عندك من قطرات الفنون، فأجبته بالشروع فيها مشمِّراً عن ساق الجد والاجتهاد، راجياً من الله سبحانه وتعالى المعونة والإمداد، من الفتوحات الإلٰهية، والفيضات الربانية، والمعارف الصمدانية، فتصديت لها بشرحٍ يذكر تناسبه، وينقل أسبابه، ويفك تراكيبه، ويحل معانيه، ويعرِّف مبانيه، ويبيِّن تصاريفه، ويُفصِح بلاغته وفصاحته، ويكشف محاسنه وبداعته، وسميته «حدائق الرَّوح والرَّيحان، في روابي علوم القرآن».

واللّٰهَ الكريم أسأل طَوْلَه وفضله، والتوفيق لما هو المعنى عنده، وأن يجعل في عمري البركة إلى أن أكمِّله، لأنه قد مضى منه معظمه، ونونه وواوه، فلم يبق منه إلا درديُّه وعلله، ويصرف عني العوائق والمعائق إلى أن أتممه، إنه وليُّ التوفيق، والهادي إلى أصوب الطريق.

والمرجو ممن اطلع عليه، وصرف وجهه إليه، أن يصلح خلله، ويزيل زلله، بعد التأمل والإمعان، بقلم الإنصاف والإحسان؛ لأن الإنسان مركز الجهل والنسيان، لا سيما حليف البله والبلاهة والتوان، وأسأل الله الكريم، أن ينفع به النفع العميم، لكل من تلقاه بقلب سليم، وأن يفتح على آخذه، وقاصده، باب فيضه وإمداده، وأن يطمس عنه عين حاسده، ويخرس عنه لسان كائده، إنه هو المولى الرقيب، والرب القريب المجيب، والمنعم الجواد الكريم، والبر الرحمن الرحيم، ولنبدأ قبل الشروع في المقصود، بذكر مبادىء الفن والحدود، ليكون الطالب بها بصيراً، وفيما بصدده خبيراً، وها أنا أستمد من الله التوفيق، والهداية لأقوم الطريق، في كتابة هذا الشرح والتعليق، فأقول وقولي هذا: هذه مقدّمة، رب أكْرِمْني بالنهاية كما وفقتني بالبداية.

والله أعلم

* * *

مقدمة في مبادىء فن التفسير

ينبغي لكل شارع في فن، أن يعرف المبادىء العشرة ليكون على بصيرة فيه، وإلا صار كمَنْ ركب متن عمياء، وخبط خبط ناقة عشواء، وتلك العشرة هي المجموعة في قول بعضهم:

إنَّ مبادىءَ كلِّ فن عَشَرَهْ ... الحدُّ والموضوعُ ثُمَّ الثمرَهْ

وفضلُه ونسبةٌ والواضعُ ... والاسم الاستمداد حكم الشارع

مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكْتَفى ... ومَنْ دَرَىٰ الجميعَ حاز الشرفا

فالآن نشرعُ في فنِّ التفسير فنقول:

١ ـ حدُّه لغة: الكشفُ والبيان، واصطلاحاً: علمٌ يعرف به معاني كلام الله بحَسَب الطاقة البشرية.

٢ ـ وموضوعه: آيات القرآن من حيث فهم معانيها.

٣ ـ وثمرته: أي فائدته: معرفة معاني كلام الله تعالى على الوجه الأكمل.

٤ ـ وفضله: فوقانه على سائر العلوم؛ لأنه أصل العلوم الشرعيَّة.

٥ ـ ونسبته: تباينه لسائر العلوم.

٦ ـ وواضعه: الراسخون في العلم، من عهد النبي ﷺ إلى الآن على التحقيق، كما شهد الله بذلك بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ الآية.

٧ ـ واسمه: علمُ التفسير.

٨ ـ واستمداده: من الكتاب والسنة والآثار وكلام الفصحاء من العرب العرباء.

٩ ـ وحكمه: الوجوب الكفائيُّ.

١٠ ـ ومسائله: قضاياه من حيث الأمر والنهي والموعظة إلى غير ذلك.

١١ ـ وغايته: الفوز بسعادة الدارين، أمَّا في الدنيا: فبٱمتثال الأوامر واجتناب النواهي، وأما في الآخرة: فبالجنة ونعيمها، ولذلك يقال له: «اقرأ وارْقَ» كما في الحديث.

والله أعلم

* * *

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

فصل في مباحث الاستعاذة

في الاستعاذة مباحث:

الأول في لفظها: فالمختار في لفظها عند الجمهور (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لموافقة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال أحمد: الأولى أن يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وقال الثوري والأوزاعي: الأولى أن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنّ الله هو السميع). ويؤيّد قول الجمهور: ما روي[1] عن ابن مسعود أنه قال: قلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي النبي ﷺ: «يا ابن أمّ عبدٍ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح عن القلم».

والثاني في حكمها: وأمّا حكمها: فقد[2] اتفق الجمهور على أنّ الاستعاذة سنّة في الصلاة، فلو تركها لم تبطل صلاته، سواء تركها عمداً أو سهواً، ويستحبّ لقارىء القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضاً. وفي «القرطبي»: وحكى النقاش، عن عطاء: أنّ الاستعاذة واجبة في صدر كلّ قراءة في الصلاة وغيرها، واختلفوا في الاستعاذة في الصلاة، وكان ابن سيرين والنخَعِيّ وقوم يتعوّذون في الصلاة في كلّ ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعيّ يتعوذّان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة

---

(١) الخازن.

(٢) القرطبي.

واحدة، ومالك لا يرى التعوّذ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان بعد القراءة. انتهى. وفي «الخازن» دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، والأمر للوجوب، وأنّ النبي ﷺ واظب على التعوذ فيكون واجباً. ودليل الجمهور: أنّ النبي ﷺ لم يعلّم الأعرابيّ الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة، وتأخير البيان عن وقته غير جائز. وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ بأنّ معناه عند جماهير العلماء: إذا أردت القراءة فاستعذ، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾ معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وأجابوا أيضاً، عن مواظبة النبي ﷺ: بأنّه ﷺ واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة، كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات في الصلاة، فكان التعوّذ مِثْلها، وأجمع العلماء قاطبة على أنّ التعوذ ليس من القرآن ولا آيةً منه.

والثالث في وقتها: وأمّا وقتها: فهو قبل القراءة عند الجمهور، سواء كان في الصلاة أو خارجها. وحكي عن النخعيّ: أنّه بعد القراءة؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا فرغت من قراءة القرآن فاستعذ بالله، وهو قول داود وإحدى الروايتين عن ابن سيرين. حجة[1] الجمهور: ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبّر ثمّ يقول: «سبحانك اللهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إلٰه غيرك»، ثمّ يقول: «لا إلٰه إلاّ الله ثلاثاً»، ثمّ يقول: «الله أكبر كبيراً ثلاثاً، أعوذ بالله السميع العليم؟ من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». هَمْزُهُ: وسوسته. نفخه: كِبْرُهُ. نفثه: شعره. رواه أبو داود. وهذا الحديث: نصٌّ في أنَّ التعوذ قبل القراءة.

والرابع في معناها: وأما معناها: فالاستعاذة لغَةً: الالتجاء إلى الغير والاعتصام به، وشرعاً: الالتجاء إلى الله والالتصاق بجانبه من شرّ كل ذي شرّ، انتهى من «الخازن» و«ابن كثير» بتصرف. وقال ابن كثير: ومعنى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي: أستجير[2] بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرّني في

---

(١) الخازن.

(٢) ابن كثير.

ديني أو دنياي أو يصدّني عن فعل ما أُمِرت به أو يحثّني على فعل ما نُهِيت عنه، فإنّ الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلاّ الله تعالى، انتهى منه. ومعنى: (أعوذ بالله) ألتجىء إليه، وأمتنع به مما أخشاه، أو أستجير، أو أستغيث، من شرّ الشيطان، أي: من ضرر الشخص المبعد من رحمة الله، (الرجيم) أي: المطرود الملعون عند الله والملائكة والناس أجمعين. وإنما[1] لم يقيّد المستعاذ منه بشيء من قبائحه ومضارّه، كالهمز، واللمز، واللمس، والوسوسة، والنزعة، وغيرها؛ لتذهب الهمّة كلّ مذهب ليستعاذ من شرّه عموماً.

والخامس في إعرابها: وأما إعراب هذه الجملة فتقول فيه: (أعوذ): فعل مضارع مرفوع بالضمّة الظاهرة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لإسناده إلى المتكلم، تقديره: أنا، يعود على المستجير، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً نحويّاً، لا محلّ لها من الإعراب. (بالله): جار ومجرور، متعلّق بأعوذ، (من الشيطان): جار ومجرور، متعلّق بأعوذ أيضاً، وجوّز ذلك: اختلاف لفظهما ومعناهما، (الرجيم): صفةُ ذمٍّ للشيطان، مجرور بالكسرة الظاهرة.

والسادس في مفرداتها وتصاريفها: وأمّا مفرداتها وتصاريفها فتقول في بيانهما: الاستعاذة مصدر قياسيّ لاَسْتَعْوَذَ، معناه: الالتجاء والاعتصام، كما مرّ آنفاً. يقال: استعاذ يستعيذ استعاذة إذا تحصّن بشيء من شيء. وأصل الاستعاذة استعواذ، نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فقلبت الواو ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن، فالتقى ساكنان، وهما: ألف عين الكلمة وألف الاستفعال فحذفت ألف الاستفعال لالتقاء الساكنين، وعوضوا عنها التاء فصار استعاذة بوزن استفعالة، وهو أجوف واويّ؛ لأنّه من عاذ، يعُوذُ، عَوذاً، كقال: يقول، قولاً. والعَوْذُ[2] والعِياذ: مصدران كاللَّوْذ واللِّياذ والصوم والصيام. وقول القائل: (أعوذ): إخبار عن فعله، وهو في التقدير سؤالُ الله عزّ وجلّ من فضله،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفي العدول إلى لفظ الخبر فائدةُ التفاؤل بالوقوع، كأنّه وقع الإعاذةُ فيُخبر عن مطاوِعِهِ. (بالله): مذهب أهل الحقائق في لفظ الجلالة عدم الاشتقاق؛ لأنه لا سبيل إلى كُنْهِ معرفته، ولذا قال السعد التفتازاني في حواشي الكشاف: اعلم أنّه كما تحيَّرت الأوهامُ في ذاته وصفاته، فكذا في اللفظ الدالّ عليه من أنّه اسمٌ أو صفةٌ، مشتقٌّ أو غير مشتقّ، عَلَمٌ أو غير عَلَم، إلى غير ذلك، وسيأتي بسط الكلام فيه في مبحث البسملة إن شاء الله تعالى. (من الشيطان) أي: [1] المُبْعَدِ من رحمة الله تعالى، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا عصَى لُعن وصار شيطاناً، فدلَّ على أنّه؛ إنّما سمّي بهذا الاسم، بعد لعن الله له. وأمَّا قبله فاسمه: عَزازيل أو نائِلٌ. والشيطان: من شَطَن إذا تباعد من الرحمة، وقيل: من شاط يشيط، إذا هلك واحترق غضباً، وهو اسم لكلِّ عاتٍ متمردٍ من الجنّ والإنس.

وعبارةُ «القرطبي» هنا[2]: الشياطين واحد الشيطان: على التكسير، والنون أَصْلِيَّةٌ؛ لأنّه من شَطَن إذا بَعُد عن الخير، وشَطَنَتْ داره أي: بعدت. قال الشاعر:

نَـأَتْ بِـسُـعَـادَ عَـنْـكَ نَـوًى شَـطُـونُ ... فَـبَـانَـتْ وَالْـفُـؤَادُ بِـهَـا رَهِـيْـنُ

وبئر شطون أي: بعيدة القَعْر، والشطن: الحبل، سمّي به لبعد طرفيه وامتداده، وسمّي الشيطان شيطاناً: لبعده عن الحقّ وتمردّه، وذلك أنّ كلّ عات متمرد من الجنّ والإنس والدّواب شيطان. قال جرير:

أَيَّـامَ يَـدْعُـوْنَـنِـي الـشَّـيْـطَـانُ فـي غَـزَلِ ... وَهُـنَّ يَـهْـوَيْـنَـنِـي إِذْ كُـنْـتُ شَـيْـطَـانَـا

وقيل: الشيطان مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل، فالنونُ زائدة، وشاط إذا احترق، وشَيَّطْتَ اللحمَ إذا دَخَنْتَه، ولم تُنْضِجْه، واشتاط الرجل إذا ٱحتَدَّ غضباً،

---

(١) روح البيان.

(٢) القرطبي.

وناقةٌ مِشْيَاط الَّتِي يَطِير فيها السمنُ، واشْتاطَ إذا هلك. قال الأعشى:

قَدْ نَخْضِبُ العَيْرَ من مَكْنُونِ فَائِلِهِ   وَقَدْ يَشِيط على أرماحِنَا البَطَلُ

أي: يهلك. ويُرَدُّ على صاحب هذا القول: أنَّ سيبويه حكى أنَّ العرب تقول: تَشَيْطَنَ فلانٌ إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيِّنٌ أنّه تَفَيْعَل مِنْ شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشَيَّط، ويَرُدُّ عليه أيضاً بَيْتُ أُمية بن أبي الصلت:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ   وَرَمَاهُ في السِّجْنِ وَالأَغْلاَلِ

فهذا شاطِنٌ مِنْ شَطَن لا شكَّ. والظاهرُ: أنَّ المرادَ بالشيطان إبليس وأعوانُه، وقيل: عام في كلّ متمردٍ عاتٍ مضلٍّ عن الجادّةِ المُستقيمةِ من جنّ وإنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

(الرجيم)؛ أي[1]: المَرمِيّ من السموات بإلقاءِ الملائكة حينَ لُعِنَ. أي: المَرْمِيّ بشُهب السماءِ إذا قصدها، وهذه صفةُ للشيطان، وله في القرآن أسماءٌ مشؤومة وصفاتٌ مذمومة، فأجْمَعُ مساويه هو الرجيمُ؛ لأنه جامع لجميعِ ما يَقعَ عليه من العقوباتِ، فلذلك خُصَّ به الابتداءُ من بين تلك الأسماءِ والصفاتِ.

وفي القرطبي: (الرجيمُ) أي: المُبْعد[2] من الخير، المُهان، وأصل الرجم: الرمي بالحجارة، وقد رجمْتُه أرجمه فهو رجيم ومرجوم، والرَّجْمُ: القَتْلُ واللَّعنُ والطردُ والشتمُ، وقد قِيل: هذا كُلُّه في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ وقول أبي إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾. وسيأتي إن شاء الله تعالى، انتهى. وعلى ما قاله القرطبي: يكون الرجيمُ صفةً كاشفة للشيطان، ويحتمل كونهُ مُؤسِّسة، وعلى كلّ من هذه المعاني: فالرجيمُ فَعِيلٌ إما بمعنى: فاعل؛ لأنّه يَرْجُم بالوسوسة والشرِّ، أو بمعنى: مفعول أي: مرجوم بمعنى: مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى، أو مرجوم بالشُّهبِ عند استراقِ السمع أو مرجوم بالعذاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) القرطبي.

والسابع في بلاغتِها: ومن بلاغتها: العُدُولُ[1] مِن صيغة الإنشاء الذي هو المقصود من الكلام إلى صيغة الإخبار؛ لفائدة التفاؤل بالوقوع، كأنّه وقع الإعاذة، فيُخْبِر عن مطاوِعِهِ؛ لأنّ مقتضَى ظاهِر السؤال أن يقال: أَعِذْني يا ربّ من الشيطان الرجيم.

ومنها: الالتفات من الخطاب بقوله: أعوذ بك، إلى الغَيبة بقوله: أعوذ بالله؛ لأنّ اسمَ الظاهر من قبيل الغَيبة؛ لغرض التبرُّكِ والتَّلذُّذِ بلفظِ الجلالة، ومنها: الإتيان بالصفة الكاشفة في قوله: (الرجيم)؛ لتأكيد معنى الموصوف.

والثامن في بيان لطيفة هذه الجملة: ومِنْ[2] لطائف الاستعاذة أنَّ قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) إقرارٌ من العبد بالعجز والضعف، واعترافٌ من العبد بقدرة الباريء عزَّ وجلَّ، وأنّه هو الغنيُّ القادرُ على دفعِ جميع المضرّات والآفات، واعترافٌ من العبد أيضاً، بأنَّ الشيطان عدوّ مبين، ففي الاستعاذة: التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغَوِيِّ الفاجر، وأنه لا يَقْدِر على دفعِهِ عن العبد إلاّ الله تعالى. والله أعلم.

فائدتان:

الأولى: فإن قلت: ما الحكمةُ في الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، حيث قال تعالى في سورة النحل ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؟.

قلت: الحكمة في الاستعاذة عندها الاستئذان، وقَرْعُ الباب؛ لأنّ من أتى باب ملك من الملوك لا يدخل إلا بإذنه، كذلك من أراد قراءة القرآن؛ إنّما يريد الدخول في المناجاة مع الحبيب، فيحتاج إلى طهارةِ اللسان؛ لأنّه قد تنجَّس بفضول الكلام والبهتان، فيطهِّره بالتعوذّ.

---

(١) روح البيان بتصرف.

(٢) الخازن.

الثانيةُ: في بيان حقيقة الشيطان، قال في[1] روضة الأخيار: الشياطينُ: ذكور وإناث، يتوالدون ولا يموتون إلى النفخة الأولى، والجنّ: ذكور وإناث يتوالدون ويموتون، والملائكة: ليسوا بذكور ولا إناث، لا يموتون ولا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون، فثبت بهذا أنّ للشيطان، والجنّ حقيقةً ووجوداً، ولم يُنكِر وجود الجن إلاّ شرذمة قليلة من جُهَّال الفلاسفة والأطبّاء ونحوهم.

حكي[2]: أنَّ الإمام الغزاليّ مُحْيِيْ السنة كان مفتي الثقلين، فسألهم يوماً عن الحوادث، قالوا: إنّ الزمخشري صنّف كتاباً في التفسير وبلغ إلى النصف، فطلب منهم أن يأتوا به، فأتوه، فكتب جميع ما ألفه، ثمّ وضعُوا النسخة في مكانها، فلمَّا جاء الزمخشري إليه أراه إيّاه، فتعجَّب الزمخشري وتحيَّر وقال: إن قلْتُ: هو لي وأنا خبَّأْتُهُ وما اطَّلع عليه أحد غيري، فمن أين جاء هذا؟ وإن هو لغيري؛ فالتوارد في اللفظ والمعنى والوضع والترتيب في هذا القدر من الكتاب لا يقبله العقل، قال الإمام الغزالي: هو لك، وقد وصل إلينا من أيدي الجنّ، وكان الزمخشري ينكر الجن فاعترف في مجلسه.

ولا يلزم من هذا عِلْم الجنّ بالغيب كما لا يخفى، قال تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. ثُمَّ حقيقتهم عند من لم يقل بالمجردات: أجسامٌ هوائية، وقيل: نارية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، كصور الحيّات والعقارب والكلاب والإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والطير وبني آدم، لها عقول وأفهام تُقْدِمُ على الأعمال الشاقّة، كما كانوا يعملون لسليمان عليه السلام المحاريب والتماثيل والجفان والقدور. وعند من قال بالمجرّدات: فهم قسم من الملائكة، والمجرّدات: الموجودات الغير المتحيّزة، ولا الحالّة في المتحيز، والمراد بالشيطان هنا: إبليس وأعوانه كما مرّ.

ومما يدّل على تشكُّلها[3]: ما روى الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) القرطبي.

قال، قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: رأيت النبي ﷺ عند الصفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل، وهو يلعنه، قلت: ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال: «هذا الشيطان الرجيم»، فقلت: يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأُرِيْحَنَّ الأمّةَ منك، قال: ما هذا جزائي منك، قلت: وما جزاؤك منّي يا عدوّ الله؟ قال: والله ما أبغضك أحدٌ قطّ، إلاّ شَرَكْتُ أباه في رحمِ أمّه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[1] قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد، فإذا هو بإبليس، فقال له النبي ﷺ: «ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي؟» قال: يا محمد، جاء بي الله، قال: «فلم ذا؟» قال: لتسألني عمّا شئت، فقال ابن عباس: فكان أوّل شيء سأله النبي ﷺ الصلاة، فقال له: «يا ملعون، لِمَ تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟» قال: يا محمد، إذا خرجَتْ أمّتك إلى الصلاة، تأخذني الحمَّىٰ الحارّة، فلا تندفع حتى يتفرّقوا،» وقال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمّتي عن العلم والدعاء؟» قال: عند دعائهم يأخذني الصمم والعمَىٰ، فلا يندفع حتى يتفرّقوا، وقال عليه السلام: «لِمَ تمنع أمّتي عن القرآن»؟ قال: عند قراءتهم أذوب كالرصاص، قال: «لِمَ تمنع أمتي عن الجهاد»؟ قال: إذا خرجوا إلى الجهاد يوضع على قدمي قيد حتى يرجعوا، وإذا خرجوا إلى الحج أُسَلْسَلُ وأُغْلَلُ حتى يرجعوا، وإذا همّوا بالصدقة توضع على رأسي المناشير فتنشرني كما يُنشر الخَشب.

وقال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: ـ (الفرق بين صلاتنا وصلاة أهل الكتاب: وسوسةُ الشيطان؛ لأنّه فرغ من عمل الكفار، لأنّهم وافقوه والمؤمنون يخالفونه ويحاربونه، والمحاربة تكون مع المخالفة). وقال الحسن: من استعاذ بالله على وجه الحقيقة وهو ما يكون بحضور القلب، جعل الله بينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب، كلّ حجاب كما بين السماء والأرض.

وفي «التفسير الكبير» للإمام الرازي: أنَّ (أعوذ بالله): رجوع من الخلق إلى

---

(١) روح البيان.

الخالق، ومن الحاجة التَّامَّةِ لنفسه، إلى الغنىٰ التام بالحق في تحصيل كلّ الخيرات ودفع كلّ الآفات، ففيه سرّ قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وفيه دلالة: على أن لا وسيلةَ إلى القرب من حضرة الربّ إلاّ بالعجز. والعجز منتهى المقامات، انتهى.

فائدة: وفي الأثر: وأوّلُ ما نزل به جبريل عليه السلام، على النبي ﷺ الاستعاذة، ثمّ البسملة، ثمّ قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات، هكذا ذكره صاحب «روح البيان».

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ولمّا فرغنا من مباحث الاستعاذة شرعنا في مباحث البسملة، وقلنا:

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾.

وحكمة تأخيرها عن الاستعاذة[1]: الإشعار بأنّ باب التحلية (بالمهملة)، مؤخرّ عن باب التخلية (بالمعجمة)، وبأنّ الإقبال على الله سبحانه، والتوجه إليه، مؤخر عن الإعراض عمّا سوى الله تعالى، والأصحّ المقبول عند متأخري الحنفية: أنّ البسملة آية فذّة ليست جُزْءاً من السورة، أنزلت للفصل بين السور والتبَرُّك بالابتداء بها، كما بُدِىء بذكرها في كلّ أمر ذي بال، وهي: مفتاح القرآن، وأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، وأول ما نزل على آدم عليه السلام.

وحكمة الابتداء بها[2]: أنّه كانت الكفّار يبدؤون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات والعزّى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل، فلذلك قدّر المحذوف متأخراً؛ أي: باسم الله أقرأ، أو أتلو، أو آكل، أو أشرب، أو غير ذلك مما جعلت التسمية مبدأ له.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

فصل

وفي البسملة أبحاث:

الأول منها: في اختلاف العلماء في كون البسملة من (الفاتحة)، وغيرها، سوى (سورة براءة). فذهب أبو هريرة[1]، وعليّ، وابن عباس، وابن عمر، وبعض التابعين، كسعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وابن المبارك، وبعض فقهاء مكة، وقرّائها، ومنهم: ابن كثير، وبعض قرّاء الكوفة، وفقهائها، ومنهم: عاصم، والكسائي، والشافعيّ، وأحمد، إلى أنّ البسملة آية من كلّ سورة من سور القرآن الكريم، ومن أدلّتهم على ذلك:

ـ إجماع الصحابة ومَن بعدهم، على إثباتها في المصحف أوّل كل سورة عدا (سورة براءة)، مع الأمر بتجريد القرآن عن كلّ ما ليس منه، ومن ثمّ لم يكتبوا (آمين) في آخر (الفاتحة).

ـ وما ورد في ذلك من الأحاديث، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذا أغفىٰ إغفاءةً، ثمّ رفع رأسه متبسّماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة»، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، وذكر الحديث، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى. وروى أبو داود عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان لا يعرف إنقْضَاءَ السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. وروى الدارقطنيّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا قرأتم «الحمد لله» فاقرؤوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فإنها أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها».

ـ وإجماع المسلمين على أنّ ما بين الدفّتين كلام الله تعالى، والبسملة

---

(١) المراغي.

بينهما، فوجب جعلها منه.

ـ وقول أمّ سلمة رضي الله عنها: (قرأ رسول الله ﷺ (الفاتحة)، وعدّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آية)، ومن أجل قولها اختلف في أنها آية برأسها، أم بما بعدها. وذهب مالك وغيره من علماء المدينة، والأوزاعي، وجماعة من علماء الشام، وأبو عمرو، ويعقوب من قرّاء البصرة ـ وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة ـ إلى أنّها آية مفردة من القرآن، أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها، فليست بآية من (الفاتحة) ولا من غيرها، ولم يختلفوا في أنها بعض آية في (سورة النمل). وذهب عبد الله بن مسعود أنها ليست من القرآن أصلاً، وهو رأي بعض الحنفية، ومن أدلّتهم على ذلك: حديث أنس رضي الله عنه، قال: صلّيت خلف رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وكانوا يستفتحون بالحمد لله ربّ العالمين، لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في أوّل قراءة، ولا في آخرها.

وعبارة الشوكاني هنا: اختلف أهل العلم، هل هي آية مستقلة في أول كلّ سورة كتبت في أولها؟ أو هي بعض آية من أول كلّ سورة، أو هي كذلك في (الفاتحة) دون غيرها، أو أنّها ليست بآية في الجميع، وإنّما كتبت للفصل، والأقوال وأدلّتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك.

وقد اتفقوا على أنّها بعض آية في (سورة النمل)، وقد جزم قرّاء مكة والكوفة بأنها آية من (الفاتحة)، ومن كلّ سورة، وخالفهم قرّاء المدينة، والبصرة، والشام، فلم يجعلوها آية لا من (الفاتحة)، ولا من غيرها من السور. قالوا: وإنّما كتبت للفصل، والتبرّك. وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وأخرجه الحاكم في المستدرك. وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أمّ سلمة: (أنّ رسول الله، قرأ البسملة في أول (الفاتحة) في الصلاة وغيرها آية)، وفي إسناده عمرو بن هارون البلخيّ، وفيه ضعف. وروى نحوه الدارقطنّي مرفوعاً عن أبي هريرة.

وكما وقع الخلاف في إثباتها، وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة، وقد أخرج النسائي في «سننه»، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم في «المستدرك»، عن أبي هريرة: (أنّه صلّى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إنّي لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ)، وصحّحه الدارقطني، والخطيب، والبيهقي، وغيرهم.

وروى أبو داود، والترمذي، عن ابن عباس: (أنّ رسول الله ﷺ، كان يفتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم)، قال الترمذي: وليس إسناده بذاك، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك، عن ابن عباس بلفظ، كان رسول الله ﷺ، يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح.

وأخرج البخاريّ في صحيحه، عن أنس، أنّه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: (كانت قراءته مدّاً، ثمّ قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمدّ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويمدّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخرج أحمد في «المسند»، وأبو داود في «السنن»، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» عن أمّ سلمة أنّها قالت: (كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وقال الدارقطني: إسناده صحيح. واحتجّ من قال: بأنّه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، بما في «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ، يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين).

وفي «الصحيحين»، عن أنس قال: (صليت خلف رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله ربّ العالمين)، ولمسلم لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوّل قراءة، ولا في آخرها. وأخرج أهل السنن نحوه، عن عبد الله بن مغفّل، وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة، وجماعة من الصحابة.

وأحاديث الترك وإن كانت أصحّ، ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من

مخرج صحيح، فالأخذ به أولى، ولا سيّما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي، أعني: كونها قرآناً، والوصفي أعني: الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة. انتهى من الشوكاني.

والبحث الثاني في فضلها:

وورد في فضلها أحاديث.

منها: ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وابن خزيمة في كتاب البسملة، والبيهقي، عن ابن عباس قال: (استرق الشيطان من الناس، أعظم آية من القرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾).

وأخرج نحوه أبو عبيد، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً. وأخرج الدارقطني بسند ضعيف، عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «كان جبريل إذا جاءني بالوحي، أوّل ما يُلقي عليّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

وأخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرك»، وصحّحه، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن ابن عباس أنّ عثمان بن عفّان، سأل النبي ﷺ، عن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؟ فقال: «هو اسم من أسماء الله تعالى، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلاّ كما بين سواد العين وبياضها من القرب».

ومنها: ما أخرجه ابن مردويه، والثعلبيّ، عن جابر قال: (لـمّا نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الريح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورُجِمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزّته، وجلاله أن لا تسمّى على شيء، إلاّ بارك الله فيه).

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم، والديلمي، عن عائشة قالت: لـمّا نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ضجّت الجبال، حتى سمع أهل مكة دويّها، فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دخاناً، حتى أظلّ على أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ موقناً، سبّحت معه الجبال، إلاّ أنّه لا يسمع ذلك منها».

ومنها: ما أخرجه الديلميّ، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كتب الله له بكلّ حرف أربعة آلاف حسنة، ومحا عنه أربعة آلاف سيئة، ورفع له أربعة آلاف درجة».

ومنها: ما أخرجه الخطيب في الجامع، عن أبي جعفر، محمد بن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مفتاح كلّ كتاب. اهـ. من «الشوكاني».

ومنها: ما أخرجه ابن العربي بسنده، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: بالله العظيم، لقد حدّثني محمد المصطفى، وقال: «بالله العظيم، لقد حدّثني جبريل»، وقال: بالله العظيم، لقد حدّثني إسرافيل، وقال: قال الله تعالى: يا إسرافيل! بعزّتي، وجلالي، وجودي، وكرمي، من قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، متصلة بفاتحة الكتاب مرّة واحدة؛ فاشهدوا أنّي غفرت له، وقبلت منه الحسنات، وتجاوزت عنه السيئات، ولا أحرق لسانه في النار، وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار والفزع الأكبر، ويلقاني قبل الأنبياء، والأولياء أجمعين. اهـ. من المناوي على «الجامع الصغير».

وهذه الأحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها، والكلام عليها، بما يتبيّن به حكمها بعد البحث عنها إن شاء الله تعالى. وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع.

منها: عند الوضوء، وعند الذبح، وعند الأكل، والشرب، وعند الجماع، وغير ذلك.

وهذا كلّه مما يدلّ على فضلها، ومما ورد في فضلها أيضاً.

حديث: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إجْلالاً له ولاسمه عن أن يُدَنَّس، كان عند الله من الصديقين، وخفّف عن والديه وإن كانا مشركين».

ومما ورد في فضلها:

ما روي عن ابن مسعود قال: (من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر؛ فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ ليجعل الله له بكلّ حرف منها جُنَّةً من كلّ واحد منهم، فالبسملة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار، الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، وهم يقولون في كلّ أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾... إلخ. فمن هنالك قوتهم.

والبحث الثالث في تفسيرها ومعناها:

والأحسن أن يقدر متعلّق الباء هنا (قولوا): لأنّ هذا المقام مقام تعليم، وهذا كلام صادر عن حضرة الربّ تعالى. اهـ. «جمل». وقال الطبري: إنّ الله سبحانه وتعالى، أدّب نبيه محمداً ﷺ، بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّة يستنّون بها، وسبيلاً يتّبعونه عليها. اهـ.

فمعنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ أي: اقرأ يا محمد أنت وأمّتك كتابي، حالة كونكم متبركين باسم الله الواجب الوجود، المستحقّ لجميع المحامد. ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بجلائل النعم، كنعمتي الإيجاد والإيمان. ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده بدقائقها، كالزيادة في الجمال، والعلم، وقوّة السمع، وحدّة البصر. وقال البيضاوي: والرحمن الرحيم: اسمان بُنيا للمبالغة، كالغضبان من غضب، والعليم من علم. والرحمة في اللغة: رِقَّة القلب، وانعطاف يقتضي التفضّل والإحسان، ومنه: الرحم لانعطافها على ما فيه.

والحكمة في تخصيص التسمية بهذه الأسماء الثلاثة؛ ليعلم العارف أنّ المستحق لأن يستعان به في جميع الأمور، هو المعبود الحقيقي الذي هو مُولي النعم كلها عاجلها، وآجلها، جليلها، وحقيرها، فيتوجه بشراشره إلى جناب القدس، ويتمسّك بحبل التوفيق، ويشغل سرّه بذكره والاستغناء به عن غيره. اهـ. منه.

والبحث الرابع في حكم الجهر بها والإسرار:

إذا ثبت بما تقدم من الأدلّة؛ أنّ البسملة آية من (الفاتحة)، ومن غيرها من

السور، حيث كتبت، كان حكمها في الجهر، والإسرار حكم (الفاتحة)، فيجهر بها مع (الفاتحة) في الصلاة الجهريّة، ويسرّ بها مع الفاتحة في الصلاة السريّة. وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة: أبو هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، ومن التابعين فمَن بعدهم: سعيد بن جبير، وأبو قلابة، والزهري، وعكرمة، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعليّ بن الحسين، وسالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، وابن سيرين، وابن المنكدر، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، ومكحول، وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، ومسلم بن خالد، وإليه ذهب الشافعي، وهو أحد قولي ابن وهب صاحب مالك، ويحكى أيضاً عن ابن المبارك، وأبي ثور. وممن ذهب إلى الإسرار بها من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، وابن مغفّل، وغيرهم، ومن التابعين فمن بعدهم: الحسن، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأعمش، والثوري، وإليه ذهب مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وغيرهم.

وأما حجة من قال بالجهر: فقد روى جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة، وابن عباس، وأنس، وعلي بن أبي طالب، وسمرة بن جندب، وأمّ سلمة أنّ النبي ﷺ، جهر بالبسملة، فمنهم من صرّح بذلك، ومنهم من فُهِم ذلك من عبارته.

ولم يرد في صريح الإسرار بها، عن النبي ﷺ إلاّ روايتان:

إحداهما: ضعيفة، وهي رواية عبد الله بن مغفّل.

والأخرى: عن أنس، وهي في «الصحيح»، وهي معلّلة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها.

وروى نعيم بن عبد الله المجمرُ قال: صلّيت وراء أبي هريرة فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ثمّ قرأ بأمّ القرآن، وذكر الحديث. وفيه ثم يقول إذا سلّم: (إنّي لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ)، أخرجه النسائي، وابن خزيمة في صحيحه. وقال: أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، فقد ثبت وصحّ عن النبي ﷺ.

وروى الدارقطني بسنده، عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ: (كان إذا قرأ وهو يؤمّ الناس، افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم)، وذكر الحديث. قال الدارقطني: إسناده كلّهم ثقات. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان النبي ﷺ، يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني، وقال: ليس في رواته مجروح.

وأخرجه الحاكم، أبو عبد الله، وقال: إسناده صحيح، وليس له علّة. وفي رواية عن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ، يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني، وقال: صحيح ليس في إسناده مجروح. وأخرجه الترمذي وقال: ليس إسناده بذاك. قال الشيخ أبو شامة؛ أي: لا يماثل إسناده ما في الصحيح، ولكن إذا انضمّ إلى ما تقدم من الأدلة، رجح على ما في الصحيح.

وعن أنس قال: (كان رسول الله ﷺ، يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم)، أخرجه الدارقطني وقال: إسناده صحيح. وفيه عن محمد بن أبي السريّ العسقلاني قال: صلّيت خلف المعتمر بن سليمان، ما لا أحصي صلاة الصبح، وصلاة المغرب، فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قبل فاتحة الكتاب، وبعدها، وسمعت المعتمر يقول: ما ألوي أن أقتدي، بصلاة أنس بن مالك، وقال أنس بن مالك: (ما ألوي أن أقتدي، بصلاة رسول الله ﷺ)، أخرجه الدارقطني وقال: كلهم ثقات. وأخرجه الحاكم، أبو عبد الله، وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم كلّهم ثقات.

قلت: وفي الباب أحاديث وأدلّة وإيرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها، وفي هذا القدر كفاية، وبالله التوفيق. اهـ. من «الخازن».

البحث الخامس في مفرداتها، وتصاريفها:

فمنه البحث في الباء: فإن قلتَ[1]: ما الحكمة والسر في أنّ الله تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء، واختارها على سائر الحروف لا سيّما على

---

(١) روح البيان.

الألف، فإنّه أسقط الألف من الاسم وأثبت مكانه الباء في ﴿بِسْمِ﴾؟.

فالجواب: إنّ الحكمة في افتتاح الله بالباء عشرة معان:

أحدها: أنّ في الألف ترفّعاً وتكبّراً وتطاولاً، وفي الباء انكساراً وتواضعاً وتساقطاً، فمن تواضع لله رفعه الله.

وثانيها: أنّ الباء مخصوصة بالإلصاق بخلاف أكثر الحروف خصوصاً الألف من حروف القطع.

وثالثها: أنّ الباء مكسورة أبداً، فلمّا كانت فيها كسرة، وانكسار في الصورة، والمعنى: وجدت شرف العندية من الله تعالى، كما قال تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي).

ورابعها: أنّ في الباء تساقطاً وتكسّراً في الظاهر، ولكن رفعةُ درجةٍ، وعلوُّ همة في الحقيقة، وهي من صفات الصدّيقين، وفي الألف ضدّها. أمّا رفعةُ دَرَجتِهَا: فبأنّها أعطيت نقطة، وليست للألف هذه الدرجة. وأمّا علوّ الهمة: فإنه لمّا عرضت عليها النقط ما قبلت إلاّ واحدة؛ ليكون حالها كحال محبّ لا يقبل إلاّ محبوباً واحداً.

وخامسها: أنّ في الباء صدقاً في طلب قربة الحق؛ لأنها لما وجدت درجة حصول النقطة وضعتها تحت قدمها، وما تفاخرت بها، ولا يُناقضه الجيمُ، والياءُ؛ لأنّ نقطتها في وَضْعِ الحروف ليست تحتهما؛ بل في وسطهما، وإنّما موضع النقط تحتهما عند اتصالهما بحرف آخر؛ لئلا يشتبها بالخاءِ، والتاء، بخلاف الباء؛ فإنّ نقطتها موضوعة تحتها سواء كانت مفردة، أو متصلة بحرف آخر.

سادسها: أنّ الألف حرف علّة بخلاف الباء.

وسابعها: أنّ الباء حرف تامّ متبوع في المعنى، وإن كان تابعاً صورة، من حيث إنّ موضعه بعد الألف في وضع الحروف؛ وذلك لأنّ الألف في لفظ الباء يتبعه بخلاف لفظ الألف، فإنّ الباء لا يتبعه، والمتبوع في المعنى أقوى.

وثامنها: أنّ الباء حرف عامل ومتصرف في غيره، فظهر لها من هذا الوجه قدر وقدرة، فصلحت للابتداء بخلاف الألف؛ فإنّه ليس بعامل.

وتاسعها: أنّ الباء حرف كامل في صفات نفسه؛ بأنّه للإلصاق والاستعانة والإضافة، مكمّل لغيره؛ بأن يخفض الاسم التابع له، ويجعله مكسوراً متصفاً بصفات نفسه، وله علوّ وقدرة في تكميل الغير بالتوحيد والإرشاد، كما أشار إليه عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: (أنا النقطة تحت الباء). فالباء له مرتبة الإرشاد والدلالة على التوحيد.

وعاشرها: أنّ الباء حرف شفوي، تنفتح الشفة به ما لا تنفتح بغيره من الحروف الشفوية؛ ولذلك كان أول انفتاح فم الذرة الإنسانية، في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ بالباء في جواب ﴿بَلَىٰ﴾، فلمّا كان الباء أول حرف نطق به الإنسان، وفتح به فمه، وكان مخصوصاً بهذه المعاني، اقتضت الحكمة الإلٰهيّة اختياره من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها، وأظهر برهانها، وجعلها مفتاح كتابه ومبتدأ لكلامه وخطابه تعالى وتقدس، كذا في التأويلات النجمية.

وأما الباء: فلا بحث فيها من جهة التصريف، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

حَرفٌ وشِبْهُهُ مِنَ الصَّرْفِ بَرِي وَمَا سِوَاهُمَا بِتَصْرِيفٍ حَرِي

(اسم): اختلف علماء اللغة في اشتقاق الاسم، فذهب البصريون إلى أنّه من السمّو، وهو العلوّ؛ لأنه من سما يسمو سمواً. وذهب الكوفيّون[1] إلى أنّه مشتق من السمة؛ لأنه من وسم يسم، وسما، وسمة، وهي العلامة؛ لأنه علامة على مسماه، وكلاهما صحيح من جهة المعنى. وفيه خمس لغات: اسم بكسر الهمزة، واسم بضمّها بوزن أفع، والذاهب من الواو لام الكلمة؛ لأنه من سموت، وجمعه: أسماء، وتصغيره: سُمَيٌّ. قال الجوهري: وأسماء يكون جمعاً

---

(١) القرطبي.

لهذا الوزن، وهو مثل: جذع، وأجذاع، وقفل، وأقفال. وسم بكسر السين، وسم بضمّها، وسُمَى بوزن هُدًى.

والاسم: هو واحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة توصّلاً للابتداء بالساكن؛ لسلامة لغتهم من كلِّ لُكْنَةٍ، وإذا وقعت في دَرْج الكلام لم تفتقر إلى شيء.

وذهب أبو عبيدة، معمر بن المثنى؛ إلى أنّ لفظ (اسم) هنا صلة زائدة، واستشهدوا بقول لبيد:

إلى الحولِ ثُمَّ اسمُ السلامِ عليكما   وَمَنْ يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذَرْ

فذَكَر اسمَ زيادةً؛ وإنّما أراد ثمّ السلام عليكما. واختلفوا في معنى زيادة (اسم) هنا، فقال قطرب: زيدت؛ لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه. وقال الأخفش: زيدت؛ ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرّك؛ لأنّ أصل الكلام: بالله.

واختلفوا أيضاً في معنى دخول الباء عليه: هل دخلت على معنى الأمر، والتقدير: ابدَأُ بسم الله؟ أو معنى الخبر، والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان: الأول للفرَّاء، والثاني للزّجّاج؛ فبسم في موضع نصب على التأويلين. وقيل: المعنى ابتدائي بسم الله؛ فبسم في موضع رفع خبر الابتداء. وقيل: الخبر محذوف؛ أي: ابتدائي مستقر، أو ثابت بسم الله، وإذا قلت: بسم الله يُكتَب بغير ألف، استغناء عنها بباء الإلصاق في الخطِّ واللفظ؛ لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فإنّها لم تحذف؛ لقلّة الاستعمال.

وعبارة البيضاوي هنا: والاسم عند أصحابنا البصريين، من الأسماء التي حذفت أعجازها؛ لكثرة استعمالها، وبنيت أوائلها على السكون، وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل؛ لأنّ من دأبهم أن يبتدؤا بالمتحرك، ويقفوا على الساكن، ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسُمِي، ومجيء سُمًى، كهُدًى لغة فيه، قال:

والله أَسْمَاكَ سُمًى مُباركَا   آثَرك اللَّهُ به إيثَارَكَا

والقَلْبُ بعيدٌ غيرُ مطرد، واشتقاقه من السمو عند البصريين؛ لأنّه رفعة للمسمّىٰ وشعار له، ومن السمة عند الكوفيين، وأصله: وسم حذفت الواو، وعوضت عنها همزة الوصل؛ ليقلّ إعلاله، ورُدَّ: بأنّ الهمزة لم تعهد داخلة على ما حُذف صدره في كلامهم، ومن لغاته: سِمٌ، وسُمٌ، قال:

بِسـمِ الَّـذي فـي كُـلِّ سُـورة سُـمُـهْ

والاسم إن أريد به اللفظ؛ فغير المسمّى؛ لأنّه يتألّف من أصوات مقطّعة غير قارة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدّد تارة ويتحد أخرى، والمسمّى لا يكون كذلك. وإن أريد به ذات الشيء؛ فهو عين المسمّى، لكنّه لم يشتهر بهذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المراد به اللفظ؛ لأنّه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى، وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها، عن الرفث وسوء الأدب، أو الاسم مقحم، كما في قول الشاعر:

إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما

كما مرّ.

وإنما قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: بالله؛ لأنّ التبرّك والاستعانة بذكر اسمه، أو للفرق بين اليمين والتيمُّن، ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط؛ لكثرة الاستعمال، وطوّلت الباء عوضاً عنها.

ولفظ ﴿ٱللَّهِ﴾ أصله: إلٰهٌ على وزن فِعال، فحذفت الهمزة، وعُوِّض عنها الألف واللام؛ ولذلك قيل: يا ألله بالقطع، إلا أنّه يختص بالمعبود بالحق. والإلٰه في أصله يطلق على كل معبود، سواء بحقٍ، أم لا، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أَلَهَ الرجل إلٰهةً، وألوهةً، وألوهِيَّةً بمعنى: عَبَدَ عبادة، ومنه تألَّه، واستَأْلَه. وقيل: من أَلِهَ إذا تحيَّر؛ لأنّ العقول تتحير في معرفته، أو من أَلِهْت إلى فلان؛ أي: سكنت إليه؛ لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو مِن أَلَهَ إذا فزع من أمر نزل عليه، وأَلَهَهُ غَيْرهُ: أجاره، إذا العائذ يفزع إليه، وهو يجيره حقيقةً، أو بزعمه، أو مِن أَلِهَ الفصيل، إذا أولع بأمه، إذ

العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد، أو مِن وَلِهَ، إذا تحير وتخبط عقله، وكان أصله: ولاهٌ، فقلبت الواو همزة؛ لاستثقال الكسرة عليها استثقال الضمة في وجوه، فقيل: إلٰهٌ كإعاء، وإشاح، وإسادة في وعاء، ووشاح، ووسادةٍ، ويرده الجمع على آلهة دون أولهاء، وقيل؛ أصله لاَهَ مِن لاَهَ يَلِيْهُ لِيْهاً ولاهاً، إذا احتجب وارتفع؛ لأنّه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع عن كل شيء مما لا يليق به، ويشهد له قول الشاعر:

كحِلْفَةٍ من أبي رَبَاح يَشْهَدُها لاهَهُ الكُبَّارُ

فكأنه سبحانه يسمى بذلك؛ لاستتاره، واحتجابه عن إدراك الأبصار، وما أجمل قول الشريف الرضي الشاعر: تاهت العقلاء في ذاته تعالى وصفاته، لاحتجابها بأنوار العظمة وتحيروا أيضاً في لفظ الجلالة، كأنه انعكس إليه من تلك الأنوار أشعة بهر أعين المستبصرين، فاختلفوا: أسريانيٌّ هو أو عربي؟ أإسمٌ، أو صفةٌ؟ مشتقٌ؟ وممَّ اشتقاقه؟ وما أصله؟، أو غير مشتق؟ عَلَمٌ، أو غير علم؟.

وقيل: هو عَلَم مرتجل غير مشتق عند الأكثرين، وإليه ذهب سيبويه في أحد قوليه، فهو علم لذاته خاصة؛ لأنه يوصف ولا يوصف به؛ ولأنه لا بد من اسم تجري عليه صفاته، ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه؛ ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إلٰه إلاّ الله توحيداً، مثل: «لا إلٰه إلا الرحمن»، فإنه لا يمنع الشركة.

والأظهر: أنه وصف في أصله، لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره، وصار له كالعَلَم، مثل: الثريا والصعق، أُجْرِيَ مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به، وعدم تطرُّق احتمال إليه؛ لأنّ ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمرٍ آخر حقيقي، أو غيره غير معقول للبشر، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوص، لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معنى صحيحاً؛ ولأنَّ معنى الاشتقاق: هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب، وهو حاصلٌ بينه وبين الأصول

المذكورة. وقيل: أصله: لاها بالسريانية، فعرِّب بحذف الألف الأخيرة، وإدخال اللام عليه، وتفخيم لامه إذا انفتح ما قبله، أو انضم، وقيل: مطلقاً. وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين. وقد جاء لضرورة الشعر:

ألا لا بـــارك لاهٌ فـــي ســـهـــيـــل إذا مـــا الله بـــارك فـــي الـــرجـــال

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: صيغة فعلان في اللغة، تدل عل وصف فعلي، فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة، كعطشان، وغرثان.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صيغة فعيل، تدلُّ على وصف فعلي، فيه معنى المبالغة للصفات الدائمة الثابتة؛ ولهذا لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر.

والرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالباً، كما في قطَّع، وقَطَع، وكُبَّار، وكُبار، وخرج بقولنا غالباً نحو: حذِرٍ، وحاذر، وتلك المبالغة تارة تؤخذ باعتبار الكميّة، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا؛ لأنّه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة؛ لأنّه يخص المؤمن. وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الآخرة؛ لأن النعم الأخروية كلَّها جسام، وأما النعم الدنيوية؛ فجليلة وحقيرة. وإنما قدم الرحمن، والقياس يقتضي الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا؛ ولأنّه صار كالعَلَم من حيث إنه لا يوصف به غيره تعالى؛ لأنَّ معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يَصْدُق على غيره تعالى، فإن مَن عداه فهو مستفيض بلطفه، وإنعامه، يريد به جزيل ثوابٍ، أو جميل ثناءٍ، أو يزيح رقة الجنسية، أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك؛ لأنّ ذات النعم، ووجودها، والقدرة على إيصالها، والداعية الباعثة عليه، والتمكن من الانتقام بها، والقوى التي بها يحصل الانتفاع، إلى غير ذلك من خلقه لا يقدرعليها أحدٌ. أو لأنَّ الرحمن لما دل على جلائل النعم، وأصولها، ذكر الرحيم؛ ليتناول ما خرج منها، فيكون كالتتمة والرديف له، أو للمحافظة على رؤوس الآي.

وأمَّا وصف أهل اليمامة مسيلمة الكذاب به مضافاً، فقالوا: رحمن اليمامة، فمِن تَعَنُّتِهم، قال شاعرهم يمدح مسيلمة الكذاب:

سَمَوْتَ بِٱلْمَجْدِ يَا ٱبْنَ ٱلأَكْرَمِينِ أَبَا   وَأَنْتَ غَيْثُ ٱلْوَرَىٰ لاَ زِلْتَ رَحْمَانَا

وقد هجاه بعض المؤمنين فقال:

سَمَوْتَ بِٱلْخَبْثِ يَا ٱبْنَ ٱلأَخْبَثَيْنِ أَبَا   وَأَنْتَ شَرُّ ٱلْوَرَىٰ لاَ زِلْتَ شَيْطَانَا

والبحث السادس في بلاغتها:

فمن بلاغتها: مجازٌ بالحذف في متعلَّق ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، والأولى تقديره: فعلاً خاصّاً مؤخراً على مذهب الكوفيين؛ لأنّ الأصل في العمل أن يكون للأفعال، ولوقوعه في القرآن، والحديث، كقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وكقوله ﷺ: «باسم ربّي وضعت جنبي»، والتمسّك بالأصل أولى؛ ولأنه يفيد التجدد الاستمراري، وتقديره: اسما خاصاً مؤخراً على مذهب البصريين، لأنّه يفيد الديموميّة والثبوت، كأنّما الابتداء باسم الله، حتم دائم في كل ما تمارسه من عمل، وتردّده من قول. وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتابنا «الباكورة الجنية في إعراب الآجرومية».

ومنها: الإيجاز بإضافة العام إلى الخاصّ في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويسمى إيجاز قصر.

ومنها: الاستعارة المَكْنية التبعية، إذا جعلنا الباء للاستعانة؛ لتشبيهها بارتباط يحصل بين المستعين، والمستعان به، وإذا جعلنا الباء للإلصاق يكون في الكلام مجاز مرسل، علاقته المحليّة، نحو: مررت بزيد؛ أي: ألصقت مروري بمكان يقرب إلى زيد، لا بزيد نفسه.

والبحث السابع في إعرابها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الباء: حرف جرّ واستعانة، أو تبرّك، (اسمِ): مجرور بالباء، وعلامة جرّه كسرة ظاهرة في آخره. (اسمِ): مضاف، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مجرور على التعظيم، وعلامة جرّه كسرة ظاهرة في آخره. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: صفة أُولى للجلالة، مجرور بكسرة ظاهرة في آخره. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾:

صفة ثانية له، وَالجار والمجرور متعلّق بواجب الحذف؛ لشبهه بالمثل. قدّره البصريّون اسماً خاصّاً مؤخراً، تقديره هنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قِراءَتكم كتابي، أي: حاصلة ببسم الله... الخ. وقدّره الكوفيون فعلاً خاصّاً مؤخراً، تقديره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اقرؤوا كتابي وقد بسطنا الكلام في إعراب البسملة، وما يتعلّق به من العلل، والتقسيمات في كتابنا المذكور، فراجعه إن شئت الخوض فيه.

البحث الثامن في فوائد تتعلّق بالبسملة:

الأولى: يقال لمن قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مُبَسْمِل، وهو ضربٌ من النحت اللغوي.

وهو لغةً: مطلق الاختصار.

واصطلاحاً: أن يُخْتصر حرفٌ، أو حرفان، أو أكثر من كلمة، أو كلمتين، أو أكثر، كـ: ح، من التحويل، و: اهـ، من انتهى، وإلخ: من إلى آخره. وبَسْمَلَ: من البسملة وغير ذلك مما سيأتي، وقد ورد ذلك في شعر لعمر بن أبي ربيعة، حيث قال:

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لِقَيْتُها   فَيَا حَبَّذا ذَاكَ الحَبِيبُ المُبَسْمِلُ

قال الماورديُّ: ويقال لمن قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مبسمل، وهي لغةٌ: مولَّدةٌ[1]. قلت: المشهور عن أهل اللغة: بسمل، قال يعقوب بن السكيت، والمطرّزي، والثعالبيُّ، وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل إذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. ويقال: قد أكثرتَ من البسملة؛ أي: من قول بسم الله، ومثله: حَوْقَلَ الرجل إذا قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وهلَّل إذا قال: لا إلٰه إلا الله، وسَبْحَلَ إذا قال: سبحان الله، وحَمْدَلَ إذا قال: الحمد لله، وحَيْصَلَ إذا قال: حيَّ على الصلاة، وجَعْفَلَ إذا قال: جعلت فداك، وطَبْقَلَ إذا قال: أطال الله

---

(١) القرطبي.

بقاءك، ودَمْعَزَ إذا قال: أدام الله عزك، وحَيْفَلَ إذا قال: حيّ على الفلاح، ولم يذكر المطرّزيُّ الحيصلة إذا قال: حيّ على الصلاة.

وهذا كله من النحت المولد، والنحت عند العرب خاصٌّ بالنسبة، أي: إنّهم يأخذون اسمين، فينحتون منهما اسماً واحداً فينسبون إليه، كقولهم: حضرميٌّ، وعبقسيٌّ، وعبشسيٌّ: نسبة إلى حضرموت، وعبد القيس، وعبد شمس، على أنَّ الفراء ذكر عن بعض العرب معنى: عَشَرةٌ فأَحْدِهُنَّ لي: صَيِّرْهُنْ لي أحدَ عشرُ. وقال الفَرَّاء: معنى اللهم: يا اللَّهُ أُمَّنَا بخيرٍ؛ أيَ: اقْصدنا بخير، فَكَثُرَتْ في كلام العرب. ونحَتَ العَرَبُ مِنْ اسميَنِ، فقيل عن الصَّلْدَم: إنه من الصَّلْدِ والصَّدْم، ومنه: بَلْحَارِثِ لبني الحارثِ، وَلعَلَّ الحَقْلَدَ: وهو السَّيِّءُ الخُلُق، والثقيلُ الروْحِ منحوتٌ من الحِقْدِ، والثِقلِ. ونَحتُوا من اسمٍ وحرفٍ، فقالوا: مِنَ لا شيء: تَلاَشَي، ونحَتَوا من حرفين، فقال الخليل: إنَّ كَلمةَ (لن) منحوتة من (لا) و(أن)، وإنها تضمنت بَعْدَ تركيبها، معنًى لم يكُنْ في أَصْلَيْها مجتمعين. وإنما أوردنا هذه الأقوال؛ لا لأنها قاطعةٌ فهي موضع خلاف، كما رأيت، ولكننا استأنسنا بها؛ لتتوافر همُّ المشتغلين باللغة على النحت، ففيه ثروةٌ جديدةٌ للغتنا، وتسهيلٌ لكثير من التعابير الحديثة التي نفتقر إليها.

والثانية: كانت[١] قريش قبل البعثة تكتب في أوّل كتابها باسمك اللهمّ، وكان أميّةُ بن أبي الصلت، أوّلَ من كتب باسمك اللهمّ، إلى أن جاء الإسلام، ونزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وروى محمد بن سعد في طبقاته: أنّ رسول الله ﷺ؛ كان يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهمّ، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فكتب باسم الله، حتى نزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، فكتب بسم الله الرحمن، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) الدرويش.

والثالثة: افتتح[1] الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بالبسملة؛ إرشاداً لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها، وقد ورد في الحديث: «كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبترُ»؛ أي: مقطوع الذَّنَبِ ناقصٌ. وقد كان العرب قبل الإسلام، يبدؤون أعمالهم بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزّى، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمراً؛ مَرْضاةً لملكٍ، أو أميرٍ يقول: أَعْمَلُهُ باسمِ فلان، إنَّ ذلك العملَ لا وُجودَ له، لولا ذلك الملك، أو الأمير.

وإذاً: فمعنى ابتدئُ عملي باسم الله الرحمن الرحيم: أنني أعمله بأمر الله، ولله، لا لِحَظِّ نفسي وشهواتها، ويمكن أن يكون المراد: أنَّ القدرة التي أنشأْتُ بها العمل هي من الله، ولولا ما أعطاني من القدرة لم أفعل شيئاً، فأنا أبرأُ من أن يكون عملي باسمي بل هو باسمه تعالى، لأنني أستمدُّ القوة والعون منه، ولولا ذلك لم أقدر على عمله. وإذاً فمعنى البسملة التي جاءت أول الكتاب الكريم: أنَّ جميع ما في القرآن من الأحكام، والشرائع، والأخلاق، والآداب، والمواعظ هو لله، ومن الله، ليس لأحد غيره فيه شيءٌ.

وكأنّه قال: اقرأ يا محمد! هذه السورة ببسم الله الرحمن الرحيم؛ أي: اقرأها على أنّها من الله لا منك، فإنّه أنزلها عليك؛ لتهديهم بها إلى ما فيه خيرهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وكذلك كان النبي ﷺ، يقصد من تلاوتها على أُمّته؛ أنه يقرأ عليهم هذه السورة باسم الله لا باسمه؛ أي: أنّها من الله لا منه، فإنّما هو مبلّغ عنه تبارك وتعالى، كما جاء في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

والرابعة: ندب[2] الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كلّ فعل، كالأكل،

---

(١) المراغي.

(٢) القرطبي.

والشرب، والنحر، والجماع، والطهارة، وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال. قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «أغلق بابك، واذكر اسم الله، واطفىء مصباحك، واذكر اسم الله، وخمّر إناءك، واذكر اسم الله، وأوْكِ سقاءك، واذكر اسم الله»، وقال: «لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنّه إن يقدّر بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرّه شيطان أبداً».

وقال لعمر بن أبي سلمة: «يا غلام سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، وقال: «إنّ الشيطان ليستحلُّ الطعام إلاّ أن يُذكَرَ اسم الله عليه»، وقال: «من لم يذبح فليذبح باسم الله». وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرّات: أعوذ بعزّة الله وقدرته من شرّ ما أجد وأحاذر»، هذا كلّه ثابت في الصحيح.

وروى ابن ماجه، والترمذي عن النبي ﷺ قال: «سترُ ما بين ما أعين الجنّ وعورات بني آدم إذا دخل أحد الكنيف أن يقول: بسم الله». وروى الدارقطني عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا مسّ طَهورَه سمّى الله تعالى ثمّ يفرغ الماء على يديه».

الخامسة: روي عن عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه[1] ـ: أنه قال: في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ شفاء من كلّ داء، وعون على كلّ دواء، وأمّا الرحمن: فهو عون لكلّ من آمن به، وهو اسم لم يسمّ به غيره تعالى، وأمّا الرحيم: فهو لمن تاب، وآمن، وعمل صالحاً.

وقد فسّره بعضهم على الحروف. فروي عن عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: أنّه سأل رسول الله ﷺ، عن تفسير ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ فقال:

---

(١) قرطبي.

أمّا الباء: فبلاء الله، وروحه، ونصره، وبهاؤه، وأمّا السين: فسناء الله، وأما الميم: فمُلْكُ الله، وأمّا الله: فلا إله غيره. وأما الرحمن: فالعاطف على البَرِّ والفاجر من خلقه. وأمّا الرحيم: فالرفيق بالمؤمنين خاصّةً. وروي عن كعب الأحبار: أنّه قال: الباء: بهاء الله، والسين: سناؤه، فلا شيء أعلى منه، والميم: ملكه، وهو على كلّ شيء قدير، فلا شيء يُعازُّهُ.

وقد قيل: إنّ كلّ حرف هو افتتاح اسم من أسمائه، فالباء: مفتاح اسمه بصير، والسين: مفتاح اسمه سميع، والميم: مفتاح اسمه مليك، والألف: مفتاح اسمه الله، واللام: مفتاح اسمه لطيف، والهاء: مفتاح اسمه هادي، والراء: مفتاح اسمه رازق، والحاء: مفتاح اسمه حليم، والنون: مفتاح اسمه نور، ومعنى هذا كلّه: دعاء الله تعالى عند افتتاح كلّ شيء.

إلى هنا انتهى ما يتعلّق بالاستعاذة، والبسملة في تاريخ: ٢٨/ ٢/ ١٤١٧ هـ.

والآن نريد الشروع في تفسير (الفاتحة) بعون الله سبحانه، وتوفيقه، إن شاء الله تعالى، وصلّى الله وسلّم، على سيدّنا محمد، خاتِم النبيين، وعلى آله، وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

والله أعلم

* * *

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة مكية، نزلت بعد المدَّثِّر، وهو قول أكثر العلماء، وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول مجاهد، وقيل: نزلت مرّتين: مرّة بمكة، ومرّة بالمدينة. وسبب تكرار نزولها؛ الدلالة على شرفها وفضلها. وقيل: نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة، حكاه أبو الليث السمرقندي في تفسيره، والقول[1] الأول أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، وهذه الآية في سورة الحجر و(الحجر) مكية بالإجماع، ولا خلاف أنّ فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنّه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدلّ على هذا قوله ﷺ: «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب».

وهي سبع آيات، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً. وقال القرطبي: أجمعت الأمّة على أنّ فاتحة الكتاب سبع آيات، إلاّ ما روي عن حسين الجعفي: أنّها ستّ آيات، وهذا شاذّ، وإلاّ ما روى عن عمرو بن عبيد: أنّه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على هذا ثمان آيات، وهذا شاذ أيضاً، ويردّ هذين القولين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، وقوله ﷺ فيما يحكيه عن ربّه: «قسمت الصلاة».

وأجمعت الأمة أيضاً على أنّها من القرآن، فإن قيل: لو كانت من القرآن لأثبتها ابن مسعود في مصحفه، ولمّا لم يثبتها دلّ على أنّها ليست من القرآن كالمعوذتين عنده. فالجواب: ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدثنا الحسن بن الحباب بسنده، عن إبراهيم قال: قيل لعبد الله بن مسعود: لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كلّ سورة. قال أبو بكر: يعني:

---

(١) القرطبي.

أنّ كلّ ركعة سبيلها أن تُفتَح بأمّ القرآن قبل السورة المتلُوَّة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووَثِقْتُ بحِفْظِ المسلمين لها، ولم أُثْبِتها في موضع فيلزمني أن أكْتُبها مع كلّ سورة، إذ كانت تتقدَّمها في الصلاة.

أسماؤُها:

ولها نحوُ عشرين اسماً:

الأول: فاتحة الكتاب؛ لأنّها مُفْتَتَحُهُ، ومَبْدَؤُهُ، فكأنّها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمَّى أساس القرآن؛ أو لأنّها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله، والتعبّد بأمره، ونهيه، وبيان وعده، ووعيده.

والثاني: سورة الكنز؛ لأنها نزلت من كنز تحت العرش.

والثالث: الوافية.

والرابع: الكافية؛ لأنّها وافية كافية في صحة الصلاة عن غيرها، عند القدرة عليها، وقيل: سمّيت وافية؛ لأنها لا تَقْبَلُ التنصيف؛ لأنّه لو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ، ولو نصفت (الفاتحة) في ركعتين لم يُجزِىء.

والخامس: الشافية.

والسادس: سورة الشفاء؛ لقوله ﷺ: «هي شفاء من كلّ داء».

والسابع: السبع المثاني؛ لأنها سبع آيات تُثَنَّىٰ في كلّ ركعة وتكرّر.

والثامن: أمّ القرآن.

والتاسع: سورة النور.

والعاشر: سورة الرُّقية.

والحادي عشر: سورة الحمد والشكر.

والثاني عشر: سورة الدعاء.

والثالث عشر: سورة تعليم المسألة؛ لاشتمالها على ذلك.

والرابع عشر: سورة الدعاء، لاشتمالها عليه.

والخامس عشر: سورة المناجاة.

والسادس عشر: سورة التفويض.

والسابع عشر: أمّ القرآن.

والثامن عشر: أمّ الكتاب.

والتاسع عشر: سورة السؤال.

والعشرون: سورةُ الصلاة؛ لِخَبرِ: «قسمت الصلاة ـ أي: الفاتحة ـ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، يقول الله: حمدني عبدي» الحديث، وكثرة الأسماء يدلّ على فضلها وشرفها.

والسورة: طائفة من القرآن، مترجمة باسم مخصوص تتضمّن ثلاث آيات فأكثر، وفاتحة الشيء: أوّله، وهي مصدر بمعنى المفعول، أو صفة جعلت اسماً للسورة، والتاء: للنقل كالذبيحة، وإضافة السورة إلى (الفاتحة)، أو إلى غيرها من إضافة العام إلى الخاص، كشجر الأراك، وعلم النحو وهي؛ أي: إضافة (الفاتحة) إلى الكتاب لامية؛ لأنّ المضاف إليه ليس ظرفاً للمضاف ولا جنساً له، وهو؛ أي: القرآن يطلق على مجموع ما في المصحف، وعلى القدر المشترك بينه وبين أجزائه.

والله أعلم

* * *

فصل في ذكر فضائلها

فقد دلّ على فضلها أحاديث كثيرة.

فمنها: ما أخرجه البخاري، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه ثمّ أتيته فقلت: يا رسول الله! إنّي كنت أصلّي، فقال: «ألم يَقُلِ الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ ثمّ قال لي: لأعلّمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد، ثمّ أخذ بيدي»، فلمّا أراد أن يخرج قلت له: يا رسول الله! ألم تقل: لأعلّمنك سورة هي أعظم السور في القرآن؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيتُه». رواه مالك في الموطأ عنه، وقال فيه: إنّ النبي ﷺ، نادى أُبيّ بن كعب، وهو يصلّي، وذكر نحوه.

ومنها: ما روي عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله: «ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل مثل أمّ القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»، أخرجه الترمذي، والنسائي.

ومنها: ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني»، أخرجه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومنها: ما روي عن ابن عباس قال: «بينا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء، فتح اليوم ولم يفتح قطّ إلاّ اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطّ إلاّ اليوم، فسَلَّم وقال: أَبْشِر بنُورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة» لن تقرأ بحرف منها إلاّ أُعطيتَه، أخرجه مسلم. قوله: (سمع نقيضاً) بالقاف والضاد المعجمة؛ أي: صوتاً كصوت فتح الباب.

ومنها: ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن؛ فهي خِداج، هي خداج، هي خداج غير تمام». قال:

فقلت: يا أبا هريرة! إنّا أحياناً نكون وراء الإمام، فغمز ذراعي وقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسيُّ، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى»: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي) الحديث، أخرجه مسلم.

وقال ابنُ عبد البرّ:[1] الصحيح من القول: إلغاء تلك الركعة التي لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، ويأتي بركعة بدلاً منها، كمن أسقط سجدةً سهواً، وهو اختيار ابن القاسم. وقال الحسن البصري: وأكثر أهل البصرة. والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني: إذا قرأ بأمّ القرآن مرّة واحدة في الصلاة أجزأه، ولم يكن عليه إعادة؛ لأنّها صلاة قد قرأ فيها بأمّ القرآن، وهي تامّة؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأمّ القرآن»، وهذا قد قرأ بها. قلت: ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كلّ ركعة، وهو الصحيح، ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف. وقال أبو حنيفة والثوريّ، والأوزاعي: إنْ تَرَكَها عامداً في صلاته كلّها، وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك. وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن: أقلّه ثلاث آيات.

وجه تسميتها: سمّيت بفاتحة الكتاب: إمّا لافتتاح المصاحف، والتعليم، وقراءة القرآن، والصلاة بها؛ وإمّا لأنّ الحمد فاتحة كلّ كلام؛ وإمّا لأنها أوّل سورة نزلت؛ وإمّا لأنّها أوّل ما كتبت في اللوح المحفوظ؛ وإمّا لأنّها فاتحة أبواب المقاصد في الدنيا وأبواب الجنان في العقبى، وقيل: غير ذلك.

وهذه السورة الكريمة كلّها محكم، لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

والله أعلم

* * *

---

(١) القرطبي.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾.

التفسير وأَوْجُهُ القراءة

استدراكٌ في بحث البسملة: والباء[1] في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: حرف خافض يخفض ما بعده، مثل: من وعن، والمتعلق به مضمر محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، تقديره: أبدأ باسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ. وإنما طُوّلت الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وأُسقطت الألف؛ طلباً للخفة، وقيل: لمّا أسقطوا الألف عوضوا طولها عن الألف المحذوفة، وأثبتت الألف في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾؛ لقلّة استعماله. وقيل: إنّما طوّلوا الباء؛ لأنّهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم. وقيل: الباء حرف منخفض الصورة، فلمّا اتصل باسم الله ارتفع واستعلى، وقيل: إنّ عمر بن عبد العزيز كان يقول لكُتّابه: طوّلوا الباء من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وأظهروا السين، ودوّروا الميم؛ تعظيماً لكتاب الله تعالى.

والاسم: هو المسمى عينه، وذاته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، ثمّ نادى الاسمَ فقال: ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، و﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾، وهذا القول ليس بقوي. والصحيح المختار: أنّ الاسم غير المسمى، وغير التسمية، فالاسم: ما تُعرَف به ذات الشيء، وذلك؛ لأنّ الاسم هو الأصوات المقطّعة، والحروف المؤلّفة على ذات ذلك الشيء، فثبت بهذا أنّ الاسم غير المسمى، وأيضاً: قد تكون الأسماء كثيرة، والمسمّى واحد، كقوله

(١) الخازن.

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد يكون الاسم واحداً، والمسمَّيات به كثيرة، كالأسماء المشتركة، وذلك يوجب المغايرة، وأيضاً فقوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أمرٌ أن يُدعىٰ اللَّهُ تعالى بأسمائه، فالاسم آلة الدعاء، والمدعو هو الله تعالى، فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو، وبين اللفظ المدعو به.

وأجيب عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ بأنّ المراد: ذات الشخص المعبّر عنه بيحيى، لا نفس الاسم. وأجيب عن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾: بأنّ معنى هذه الألفاظ: يقتضي إضافة الاسم إلى الله تعالى، وإضافة الشيء إلى نفسه محال. وقيل: كما يجب تنزيه ذاته تعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه.

وكون الاسم غير التسمية، هو أنّ التسمية: عبارة عن تعيين اللفظ المعيّن؛ لتعريف ذات الشيء، والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة، والفرق ظاهر مما ذكرنا. واختلفوا في اشتقاق الاسم كما مرّ، فقال البصريون: من السموّ، وهو العلوّ، فاسم الشيء ما علاه حتى ظهر به، وعلا عليه، فكأنه علا على معناه، وصار عَلَماً له. وقال الكوفيون: من السمة، وهي العلامة، فكأنّه علامة لمسمّاه. وحجة البصريين: لو كان الاسم اشتقاقه من السمة؛ لكان تصغيره وسيماً، وجمعه أوساماً، وأجمعوا على أنّ تصغيره سُمَيٌّ، وجمعه أسماء، وآسام.

﴿ٱللَّهِ﴾: هو اسم[1] خاص لله تعالى، تفرّد به الباريء سبحانه وتعالى، ليس بمشتقّ، ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار. دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾. وقيل: هو مشتق من ألَهَ يَأْلَهُ إلاهةً من باب فتح، مثل: عبد الرجل يعبد عبادة. دليله قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾؛ أي: وعبادتك على قراءة قُرَّاء كسر الهمزة. ومعناه: المستحق للعبادة دون غيره. وقيل: مِن الوَلَهِ، وهو الفزع؛ لأن الخلق يولهون إليه؛ أي: يفزعون إليه في حوائجهم. قال بعضهم:

وَلِهْتُ إِلَيْكُم في بَلَايا تَنُوبُنِي فأَلْفَيْتُكُم فِيهَا كَرائِمَ مَحْتِدِ

---

(١) الخازن.

وقيل: أصلُه أَلَهَ، يقال: أَلَهتُ إلى فلان، أي: سكنت إليه، فكأنّ الخلق يسكنون إليه ويطمئنّون بذكره. وقيل: أصله وِلَاهٌ، فأبدلت الواو همزة، سُمّي بذلك؛ لأنَّ كلّ مخلوق والهٌ نحوه: إمَّا بالتحيُّر، أو بالإرادة، ومن هذا قيل: الله محبوبُ كلِّ الأشياء، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

ومن خصائص هذا الاسم: أنّك إذا حذفت منه شيئاً، بقي الباقي يدّل عليه، فإن حذفت الألف بقي لله، وإن حذفت اللام، وأثبتَّ الألف بقي إله، وإن حذفتهما بقي له، وإن حذفت الألف واللامين معاً، بقي هو، والواو عِوَض عن الضمّة.

وذهب بعضهم إلى أنّ هذا الاسم هو الاسم الأعظم؛ لأنّه يدّل على الذات، وباقي الأسماء تدلّ على الصفات.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرقُّ من الآخر. وقيل: هما بِمَعنًى؛ مثل: ندمان ونديم، ومعناهما: ذو الرحمة، وإنما جمع بينهما؛ للتأكيد. وقيل: ذُكِرَ أحدُهما بعد الآخر؛ تطميعاً لقلوب الراغبين إليه. وقيل: الرحمن فيه معنى العموم، والرحيم فيه معنى الخصوص. فالرحمن: بمعنى الرزاق في الدنيا، وهو على العموم لكافة الخلق المؤمن والكافر، والرحيم: بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة، فهو على الخصوص؛ ولذلك قيل: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، ورحمة الله؛ إرادة الخير والإحسان لأهله. وقيل: هي ترك عقوبة من يستحق العقاب، وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق، فهو على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل. وقيل: الرحمن بكشف الكروب، والرحيم بغفر الذنوب. وقيل: الرحمن بتبيين الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقائق أسمائه. اهـ. من الخازن.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: جنس الحمد، والثناء الحسن مستحَقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، فلا يُستَحَق لغيره؛ لأنّه الفاعل المختار. والأولى[1] من

---

(١) عمدة التفاسير.

الاحتمالات التسعة، الجارية في جملة الحمدلة؛ أن تكون (أل) جنسية، واللام للاستحقاق كما في حلّنا؛ لأنّه يلزم من استحقاق الجنس استحقاق الإفراد؛ أي: جنس الحمد مستحَقّ لله سبحانه؛ وذلك لأنّ (أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: إمّا جنسيّة؛ أي: جنس الحمد، أو استغراقية؛ أي: كلّ الحمد بأنواعه، أو للعهد؛ أي: الحمد المعهود، وهو حَمْدُ الله لنفسه، وحَمْدُ عباده له، واللام في ﴿لِلَّهِ﴾: إما للاستحقاق، أو للمُلْك، أو للاختصاص، فهذه ثلاثة في الثلاثة الأولى بتسعة. وقال النسفي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لفظه خبر، كأنّه سبحانه يخبر[1]، أنّ المستحِقّ للحمد هو الله تعالى، ومعناه الأمر؛ أي: قولوا: الحمد لله، وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه.

و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لغة[2]: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، سواء كان في مقابلة نعمة أم لا.

وعُرفاً: فعل يَدُلُّ على تعظيم المنعِم بسبب كونه منعِماً، سواء كان قولاً باللسان؛ بأن يثني عليه به، أو اعتقاداً بالجنان، بأن يعتقد اتصافه بصفات الكمال، أو عملاً وخدمة بالأعضاء، والأركان؛ بأن يجهد نفسه في طاعته، فمورد العرفي؛ أي: محلُّه عامّ، ومتعلَّقه؛ أي: سببه الباعث عليه، وهو النعمة خاصٌّ، والشكر: مقابلة النعمة قولاً، وعملاً، واعتقاداً، قال بعضهم:

وَما كان شكري وافياً بنوالكم ولكنني حاولت في الجهد مذهبا
أفادتكم النعماءُ منّي ثلاثةً يَدي ولساني والضميرَ المُحجَّبَا

يعني: أنّ الشكر هو الاعتراف بالفضل، إزاء نعمةٍ صدرت من المشكور، بالقلب، أو باللسان، أو باليد، أو غيرها من الأعضاء، كما في البيت: يريد الشاعر أنَّ يدي، ولساني، وقلبي لكم فليس في القلب إلاّ نصحكم ومحبتكم، ولا في اللسان، إلاّ الثناء عليكم ومدحكم، ولا في اليد، وسائر الجوارح، والأعضاء؛ إلاّ مكافأتكم وخدمتكم.

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.

والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول: حمدت زيداً على علمه، وكرمه، ولا تقول: حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل: هما أخوان. والشكر أَعَمُّ منهما من وجه، وأَخَصُّ من آخر. وقيل: الحمد باللسان قولاً، والشكر بالأركان فعلاً، والذمُّ نقيضُ الحمد، والكفران نقيض الشكر، والثناء يستعمل في المدح، والذَّم على السواء، فيقال: أثنَى الله عليه شرًّا كما يقال: أثنَىٰ عليه خيراً.

ورفعه بالابتداء، وخبره ﴿لِلَّهِ﴾، وأصله النصب، وقد قرىء به؛ لأنه من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة أقيمت مقامها، لا تكاد تستعمل معها، كسقياً لك، ورعياً لك. وإنّما عدل عنه إلى الرفع؛ ليَدُلَّ على عموم الحمد، وثباته دون تجدده، وحدوثه، ولهذا أجمع[1] عليها القرّاء السبعة. وقراءة النصب تحتاج إلى عامل مقدر من مادة الحمد، واللام عليها؛ للتبيين، تقديره: أحمد لله، أو حمدت لله، فيتخصَّص الحمد؛ بتخصيص فاعله، وأَشْعَرَ بالتجدد والحدوث، واللام متعلّقة بالعامل المحذوف: كـ: لام سقياً لك، وقدر بعضهم عاملاً للنصب فعلاً غير مشتق من الحمد؛ أي: أقول الحمد لله، أو إلزموا الحمد لله، كما حذفوا من نحو: اللهم وضبعاً وذئباً، والأول هو الصحيح؛ لدلالة اللفظ عليه، وقُرىء ﴿الحمدِ لِلَّهِ﴾[2] باتباع الدال اللام، وبالعكس تنزيلاً لهما، من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة. قال الشيخ داود القَيْصري[3]: الحمد قوليٌّ، وفعليٌّ، وحاليٌّ، أمّا القولي: فحمد اللسان، وثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه، على لسان أنبيائه عليهم السلام، وأمّا الفعليّ: فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات، والخيرات؛ ابتغاءَ لوجه الله تعالى، وتوجهاً إلى جنابه الكريم؛ لأنّ الحمد كما يجب على الإنسان باللسان، كذلك يجب عليه بحَسَب كلّ عضو، بل على كلّ عضو، كالشكر، وعند كلّ حال من الأحوال، كما قال النبي ﷺ «الحمد لله على كلّ حال»، وذلك لا يمكن، إلاّ باستعمال كلّ عضو فيما خلق لأجله، على الوجه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) روح البيان.

المشروع؛ عبادةً للحق تعالى وانقياداً لأمره، لا طلباً لحظوظ النفس، ومرضاتها. وأما الحاليّ: فهو الذي يكون بحَسَب الروح، والقلب، كالاتصاف بالكمالات العلمية، والعملية، والتخلّق بالأخلاق الإلٰهية؛ لأنّ الناس مأمورون بالتخلّق بأخلاق الله تعالى، بلسان الأنبياء عليهم السلام؛ لتصير الكمالات مَلَكَةً نفوسهم وذواتهم.

وورد في الأثر[1]: (الحمد رأس الشكر ما شكر اللَّهَ عبدٌ لم يحمده). وقد جعله رأس الشكر؛ لأنّ ذكر النعمة باللسان، والثناء على من أسداها، يشهرها بين الناس، ويجعل صاحبها القدوة المؤتسَىٰ به، أمّا الشكر بالقلب: فهو خفِيٌّ قلَّ من يعرفه، وكذلك الشكر بالجوارح مبهمٌ لا يستبين لكثير من الناس.

﴿لِلَّهِ﴾ الله[2]: عَلَم على المعبود بحقّ، المستجمِع لجميع صفات الكمال، عربي، مرتجل، جامد، أي: غير مشتقّ، وهو الصحيح. وعند الزمخشري: أنّه اسم جنس صار علماً بالغلبة من أَلِهَ بمعنى: تحيّر. والإلٰه: هو المعبود سواء بحقّ، أم بباطل، ثمّ غلب في عرف الشرع على المعبود بحقّ، وهو الذات الواجب الوجود. اهـ. كرخي.

وقد ورد في فضل ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أحاديث[3]:

منها: ما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم، وصححه، والبخاري في «الأدب المفرد» عن الأسود بن سريع قال: قلت: يا رسول الله! ألا أنشدك محامد حمدت بها ربّي تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إنّ ربّك يحبّ الحمد».

وأخرج الترمذي وحسّنه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

وأخرج ابن ماجه، والبيهقي بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.
(٣) الشوكاني.

أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلاّ كان الذي أعطَىٰ أفضل مما أخذ».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والقرطبي في «تفسيره» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أنّ الدنيا كلّها بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثمّ قال: الحمد لله لكان الحمد أفضل من ذلك»، قال القرطبي: معناه: لكان إلهامُه الحمدَ، أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأنّ ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى.

وأخرج البيهقي في «شُعَب الإيمان» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يُنْعَمُ عليه بنعمة، إلاّ كان الحمد أفضل منها».

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» نحوه عن الحسن مرفوعاً.

وأخرج مسلم، والنسائي، وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان» الحديث.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي وحسّنه، وابن مردويه، عن رجل من بني سليم أنّ رسول الله ﷺ قال: سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والطهور نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر».

وغير ذلك من الأحاديث الواردة.

وفي «القرطبي»[1]: اختلف العلماء: أَيُّما أفضل؟ قول العبد: الحمد لله ربّ العالمين أو قوله: لا إلٰه إلاّ الله؟ فقالت طائفة: قول الحمد لله ربّ العالمين أفضل؛ لأنّ في ضمنه التوحيد الذي هو لا إلٰه إلاّ الله، ففي قوله: الحمد لله توحيد، وحمد، وفي قوله: لا إلٰه إلاّ الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إلٰه إلاّ الله أفضل؛ لأنّها تدفع الكفر، والإشراك، وعليها يقاتل الخلق. قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله». واختار هذا القول ابن عطيّة. قال: ويدّل على ذلك: قول النبي ﷺ: «أفضل ما قلت أنا، والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له». متفق عليه.

---

(١) الجمل.

ولمّا ذكر سبحانه، استحقاقه الذاتي بجميع المحامد بمقابلة الحمد باسم الذات، أردفه بأسماء الصفات، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ جمعاً بين الاستحقاقين، وهو؛ أي: رب العالمين، كالبرهان على استحقاقه جميع المحامد الذاتي، والصفاتي، والدنيوي، والأخروي؛ أي: مالك جميع من في السموات، والأرض، وغيرهما من ملك، وإنس، وجنّ، وغيرهم، ومعبودهم. والربّ يأتي لعدّة معان، مجموعة[1] في قول بعضهم نظماً من بحر الطويل:

قريب محيط مالك ومدبّر مربٌّ كثير الخير والمُولي للنعمْ
وخالقُنا المعبود جابر كسرنا ومصلحنا والصاحب الثابتُ القَدَمْ
وجامعنا والسيّدُ ٱحْفَظْ فهذه معانٍ أتت للرّب فادع لمن نظمْ

قال البيضاوي: الربّ في الأصل: مصدر بمعنى التربية، والإصلاح، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثمّ وُصِف به للمبالغة، كالصوم، والعدل. وقيل: هو وصْفٌ من رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ، كقولهم: نَمَّ ينمُّ نمًّا ونميمة، فهو نَمٌّ. سمّي به المالك؛ لأنّه يحفظ ما يملكه، ويربّيه، ويصلحه. وقيل: هو اسم فاعل حذفت ألفه، فأصله: رابّ، كما قالوا: رجل بارّ، وبَرّ.

وعبارة المراغي: والربّ[2]: هو السيّد المربِّي الذي يسوس من يربيه، ويدبر شؤونه، وتربية الله للناس نوعان: تربية خَلْقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشدّ، وتنمية قواهم النفسية، والعقلية، وتربيةٌ دينية تهذيبية، تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم؛ ليبلّغوا للناس ما به تكمل عقولهم، وتصفو نفوسهم، وليس لغيره تعالى أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحل شيئاً، ويحرّم آخر إلاّ بإذن منه.

ويطلق الرّب: على الناس، فيقال: ربّ الدار، وربّ هذه الأنعام، كما قال

---

(١) البيجوري على السلم.

(٢) المراغي.

تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام في مولاه عزيز مصر: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وكقول عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشي: أمّا الإبل: فأنا ربّها، وأما البيت: فإنّ له ربّاً يحميه.

وعبارة «الروح»: والرّب:[1] بمعنى التربية، والإصلاح، أمّا في حقّ العالَمين: فيربّيهم بأغذيتهم، وسائر أسباب بقاء وجودهم، وأمّا في حقّ الإنسان: فيربّيه تارة بأطواره، وفيض قوى أنواره في أعضائه. فسبحان من أسمع بعظمٍ، وبصّر بشحمٍ، وأنطق بلحم، وأخرى بترتيب غذائه في النبات بحُبُوبِهِ، وثِماره، وفي الحيوانِ بلحومه، وشحومه، وفي الأراضي بأشجاره، وأنهاره، وفي الأفلاك بكواكبه، وأنواره، وفي الزمان بسكونك، وتسكين الحشرات، والحركات المؤذية في الليالي، وحفظك، وتمكينك من ابتغاء فضله في النهار. فيا هذا! يربّيك كأنّه ليس له عبد سواك، وأنت لا تخدمه، أو تخدمه كأنّ لك ربًّا غيره. انتهى.

وقرأ زيد بن عليّ، وطائفة[2]: ﴿رَبَّ الْعَالِمِينَ﴾ بالنصب على المدح، وهي فصيحة، لولا خفض الصفات بعدها، وضُعِّفت إذ ذاك، على أنَّ الأهوازي حكى في قراءة زيد بن عليّ أنّه قرأ: ﴿ربَّ العالمينَ الرحمنَ الرحيمِ﴾ بنصب الثلاثة، فلا ضعف إذ ذاك، وإنّما ضُعِّفت قراءة نَصْب رب، وخفض الصفات بعدها؛ لأنّهم نصّوا على أنّه لا إتباع بعد القطع في النعوت، لكن تخريجها على أن يكون الرحمن بدلاً، ولا سيّما على مذهب الأعلم، إذ لا يُجِيز في الرحمن أن يكون صفة، وحسّن ذلك على مذهب غيره، كونه وصفاً خاصّاً، وكون البدل على نيّة تكرار العامل، فكأنّه مستأنف من جملة أخرى، فحسن النصب. وقول من زعم: أنّه نصب رب بفعل دلّ عليه الكلام قبله، كأنّه قيل: نحمد الله ربّ العالمين. ضعيف؛ لأنّه مراعاة التوهّم، وهو من خصائص العطف، ولا ينقاس فيه.

دقيقة: [3] في لفظ ربّ خصوصيّة لا توجد في غيره من أسمائه تعالى، وهي:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) هداية الطالب.

أنك إذا قرأته طرداً كان من أسمائه تعالى، وإن قلبته كان من أسمائه تعالى. انتهت.

وقوله: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: اسم جمع لعالَم بفتح اللام، لا جمع له؛ لعدم العَلَمية، أو الوصفية فيه، وقيل: جمع له شاذ. قال في «الكشاف»: ساغ ذلك لوجود معنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى العلم. وفي البيضاوي: والعالم: اسم لما يُعْلَم به، كالخاتَم، والقالَب، من العلامة؛ لأنّه علامة على صانعه. وهو كلّ[1] ما سوى الله تعالى من الجواهر، والأعراض، فإنّها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدلّ على وجوده؛ لأنّها مُحْدَثة، وكلّ محدث له صانع، فالعالم له صانع. وإنّما جمعه؛ ليشمل جميع ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلّب العقلاء منهم، فجمعه بالياء والنون، كسائر أوصافهم. اهـ.

فإن قلت[2]: لِمَ جمع العالمين جمع قلّة، مع أنّ المقام مستدع للإتيان بجمع الكثرة، كالعوالم؟

قلت: تنبيهاً على أنهم، وإن كثروا فهم قليلون في جانب عظمته تعالى، وكبريائه.

فإن قلت: الجمع يقتضي اتفاق الأفراد في الحقيقة، وهي هنا مختلفة.

قلنا: بل هي متفقة من حيث إنّ كلاً منها علامة يعلم بها الخالق، والاختلاف إنما عرض بواسطة أسمائها. اهـ. كرخي.

وقيل[3]: اسم وُضِع لذوي العلم من الملائكة، والثقلين، وتناوله لغيره على سبيل الاستتباع. وقيل: عنَىٰ به الناس ههنا، فإنّ كلّ واحد منهم عالَم من حيث، إنّه يشمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يعلم بها الصانع، كما يعلم بما أبدعه في العالم، ولذلك سوّى بين النظر فيهما، حيث قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وقد جرت[4] عادتهم، على أن لا يطلقوا هذا اللفظ، إلاّ على كلّ جماعة

---

(١) البيضاوي.

(٢) الفتوحات.

(٣) البيضاوي.

(٤) المراغي.

متمايزة لأفرادها صفات تقرّبها من العقلاء، إن لم تكن منهم، فيقولون: عالَم الإنسان، وعالَم الحيوان، وعالم النبات، ولا يقولون: عالم الحجر، ولا عالم التراب. ذلك أنّ هذه العوالم هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يفيده لفظ ربّ، إذ يظهر فيها الحياة، والتغذية، والتوالد.

وخلاصة معنى الآية: أنّ كلّ ثناء فهو لله تعالى، إذ هو مصدر جميع الكائنات، وهو الذي يسوس العالمين، ويربّيهم من مبدئهم إلى نهايتهم، ويلهمهم ما فيه خيرهم، وصلاحهم، فللّه الحمد على ما أسدى، والشكر له على ما أولى.

وفي «الخازن»: واختلف في مبلغ عددهم، فقيل: لله ألف عالَم، ستمائة عالم في البحر، وأربعمائة في البرّ. وقيل: ثمانون ألف عالَم، أربعون ألفاً في البرّ، ومثلهم في البحر. وقيل: ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا منها عالَم واحد، وما العمران في الخراب إلاّ كفسطاط في صحراء، قاله: وهب بن منبه. الفسطاط: الخيمة. اهـ.

وفي «الروح»: وقال الضحاك: لله ثلاثمائة وستّون عالَماً، ثلاثمائة منهم: عراة حفاة لا يعرفون خالقهم، وهم حشو جهنم. وستّون عالَماً: يلبسون الثياب، مرّ بهم ذو القرنين، وكلّمهم. وقال كعب الأحبار: لا يُحصَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنّ الله تعالى خلق الخلق أربعة أصناف: الملائكة، والشياطين، والجنّ، والإنس، ثمّ جعل هؤلاء عشرة أجزاء، تسعة منهم الملائكة، وواحد الثلاثة الباقية، ثمّ جعل هذه الثلاثة، عشرة أجزاء، تسعة منهم الشياطين، وجزء واحد الجنّ والإنس، ثمّ جعلهما عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجنّ، وواحد الإنس، ثمّ جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءاً، فجعل مائة جزء في بلاد الهند، منهم ساطوح، وهم: أناس رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب، وماسوخ وهم: أناس آذانهم كآذان الفِيَلة، ومالوف، وهم: أناس لا يطاوعهم أَرْجُلُهم، يسمّون دَوَالْ بَايْ، ومصير كلّهم إلى النار. وجعل اثني عشر

جزءاً منهم في بلاد الروم: النسطورية، والملكانية، والإسرائيليّة، كلّ من الثلاث أربع طوائف، ومصيرهم إلى النار جميعاً. وجعل ستّة أجزاء منهم في المشرق: يأجوج ومأجوج، وتُركُ خاقان، وتُرْكُ حَدْ خَلَخْ، وتُرْكُ خَزر، وترك جرجير. وجعل ستّة أجزاء في المغرب: الزنج، والزُّط، والحبشة، والنوبة، وبربر، وسائر كفار العرب، ومصيرهم إلى النار. وبقي من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد، فجزأهم ثلاثاً وسبعين فرقة: اثنتان وسبعون على خطرٍ، وهم أهل البدع والضلالات، وفرقة ناجية وهم أهل السنة والجماعة، وحسابهم على الله تعالى، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء.

وفي الحديث: «إنّ اليهود افترقت إحدى وسبعين فرقة، والنصارى اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّهم في النار إلاّ فرقة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «هم مَن على ما أنا عليه وأصحابي». يعني: ما أنا عليه وأصحابي من الاعتقاد، والفعل، والقول، فهو حقّ، وطريق موصل إلى الجنة، والفوز، والفلاح، وما عداه باطلٌ. وطريقُ النار: إن كانوا إباحيين فهم خلود، وإلاّ فلا. انتهى.

﴿الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: المنعم بما لا يُتَصَوَّر صدور تلك النعمة من العباد. ﴿الرَّحِيمِ﴾؛ أي: المنعم بما يُتَصَوّر صدور تلك النعمة من العباد، فلا يقال لغير الله: رحمن، ويقال لغيره من العباد: رحيم، وقد مرّ ذكرهما في البسملة، وهو دليل على أنّ البسملة ليست من (الفاتحة)، إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلّو الإعادة من الإفادة. اهـ. «نسفي». وقيل: كرّرهما[1] مع بقيّة الأوصاف؛ تعليلاً لاستحقاقه الحمد. والمعنى عليه: وإنّما استحقّ الحمد من عباده؛ لكونه ربًّا موجداً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلّها ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، جليلها وحقيرها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب. وقيل: كرّرهما[2]؛ لِيُعَلَمَ أنّ العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وأنّ الحاجة إليه أكثر، فنبّه سبحانه

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) الخازن.

وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها، وأنّه هو المتفضّل بها على خلقه. قال القرطبي: وصف سبحانه وتعالى نفسه بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنه لمّا كان في اتصافه بربّ العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمّن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعونَ على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع في جنّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد». انتهى.

وفي «روح البيان»: في التكرار وجوه:

أحدها: ما سبق من أنّ رحمَتَيِ البسملة ذاتيّتان، ورحمَتَيِ (الفاتحة) صفاتيتان.

والثاني: ليُعلَم أنّ التسمية ليست من (الفاتحة).

والثالث: أنّه ندب العباد إلى كثرة الذكر، فإنّ من علامة حبّ الله، حبّ ذكر الله. وفي الحديث: «من أحبّ شيئاً أكثر ذكره».

والرابع: أنّه ذَكَر ربّ العالمين، فبيَّن أنّ ربّ العالمين: هو الرحمن الذي يرزقهم في الدنيا، الرحيم: الذي يغفر لهم في العقبى، ولذلك ذكر بعده ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. يعني: أنّ الربوبية إمّا بالرحمانية: وهي رزق الدنيا، وإما بالرحيمية: وهي المغفرة في العقبى.

والخامس: أنّه ذكر الحمد، وبالحمد تُنال الرحمة، فإنّ أول من حمد الله تعالى من البشر: آدم عليه السلام حين عطس، فقال: الحمد لله، وأجيب في الحال: يرحمك ربّك، ولذلك خَلَقه، فعلّم خَلْقه الحمد، وبين أنّهم ينالون رحمته بالحمد.

والسادس: أنّ التكرار للتعليل كما مرّ؛ لأنّ ترتيب الحمد على هذه الأوصاف أمارةُ عِلّيّةِ مأخذِها، فالرحمانية، والرحيمية من جملتها؛ لدلالتهما على

أنّه مختار في الإحسان لا موجب، وفي ذلك استيفاء أسباب استحقاق الحمد، من فيض الذات بربّ العالمينِ، وفيض الكمالات بالرحمن الرحيم، ولا خارج عنهما في الدنيا، وفيض الأثْوِبةِ لطفاً، والأجْزِيَةَ عدلاً في الآخرة، ومن هذا يُفهم وجه ترتيب الأوصاف الثلاثة.

والفرق بين (الرحمن) و(الرحيم): إمّا باختصاص الحق بالأوّل، أو بعمومه، أو بجلائل النعم، فعلى الأول: هو الرحمن بما لا يصدر جنسه من العباد، والرحيم: بما يتصور صدوره منهم، فذا كما روي عن ذي النون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ قال: وقعت وَلْوَلةٌ في قلبي، فخرجت إلى شطّ النيل، فرأيت عقرباً يعدو، فتبعته، فوصل إلى ضفدع على الشطّ، فركب ظهره، وعبر به النيل، فركبت السفينة واتبعته، فنزل، وعدا إلى شابّ نائم، وإذا أفعى بقربه تقصده، فتواثبا، وتلادغا، وماتا، وسلم النائم.

ويحكى: أنّ ولد الغراب إذا خرج من القِشْر يكون كلحم أحمر، ويفرّ الغراب منه، فيجتمع عليه البعوض، فيلتقمه إلى أن ينبت ريشه، فعند ذلك تعود الأمّ إليه، ولهذا قيل: يا رازق النُّعَاب في عُشِّهِ!

وأمّا على أنّ الرحمن عامّ، فقيل: كيف ذلك وقلَّما يخلو أحدٌ، بل حالةٌ له عن نوع بلوى؟ قلنا: الحوادث منها ما يظنّ أنّه رحمة ويكون نقمة، وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فالأول كما قال الشاعر:

إنّ الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ   مُفسِدة للمرء أيَّ مَفْسَدهْ

وكلّ منها في الظاهر نعمة، والثاني: كحبس الولد في المكتب، وحمله على التعلّم بالضرب، وكقطع اليد المتآكلة، فالأَبْلَهُ يعتبر الظواهر، والعاقل ينظر إلى السرائر، فما من بَليَّةٍ ومحنةٍ إلاّ وتحتها رحمة ومنحة، وترك الخير الكثير للشر القليل شرٌّ كبير، فالتكاليف؛ لتطهير الأرواح عن العلائق الجسمانية، وخلق النار؛ لصرف الأشرار إلى أعمال الأبرار، وخلق الشيطان؛ لِتَمَيُّز المخلصين من العباد، فشأن المحقق أن يبني على الحقائق، كالخضر عليه السلام في قصّة

موسى معه. فكُلُّ ما يَكْرَهُ الطبعُ فتَحْتَهُ أَسْرارٌ خَفِيَّةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ. وأمّا على أنّ الرحمن لجلائل النعم: فإنّما أتبعه بالرحيم؛ لدفع توهم أن يكون طلب العبد الشيء اليسير سوء أدب، كما قيل لبعضهم: جئتك لحاجة يسيرة. قال: أطلب لها رجلاً يسيراً، فكأنّ الله سبحانه يقول: لو اقتصرت على الرحمن؛ لاحتشمتَ عنّي، ولكنّي رحيم فاطلب منّي حتى شراك نعلك، ومِلْحَ قِدرك. انتهى.

وعبارة المراغي هنا: وقد ذكر سبحانه هذين الوصفين؛ ليبيّن لعباده أن ربوبيته ربوبيّةُ رحمة وإحسان، ليُقبلوا على عمل ما يرضيه، وهم مطمئنو النفوس منشرحو الصدور، لا ربوبيّة جبروت وقَهْرٍ لهم. والعقوبات التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، لمن تعدَّى حدوده، وانتهكَ حرماته، هي قهر في الظاهر، ورحمة في الحقيقة؛ لأنها تربية للناس وزجر لهم حتى لا ينحرفوا عن الجادّة التي شرعها لهم، إذ في اتباعها سعادتهم ونعيمهم، وفي تجاوزها شقاؤهم وبلاؤهم، ألا ترى إلى الوالد الرؤوف كيف يربّي أولاده بالترغيب في عمل ما ينفع، والإحسان إليهم إذا لزموا الجادّة، فإذا هم حادوا عن الصراط السويّ، لَجَأَ إلى الترهيب بالعقوبة حين لا يجد منها محيصاً؟. قال أبو تمّام:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلى مَنْ يَرْحَمُ

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: مالك الأمور ومدبّرها، وقاضيها يوم المجازاة للعباد على أعمالهم؛ بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين، وهو يوم القيامة. هذا على قراءة الألف، وقرىء بلا ألف، والمعنى حينئذٍ؛ أي: ذي المُلْكِ، والسلطنة، والقهر في ذلك اليوم؛ لأنّه لا مُلْكَ ظاهر فيه لأحد إلاّ لله تعالى بدليل ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، أمّا في الدنيا: ففيها المُلْك ظاهراً لكثير من الناس، فتحصّل: أنّ وصف المُلْكيّة ثابت له تعالى أزلاً، وظهوره يكون يوم القيامة؛ لإقرار جميع الخلق به.

واختُلِف في أيّ القراءتين أبلغ وأولى؟ فقيل: مَلِك بلا ألف؛ لأنّه أعمّ وأبلغ من مالك، إذ كلّ مَلِك مالك ولا عكس؛ ولأنّ أمر المَلِك نافذ على

المالك في ملكه حتى لا يتصرّف المالك إلاّ عن تدبير المَلِك؛ ولأنّه قراءة أهل الحرمين؛ ولقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾؛ ولما فيه من التعظيم. وقيل: المالك أبلغ لما فيه من زيادة البناء، فيكون أكثر ثواباً؛ لأنه أكثر حروفاً؛ ولأنّه أوسع باباً من مَلِك؛ لأنّه يقال: مالك العبد والدابة، ولا يقال: ملك هذه الأشياء. وقيل: هما بمعنى واحد، مثل: فرهين، وفارهين.

وعبارة المراغي هنا: قرأ بعض القراء ﴿مَـٰلِكِ﴾ بالألف، وبعض آخر ﴿ملك﴾ بلا ألف، والفارق بينهما: أنّ المالكَ: هو ذو المِلْك بكسر الميم، والمَلِكَ: هو ذو المُلْك بضمّ الميم، وقد جاء في الكتاب الكريم ما يعاضد كلاً من القراءتين، فيعاضد الأولى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، ويعاضد الثانية قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾.

قال الراغب: والقراءتان وإن رُويتا عن جمع كثير من الصحابة فالثانية يعني: مَلِك بلا ألف يكنفها من الجلال والروعة، وإثارة الخشية ما لا يوجد مثله في القراءة الأولى يعني: مالك بالألف، فهي تدلّ على أنّه سبحانه هو المتصرّف في شؤون العقلاء بالأمر والنهي والجزاء، ومن ثمّ يقال: ملك الناس، ولا يقال: ملك الدابة، وملك العبد، وملك الدار.

فائدة: والفرق بين ﴿المُلك﴾ بضمّ الميم، و﴿المِلك﴾ بكسرها: أنّ المُلك بضمّ الميم: عبارة عن السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، والغلبة التامة، والقدرة على التصرّف الكلّي بالأمر والنهي. والمِلك بكسر الميم: عبارة عن السلطنة، والتصرف غير التامّين. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه: أنّ المَلِك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله كما في الشوكاني.

﴿يَوْمِ﴾ واليوم في العرف: عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان. وفي الشرع: عمّا بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا: مطلق الوقت؛ لعدم الشمس والفجر ثَمَّ. و﴿ٱلدِّينِ﴾: الجزاء إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، ومنه قولهم: كما تَدِينُ تُدان، وبيت الحَماسة:

وَلَـمْ يَـبْـقَ سِـوَىٰ ٱلْـعُـدْوا نِ دِنَّـاهُـمْ كَـمَـا دَانُـوا

أي: مالك الأمر كلّه في يوم الجزاء، وأضاف اسم الفاعل إلى الظرف؛ إجراءً له مجرى المفعول به على الاتّساع، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار. والمعنى: مالك الأمر كلِّه في يوم الجزاء، فإضافة اليوم إلى الدين لأدنى ملابسة، كإضافة سائر الظروف إلى ما وقع فيها من الحوادث؛ كيوم الأحزاب، ويوم الفتح، وتخصيصه؛ إمّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفرّده بإجراء الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين الملاّك والأملاك حينئذٍ بالكلّية، ففي ذلك اليوم لا يكون مالك، ولا قاض، ولا مُجازٍ غيره تعالى. وأصل المُلْكِ والمِلْك: الربط، والشدّة، والقوّة، فللَّه في الحقيقة؛ القوّة الكاملة، والولاية النافذة، والحكم الجاري، والتصرّف الماضي، وهو للعباد مُجازٍ، إذ لمِلْكهم بداية ونهاية، وعلى البعض لا على الكلّ، وعلى الجسم لا العرض، وعلى النَّفْسِ لا النَّفَسِ، وعلى الظاهر لا الباطن، وعلى الحيّ لا الميّت، بخلاف المعبود الحقّ، إذ ليس لمِلْكه زوال، ولا لمُلْكه انتقال.

وقال في «تفسير الإرشاد»: قرأ أهل الحرمين المحترَمَيْن ﴿مَلِك﴾ من المُلْك: الذي هو عبارة عن السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، والغلبة التامّة، والقدرة على التصرف الكلّي في أمور العامّة بالأمر والنهي، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم الدين. انتهى. ولكلّ قراءةٍ وُجوهٌ تُرِّجحها كما ذكرنا سابقاً.

ويحكى عن أبي عبد الله، محمد بن شجاع الثَّلْجِيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ أنّه قال: كان من عادتي قراءة ﴿مَٰلِكِ﴾، فسمعت من بعض الأدباء أنّ ﴿مَلِك﴾ أبلغ، فتركت عادتي وقرأت ﴿مَلِك﴾، فرأيت في المنام قائلاً يقول: لم نقصت من حسناتك عشراً، أما سمعت قول النبي ﷺ: «من قرأ القرآن كتب له بكلّ حرف عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، ورفعت له عشر درجات»؟. فانتبهت فلم أترك عادتي حتى رأيت ثانياً في المنام أنّه قيل لي: لم لا تترك هذه العادة، أما سمعت قول النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن فَخِماً مفخّماً»؛ أي: عظيماً معظّماً. فأتيت قطرباً، وكان إماماً في اللغة، فسألته ما بين المالك والمَلِك من الفرق؟ فقال: بينهما فرق كثير، أمّا المالك: فهو الذي ملك شيئاً من الدنيا، وأما

المَلِك: فهو الذي يملك الملوك.

وفي «البيضاوي»: وإجراء[1] هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجداً للعالَمين، ربّاً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلّها ظاهرها وباطنها، عاجلها وآجلها، مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب؛ للدلالة على أنّه الحقيق بالحمد لا أحدَ أحقُّ به منه، بل لا يستحقُّه على الحقيقة سِواه، فإنَّ ترتُّب الحكم على الوصف يُشعِر بعِلِّيَّته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أنّ من لم يتّصف بتلك الصفات؛ لا يستأهل لأن يُحمد فضلاً عن أن يعبد؛ ليكون دليلاً على ما بعده، فالوصف الأول: لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية، والثاني والثالث: للدلالة على أنّه مُفضّل بذلك، مختار فيه، ليس يصدر منه لإيجاب بالذات، أو وجوب عليه قَضِيَّةً بسوابقِ الأعمال حتى يستحقّ به الحمد، والرابع: لتحقيق الاختصاص، فإنّه مما لا يقبل الشركة، ولتضمين الوعد للحامدين، والوعيد للمعرضين. انتهى.

وفي «الروح»: والوجه في سرد الصفات الخمس كأنّه يقول: خلقتك فأنا إلٰهٌ، ثمّ ربَّيْتُك بالنعم، فأنا ربٌّ، ثمّ عَصَيْتَ فستَرْتُ عليك، فأنا رحمن، ثُمَّ تَبْتَ فغفرت، فأنا رحيم، ثمَّ لا بدّ من الجزاء، فأنا مالك يوم الدين.

فعلم مما تقدم: أنّ يوم الدين هو يوم القيامة، سمّي به؛ لأنّه يُدان فيه كلّ أحد، ويجازَىٰ على عمله. وقيل: الدين الشريعة. وقيل: الطاعة. والمعنى: يوم جزاء الدين، فالدين يطلق لغةً: على الحساب، وعلى المكافأة، وعلى الشريعة وعلى الطاعة، وعلى الدين وعلى الجزاء، وهو المناسب هنا، وإنّما قال:[2] ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يقل: ﴿مالك الدين﴾؛ ليُعلَم أنّ للدين يوماً معيّناً يَلْقَىٰ فيه كلّ عامل جزاء عمله.

---

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

والناس وإن كانوا يلاقون جزاء أعمالهم في الدنيا باعتبارهم أَفْرَاداً مِنْ بُؤسٍ وشقاءٍ، جزاء تفريطهم في أداء الحقوق والواجبات التي عليهم، فربّما يظهر ذلك في بعض دون بعض، فإنّا نرى كثيراً من المنغمسين في شهواتهم، يقضون أعمارهم وهم متمتّعون بلذّاتهم. نعم: إنّهم لا يسلمون من المنَغِّصات، وربّما أتتهم الجوائح في أموالهم، واعتلّت أجسامهم، وضعفت عقولهم، ولكن لا يكون جزاء كاملاً لما اقترفوه من عظيم الموبقات، وكبير المنكرات. كذلك نرى كثيراً من المحسنين، يُبتَلون بهضم حقوقهم، ولا ينالون ما يستحقّون من حسن الجزاء. نعم: إنّهم ينالون بعض الجزاء براحة ضمائرهم، وسلامة أجسامهم، وصفاء ملكاتهم، وتهذيب أخلاقهم، ولكن ليس هذا كلّ ما يستحقُّون من الجزاء، فإذا جاء ذلك اليوم، استوفى كلّ عامل جزاء عمله كاملاً، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، جزاء وفاقاً لما عملوا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

أمّا الناس باعتبارهم أمماً وجماعات: فيظهر جزاؤُهم في الدنيا ظهوراً تامّاً، فما من أمّة انحرفت عن الصراط السويّ، ولم تراع سنّة الله في الخليقة، إلاّ حلّ بها ما تستحق من الجزاء من فقر بعد غنى، وذلّ بعد عزّة، ومهانة بعد جلال وهيبة.

فائدة: [1] ومن لطائف ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: أنّ مخالفة المَلِك تؤول إلى خراب العالم وفناء الخلق، فكيف مخالفة ملك الملوك؟ كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ والطاعة سبب المصالح، كما قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فعلى الرعيّة مطاوعة الملوك، وعلى الملوك مطاوعة ملك الملوك؛ لتنتظم مصالح العالم. ومن لطائفه أيضاً: أنّ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يبيّن أنّ كمال ملكه بِعَدْلِهِ حيث قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، فالمَلِك المجازي إن كان عادلاً كان حقّاً، فدرّت الضروع، ونمت

(١) روح البيان.

الزروع. وإن كان جائراً كان باطلاً، فارتفع الخير.

قرأ[1] ﴿مَـٰلِكِ﴾ على وزن فاعل بالخفض عاصم، والكسائي، وخلف في اختياره، ويعقوب، وهي قراءة العشرة المبشرة إلاّ طلحة، والزبير، وقراءة كثير من الصحابة منهم: أبيّ، وابن مسعود، ومعاذ، وابن عباس، والتابعين منهم: قتادة، والأعمش. وقرأ ﴿مَلِكِ﴾ على وزن فعل بالخفض باقي السبعة، وزيدٌ، وأبو الدرداء، وابن عمر، والمسور، وكثير من الصحابة والتابعين. وقرأ ﴿مَلْكِ﴾ على وَزْن سهل: أبو هريرة، وعاصم الجحدري، ورواها الجعفي، وعبد الوارث، عن أبي عمرو، وهي لغة بكر بن وائل. وقرأ ﴿مَلِكي﴾ بإشباع كسرة الكاف: أحمد بن صالح، عن ورش، عن نافع. وقرأ ﴿مِلْك﴾ على وزن عِجْل: أبو عثمان النهدي، والشعبي، وعطيّة، ونسبها ابن عطية إلى أبي حياةٍ. وقال صاحب اللوامح: قرأ أنس بن مالك، وأبو نوفل، عمر بن مسلم بن أبي عدي ﴿مَلِكَ يوم الدين﴾ بنصب الكاف من غير ألف، وجاء كذلك عن أبي حياة. انتهى. وقرأ كذلك إلاّ أنّه رفع الكاف: سعد بن أبي وقاص، وعائشة، ومُوَرِّقٌ العجليُّ. وقرأ ﴿مَلَكَ﴾ فعلاً ماضياً: أبو حياة، وأبو حنيفة، وجبير بن مطعم، وأبو عاصم، عبيد بن عمير الليثي، وأبو المحشر، عاصم بن ميمون الجحدري، فينصبون ﴿اليوم﴾. وذكر ابن عطيّة: أنّ هذه قراءة يحيى بن يعمر، والحسن، وعليّ بن أبي طالب. وقرأ ﴿مَالِكَ﴾ بنصب الكاف: الأعمش، وابن السميقع، وعثمان بن أبي سليمان، وعبد الملك قاضي الهند. وذكر ابن عطيّة: أنّها قراءة عمر بن عبد العزيز، وأبي صالح السمان، وأبي عِبد الملك الشاميّ. وروى ابن أبي عاصم، عن اليمان ﴿مَلِكاً﴾ بالنصب والتنوين. وقرأ ﴿مَالِكٌ﴾ برفع الكاف والتنوين: عَوْنٌ العقيليّ، ورُويت، عن خلف بن هشام، وأبي عبيد، وأبي حاتم، وبنصب ﴿اليوم﴾. وقرأ ﴿مَالِكُ يومِ﴾ بالرفع والإضافة: أبو هريرة، وأبو حياة، وعمر بن عبد العزيز بخلاف عنه، ونسبها صاحب اللوامح إلى أبي رَوح، عون بن

(١) البحر المحيط.

أبي شدّاد العقيلي ساكن البصرة. وقرأ ﴿مَلِيْك﴾ على وزن فَعِيل: أُبيٌّ، وأبو هريرة، وأبو رجاء العطاردي. وقرأ ﴿مالك﴾ بالإمالة البليغة: يحيى بن يعمر، وأيوب السختياني، وبَيْنَ بَيْن: قتيبة بن مهران، عن الكسائي، وجهل أبو علي الفارِسيُّ النقل في قراءة الإمالة، فقال: لم يُمِلْ أحد من القرّاء ألف مالك، وذلك جائز إلاّ أنّه لا يُقرأ بما يجوز إلاّ أن يأتي بذلك أثر مستفيض، وذكر أيضاً: أنه قرىء في الشاذ ﴿مَلاَّكِ﴾ بالألف، وتشديد اللام، وكسر الكاف. فهذه ثلاث عشرة قراءة بعضها راجع إلى المَلِك، وبعضها إلى المالك، وهما راجعان إلى المُلْكِ، وهو الربط، ومنه: مُلْكُ العَجِيْن. ذكره أبو حيان.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: إيّاك لا غير نَخصُّ بالعبادة، ونوحّدك، ونطيعك خاضعين لك. وفيه[1] التفات من الغَيبة إلى الخطاب، وفائدة ذلك من أوّل السورة إلى هنا ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دعاء، والخطاب في الدعاء أولى. وقيل: فيه مضمر تقديره: أي: قولوا إيّاك نعبد؛ أي: إيّاك نخصّ بالعبادة، ونوحدك، ونطيعك خاضعين لك، والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلّل، وسمّي العبد عبداً؛ لذلّته وانقياده. وقيل:[2] العبادة: عبارة عن الفعل الذي يؤدَّىٰ به الفرض لتعظيم الله تعالى، فقول العبد: ﴿إيّاك نعبد﴾ معناه: لا أعبد أحداً سواك، والعبادة: غاية التذلّل من العبد، ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى؛ لأنّه العظيم المستحقّ للعبادة، ولا تُستعمل العبادة إلاّ في الخضوع لله تعالى؛ لأنّه مُولي أعظم النعم، وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود، ثمّ هَداه إلى دينه فكان العبد حقيقاً بالخضوع، والتذلّل له. وقال ابن كثير: والعبادة في الشرع: عبارة عمّا يجمع كمال المحبّة والخضوع. اهـ. وعبارة المراغي: والعبادة[3] خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأنّ له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته؛ لأنّه أعلى من أن يحيط به

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

فكرُه، أو يرقىٰ إليه إدراكه.

فمن يتذلّل لملك لا يقال: إنّه عبده؛ لأن سبب التذلّل معروف، وهو إما؛ لخوف من جوره وظلمه، وإما؛ رجاء كرمه وجوده. وللعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان، وكلّها شرعت؛ لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى، والملكوت الأسمى؛ ولتقويم المِعْوَجِّ من الأخلاق، وتهذيب النفوس، فإن لم تُحْدث هذا الأثرَ لم تكن هي العبادة التي شرعها الدين.

هاك الصلاةَ: هب أنّ الله أمرنا بإقامتها، والإتيان بها كاملة، وجعل من آثارها: أنّها تنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، فإن لم يكن لها هذا الأثر في النفوس، كانت صُوراً من الحركات والعبارات، خاليةً من روح العبادة وسرّها، فاقدةً جلالها وكمالها، وقد توعّد الله سبحانه فاعلها بالويل والثبور، فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، فهم وإن سمّاهم مصلّين لأنهم أتوا بصورة الصلاة، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولُبّها؛ وهو توجّه القلب إلى الله والإخبات إليه، وهو المشعر بعظمته. وفي الحديث: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلاّ بعداً». وأنّها «تُلَفُّ كما يُلَفّ الثوب البالي، ويُضرب بها وَجْهه».

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي[1]: منك لا من غيرك نَطْلُب المعونة على عبادتك، وعلي جميع أمورنا دِيناً ودُنيا. فإن قلت: الاستعانة على العمل إنّما تكون قبل الشروع فيه، فلِمَ أخّر الاستعانة عن العبادة، وما الحكمة فيه؟

قلنا: قُدِّمت العبادة على الاستعانة؛ لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو قدّمها؛ لرعاية الفاصلة كما قدّم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يُقدَّم. اهـ. «نسفي».

وعبارة «الخازن» هنا: فإن قلت: الاستعانة على العمل إنّما تكون قبل

(١) النسفي.

الشروع فيه، فلم أَخَّر الاستعانة عن العبادة؟

قلت: ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أنّ هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل، ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل، فلا فرق بين التقديم والتأخير.

الثاني: أنّ الاستعانة نوع تعبّد، فكأنّه ذكر جملة العبادة أولاً، ثمّ ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً.

الثالث: كأنّ العبد يقول: شرعت في العبادة فأنا أستعين بك على إتمامها، فلا يمنعني من إتمامها مانع.

والرابع: أنّ العبد إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حصل له الفخر، وذلك منزلة عظيمة، فيحصل بذلك العُجب، فأردف ذلك بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة.

وفي «النسفي»: وأُطلِقت الاستعانة؛ لتتناول كلَّ مستعان فيه، ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات، ويكون قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ بياناً للمطلوب منه المعونة، فكأنّه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ...﴾ الخ. اهـ.

والمجيء بالنون في الفعلين[1]؛ لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العِبَادِ. وقيل: إنّ المقام لمّا كان عظيماً، لم يستقلّ به الواحد؛ استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون؛ لقصد التواضع لا لتعظيم النفس، وتقديم المعمول على العامل في الفعلين؛ لقصد الاختصاص. وقيل: للاهتمام، والصواب أنّه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات.

وكرّر[2] ﴿إِيَّاكَ﴾ للتنصيص على اختصاصه تعالى بالاستعانة أيضاً، والاستعانة: طلب العون، ويُعدَّىٰ بالباء وبنفسه؛ أي: نطلب العون على عبادتك،

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

أو على ما لا طاقة لنا به، أو على محاربة الشيطان المانع من عبادتك، أو في أمورنا بما يصلحنا في ديننا ودنيانا، والجامع للأقاويل: نسألك أن تعيننا على أداء الحقّ وإقامة الفروض، وتحمّل المكاره وطلب المصالح. والضمير المستكن في ﴿نَعۡبُدُ﴾، وكذا في ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ للقارىء، ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموحدين، أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم، وخلَط حاجته بحاجتهم، لعلّها تقبل ببركتها، وتجاب، ولهذا شرعت الجماعة.

ثمّ قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾ يحتمل أن يكون من العبادة، كما عليه تفسيرنا السابق، أو من العبودة. والعبادة: هي العابدية، والعبودة: هي العبدية، فمن العبادة: الصلاة بلا غفلة، والصوم بلا غِيبة، والصدقة بلا منّة، والحج بلا إراءة، والغزو بلا سمعة، والعتق بلا أذيّة، والذِّكر بلا ملالة، وسائر الطاعات بلا آفة. ومن العبودة: الرضى بلا خصومة، والصبر بلا شكاية، واليقين بلا شبهة، والشهود بلا غَيبة، والإقبال بلا رجعة، والإيصال بلا قطيعة.

وخلاصة ما في الآية: أنّ الله سبحانه وتعالى[1] قد أمرنا أن لا نعبد أحداً سواه. لأنّه المنفرد بالسلطان، فلا ينبغي أن يشاركه في العبادة سواه، ولا أن يعظم تعظيم المعبود غيره، كما أمرنا أن لا نستعين بمن دونه، ولا نطلب المعونة المتمِّمة للعمل، والموصلة إلى الثمرة المرجوّة إلاّ منه فيما وراء الأسباب التي يمكننا كسبها وتحصيلها.

بيان هذا: أنّ الأعمال يتوقّف نجاحها على أسبابٍ ربطتها الحكمة الإلٰهية بمسبِّباتها، وجعلتها موصلة إليها، وعلى انتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها، وقد أوتي الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة، كسب بعض الأسباب، ودفع بعض الموانع بقدر استعداده الذي أوتيه، وفي هذا القدر أُمِرْنا أن نتعاون، ويساعد بعضنا بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى

(١) المراغي.

﴿ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾. فنحن نحضر الدواء مثلاً؛ لشفاء المرضى، ونَجْلُبَ السلاح والكُراع، ونُكثر الجند؛ لغلب العدوّ، ونضع في الأرض السماد، ونرويها ونقتلع منها الحشائش الضارّة؛ للخصب وتكثير الغلّة.

وفيما وراء ذلك مما حُجب عنّا من الأسباب: يجب أن نفوّض أمره إلى الله تعالى، فنستعين به وحده، ونفزع إليه في شفاء مريضنا، ونصرنا على عدونا، ورفع الجوائح السماوية والأرضية عن مزارعنا، إذ لا يقدر على دفع ذلك سواه، وهو قد وعدنا إذا نحن لجأنا إليه بإجابة سؤلنا، كما قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، وأرشد إلى أنّه قريب منّا، يسمع دعاءنا، كما قال: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾.

وفي ذكر الاستعانة بالله: إرشاد للإنسان إلى أنّه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب، فمن ترك الكسب فقد خالف الفطرة، ونبذ هَٰذيَ الشريعة، وأصبح مذموماً مدحوراً لا متوكلاً محموداً، وكذلك فيها إيماء إلى أنّ الإنسان مهما أُوتيَ من حصافة الرأي، وحسن التدبير، وتقليب الأمور على وجوهها، لا يستغني عن العون الإلٰهيّ، واللطف الخفي.

والاستعانة[1] بهذا المعنى ترادف التوكُّل على الله، وهي من كمال التوحيد والعبادة الخالصة له تعالى، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعاً مخبتاً، ومع الناس حُرًّا كريماً لا سلطان لأحد عليه لا حيٍّ ولا ميّتٍ، وفي هذا فَكٌّ للإرادة من أسر الرؤساء، والدجّالين المخرّفين، وإطلاق العزائم من قيود الأفاكين الكاذبين.

إيّا[2]: تلحقه ياء المتكلم، وكاف المخاطب، وهاء الغائب، وفروعها، فيكون ضمير نصب منفصلاً لا اسماً ظاهراً أضيف، خلافاً لزاعمه، وهل الضمير

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

هو مع لواحقه، أو هو وحده واللواحق حروف تبيّن المراد به؟ أو هو واللواحق أسماء أضيف هو إليها، أو اللواحق وحدها، وإيّا زائدة لتتصل بها الضمائر. أقوالٌ ذكرت في كتب النحو.

وأما لغاته: فبكسر الهمزة وتشديد الياء، وبها قرأ الجمهور، وبفتح الهمزة وتشديد الياء، وبها قرأ الفضل الرقاشيُّ، وبكسر الهمزة وتخفيف الياء، وبها قرأ عمرو بن فائد، عن أُبيٍّ، وبإبدال الهمزة المكسورة هاءً، وبإبدال الهمزة المفتوحة هاءً، وبذلك قرأ ابن السوَّار الغَنَويُّ، وذهَابُ أبي عبيدة إلى أنَّ (إيّا) مشتقٌ ضعيفٌ، وكان أبو عبيدة لا يُحْسِنِ النَّحْو، وإن كان إماماً في اللُّغاتِ وأيّام العرب.

وإضافة (إيّا) إلى الظاهر نادرٌ، نحو: وإيَّا الشوابِّ، أو ضرورةٌ، نحو: دَعْنِي وإيّا خالدٍ، واستعماله تحذيراً معروف، وإياك والأسد. وقرأ الحسن، وأبو مِجلز، وأبو المتوكل ﴿إيّاك يُعْبد﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وهذه القراءة مشكلة؛ لأنَّ إيَّاك ضمير نصب ولا ناصب له، وتوجيهُها أنّ فيها استعارةً والتفاتاً، فالاستعارةُ إحلالُ الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع، فكأنَّه قال: أنت، ثمَّ التفت فأخبر عنه إخبار الغائب؛ لمَّا كان ﴿إيّاك﴾ هو الغائب من حيث المعنى فقال: يُعبد، فكأنّه قيل: هو يُعبد؛ أي: ربُّ العالمين الموصوف بما ذُكر يعبد، وغرابة هذا الالتفات كونه في جملة واحدة.

وعن بعض أهل مكة ﴿نعبدْ﴾ بإسكان الدال. وقرأ زيدُ بن عليّ، ويحيى بن وثَّاب، وعُبيد بن عمير الليثيُّ ﴿ونِعبد﴾ بكسر النون. وقرأ الجمهور ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون الأولى، وهي لغةُ الحجاز، وهي الفصحى. وقرأ عبيد بن عمير الليثيّ، وزِرُّ بن حُبيش، ويحيى بن وثّاب، والنخعيُّ، والأعمش بكسرها، وهي لغة قيس، وتميم، وأسد، وربيعة، وكذلك حُكْمُ حرف المضارعة في هذا الفعل وما أشبهه. وقال أبو جعفر الطُّوْسِيُّ: هي لغة هُذيل. وانقلاب الواو ألفاً في استعان ومستعانٍ وياءً في نستعين ومستعين والحذف في الاستعانة مذكور في علم التصريف، فراجعه.

وكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ ليكون كلٌّ من العبادة والاستعانة سِيْقا في جملتين، وكُلٌّ منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه، بخلاف ما لو قال: إيّاك نعبد ونستعين، فإنّه كان يحتملُ أن يكون إخباراً بطلب العون؛ أي: وليطلب العون من غير أن يعيّن ممن يطلب منه، وفي قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ قالوا: ردٌّ على الجبرية، وفي ﴿نَسْتَعِينُ﴾ ردٌّ على القدرية، وقالوا: في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ ردٌّ على الدهرية، والمعطلة، والمنكرين لوجود الصانع، فإنه خطاب لموجودٍ حاضرٍ، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: أرشدنا إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، الذي هو دين الإسلام، وثبتنا على المنهاج الواضح الذي رضيته لنا، وهذا بيانٌ للمعونة المطلوبة أوّلاً، فكأنّه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا. وإفرادٌ لما هو المقصود الأعظم الذي هو الهداية وهي الدلالة بلطف.

والمراد زدنا هدايةً إليه، أو أدمنا مهديِّين إليه، وإلا فنحن مهديُّون بحمد الله تعالى. وفي «السمين»: وأصل هدى أن يتعدَّى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرّ، وهو إمّا إلى أو اللام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ثُمَّ قد يُتَّبع فيه، فيحذف الحرف فيتعدى للثاني بنفسه، كما هنا، فأصل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾: اهدنا للصراط، أو إلى الصراط، ثم حذف الحرف ووصل الفعل إلى المفعول بنفسه، ووزن اهد: إفع، حذفت لامه وهي الياءُ؛ حملاً للأمر على المضارع المجزوم، والمجزوم تحذف لامه إذا كان حرف علّة. والهداية: الإرشاد، والدلالة، والتبيين، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم، والإلهام: كقوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ أي: ألهمه لمصالحه، والدعاء: كقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: داع. وقال الراغب: الهداية دلالةٌ بلطف، ومنه: الهديَّة؛ لأنَّها تُمالُ من مالكٍ إلى مالكٍ. والصراط: الطريق المستهل، وبعضهم لا يُقيده بالمستهل، ومنه قول جرير:

أَمِيرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوَجَّ المَوارِدُ مُستقيمِ

أي: على طريقةٍ حسنة، والمراد به هنا: دينُ الإسلام كما قاله ابن عباس. وقيل: هو القرآن، ورُوي ذلك مرفوعاً. وقيل: السنة والجماعة[1]. وقيل: معناه: اهدنا صراطَ المستحِقِّينَ للجنةِ.

وأصلُه[2]: السين، وقرأ بها قُنْبُلٌ حيث ورد، وإنّما أبدلت صاداً؛ لأجل حرف الاستعلاء؛ أي: ليطابق الطاء في الإطباق. والسراطُ: من سرط الطعام إذا ابتلعه، فكأنّه يسرط السابلة، ولذلك سُمّي لَقْماً؛ لأنّه يلتقمهم، وجمعه: سُرُط ككُتُب، وقد تشمُّ الصاد في الصراط زاياً، وبه قرأ خلفٌ، وقُرىء بالزاي المحضةِ، ولم يرسم في المصحف إلاّ بالصاد مع اختلاف قراءتهم فيها، كما سيأتي. والصراط يذكر ويؤنّث كالطريق، فالتذكير: لغة تميم، والتأنيث: لغة الحجازِ. والمستقيم: اسمُ فاعل من استقام، ومعناه: استوى من غير اعْوِجَاج، وأصله: مستقوم، ثم أُعِلّ كإعلال ﴿نَسْتَعِينُ﴾، كما سيأتي في مباحث الصرف.

وفي «أبي السعود»: والصراط: جمعه صُرُط، ككتاب وكُتُب، وهو كالطريق والسبيل، في التذكير والتأنيث. والمستقيم: المستوي، والمراد به: طريق الحقّ، وهي المِلَّةُ الحنيفِيَّة السَّمْحَةُ المتوسّطةُ بين الإفراط والتفريط. اهـ. وأصل الصراط: السراطُ بالسين.

وقرأ قُنْبَلٌ، ورُوَيْسٌ[3]: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ بإبدال سينه صاداً، وهي الفصحى، وهي لغة قريش، وبها قرأ الجمهور، وبها كُتبت في مصحف الإمام. والزِراط: لغةٌ رواها الأصمعيُّ، عن أبي عمرو، وإشمامها زاياً: لغة قيس، وبه قرأ حمزة بخلافٍ وتفصيلٍ عن رواته. وقال أبو عليٍّ. ورُوِي عن أبي عمرو السين والصاد، والمضارعة بين الزاي والصاد. وقال أبو جعفر الطَّوسي في تفسيره: الصراط بالصاد: لغة قريش، وهي اللغة الجيَّده، وعامَّةُ العرب يجعلونها سيناً،

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

والزاي: لغةٌ لبني عُذرةَ، وكعبٍ، وبني القَيْن، وقال أبو بكر بن مجاهد: وهذه القراءةُ تشير: إلى أنَّ قراءة من قرأ بين الزاي والصاد تكلُّف حرفٍ بَيْنَ حرفين، وذلك صعبٌ على اللسان، وليس بحرفٍ يُبنى عليه الكلام ولا من حروف المعجم، لست أدفع أنّه من كلام فصحاء العرب إلاّ أنَّ الصاد أفصحُ وأوسعُ. وقرأ زيد بن علي، والضحاك، ونصر بن علي، عن الحسن ﴿اهدنا صراطاً مستقيماً﴾ بالتنوين من غير لام التعريف، كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾. وقرأ جعفرٌ الصادق في ﴿صِراطَ مستقيمٍ﴾ بالإضافة.

واعلم[1]: أنَّ هداية الله للإنسان على ضروبٍ.

١ ـ هدايةُ الإلهام: وتكون للطفل منذ ولادته فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء، ويصرخ طالباً له.

٢ ـ هداية الحواسِّ: وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان الأعجم، بل هما في الحيوان أتم منهما في الإنسان، إذ إلهامه وحواسُّه يكملان بعد ولادته بقليل، ويحصلان في الإنسان تدريجاً.

٣ ـ هداية العقل: وهي هدايةٌ أعلى من هداية الحسِّ والإلهام، فالإنسان قد خلق ليعيش مجتمعاً مع غيره، وحواسُّه وإلهامُه لا يكفيان لهذه الحياة، فلا بدّ له من العقل الذي يُصحِّحُ له أغلاطَ الحواسّ. ألا ترى الصَّفْراويُّ يذوق الحُلْوَ مُرًّا، والرَّائِي يُبْصرُ العودَ المستقيمَ في الماء مُعوجًّا.

٤ ـ هداية الأديان والشرائع: وهي هداية لا بدّ منها لمن استرقَّتْ الأهواءُ عقلَه، وسخَّر نفَسْهَ لِلَذّاتهِ وشَهْواته، وسَلكَ مسالكَ الشرور والآثام، وعدا على بني جنسه، وحدث بينه وبينهم التَّجاذُبُ والتدافع، فبها يحصل الرشاد، إذا غلبت الأهواءُ العقولَ، وتتبينَّ للناس الحدودُ والشرائع، ليقفوا عندها، ويكفُّوا أيديهم عمّا وراءها إلى أنَّ في غرائز الإنسان الشعورَ بسلطان غيبيٍّ متسلط على الأكوان،

---

(١) روح البيان.

إليه يُنسب كل ما لا يُعرف له سبباً، وبأن له حياةً وراء هذه الحياة المحدودة، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان، ولا يصل فكره إلى ما فيه سعادته في هذه الحياة، فاحتاج إلى هداية الدين التي تفضَّل الله بها عليه ووهبه إيّاها.

وإلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم في آيات كثيرات، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريق الخير والشرّ، والسعادة والشقاء، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: أرشدناهم إلى طريق الخير والشرّ، فاختاروا الثاني الذي عبَّر عنه بالعمى. وهناك نوع آخر من الهداية.

وهي المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير، وهي التي أمرنا الله بطلبها في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، إذ المراد: دُلَّنا دلالة تصحبها من لدنك معونةٌ غيبيّةٌ تحفظنا بها من الوقوع في الخطاء والضلال، وهذه الهداية خاصَّة به سبحانه لم يمنحها أحداً من خلقه، ومن ثم نفاها عن النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وأثبتها لنفسه في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

أمَّا الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحقّ مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة، والفوز، والفلاح، فهي مما تفضَّل الله بها على خلقه، ومَنَحَهُموها، ومن ثَمَّ أثبتها للنبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا والصراط المستقيم: هو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا، والآخرة من عقائد، وأحكام، وآداب، وتشريع دينّي، كالعلم الصحيح بالله والنبوة، وأحوال الكون، وأحوال الاجتماع. وقد سَمَّىٰ هذا صراطاً مستقيماً؛ تشبيهاً له بالطريق الحسي، إذ كل منهما موصل إلى غاية، فهذا سيرٌ معنويٌّ يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان، وذاك سيرٌ حسيٌّ يصل به إلى غاية أخرى.

وقد أرشدنا الله سبحانه إلى طلب الهداية منه؛ ليكون عَوْناً لنا بنصرنا على أهوائنا وشهواتنا، بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلِّف أنفسنا الجري على سَنَنِها؛ لنحصل على خير الدنيا والآخرة.

قال في «التيسير»[1]: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لإظهار التوحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لطلب العون عليه، ﴿ٱهۡدِنَا﴾ لسؤال الثبات على دينه، وهو تحقيق عبادته واستعانته؛ وذلك لأنَّ الثبات على الهداية أهمُّ الحاجات، إذ هو الذي سأله الأنبياء والأولياء، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾، وسحرة فرعون: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾، والصحابة: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾؛ وذلك لأنه لا ينبغي أن يعتمد على ظاهر الحال، فقد يتغيَّر في المآل كما لإبليس، وبرصيصا، وبلعم بن باعورا. اهـ.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بدل[2] من الصراط، بدل كُلٍّ من كلّ، فهو على نيّة تكرار العامل، وفائدته: التأكيد والإشعار بأنّ الصراط المستقيم هو صراط هؤلاء الذين أنعمت عليهم. ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الإيضاح.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في (سورة النساء)، حيث قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾، وأطلق الإنعام؛ ليشمل كلّ إنعام.

والمعنى: أي أَرْشِدْنا إلى صراط الأقوام الذين مننت عليهم بالهداية، وأكرمتهم بالتوفيق. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيّروا ولم يبدّلوا. وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته.

وقرىء[3]: ﴿صراط مَن أنعمتَ عليهم﴾. والإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يَسْتَلِذُّها الإنسان، فأطلقت لما يستلذه من النعمة، وهي اللين. ونعم الله، وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾، تنحصر في جنسين دنيويٍ وأخرويٍ. والأول قسمان: مُوهَبيٌّ وكسبيٌّ.

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

والموهبيُّ قسمان: روحاني: كنفخ الروح فيه، وإشراقه بالعقل، وما يتبعه من القوى، كالفهم، والفكر، والنطق. وجسماني: كتخليق البدن والقوى الحالَّة فيه، والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء. والكسبيُّ: تزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالأخلاق السنيَّة والمَلَكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة، والحُلي المستحسنة، وحصول الجاه، والمال. والثاني: أن يغفر ما فَرَط منه، ويرضى عنه ويُبَوِّئَهُ في أعلى علّيين مع الملائكة المقربين أبدَ الآبدين. والمراد هنا: هو القسم الأخير، وما يكون وُصْلَةً إلى نيله من القسم الآخر، فإنَّ ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

وحكى اللُّغويُّون في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عشر لغات[1]: ضمُّ الهاء وإسكان الميم، وهي قراءة حمزة، وكسرها وإسكان الميم، هي قراءة الجمهور، وكسر الهاء والميم وياءٍ بعدها، وهي قراءة الحسين، وزاد ابن مجاهد، أنها قراءة عمر بن قائد، وكذلك بغير ياءٍ، وهي قراءة عمرو بن فائد، وكسر الهاء وضمُّ الميم وواوٍ بعدها، وهي قراءة ابن كثير، وقالون بخلافٍ عنه، وكسر الهاء وضمّ الميم بغير واو، وضمُّ الهاء والميم وواوٍ بعدها، وهي قراءة الأعرج، والخفاف، عن أبي عمرو، وكذلك بدون واوٍ، وضمُّ الهاء وكسر الميم بياءٍ بعدها، وكذلك بغير ياءٍ، وقرىء بهما. وتوضيح هذه القراءات بالخط والشكل: عليهُمْ، عليهِمْ، عليهمي، عليهِمِ، عليهمو، عليهِمُ، عليهُمو، عليهُمُ، عليهُمِي، عليهُمِ.

وفي «القرطبي»:[2] وفي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عشر لغات قُرىء بعامّتها: ﴿عليهُمْ﴾ بضمّ الهاء وإسكان الميم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر الهاء وإسكان الميم، و﴿عليهمي﴾ بكسر الهاء والميم، وإلحاق ياء بعد الكسرة، و﴿عليهِمو﴾ بكسر الهاء وضمّ الميم، وزيادة واو بعد الضمّة، و﴿عليهُمو﴾ بضمّ الهاء والميم، وزيادة واو بعد الميم، و﴿عليهُمُ﴾ بضمّ الهاء والميم من غير زيادة واو. وهذه الأوجه الستّة مأثورة عن أئمّة القرّاء. الثلاثة الأول منها: سبعيّة، وأوجه أربعة منقولة عن العرب

---

(١) الفتوحات.

(٢) البيضاوي.

غير محكيّة عن القرّاء. ﴿عليهُمِي﴾ بضمّ الهاء وكسر الميم، وزيادة ياء بعد الميم، حكاها الأخفش البصري عن العرب، و﴿عليهُمِ﴾ بضمّ الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، و﴿عليهِمُ﴾ بكسر الهاء وضمّ الميم من غير إلحاق واو، و﴿عليهِمِ﴾ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم. وكلّها صواب قاله ابن الأنباري. اهـ.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل كلّ من كلّ. أي: صراط غير اليهود الذين غَضبت عليهم وخذلتهم، وانتقمت منهم؛ لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. أي: وصراط غير النصارى الذين ضلّوا وأخطأوا عن الهدى لقوله تعالى فيهم: ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقيل: غير المغضوب عليهم بالبدعة، ولا الضالّين عن السنّة، والله أعلم.

والمعنى: وفّقنا طريق الهدى والرشاد التي هي طريق الأنبياء والمؤمنين، وجنّبنا عن طريق أهل الغضب والضلال التي هي طريق الكفار والمنافقين. وورد في الحديث: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ المغضوبَ عليهم اليهود، وإنّ الضالّين هم النصارى» رواه ابن حبّان وصحّحه. وإنّما سُمّي كلٌّ من اليهود والنصارى بما ذكر، مع أنّ كلاً منهم مغضوب عليه وضالّ؛ لاختصاص كلّ منهما بما غلب عليه. اهـ. خطيب. ويتجه أن يقال: المغضوب عليهم العصاة، والضالون الجاهلون بالله؛ لأنّ المنعَم عليه من وُفّقَ للجمع بين معرفة الحقّ لذاته، والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختَلَّ إحدى قُوَّتَيه العاقلة والعاملة، والمخل بالعمل فاسقٌ مغضوبٌ عليه؛ لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، والمخل بالعلم جاهلٌ ضالٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. اهـ. من «البيضاوي».

والحاصل: أنّ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل[1] من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ﴾ على

---

(١) الشوكاني.

معنى: أنّ المنعَم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال، أو صفة له مبيّنة، أو مقيّدة على معنى: أنّهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنّما يصحّ بأحد تأويلين: أجراءِ الموصول مجرى النكرة في الإبهام، إذ لم يقصد به معهود كالمحلّى بـ (أل) الجنسية في قوله:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني فمضيت ثم قلت لا يعنيني

وكقولهم: إنّي لأمرّ على الرجل مثلك فيكرمني. أو جَعْلُ ﴿غير﴾ معرَّفاً بالإضافة؛ لأنه أُضيف إلى ما له ضِدٌّ واحد، وهو المُنْعَم عليه، فيتعيَّنُ تعيُّن الحركةِ مِنْ غيرِ السكون، وعن ابن كثير: نصَبْهُ على الحال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، والعامل ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أو بإضمار أعني أو بالاستثناء، إن فُسِّر المُنْعَمُ بما يعمُّ القبيلين، وبه قرأ عمر، وابن مسعود، وعليٌّ، وابن الزبير وليست في المتواتر عن ابن كثير.

والغضب: ثوران النفس لإرادة الانتقام، ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة، فهو صفة ذاته، أو نفس العقوبة. ومنه الحديث: «إنّ الصدقة تطفىء غضب الربّ»، فهو صفة فعله. قال في «الكشاف»: غضب الله إرادته الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على مَن تحتَ يده.

والفرق[1] بين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الأولى و﴿عَلَيْهِمْ﴾ الثانية: أنَّ الأولى في محل نصب على المفعولية، والثانية في محل رفع على النيابة عن الفاعل. و﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي المفهوم من ﴿غَيْرِ﴾، فكأنّه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين.

وقرأ عمر وأُبَيٌّ[2]: ﴿وغَيْرِ الضالّين﴾، ورُوِيَ عنهما في الراءِ في الحرفين النصب والخفض، ويدلُّ على أنَّ المغضوب عليهم هم غير الضالين. والتأكيد

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

فيها أبعد، والتأكيد في لا، أقرب. وقرأ أيوب السختياني ﴿ولا الضَّألِّين﴾ بإبدال الألف همزةً؛ فراراً من التقاء الساكنين. وحكى أبو زيد: دأبَّةٌ وشأبَّةٌ في دَابَّةٍ وشابَّةٍ في كتاب الهمز، ومع ذلك فلا ينقاس هذا الإبدال؛ لأنّه لم يكثر كثرةً توجب القياس، نصَّ على أنّه لا ينقاسُ النحويُّون.

قال القرطبي: الضلال في لسان العرب: هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحقّ، ومنه ضَلَّ اللبن في الماء؛ أي: غاب. ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: غبنا بالموت وصرنا تراباً. ويقال: ضللت الشيء: جهلت المكان الذي وضعته فيه، وأضللت الشيء: ضيعته، وأضل أعمالهم وضلَّ: غفل ونسي، ﴿وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾، والضلالُ: سلوك سبيل غير القصد. ضل عن الطريق: سلك غير جادتها، والضلال: الحَيرة والتردُّد. ومنه: قيل لحجرٍ أملس يردده الماء في الوادي: ضلضلةٌ.

وفي «الخطيب»: وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مَدَّان: مدٌّ لازمٌ، ومدٌّ عارضٌ، فاللازم: هو الذي على الألف بعد الضاد وقبل اللام المشدّدة، والعارض: هو الذي على الياء قبل النون. اهـ. والأصل في الضالّين: الضالِلين، ثمّ أدغمت اللام في اللام، فاجتمع ساكنان مدّتِ الألف واللام المدغمة.

والحاصل من معنى الآيتين، كما قاله المراغي: أنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا[1] باتباع صراط مَن تقدَّمنا؛ لأنَّ دين الله واحد في جميع الأزمان، فهو إيمانٌ بالله ورسله، واليوم الآخر، وتخلُّقٌ بفاضل الأخلاق، وعمل الخير، وترك الشرِّ، وما عدا ذلك فهو فروع وأحكامٌ تختلفُ باختلاف الزمان والمكان، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ قيل: هم الذين بلغهم الدين الحقُّ الذي شرعه الله تعالى لعباده، فرفضوه ونبذوه وراءَهم ظهريّاً، وانصرفوا عن النظر في الأدلّة؛ تقليداً لما ورثوه عن الآباء والأجداد، وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال في نار جهنم وبئس القرار.

---

(١) المراغي.

والضالُّون: هم الذين لم يعرفوا الحقَّ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح، وهؤلاء هم الذين لم تَبْلُغهم رسالة، أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحقُّ، فهم تائهون في عمايةٍ، لا يهتدون معها إلى مطلوب تعترضُهم الشُّبهات التي تلبِّسُ الحق بالباطل والصواب بالخطأ، إن لم يضلّوا في شؤون الدنيا، فقد ضَلّوا في شؤون الحياة الآخرة، فمن حُرِم هُدى الدين ظهر له أثر الاضطراب في أحواله المعيشيَّة، وحلَّت به الرزايا، والذين جاؤوا على فترة من الرسل لا يكلَّفون بشريعة، ولا يعذّبون في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

وهذا رأي جمهرة العلماء[1]، وترى فئةٌ منهم: أنَّ العقل وحده كاف في التكليف، فمتى أوتيه الإنسان وجب عليه النظر في ملكوت السموات والأرض، والتدبُّر، والتفكُّر في خالق الكون، وما يجب له من عبادة وإجلال بقدر ما يهديه عقلُه، ويصل إليه اجتهاده، وبذلك ينجو من عذاب النار يوم القيامة، فإنْ لم يفعل ذلك كان من الهالكين.

تنبيه: آخر (الفاتحة)[2]: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وأما لفظ آمين: فليس منها ولا من القرآن مطلقاً، بل هو سنّة يسنّ لقارىء (الفاتحة) في الصلاة، وغيرها أن يختم به، وهو اسم فعل دعاء بمعنى استجب وتقبّل يا الله هذا الدعاء! وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها. وهذا الاسم مبنّي؛ لشبهه بالحرف شبهاً استعماليّاً على الفتح؛ فراراً من التقاء الساكنين وللخِفَّة، كما في أين وكيف.

وفيه لغتان: المد على وزن فاعيل، كياسين، أو قابيل وهابيل، فيكون اسماً أعجمياً، والقصر على وزن يمين، ومن المدّ قول الشاعر:

يا رب لا تَسْلُبَنِّي حُبَّها أبداً ويرحَمُ الله عبداً قال آمِينا

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.

وقال الآخر:

آمِينَ آمين لا أرضىٰ بواحدةٍ حتى أكمّلها ألفينِ آميناً

ومن القصر قول الآخر:

أمِيْنَ فَزادَ اللَّهُ ما بَيْنَنَا بُعْدَا

قال الجوهري: وتشديد الميم خطأٌ، ورُوي عن الحسن، وجعفر الصادق، والحسين بن فضل: التشديد من أمَّ إذا قصد؛ أي: نحن قاصدون نحوك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حكى ذلك القرطبيُّ. وقيل: ليست اسم فعل، بل هي من أسماء الله، والتقدير: يا آمين، وضعفه أبو البقاء بوجهين:

أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان ينبغي أن يبنى على الضمّ؛ لأنّه منادى مفردٌ معرفةٌ.

الثاني: أنّ أسماء الله تعالى توقيفيّة. ووَجَّه الفارسيّ قول من جعله اسماً لله تعالى على معنى: أنّ فيه ضميراً يعود على الله تعالى، فكأنّه اسم فعل، وهو توجيهٌ حسن، نقله صاحب المُغرِب، ويكون المعنى: إنّا نتوجه إليك يا إلهنا فإليك المرجع والمصيرُ.

وفي «الخطيب»: والسُنّة للقارىء: أن يقول بعد فراغه من (الفاتحة): آمين مفصولاً عن ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بسكتة؛ ليتميَّز ما هو قرآن عمّا ليس بقرآن، وهو اسمُ الفعل الذي معناه: استجب دعاءَنا.

فائدة: في مشروعيّة التأمين بعد قراءة (الفاتحة):

اعلم: أنّ السُنّة الصحيحة، الصريحة، الثابتة تواتراً، قد دلّت على ذلك، فمن ذلك: ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن وائل بن حُجْر قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: آمين، مدّ بها صوته. ولأبي داود: رفع بها صوته، وقد حسّنه الترمذي. وأخرجه أيضاً النسائي، وابن أبي شيبة، وابن ماجه، والحاكم وصحّحه، وفي لفظ من حديثه: أنّه ﷺ قال: «رب اغفر لي آمين». وأخرجه الطبراني والبيهقي. وفي لفظٍ أنه

قال: آمين ثلاث مرّات، وأخرجه الطبراني. وأخرج وكيع، وابن أبي شيبة عن أبي ميسرة قال: لمّا أقْرأ جبريلُ رسولَ الله ﷺ فاتحة الكتاب، فبلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: قل: «آمين»، فقال: «آمين». وأخرج ابن ماجه عن عليّ قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين. وأخرج مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ - يعني: الإمام - ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين يُحِبُّكمُ الله». وأخرج البخاري، ومسلم، وأصحاب السنن، وأحمد، وابن أبي شيبة، وغيرهم عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنّه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وأخرج أحمد، وابن ماجه، والبيهقي بسند. قال السيوطي صحيح عن عائشة: أنّ النبي ﷺ قال: «ما حسَدَتْكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين». وأخرج ابن عديّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اليهود قوم حُسَّد، حسدوكم على ثلاثة: إفشاء السلام، وإقامة الصفّ، وآمينٌ».

وأخرج الديلميّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ثمّ قرأ فاتحة الكتاب، ثمّ قال: آمين. لم يبق ملك في السماء مقرّب إلاّ استغفر له».

وأخرج الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله سبحانه، أعطى أمتي ثلاثاً، لَمْ تُعْطَ أحداً قبلهم: السلام، وهو تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة، وآمين، إلاّ ما كان موسى وهارون». قال أبو عبد الله: معناه: أنّ موسى دعا على فرعون، وأمّن هارون، فقال الله تبارك وتعالى عند ما ذكر دعاء موسى في تنزيله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، ولم يذكر مقالة هارون، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا﴾، فكان من هارون التأمين، فسمّاه داعياً في تنزيله، إذ صير ذلك دعوة منه. وقيل: إنّ آمين خاصّ بهذه الأمّة، كما مرّ قريباً.

فائدة أخرى: في حكم (الفاتحة):

اختلف العلماء في وجوب قراءة (الفاتحة): فذهب مالك، والشافعيّ، وأحمد، وجمهور العلماء إلى وجوب (الفاتحة)، فإنّها متعيّنة في الصلاة، ولا تجزىء إلاّ بها، واحتجّوا بما روى عبادة بن الصامت: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»، أخرجاه في الصحيحين. وبحديث أبي هريرة: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب، فهي خداج ثلاثاً غير تمام» الحديث وقد تقدم في بحث فضل (سورة الفاتحة). وذهب أبو حنيفة: إلى أنّ (الفاتحة) لا تتعيّن على المصلّي، بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة، أو ثلاث آيات قصار، واحتج بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، وبقوله ﷺ في حديث الأعرابيّ المسيء صلاته: «ثمّ اقرأ بما تيّسر معك من القرآن»، أخرجاه في الصحيحين.

دليل الجمهور: ما تقدم من الأحاديث، فإن قيل: المراد من الحديث: لا صلاة كاملة. قلت: هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث، ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزىء صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»، أخرجه الدارقطني، وقال: إسناده صحيح. وعنه: أنّ رسول الله ﷺ أمره أن يخرج فينادي «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب، فما زاد» أخرجه أحمد، وأبو داود. وأجيب عن حديث الأعرابيّ: بأنه محمول على (الفاتحة)، فإنّها متيسرة، أو على ما زاد على (الفاتحة)، أو على العاجز عن قراءة (الفاتحة)، والله أعلم.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مبتدأ مرفوع بالابتداء. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مستحَقّ لله، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، أو في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: قولوا: الحمد لله ربّ العالمين. ﴿رَبِّ﴾ صفة أولى للجلالة، مجرور بالكسرة الظاهرة، وهو مضاف. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ صفة ثانية للجلالة، مجرور بالكسرة الظاهرة. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة ثالثة لها. ﴿مَٰلِكِ﴾ صفة رابعة لها، وهو مضاف. ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه. ﴿إِيَّاكَ﴾ إيّا ضمير نصب منفصل، في محل النصب مفعول به مقدم؛ لغرض الحصر، والكاف حرف دالّ على الخطاب. ﴿نَعۡبُدُ﴾ فعل مضارع مرفوع بالضمة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لإسناده إلى المتكلم، تقديره: نحن يعود على القارىء ومن معه، أو على المعظم نفسه، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَإِيَّاكَ﴾ الواو عاطفة. ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول مقدم. ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على القارىء ومن معه، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَعۡبُدُ﴾. ﴿ٱهۡدِنَا﴾ (اهد) فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع البارىء سبحانه، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً؛ لإسناده إلى المخاطَب، تقديره: أنت يعود على الله، والجملة مستأنفة لا محلّ لها من الإعراب، أو في محلّ النصب مقول قولوا كسابقها، أو جملة دعائية لا محل لها من الإعراب. (نا) ضمير نصب متصل، يعود على القارىء ومن معه، في محل النصب مفعول أول، مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ للتخلّص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ مفعول ثان ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ صفة للصراط.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

﴿صِرَٰطَ﴾ بدل من الصراط، بدل كلّ من كلّ، وهو مضاف. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محلّ الجر بالإضافة، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، وإنّما حرك مع كون الأصل في المبني السكون؛ ليعلم أنّ له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة؛ للخفة مع ثقل الموصول. ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلّق بأنعمت، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير عليهم. ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ ﴿غَيۡرِ﴾ بدل من الذين، أو من الضمير في عليهم، بدل كلّ من كلّ، أو نعت للموصول، مجرور بالكسرة الظاهرة، وهو مضاف. ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ مضاف إليه،

مجرور بالكسرة الظاهرة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور في محلّ الرفع نائب فاعل للمغضوب؛ لأنّه اسم مفعول يعمل عمل الفعل المغيّر. ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة. لا: زائدة زيدت؛ لتأكيد النفي المفهوم من غير. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾. معطوف على المغضوب عليهم، مجرور بالياء؛ لأنّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين والحركة اللذين كانا في الاسم المفرد.

آمين: اسم فعل أمر؛ أي: دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباريء سبحانه؛ بمعنى: استجب، مبنّي على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً استعمالياً، والشبه الاستعمالي: هو أن يشبه الاسم الحرف في كونه عاملاً لا معمولاً، وإنّما حرك؛ ليعلم أنّ له أصلاً في الإعراب، أو فراراً من التقاء الساكنين، كما في أين وكيف، وكانت الحركة فتحة؛ للخفة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لإسناده إلى المخاطَب، تقديره: أنت يعود على الباريء سبحانه، والجملة من اسم الفعل وفاعله لا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ اسم الفعل عامل غير معمول، أو جملة دعائية، والمعنى: اسمع يا الله قراءتنا واستجب دعاءَنا! وتقدم الخلاف في معناه.

التَّصريف ومفردات اللغة

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والرب: هو السيّد، والمالك، والمصلح، وغير ذلك من المعاني المارّة، فهو اسم فاعل مِن رَبَّ يَرُبّ ربّاً، نظير: نمّ ينم نمّاً، إذا نقل الحديث على وجه الإفساد، فهو ربّ وذاك مربوب. أصله: رابّ، حذفوا ألفه؛ اعتباطاً، كما في برّ وبارّ. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم بفتح اللام، وجُمِع جَمْعَ المذكر السالم العاقل؛ تغليباً للعقلاء، والمراد به جميع الكائنات، والعالَم لا واحد له من لفظه، ولا من غير لفظه؛ لأنّه اسم جمع لأشياء مختلفة الحقائق.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ والمالك: إمّا من المُلْك بضمّ الميم، وهو عبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر، أو من المِلْك بكسر الميم، وهو السلطنة الخاصّة، والدين: الجزاء، وهو المراد هنا، ويوم الجزاء: هو يوم القيامة، والطاعةُ، كقوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، والدين أيضاً المِلّة، وفي «القرطبي» ما نصُّه: إن قال قائل: كيف قال: مالك يوم الدين، ويوم الدين لم يوجد بعد،

فكيف وصف نفسه سبحانه بملك ما لم يوجد؟ قيل له: اعلم أنَّ مالكاً: اسم فاعل من مَلَكَ يَمْلِك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده، وهو بمعنى الفعل المستقبل، ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً، كقولك: هذا ضاربُ زيدٍ غداً؛ أي: سيضرب زيداً، وهكذا حَاجُّ بيتِ الله في العام المستقبل تأويله: سيحج في العام المستقبل، أفلا ترى أنَّ الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعل بعد؛ وإنّما أريد به الاستقبال، فكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على تأويل الاستقبال؛ أي: سيملك يوم الدين، أو في يوم الدين إذا حضر.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أصله: نستَعْوِن بوزن نستخرج، فهو سداسيّ أجوف واويّ؛ لأنّه من العون، ففيه إعلال بالنقل والقلب، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى الساكن قبلها على حدّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب التصريف:

لساكنٍ صَحَّ انقُلْ التحريك من ذِي لِيْنٍ آتٍ عَيْن فِعل كأبن

فسكنت الواو بعد النقل، وانكسر ما قبلها فقلبت ياء، وهذه قاعدة مطردة عند الصرفيّين، نحو: ميزان وميقات، وهما من الوزن والوقت. اهـ. «سمين» مع زيادة. وفي «المصباح»: استعان به فأعانه، وقد يتعدى بنفسه، فيقال: أعانه، والاسم: المعونة والمَعانة بالفتح. اهـ. والاستعانة: طلب العون، والطلب أحد معاني استفعل، وهي ثلاثة عشر، فمنها: هذا، والاتخاذ، والتحوّل، وإلقاءُ الشيء بمعنى: ما صِيغ منه وعدُّه كذلك، ومطاوعة أفعل وموافقته، وموافقة تفعَّل، وافتعل، والفعل المجرد، والاغناء عنه وعن فعَّل، وموافقة تفاعل. مثلُ ذلك: استطعم، واستعبده، واسْتَنْسَر، واستعظمه، واستحسنه، وإن لم يكن كذلك، واسْتَشْلَىٰ مطاوع أشلَّ، واستَنْبَل موافق ومطاوع أبَلَ، واستكبر موافق تكبَّر، واستعصم موافق اعتصم، واستغنى موافق غَنِيَ، واستنكف، واستحيا مغنيان عن المجرَّد، واسترجع، واستعان حَلَق عانته مغنياً عن فَعلَ، فاستعان طلب العون، كاستغفر، واستعظم، واستمسك بالشيء، وتماسك به، ومَسَك به بمعنى واحد أي: احْتَبَسْتُ به. اهـ. من «البحر المحيط». وقد بسَطْنا الكلامَ على

أبنية الفعل المزيد، ووضعنا لها جدولاً في كتابنا «مناهل الرجال على لاميّة الأفعال» في الصرف، فراجعه.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ووزن اهد إفع، حذفت لامه، وهي الياء حملاً للأمر على المضارع المجزوم، والمجزوم تحذف لامه إذا كانت حرف علة. والصراط، كالطريق والسبيل في التذكير والتأنيث، كما مرّ، يُجمع على صُرُط، ككتاب وكُتُب. والمستقيم: اسم فاعل من استقام السداسيّ الذي من باب استفعل بمعنى: الفعل المجرد من الزوائد، فهو هنا بمعنى: قام إذا استوى وانتصب، وأصله: مستَقْوِم بوزن مستفعل، استثقلت الكسرة على الواو، ثمّ نقلت إلى الساكن قبلها، فقلبت الواو ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، فصار مستقيم.

﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهمزة أنعم؛ لجعل الشيء صاحب ما صيغ منه؛ أي: جعلتهم أصحاب نعمة، وهذا أحد المعاني التي لأفعل، وهي أربعة وعشرون معنى، وهذا أحدها، والتعدية، والكثرة، والصيرورة، والإعانة، والتعريض، والسلب إلى آخر ما في مطوّلات الصرف فراجعها. والتاء المتصلة بأنعمت: ضمير المخاطب المنزه عن الذكورة والأنوثة الباري سبحانه، وهي حرف خطاب في أنت، والضمير هناك أن، فهو مركب من اسم وحرف.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ جمع ضالّ، اسم فاعل من ضلّ الثلاثي، فأصله: الضَّالِليْنَ، سُكِّنت اللام الأولى؛ لثقل توالي كسرتين فالتقى ساكنان، فأدغمت اللام في اللام، فصار ضالّين، ووزن ضالّين فاعلين، وقد تقدم لك أنّ أيّوب السختياني يقرأ ﴿وَلاَ الضَّأْلِين﴾؛ فراراً من التقاء الساكنين، قال أبو زيد: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَأْنٌّ﴾، فظننته قد لحن، حتى سمعت من العرب دَأَبَّةٌ، وشَأَبَّةٌ.

البلاغة

وقد تضمّنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة، والبيان، والبديع:

فمنها: حسن الافتتاح وبراعة المطلع، فإن كان أوّلها بسم الله الرحمن الرحيم على قول من عدّها منها، فناهيك بذلك حسناً، إذ كان مطلعها مفتتحاً باسم الله، وإن كان أولها الحمد لله فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بما له من الصفات العليّة، أحسن ما افتتح به الكلام، وقُدم بين يدي النثر والنظم، وقد تكرّر الافتتاح بالحمد في كثير من السور. والمطلع ينقسم إلى حسن وقبيح، والحسن إلى ظاهر وخفيّ على ما قسم في علم البديع.

ومنها: المبالغة في الثناء على الله؛ وذلك لعموم أل في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على التفسير الذي مرّ.

ومنها: تلوين الخطاب على قول بعضهم، فإنّه ذكر أنّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ صيغته صيغة الخبر، ومعناه الأمر، كقوله: لا ريب فيه ومعناه: النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومنها: الاختصاص باللام التي في لله، إذ دلّت على أنّ جميع المحامد مختصّة به تعالى، فهو مستحِق لها، وبالإضافة في مالك يوم الدين؛ لزوال الأملاك والممالك عن سواه تعالى في ذلك اليوم، وتفرّده فيه بالمِلك والمُلك، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ ولأنّه لا يجازي في ذلك اليوم على الأعمال سواه.

ومنها: الحذف، وهو على قراءة من نصب الحمد ظاهر، وتقدم هل يقدّر من لفظ الحمد، أو من غير لفظه، قال بعضهم: ومنه حُذْف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد، وهو الذي يقدّر بكائن، أو مستقرّ، قال: ومنه حذف صراط من قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، التقدير: صراط غير المغضوب عليهم وصراط غير الضالّين، وحذف سورة إن قدّرنا العامل في الحمد إذا نصبناه باذكروا، أو اقرؤا، تقديره: اقرءوا سورة الحمد.

ومنها: الإتيان بالرحمن الرحيم عقب اتصافه بربّ العالمين؛ لإفادة الترغيب بعد الترهيب، فيكون أرغب للعبد على الطاعة، وأمنع من المعصية.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لإفادة الحصر والاختصاص.

ومنها: الإضافة لأدنى ملابسة في ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كإضافة سائر الظروف إلى ما وقع فيها من الحوادث، كيوم الأحزاب، ويوم الفتح.

ومنها: تقديم العبادة على الاستعانة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ليوافق رؤوس الآي؛ وليُعلَم أنّ تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

ومنها: إعادة إيّاك مع الفعل الثاني؛ ليفيد أنّ كلاًّ من العبادة والاستعانة مقصود بالذات، فلا يستلزم كلّ منهما الآخر.

ومنها: الالتفات من الغَيبة في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾ إلخ؛ تطريباً للنفس، وزيادة في نشاطها جرياً على أساليبهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ حيث شبّه دين الإسلام بالطريق الحسّيّ، بجامع أنّ كلاًّ يوصل إلى المقصود، واستعير اسم المشبّه به للمشبّه.

ومنها: طلب الشيء مراداً به طلب دوامه واستمراره في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أي: ثبّتنا عليه.

ومنها: التفسير والبيان في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الإبهام في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنّه أوقع في النفس، وأرسخ فيه.

ومنها: نسبة الغضب إلى المجهول في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، حيث لم يقل: غير الذين غضبت عليهم؛ تعليماً لعباده الأدب، حيث أسند الخير إلى نفسه، وأبهم في الشرّ، نظير قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومنها: زيادة لا في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لتأكيد النفي المستفاد من غير.

ومنها: الزيادة والحذف في عدّة مواضع[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا انتهى تفسير سورة الفاتحة بعون الله وتوفيقه، بُعَيد الظهر من يوم الاثنين، اليوم السابع من شهر ربيع الأول من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة سنة من الهجرة النبوية: ٧/٣/١٤١٧ هـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلّى الله وسلم على سيّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

سورة البقرة

سورة البقرة مدنية كلّها، نزلت بعد المطفِّفين في مُدَدٍ شَتّى، وهي أوّل ما نزل بالمدينة. قيل: إلاّ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، فإنّها آخر آيةٍ نزلت من السماء، نزلت يوم النحر في حجةِ الوداع بمنى، وآيات الربا أيضاً من أواخر ما نزل من القرآن، ذكره القرطبي في «تفسيره».

وهي[1] مئتان وستّ أو سبع أو ثمان وثمانون آية، وستّة آلاف كلمة، ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وخَمْسٌ وعشرون ألف حرف وخمس مئة حرف.

المناسبة: مناسبتها للفاتحة ظاهرةٌ؛ لأنَّ سورة الفاتحة ختمت بالأمر بطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى، حيث قال فيها: قولوا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وسورة البقرة بُدِئَت ببيان محلّ الهداية والوسيلة إليها، حيث قال فيها: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقال صاحب «الروح»: فإن قلت:[2] ما الحكمة في ابتداء البقرة بآلم والفاتحة بالحرف الظاهر المحكم وهو قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟

فالجواب ما قاله السيوطي ـ رحمه الله ـ في «الإتقان»: أقول في مناسبة ابتداء البقرة بآلم: أنّه لما ابتُدِئَت الفاتحة بالحرف المحكم الظاهر لكلّ أحد، بحيث لا يُعذَر في فهمه أحد، ابتدئت البقرة بمقابله، وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل؛ ليُعلم مراتبه للعقلاء والحكماء: ليعجزهم بذلك؛ ليعتبروا ويدبَّروا آياته.

التسميةُ: سُمّيت السورة الكريمة بسورة البقرة: إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم عليه السلام، حيث قُتِل شخص من بني

---

(١) الخازن.

(٢) روح البيان.

إسرائيل، ولم يعرفوا قاتله إلى آخر ما سيأتي. وسيأتي بيان الناسخ والمنسوخ منها في آخرها، إن شاء الله تعالى.

فضلها: وورد في فضلها أحاديث كثيرة:

منها: ما أخرجه مسلم، والترمذي، وأحمد، والبخاري في «تاريخه»، ومحمد بن نصر، عن النوّاس بن سمعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». قال: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو قال: كأنَّهما غيايتان، أو كأنهما ظلتان سوداوان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن صاحبهما».

ومنها: ما أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والدارمي، وأحمد، ومحمد بن نصر، والحاكم وصحّحه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزهراوان تُظِلاّن صاحبهما يوم القيامة، كأنّهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف». قال ابن كثير: وإسناده حسن على شرط مسلم.

ومنها: ما أخرجه مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان يفرّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وعنه أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيّدة آي القرآن، آية الكرسيّ»، أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب.

ومنها: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» مطولاً، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلة؛ يعني: السحرة.

ومنها: ما أخرجه أبو يعلى، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ شيء سَناماً، وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام، ومن قرأها في

بيته ليلاً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال».

وأخرج أحمد، ومحمد بن نصر، والطبراني بسند صحيح، عن معقل بن يسار: أنّ رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كلّ آية منها ثمانون ملكاً، واسْتخرجت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ من تحت العرش، فوُصِلت بها».

وأخرج البغوي في «معجم الصحابة»، وابن عساكر في «تاريخه» عن ربيعة الجَرَسِيّ قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ القرآن أفضل؟ قال: «السورة التي يُذكَر فيها البقرة» قيل: فأيُّ البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسيّ وخواتيم سورة البقرة نزلت من تحت العرش». إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأحاديث المختلفة صحة، وحسناً، وغرابة، وضعفاً.

وقوله: سورة البقرة كذا وكذا آية يؤخذ منه: أنّ تسميتها بما ذكر غير مكروه خلافاً لمن قال بكراهة ذلك، وقال: لا يقال ذلك؛ لما فيه من نوع تنقيص بإضافتها إلى البقرة، أو إلى العنكبوت مثلاً، وإنّما يقال: السورة التي تُذكَر فيها البقرة، أو السورة التي يذكر فيها آل عمران، أو العنكبوت مثلاً، واستدلّ هذا القائل بما رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشُّعَب»، وغيرهما بسند ضعيف، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء، وكذا القرآن كلّه، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كلّه». قال ابن كثير: هذا حديث غريب لا يصحّ رفعه، وفي إسناده يحيى بن ميمون الخوَّاص، وهو ضعيف الرواية لا يحتجّ به. وبما أخرجه البيهقي في «الشعب» بسند صحيح، عن ابن عمر قال: (لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة التي تذكر فيها البقرة)، ولكنه موقوف على ابن عمر لم يرفعه.

والذي عليه الجماهير من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم عدم الكراهة، فقد روي عن جماعة من الصحابة ما يدلّ على عدم الكراهة، فثبت في «الصحيحين» عن ابن مسعود: أنّه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن

يساره، ومنى عن يمينه، ثمّ قال: (هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة).

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وأهل السنن، والحاكم وصحّحه عن حذيفة قال: (صلّيت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان فافتتح البقرة، فقلت: يصلّي بها في ركعة، ثمّ افتتح النساء فقرأها، ثمّ افتتح آل عمران فقرأها مترسّلاً» الحديث.

وأخرج أحمد، وابن الضريس، والبيهقي عن عائشة قالت: (كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل، فيقرأ بالبقرة وآل عمران و(النساء).

وأخرجه أبو داود، والترمذي في «الشمائل»، والنسائي، والبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام، فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة إلاّ وقف» الحديث.

والسورة قد يكون لها اسم واحد، وقد يكون لها اسمان أو أكثر، والسورة مأخوذة من سور البلد؛ لارتفاع رتبتها كارتفاعه، وإحاطتها بالمعاني الغزيرة، كإحاطته بالبلد، وهي طائفة من القرآن، لها أوّل وآخر. وتسميتها باسم خاصّ بها توقيفي على الراجح، والراجح: أنّ المكيّ: ما نزل قبل الهجرة، ولو في غير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة. والآية في العرف: هي طائفة من كلمات القرآن، متميّزة بفصل، والفصل: هو آخر الآية، يُجمع على فواصل، وقد تكون كلمة، مثل: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، وكذا ﴿الٓمٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿يسٓ﴾ ونحوها عند الكوفيين، وغيرهم لا يسمّيها آيات، بل يقول: هي فواتح السور. وعن أبي عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلاّ قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾. اهـ. من «التحبير». وأصل آية: أَيَيَة كشجرة، قُلِبت عينها ألفاً على غير قياس، وقيل: آيِيَة كفاعلة، حذفت الهمزة تخفيفاً، وقيل: غير ذلك، وقد بسطنا الكلام في هذا المقام في المقدمة فراجعها.

واعلم: أنّ كون ترتيب الآيات والسور توقيفياً؛ إنما هو على الراجح.

وقيل: إنّه ثبت باجتهاد الصحابة. وقال السيوطي ـ رحمه الله تعالى في «التحبير»: اختلف: هل ترتيب الآي والسور على النظم الذي هو الآن عليه، بتوقيف من النبي ﷺ، أو باجتهاد من الصحابة؟ فذهب قوم إلى الثاني، واختار مكي وغيره: أنّ ترتيب الآيات والبسملة في الأوائل من النبي ﷺ، وترتيب السور منه لا باجتهاد الصحابة. والمختار: أنّ الكلّ من النبي ﷺ. اهـ. وعلى كلّ من القولين: فأسماء السور في المصاحف لم يثبتها الصحابة في مصاحفهم؛ وإنّما هو شيء ابتدعه الحجاج، كما ابتدع إثبات الأعشار، والأسباع، كما ذكره الخطيب. فإثبات أسماء السور ظاهر، كما فعل المفسرون، وإثبات الأعشار بأن جزّأ الحجاج القرآن عشرة أجزاء، وكتب عند أول عُشر بهامش المصحف عُشر بضمّ العين، وكذلك كتب الأسباع، فآخر السبع الأول: الدالّ من قوله في النساء: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾، وآخر السبع الثاني: التاء من قوله في الأعراف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾، وآخر الثالث: الألف من أكلها في قوله في الرعد: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾، وآخر الرابع: الألف من جعلنا في قوله في الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾، وآخر الخامس: التاء من قوله في الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾، وآخر السادس: الواو من قوله في الفتح: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، وآخر السابع: ما بقي من القرآن، كما ذكره القرطبي.

وذكر القرطبي أيضاً: أنّ الحجاج كان يقرأ كلّ ليلة ربعاً، فأوّل ربعه: خاتمة الأنعام، والربع الثاني: في الكهف ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾، والربع الثالث: خاتمة الزمر، والربع الرابع: ما بقي من القرآن، وقيل غير ذلك.

وقال السيوطي في «التحبير» ما نصّه: وكون أسماء السور توقيفية؛ إنّما هو بالنسبة إلى الاسم الذي تذكر به السورة، وتشتهر به، وإلاّ فقد سمّى جماعة من الصحابة والتابعين سوراً بأسماءَ من عندهم، كما سَمَّىٰ حذيفة التوبة بالفاضحة، وسورة العذاب، وسمّى خالد بن معدان البقرة: فسطاط القرآن، وسمّى سفيان بن عيينة سورة الفاتحة: الوافية، وسمّاها يحيى بن كثير الكافية؛ لأنّها تكفي عمّا عداها.

ومن السور ما له اسمان فأكثر، فالفاتحة تسمّى أمّ القرآن، وأمّ الكتاب،

وسورة الحمد، وسورة الصلاة، والشفاء، والسبع المثاني، والرقية، والنور، والدعاء، والمناجاة، والشافية، والكافية، والكنز، والأساس. وبراءة تسمّى التوبة، والفاضحة، وسورة العذاب. ويونس تسمّى السابعة؛ لأنّها سابعة السبع الطوال. والإسراء تسمّى سورة بني إسرائيل، والسجدة تسمّى المضاجع، وفاطر تسمّى سورة الملائكة، وغافر تسمّى المؤمن، وفصّلت تسمّى السجدة، والجاثية تسمّى الشريعة، وسورة محمد ﷺ تسمّى القتال، والطلاق تسمّى النساء القصرى.

وقد يوضع اسم لجملة من السور كالزهراوين للبقرة وآل عمران، والسبع الطوال، وهي البقرة وما بعدها إلى الأعراف، والسابعة يونس، كذا روي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، والمفصّل، والأصحّ: أنّه من الحجرات إلى آخر القرآن؛ لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، والمعوذات للإخلاص، والفلق والناس. اهـ. بحروفه.

فائدة:

فإن قلت: أيُّ سورة أطول في القرآن، وأيّها أقصر؟ وأيّ آية أطول وأيّها أقصر؟، وأيّ كلمة أطول وأيها أقصر؟.

قلت: أطول سورة في القرآن: البقرة، وأقصرها: الكوثر، وأطول آية: آية الدَّين، وأقصرها آية: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿ٱلْفَجْرِ﴾ و﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، وأطول كلمة: ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، وأما قوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فهو عشرة أحرف في الرسم، وأحد عشر في اللفظ. وأقصرها: ما كان على حرفين نحو: ما، ولا، وله، وبه وما أشبه ذلك، ومن حروف المعاني ما هو على حرف واحد، كهمزة الاستفهام، وواو العطف إلاّ أنّه لا ينطق به مفرداً.

فإن قلت: [1] ما الحكمة في كون سورة البقرة أعظم السور ما عدا الفاتحة؟.

---

(١) روح البيان.

قلت: كانت أعظمها؛ لأنّها فُصّلت فيها الأحكام، وضُرِبت الأمثال، وأقيمت الحجج، إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه؛ ولذلك سميت فسطاط القرآن.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن»: سمعت بعض مشايخي يقول: في سورة البقرة ألف أمر، وألف نهي، وألف خبر، ولعُظْم فقهها أقام ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ثماني سنين على تعلّمها، كذا في «أسئلة الحكم».

فإن قلت: لم سوّرت السور طوالاً، وأوساطاً، وقصاراً؟.

قلت: سوّرت كذلك تنبيهاً على أنّ الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات، وهي معجزةٌ إعجاز سورة البقرة، ثمّ ظهرت لذلك التسوير؛ حكمة في التعليم، وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيراً من الله تعالى على عباده، وفي ذلك أيضاً: ترغيب وتوسيع في الفضيلة في الصلاة، وغيرها، كسورة الإخلاص من القصار تعدل ثلث القرآن، فمَن فَهِم ذلك فاز بسر التسوير.

فإن قلت: ما الحكمة في تعدّد مواطن نزول القرآن، وتكرّر مشاهده مكيّاً، مدنياً، ليليّاً، نهاريّاً سفريّاً، حضريّاً، صيفيّاً، شتائياً، نوميّاً، برزخيّاً: يعني: بين الليل والنهار أرْضِيّاً سماويّاً. غاريّاً. يعني: ما نزل في الغار تحت الأرض برزخياً. يعني: ما نزل بين مكة والمدينة، عرشيّاً معراجيّاً. يعني: ما نزل ليلة المعراج. آخر (سورة البقرة)؟.

قلت: الحكمة في ذلك تشريف مواطن الكون كلّها بنزول الوحي الإلٰهيّ فيها، وحضور الحضرة المحمّديّة عندها، كما قيل: سرّ المعراج والإسراء به، وسَيْر المصطفى في مواطن الكون كلّها: كأنّ الكون، والعرش، والجنان، يسأل كلّ موطن بلسان الحال، أن يشرّفه الله تعالى بقدوم قدم حبيبه، وتكتحل أعين الأعيان والكبار بغبار نعال قدم سيّد السادات.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

أسباب النزول

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات من قوله: ﴿الٓمٓ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ أقوالاً.

أحدها: أنّها نزلت في مؤمني أهل الكتاب دون غيرهم، وهو قول ابن عباس وجماعة.

والثاني: نزلت في جميع المؤمنين، قاله مجاهد. اهـ. من «البحر».

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ﴾: الله أعلم بمراده بذلك، فأرجح الأقوال في هذه الأحرف التي ابتدىء بها كثير من السور سواء كانت أحاديّة: كـ ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾، أو ثنائية: كـ ﴿طسٓ﴾ و﴿يسٓ﴾، أو ثلاثية: كـ ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرٰ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾، أو رباعية: كـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٰ﴾ أو خماسيّة: كـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾: أنَّهُ من المتشابه الذي اختصَّ الله سبحانه وتعالى بعلمه، وعلى هذا فلا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى، فلا يحكم عليها بإعراب، ولا بناء، ولا تركيب مع عامل.

والحاصل: أنّ مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور: أربعة عشر حرفاً، وهي نصف حروف الهجاء، وقد تفرّقت في تسع وعشرين سورة، المبدوء بالألف

واللام منها: ثلاثة عشر، وبالحاء والميم سبعة، وبالطاء أربعة، وبالكاف واحدة، وبالياء واحدة، وبالصاد واحدة، وبالنون واحدة. وبعض هذه الحروف المبدوء بها أحاديّ، وبعضها ثنائي، وبعضها ثلاثي، وبعضها رباعيّ، وبعضها خماسيّ، ولا تزيد عليه.

وعبارة «الروح» هنا: واعلموا أنّهم تكلّموا في شأن هذه الفواتح الكريمة، وما أريد بها. فقيل: إنّها من العلوم المستورة، والأسرار المحجوبة؛ أي: من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سرّ القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها: طلب الإيمان بها، والإشارة إلى أنّ القرآن إنّما نزل للإعجاز. وقيل: كلّ حرف منها مفتاح اسم من أسمائه تعالى، فالألف: مفتاح اسم الجلالة، واللام: مفتاح اسم اللطيف، والميم: مفتاح اسم المجيد، كما أنّ قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أنا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق، وكذا قوله تعالى: ﴿قٓ﴾ إشارة إلى أنّه القادر، و﴿نٓ﴾ إشارة إلى أنّه النور الناصر، فهي حروف مقطعة كلّ منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى، والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية، كما قال الشاعر:

قُـلْـتُ لـهـا قِـفِـي فـقَـالَـتْ قَ

أرادَ قالَتْ: وَقَفْتُ وقال زُهير:

بِـالـخَـيْـرِ خَـيْـرَاتٌ وَإنْ شَـرًّا فَـا ... ولاَ أُرِيـــدُ الـــشَّــرَّ إلاَّ أنْ تَـــا

أراد وإنْ شرّاً فشرّ، وأراد إلاّ أن تشا. وقيل: إنّ هذه الحروف ذكرت في أوائل بعض السور؛ لتدل على أنّ القرآن مؤلّف من الحروف التي هي: أ ب ت ث، فجاء بعضها مقطعاً، وبعضها مؤلّفاً؛ ليكون إيقاظاً لمن تحدّى بالقرآن، وتنبيهاً لهم على أنّه منتظم من عين ما يُنَظِّمُونَ منه كلامهم، فلولا أنّه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاّق القُوَى والقُدر؛ لأتوا بمثله. هذا ما جنح إليه أهل التحقيق.

وقال الشيخ الأكبر ـ رحمه الله تعالى في «تفسيره»: وأمّا الحروف المجهولة التي أنزلها الله تعالى في أوائل السور، فسبب ذلك؛ من أجل لغو العرب عند

نزول القرآن، فأنزلها سبحانه حكمة منه حتى تتوفّر دواعيهم، لِمَا أنزل الله تعالى إذا سمعوا مثل هذا الذي ما عهدوه، والنفوس من طبعها أن تميل إلى كلّ أمر غريب غير معتاد، فينصتون عن اللغو، ويقبلون عليها، ويصغون إليها، فيحصل المقصود فيما يسمعونه مما يأتي بعد هذه الحروف النازلة من عند الله تعالى، وتتوفّر دواعيهم للنظر في الأمر المناسب بين حروف الهجاء التي جاء بها مقطعة، وبين ما يجاورها من الكلم، وأبهم الأمر عليهم من عدم اطلاعهم عليها. فردّ الله سبحانه بذلك شرّاً كبيراً من عنادهم، وعتوّهم، ولغوهم كان يظهر منهم؛ فذاك رحمة للمؤمنين، وحكمة منه سبحانه وتعالى. انتهى.

وقال المراغي: ﴿الٓمٓ﴾ هي وأمثالها من الحروف المقطعة، نحو: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓرٰ﴾ حروف للتنبيه كألا، ويا، ونحوهما مما وضع؛ لإيقاظ السامع إلى ما يلقى بعدها، فهنا جاءت؛ للفت نظر المخاطَب إلى وصف القرآن الكريم، والإشارة إلى إعجازه، وإقامة الحجة على أهل الكتاب، إلى نحو ذلك مما جاء في أثناء السورة.

وتُقرأ مقطعة بذكر أسمائها ساكنة الأواخر، فيقال: ألف لام ميم، كما يقال في أسماء الأعداد: واحد اثنان ثلاثة. انتهى. وعلى هذا القول: فلا محلّ لها من الإعراب، كالقول الأوّل الراجح. وقيل: إنّها أسماء للسور التي ابتدئت بها. وقيل: أسماء للقرآن. وقيل: أسماء لله تعالى. وقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه تعالى، كما مرّ؛ أي: إنّ كلَّ حرف منها اسم مدلوله حرفٌ من حروف المباني، وذلك الحرف جزءٌ من اسم من أسماء الله تعالى، فألفٌ: اسمٌ مدلوله اه من الله، واللامُ، اسمٌ مدلوله له من لطيف، والميم: اسمٌ مدلوله مَهْ من مجيد. وقيل: كُلُّ حرف منها يُشير إلى نعمةٍ من نعم الله تعالى. وقيل: إلى ملكٍ. وقيل: إلى نَبيٍّ. وقيل: الألف تشير إلى آلاء الله، واللام تشير إلى لطف الله، والميم تشير إلى مُلْكِ الله. وعلى هذه الأقوال فلها محلٌّ من الإعراب، فقيل: الرفع، وقيل: النصب، وقيل: الجرّ. فالرفع على أحد وجهين: إما بكونها مبتدأ خبرها ما بعدها، وإما بكونها خبراً لمحذوف، كما سيأتي بيانه. والنصب على

أحد وجهين أيضاً: إمّا بإضمار فعل لائق تقديره: اقرؤا ﴿الٓمٓ﴾، وإما بإسقاط حرف القسم، كقوله:

إذَا مـا الـخُـبْـزَ تَـأدُمُـهُ بِـلَـحْـمٍ فَـذَاكَ أمَـانَـةَ الله الـثَّـرِيـدُ

يريد: وأمانة الله، وكذلك هذه الحروف أقسم الله تعالى بها. والجرّ من وجه واحد، وهو أنّها مُقسَم بها حذف حرف القسم وبقي عمله، كقولهم: اللَّهِ لأفعلنّ. أجاز ذلك الزمخشري، وأبو البقاء، وهذا ضعيف؛ لأنّ ذلك من خصائص الجلالة المعظّمة لا يشركها فيه غيرها.

فتلخَّص مما تقدَّم: أنّ في ﴿الٓمٓ﴾ ونحوها ستة أوجه، وهي: أنّها لا محلَّ لها من الإعراب، أو لها محلٌّ وهو الرفع بالابتداء، أو على الخبر، والنصب بإضمار فعل، أو حذف حرف القَسَم، والجرّ بإضمار حرف القسم. وأما قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فيجوز في ذلك أن يكون مبتدأ ثانياً، والكتاب خبره، والجملة خبر ﴿الٓمٓ﴾، وأُغنِي عن الرابط باسم الإشارة، ويجوز أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبره، و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ صفة لذلك، أو بدل منه، أو عطف بيان، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وهو وخبره خبر عن الأول، ويجوز أن يكون ﴿الٓمٓ﴾ خبر مبتدأ مضمر تقديره: هذه ألم، فتكون جملة مستقلّة بنفسها، ويكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبره، ويجوز أن يكون صفة له، أو بدلاً، أو بياناً، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الخبر عن ذلك، أو يكون ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبراً لذلك، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثان.

تنبيه: ثمّ اعلم أنّ المتشابه كالمحكم من جهة أجر التلاوة؛ لما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، ففي ألم تسع حسنات».

فائدة هذا الربع من هذه السورة ينقسم أربعة أقسام:

قسم يتعلّق بالمؤمنين ظاهراً وباطناً، وهو الآيات الأربع الأول إلى

﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وقسم يتعلّق بالكافرين كذلك، وهو الآيتان بعد ذلك.

وقسم يتعلّق بالمؤمنين ظاهراً لا باطناً، وهو ثلاث عشر آية من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

وقسم يتعلق بالفرق الثلاثة، وهو من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخر الربع. اهـ. شيخنا.

فعلى القول الأول: الراجح الذي جرى عليه السلف: أنّ ﴿الٓمٓ﴾ مهمل لا يحكم عليه بإعراب، ولا بناء، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، أو صفة له، وجملة ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خبر المبتدأ. والمعنى؛ أي:[1] هذا القرآن المنزل عليك يا محمّد لا ريب، ولا شكّ، ولا تهمة، في أنّه منزل من عند الله تعالى لمن تدبّر فيه وتأمّل، وتذكّر لما اشتمل عليه من الإعجاز الباهر. وأشار إليه بإشارة البعيد؛ تنزيلاً لبعد المرتبة منزلة البعد الحسّيّ.

فإن قلت: إنّ الريب فيه موجود عند بعض الناس كالكفار، فكيف نفي الريب عنه؟

قلت: المعنى لا ريب به عند المؤمنين، كما أشرنا إليه في الحلّ.

وعلى القول: بأنّ ﴿الٓمٓ﴾ اسم للقرآن، فهو؛ أي لفظ ﴿الٓمٓ﴾: مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبره إشارة إلى الكتاب، و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: صفة لاسم الإشارة، والمعنى: ﴿الٓمٓ﴾ هو ذلك الكتاب الكامل الموعود إنزاله في الكتب المتقدمة حال كونه لا ريب ولا شكّ في إنزاله من عند الله تعالى، وإنّما أشار بذلك إلى ما ليس ببعيد؛

---

(١) عمدة التفاسير.

لأنّ الكتاب من حيث كونه موعوداً في حكم البعيد.

قالوا: لمّا أنزل الله تعالى على موسى التوراة، وهي: ألف سورة كل سورة ألف آية. قال موسى عليه السلام: يا ربّ ومن يطيق قراءة هذا الكتاب وحفظه؟ فقال تعالى: إنّي أنزل كتاباً أعظم من هذا، قال: على من يا ربّ؟ قال: على خاتم النبيين، قال: وكيف تقرؤه أمته، ولهم أعمار قصيرة؟ قال: إنّي أيسره عليهم حتى يقرأه صبيانهم، قال: يا ربّ وكيف تفعل؟ قال: إنّي أنزلت من السماء إلى الأرض مئة وثلاثة كتب: خمسين على شيث، وثلاثين على إدريس، وعشرين على إبراهيم، والتوراة عليك، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، وذكرت الكائنات في هذه الكتب، فأذكر جميع معاني هذه الكتب في كتاب محمد ﷺ، وأجمع ذلك كلّه في مائة وأربع عشرة سورة، وأجعل هذه السور في ثلاثين جزءاً، والأجزاء في سبعة أسباع؛ يعني: في سبع آيات (الفاتحة)، ثمّ أجعل معانيها في سبعة أحرف، وهي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ثمّ ذلك كلّه في الألف من ﴿الٓمٓ﴾ ثمّ افتتح سورة (البقرة) فأقول ﴿الٓمٓ﴾. ولمّا وعد الله ذلك في التوراة، وأنزله على محمد ﷺ جحدت اليهود لعنهم الله تعالى أن يكون هذا ذلك، فقال تعالى: ذلك الكتاب، كما في تفسير «التيسير». وقد مرّ لك: أنّ في هذه الآية أوجه أخر من الإعراب، وسيأتي تطبيق بعضها في مبحث الإعراب.

والكتاب:[1] اسم بمعنى المكتوب، وهو النقوش والرقوم الدالّة على المعاني، والمراد به هنا: الكتاب المعروف المعهود للنبي ﷺ الذي وعده الله تعالى به؛ لتأييد رسالته، وكفل به هداية طلاّب الحقّ، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم.

وفي التعبير به: إيماء إلى أنَّ النبي ﷺ لم يؤمر بكتابة شيء سواه، وعدم كتابة القرآن كلّه بالفعل حين الإشارة إليه لا يمنع الإشارة، ألا ترى أنّ من

---

(١) المراغي.

المستفيض الشائع في التخاطب: أن يقول إنسان لآخر: هَلُّم أُملِ عَلَيْكَ كتاباً، والكتاب لم يوجد بعد.

﴿لَا رَيْبَۛ﴾: كائن ﴿فِيهِۛ﴾، فقوله:[1] ﴿رَيْبَۛ﴾: اسم لا، و﴿فِيهِۛ﴾: خبرها، وهو في الأصل: من رابني الشيء، إذا حصل فيك الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، سمّي به الشكّ؛ لأنّه يقلق النفس، ويزيل الطمأنينة، قال الشاعر:

ليس في الحقّ يا أُميَّةُ رَيْبُ   إنَّما الرَّيْبُ ما يَقول الكَذُوبُ

وفي الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». فإنّ الشكّ ريبة، والصدق طمأنينة. ومنه: رِيَب الزمان لنوائبه. وفي «التيسير»: الريب: شكٌّ فيه خوف، وهو أخصّ من الشكّ، فكلّ ريب شكّ، وليس كلّ شكّ ريباً. والشكّ: هو التردّد بين النقيضين، ولا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاكّ. ولم يقدم الظرف على الريب؛ لئلاّ يذهب الفهم إلى أنّ هناك كتاباً آخر فيه الريب لا فيه.

فإن قلتَ: الكفّار شكّوا فيه فلم يُقِرُّوا بكتاب الله تعالى، والمبتدعون من أهل القبلة شكّوا في معاني متشابهه، فأوّلوها وضلّوا بها، والعلماء شكّوا في وجوهه، فلم يقطعوا القول على وجه منها، والعوامّ شكّوا فيه فلم يفهموا معانيه، فما معنى نفي الريب عنه؟.

فالجواب: إنّ هذا إنما هو نفي الريب عن الكتاب لا عن الناس، والكتاب موصوف بأنّه لا يتمكّن فيه ريب، فهو حقٌّ صدق معلومٌ ومفهومٌ شَكَّ فيه الناسُ، أو لم يشكُّوا، كالصدق صدقٌ في نفسه وإن وصفه الناس بالكذب، والكذب كذب وإن وصفه الناس بالصدق، فكذا الكتاب ليس مما يلحقه ريب، أو يتمكن فيه عيب، ويجوز أن يكون خبراً في معنى الأمر، ومعناه: لا ترتابوا، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾ المعنى: لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا، كما في «الوسيط» و«العيون».

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أنّ هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتيَ بكلام يَقربُ منه بلاغةً وفصاحةً. وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. وارتياب كثير من الناس فيه؛ إنّما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عَمَىً بصيرتهم، أو عن التعنّت عناداً، واستكباراً، واتباعاً للهوى، أو تقليداً لسواهم.

والهاء[2] المتصلة بفي من ﴿فِيهِ﴾: ضمير غائب مذكر مفرد، وقد يوصل بياء، وهي قراءة ابن كثير، وحكم هذه الهاء بالنسبة إلى الحركة، والإسكان، والاختلاس، والإشباع في كتب النحو. والوقف[3] على ﴿فِيهِ﴾ هو المشهور، وقد روي عن نافع، وعاصم، الوقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾. قال في «الكشاف»: ولا بد للواقف من أن ينويَ خبراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾، وقول العرب: لا بأس. وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز، والتقدير: لا ريب فيه. فيه هدى.

﴿هُدًى﴾؛ أي: هو رشد وبيان ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي:[4] للضالّين المشارفين التقوى الصائرين إليها. ومثله حديث «من قتل قتيلاً فله سلبه»، وقال أبو السعود في «الإرشاد» ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للمتصفين بالتقوى حالاً، أو مآلاً. وتخصيص الهدى بهم؛ لما أنّهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره، وإن كان ذلك شاملاً لكلّ ناظر من مؤمن وكافر. والهداية: عبارة عن الدلالة. وقيل: دلالة بلطف. وقيل: هو هاد لا ريب في هدايته للمتقين. قال في «التيسير»: وكذلك يقال في كلّ من انتفع بشيء دون غيره: إنه لك على الخصوص؛ أي: المنتفع به وحدك. وليس في كون بعض الناس لم يهتدوا به ما يخرجه من أن يكون هدى، فالشمس

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممرور، والمسك مسك وإن لم يدرك طيبه المأنوف. فالخيبة كلّ الخيبة؛ لمن عطش، والبحر زاخر، وبقي في الظلمة والبدر زاهر، وخَبُث والطيب حاضر، والحسرة كل الحسرة؛ لمن عصى وفسق، والقرآن ناه آمر، وفارق الرغبة والرهبة، والوعد متواتر والوعيد متظاهر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

والمتقين: جمع متّق، والمتقي: اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية، وهي فرط الصيانة، قال البغوي: هو مأخوذ من الاتقاء، وأصله: الحاجز بين الشيئين، ومنه يقال: اتقى بترسه؛ أي: جعله حاجزاً بين نفسه وبين من يقصده. وفي الحديث: كنّا إذا احمرَّ البأس، اتقينا برسول الله ﷺ؛ أي: إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدوّ، فكأنَّ المتقي يجعل امتثال أمر الله، والاجتناب عمّا نهاه حاجزاً بينه وبين العذاب. والتقوى في عرف الشرع[1]: عبارة عن كمال التوقّي عمّا ضُرّه في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقّي عن العذاب المخلّد؛ بالتبرّي من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

والثانية: التجنّب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

والثالثة: أن يتنزّه عما يشغل سرّه عن الحقّ عز وجلّ، ويتبتل إليه بكليته، وهو التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. وأقصى مراتب هذا النوع من التقوى: ما انتهى إليه هِمَمُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث جمعوا رياستي النبوة والولاية، وما عاقهم التعلّق بعالم الأشباح، عن العروج إلى عالم الأرواح، ولم تصدّهم الملابسة بمصالح الخلق، عن الاستغراق في شؤون الحقّ؛ لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيّدة

---

(١) روح البيان.

بالقوة القدسية، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين، فهداية العامّ بالإسلام، وهداية الخاص بالإيقان والإحسان، وهداية الأخصّ بكشف الحجب ومشاهدة العيان.

وفي «التأويلات النجمية»: المتقون هم الذين أوفوا بعهد الله من بعد ميثاقه، ووصلوا به ما أمر الله أن يوصل به من مأمورات الشرع ظاهراً وباطناً، يدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾.

والعقاب الذي يُتَّقىٰ منه ضربان[1]: دنيوي وأخروي، وكلّ منهما يُتَّقىٰ باتقاء أسبابه، فعقاب الدنيا يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله في الخليقة، وعدم مخالفة النظم التي وضعها في الكون، فاتقاء الفشل والخذلان في القتال مثلاً، يتوقّف على معرفة نظم الحرب، وفنونها، وآلاتها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾، كما يتوقّف على القوة المعنوية: من اجتماع الكلمة، واتحاد الأمة، والصبر والثبات، والتوكل على الله، واحتساب الأجر عنده، وعقاب الآخرة يتقى: بالإيمان الخالص، والتوحيد، والعمل الصالح، واجتناب ما يضادّ ذلك من الشرك، واجتناب المعاصي والآثام التي تضرّ المرء، أو تضرّ المجتمع.

والمتقون في هذه الآية: هم الذين سمت نفوسهم، فأصابت ضرباً من الهداية، واستعداداً لتلقي نور الحقّ، والسعي في مرضاة الله بقدر ما يصل إليه إدراكهم، ويبلغ إليه اجتهادهم. وقد كان من هؤلاء ناسٌ في الجاهلية كرهوا عبادة الأصنام، وأدركوا أنَّ خالق الكون لا يرضى بعبادتها، كذلك كان من أهل الكتاب ناسٌ يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين.

ومن المعلوم: أنّ في قوله: ﴿هُدًى﴾ مجازاً عقلياً؛ لما فيه من إسناد الشيء إلى سببه؛ أي: هو هاد، أو مجازاً بالحذف؛ أي: ذو هُدًى، أو مبالغة

---

(١) المراغي.

فيه حتى جُعِل نفسَ الهدى على حدّ: زيدٌ عدلٌ.

والمعنى؛ أي: هذا الكتاب هاد ومرشد للمؤمنين المتصفين بالتقوى من سخط الله تعالى، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ثم وصف المتقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي يصدّقون ويوقنون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بالشيء الغائب عنهم مما لم تدركه عقولهم، ولم تعرفه حواسُّهم مما أخبرهم الرسول ﷺ، أو القرآن من اليوم الآخر وأحواله من البعث، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وغير ذلك من أهواله.

والإيمان: تصديقٌ جازمٌ يقترن بإذعان النفس واستسلامها، وأمارته: العمل بما يقتضيه الإيمان، وهو يختلف باختلاف مراتب المؤمنين في اليقين. والغيب: ما غاب عنهم علمه، كذات الله سبحانه، وملائكته،، والدار الآخرة وما فيها من البعث، والنشور، والحساب، والمجازاة. والإيمان بالغيب: هو اعتقاد وجود موجود وراء المُحسَّسات، متى أرشد إليه الدليل، أو الوجدان السليم. ومن يعتقد بهذا يسهل عليه التصديق بوجود خالقٍ للسموات والأرض، منزه عن المادّة وتوابعها، وإذا وصف له الرسول العوالم التي استأثر الله وانفرد بعلمها، كعالم الملائكة، أو وصف له اليوم الآخر، لم يصعب عليه التصديق به بعد أن يستيقن صدق النبي الذي جاء به، أمّا من لا يعرف إلاّ ما يدركه الحسّ، فإنه يصعب إقناعه، وقلّما تجد الدعوة إلى الحق من نفسه سبيلاً.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إمّا[1] موصول بالمتقين، ومحلّه الجرّ على أنّه صفةٌ مُقَيِّدَةٌ له، إن فسّرت التقوى بترك المعاصي فقط، مرَتَّبةٌ عليه ترتيب التحلية على التخلية، أو موضحةٌ إن فسرت التقوى بما هو المتعارف شرعاً، والمتبادر عرفاً من فعل الطاعات، وترك المعصيات معاً؛ لأنّها حينئذٍ تكون تفصيلاً لما انطوى عليه اسم الموصول إجمالاً، وصفة مادحة للموصوفين بالتقوى المفسَّرة بما مرّ من فعل الطاعات، وترك السيئات. وتخصيص ما ذكر من

---

(١) الفتوحات.

الخصال الثلاث بالذكر؛ لإظهار شرفها، وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات. أو محلّه النصب على المدح بتقدير: أمدح، أو الرفع عليه بتقدير: هم. وإمّا مفصول عنه مرفوع بالابتداء، خبره الجملة المصدّرة باسم الإشارة، كما سيأتي بيانه، فالوقف على المتقين حينئذٍ وقف تامّ؛ لأنّه وقف على مستقلّ، وما بعده أيضاً مستقل، وأما على الوُجوهِ الأُوَلِ، فالوقف حسن غير تامّ؛ لتعلّق ما بعده به وتبعيته له. اهـ. «أبو السعود».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالهمزة ساكنة بعد الياء، وهي فاء الكلمة، وحَذَفَ همزةَ أفعل حيث وقع ذلك ورشٌ والسوسي وأبو جعفر وقفاً ووصلاً، وحمزة وقفاً فقط وهذه القراءات كلها في المتواتر، وقرأ رزين ـ شاذاً ـ بتحريك الهمزة، مثل: ﴿يؤخركم﴾، ووجه قراءته أنه حذف الهمزة التي هي فاء الكلمة؛ لسكونها، وأقرّ همزة أفعل؛ لتحركها، وتقدمها، واعتلالها في الماضي والأمر. اهـ. من «البحر».

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: الغيب هنا مصدر بمعنى اسم الفاعل، كما مرّت الإشارة إليه، قال أبو السعود: والغيب: إما مصدر وصف به الغائب مبالغة، كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾؛ أي: ما غاب عن الحسّ والعقل غيبة كاملة بحيث لا يُدْرَك بواحد منهما ابتداءً بطريق البداهة، وهو قسمان:

قسم: لا دليل عليه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

وقسم: قامت عليه البراهين كالصانع وصفاته، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام، والشرائع، واليوم الآخر، وأحواله من البعث والنشر، والحساب والجزاء، وهو المراد ههنا. فالباء: صلة للإيمان إما بتضمينه معنى الاعتراف، أو بجعله مجازاً عن الوثوق، وهو واقع موقع المفعول به. وإمّا مصدر على حاله كالغيبة، فالباء: متعلّقة بمحذوف وقع حالاً من الفاعل، كما في قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: يؤمنون ملتبسين بالغيبة إما عن المؤمَن به؛ أي: غائبين عن النبي ﷺ، غير مشاهدين لما معه من شواهد النبوة، وإما عن الناس؛ أي: غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم. وقيل: المراد بالغيب القلب؛ لأنّه مستور، والمعنى: يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فالباء حينئذٍ للآلة. وترك ذكر المؤمَن به على التقادير الثلاثة؛ إيماءً للقصد إلى إحداث نفس الفعل، كما في قولهم: فلان يعطي ويمنع؛ أي: يفعلون الإيمان، وإما للاكتفاء بما سيجيء، فإنّ الكتب الإلٰهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الإيمان به.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدّونها بحقوقها الظاهرية من الشروط، والأركان، والسنن، وترك المفسدات، والمكروهات، والباطنية، كالخشوع، وحضور القلب، والإخلاص. والصلاة في هذه الآية: اسم جنس، أريد بها الصلوات الخمس، كما في «الروح». وإقامتها: عبارة عن تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها خلل، من أقام العود إذا قوَّمه وعدّله. وقيل: عبارة عن المواظبة عليها من قولهم: قامت السوق إذا نفقت. وقيل: عبارة عن التشمير لأدائها من غير فتور ولا توان، من قولهم: قام بالأمر وأقامه إذا جدَّ فيه وتجاد، وضدُّه قعد عن الأمر وتقاعد.

واعلم: أنّ الصلاة في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، ودعاء المعبود بالقول، أو بالفعل، أو بكليهما، يُشْعِر العابدَ بالحاجة إليه؛ استدراراً للنعمة، أو دفعاً للنقمة، والصلاة على النحو الذي شرعه الإسلام، من أفضل ما يعبَّر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه، لو أقيمت على وجهها، أمّا إذا خلت عن الخشوع، فإنّها تكون صلاةً لا روح لها، وإن كانت قد وجدت صورتها، وهي الكيفيات المخصوصة، ولا يقال للمصّلي حينئذٍ: أنّه امتثل أمر ربه، فأقام الصلاة؛ لأنّ الإقامة مأخوذة من أقام العود، إذا سواه وأزال اعوجاجه، فلا بد فيها من حضور القلب في جميع أجزائها، واستشعار الخشية

ومراقبة الخالق، كأنّك تنظر إليه، كما ورد في الحديث: «أُعبد الله كأنّك تراه، فإنّ لم تكن تراه فإنه يراك».

ولما للصلاة من خطر في تهذيب النفوس والسمو بها إلى الملكوت الأعلى، أبان الله سبحانه عظيم آثارها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وجعلها النبي ﷺ عماد الدين، فقال: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام». وقد أمر الله سبحانه بإقامتها بقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والمحافظة عليها، وإدامتها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وبأدائها في أوقاتها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، وبأدائها جماعة بقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وبالخشوع فيها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أي: ومن بعض ماأعطيناهم، وملَّكناهم من الأموال؛ لأنّ المراد بالرزق هنا: المِلْك، وليس المراد به الرزق الحقيقي، إذ لا يمكن تعديه لغيره. وفي قوله: ﴿وَمِمَّا﴾ حذف نون من التبعيضية لفظاً وخطّاً؛ لإدغامها في ما الموصولة. ﴿يُنفِقُونَ﴾: ويصرفون إنفاقاً واجباً، كالزكاة، والنفقة على الوالدين والعيال، أو مندوباً، كالتوسعة على العيال، ومواساة الأقارب والفقراء، فالإنفاق هنا شامل للواجب والمندوب، كما اختاره ابن جرير. وروي عن ابن عباس: أنّ المراد بها: زكاة الأموال. والرزق في اللغة: العطاء، وفي العرف: ما ينتفع به الحيوان، وهو يتناول الحلال والحرام عند أهل السنة، كما قال أحمد بن رسلان:

يَرزُقُ مَنْ شَاءَ ومَنْ شَا أحْرَمَا ... والرزقُ ما ينفعْ ولو محرَّما

ولكنّ[1] القرينة ههنا تخصصه بالحلال؛ لأنّ المقام مقام المدح. وتقديم المفعول للاهتمام به، وللمحافظة على رؤوس الآي. وإدخال من التبعيضية عليه؛ للكفّ عن الإسراف المنهيّ عنه. وصيغة الجمع في رَزَقْنا مع أنه تعالى واحد لا

(١) روح البيان.

شريك له؛ لأنّه خطاب الملوك، والله تعالى مالك الملك، وملك الملوك، والمعهود من كلام الملوك أربعة أوجه: الإخبار على لفظ الواحد، نحو: فعلت كذا، وعلى لفظ الجمع، نحو: فعلنا كذا، وعلى ما لم يسم فاعله، نحو: رُسِمَ كذا، وإضافة الفعل إلى اسمه على وجه المغايبة، نحو: أمركم سلطانكم بكذا، والقرآن نزل بلغة العرب، فجمع الله فيه هذه الوجوه كلّها فيما أخبر به عن نفسه، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ على صيغة الواحد، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ على صيغة الجمع، وقال فيما لم يسمّ فاعله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وأمثاله، وقال في المغايبة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأمثاله، كذا في «التيسير».

والإنفاق والإنفاد أَخَوان، خلا أنَّ في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول، والمراد بهذا الإنفاق: الصرف إلى سبيل الخير فرضاً كان أو نفلاً. ومن فسّره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هي شقيقتها وأختها، وهي الصلاة.

واعلم: أنّه سبحانه ذكر في الآية الإيمان، وهو بالقلب، ثمّ الصلاة وهي بالبدن، ثمّ الإنفاق وهو بالمال، وهو مجموع كل العبادات. ففي الإيمان النجاة، وفي الصلاة المناجاة، وفي الإنفاق الدرجات، وفي الإيمان البشارة، وفي الصلاة الكفارة، وفي الإنفاق الطهارة، وفي الإيمان العزة، وفي الصلاة القربة، وفي الإنفاق الزيادة.

فصلٌ في مسائل تتعلق بالصلاة

المسألة الأولى: واعلم أنّ الناس بالنسبة إلى الصلاة على أربع طباق:

الأولى: طبقة لم يقبلوها، ورأسهم أبو جهل لعنه الله، وفي حقّه قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وذكر مصيرهم بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

والثانية: طبقةٌ قبلوها ولم يؤدوها، وهم أهل الكتاب، وذكرهم الله تعالى

بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ وهم أهل الكتاب ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وذكر مصيرهم ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

والثالثة: طبقة قبلوها وأدَّوْا بعضاً منها، ولم يؤدُّوا بعضاً آخر متكاسلين، وهم المنافقون، وذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

والرابعة: طبقة قبلوها، وهم يراعونها في أوقاتها بشرائطها، ورأسهم المصطفى ﷺ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، وأصحابُه كذلك، وذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾، وذكر مصيرهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾.

المسألة الثانية: رُوي[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (بعث الله النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلاّ الله، فلمّا صدّق زاد الصلاة، فلمّا صدّق زاد الزكاة، فلمّا صدّق زاد الصيام، فلمّا صدّق زاد الحج، ثمّ الجهاد، ثمّ أكمل لهم الدين).

وقال مقاتل: كان النبي ﷺ يصلّي بمكة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشاء، فلمّا عُرِج به إلى السماء أُمِر بالصلوات الخمس، كما في «روضة الأخيار».

وإنما فرضت الصلاة ليلة المعراج؛ لأنّ المعراج أفضل الأوقات، وأشرف الحالات، وأعزّ المناجات، والصلاة بعد الإيمان أفضل الطاعات، وفي التعبّد أحسن الهيئات، ففَرَضَ أفضل العبادات في أفضل الأوقات، وهو وصول العبد إلى ربّه، وقربه منه.

المسألة الثالثة: في ذكر بعض الحِكَم. وأمَّا الحكمة في فرضيتها؛ فلأنّه ﷺ لمَّا أُسري به شاهد ملكوت السموات بأسرها وعبادات سكّانها من الملائكة، فاستكثرها ﷺ غبطة، وطلب ذلك لأمّته، فجمع الله له في الصلوات الخمس

---

(١) روح البيان.

عبادات الملائكة كلّها؛ لأنّ منهم من هو قائم، ومنهم من هو راكع، ومنهم من هو ساجد، وحامد، ومسبّح، ومكبّر، إلى غير ذلك. فأعطى الله سبحانه أجور عبادات أهل السموات لأمّته إذا أقاموا بالصلوات الخمس، هكذا قالوا، والله أعلم.

والحكمة في كونها خمس صلوات: أنها كانت متفرّقة في الأمم السالفة، فجمعها سبحانه لنبيّه وأمّته؛ لأنّه ﷺ مجمع الفضائل كلّها دنيا وأخرى، وأمته من بين الأمم كذلك، فقد قيل: أوّل من صلّى الفجر آدم، والظهر إبراهيم، والعصر يونس، والمغرب عيسى، والعشاء موسى. فهذا سرّ القرار على خمس صلوات. وقيل: صلّى آدم الصلوات الخمس كلّها، ثمّ تفرقت بعده بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأوّل من صلّى الوتر رسول الله ﷺ ليلة المعراج، ولذلك قال: «زادني ربّي صلاة»؛ أي: الوتر على الخمس، أو صلاة الليل، فافهم.

قيل[1]: وأول من بادر إلى السجود جبريل ـ عليه السلام ـ ولذلك كان رفيق الأنبياء وخادمهم، وأوّل من قال: سبحان الله جبريل، والحمد لله آدم، ولا إلٰه إلاّ الله نوح، والله أكبر إبراهيم، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم رسول الله ﷺ. ذكر ذلك كلّه في «كشف الكنوز وحلّ الرموز»، وهكذا قالوا ولكن لا أصل له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوف على الموصول الأول، وهو نوع آخر للمتقين، فإنها أنزلت فيمن كان آمن بعيسى وأدرك النبي ﷺ: كعبد الله بن سلام، وعمّار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والنجاشي وغيرِهم. وأما النوع الأول: فهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ من مشركي العرب؛ لأنّهم لم يُرسَل إليهم غيره ﷺ. فنزلت الآية الأولى إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيهم. روى ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ المراد بالمؤمنين هنا: مَن آمنوا بالنبي ﷺ وبالقرآن من أهل الكتاب، وبالمؤمنين فيما قبلها مَن آمنوا من مشركي العرب.

---

(١) روح البيان.

أي: والذين يصدّقون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد، وهو القرآن الذي يتلى، والوحي الذي لا يتلى. وهو ما بيّنه النبي ﷺ من أعداد الركعات، ونُصُب الزكوات، وحدود الجنايات. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ﴾. والتعبير عن إنزاله بالماضي مع كون بعضه مترقباً حينئذٍ؛ لتغليب المحقَّق على المقدَّر، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحقُّقِه منزلة الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ مع أنّ الجنّ ما كانوا سمعوا الكتاب جميعاً، ولا كان الجميع إذ ذاك نازلاً. وفي «الكواشي»: لأنّ القرآن شيء واحد في الحُكم، ولأنّ المؤمن ببعضه مؤمن بكلّه. انتهى. والإنزال هنا[1]: بمعنى الوحي، وسمّي إنزالاً، وهو نقل الشيء من العلو إلى السفل، ولا يكون إلاّ في الأجسام؛ لما في جانب الألوهية من علوّ الخالق على المخلوق، أو لإنزال جبريل له على النبي ﷺ لتبليغه للخلق، كما قال في آية أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾؛ يعني: أنّ الإنزال نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، وهو إنّما يلحق المعاني بواسطة لحوقه الذوات الحاملة لها، فنزول ما عدا الصحف من الكتب الإلٰهيّة إلى الرسل عليهم السلام والله أعلم: بأن يتلقّاها الملك من جنابه تعالى تلقِّياً روحانياً، أو يحفظها من اللوح المحفوظ، فينزل بها إلى الرسل، فيلقيها عليهم.

﴿وَ﴾ يؤمنون بـ ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ من الكتب السالفة من التوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها على الرسل الذين أُرسلوا ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ إيماناً إجماليّاً لا تفصيلياً، والإيمان بالكل جملة فرض عين، وبالقرآن تفصيلاً من حيث إنّا متعبَّدُون بتفاصيله فرض كفاية، فإنّ في وجوبه على الكلّ عيناً حرجاً بَيِّناً، وإخلالاً بأمر المعاش.

قال في «التيسير»:[2] الإيمان بكلّ الكتب مع تنافي أحكامها على وجهين:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

أحدهما: التصديق أنّ كلّها من عند الله تعالى.

والثاني: الإيمان بما لم ينسخ من أحكامها.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول، وهو في المعدودات اسم للفرد اللاحق، وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾، وهي من الصفات الغالبة، وكذا الدنيا، وسمّيت الدنيا دنيا لدنوها؛ أي: قربها من الآخرة، أو لدناءتها وخسّتها، وسمّيت الآخرة آخرة؛ لتأخّرها، وكونها بعد الدنيا. ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً، وتقديم الجار والمجرور على الفعل؛ لرعاية الفاصلة، أو لإفادة الحصر، وأتى بالجملة الاسمية للاهتمام به؛ لأنّه أعلى من الإنفاق. والإيقان: إتقان العلم بالشيء بنفي الشكّ، والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يسمّى علمه تعالى يقيناً، وكذا العلوم الضرورية. وفيه ردّ على من أنكر الآخرة ممن لا يؤمن بمحمد ﷺ.

وقرأ الجمهور ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأهما النخعيّ، وأبو حيوة، ويزيد بن قطيب مبنياً للفاعل، وقرىء شاذّاً ﴿بما أنزلّ إليك﴾ بتشديد اللام، ووجه ذلك: أنه أسكن لام ﴿أُنزِلَ﴾ ثم حذف همزة (إلى)، ونقل كسرتها إلى لام «أنزل»، فالتقى المثلان من كلمتين، فأُدغِم، والإدغام جائز. وقرأ الجمهور ﴿يُوقِنُونَ﴾ بواو ساكنة بعد الياء، وهي مبدلةٌ من ياء؛ لأنّه من أيقن. وقرأ أبو حية النَّمِريُّ بهمزة ساكنة بدل الواو.

ومعنى الآية: أي[1] والذين يصدقون بما أنزل إليك من القرآن والوحي، أنه من عند الله تعالى، ويصدقون بما أُنزل على الرسل من قبلك من سائر الكتب السماوية، أنها من عند الله سبحانه وتعالى، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله. وقال ابن عباس: أي: يصدقون بما جئت به من الله تعالى، وبما جاء به مَنْ قبلك من الرسل، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون بما جاءوا به من ربهم، وبمجيء الدار الآخرة التي تتلو الدنيا مع ما فيها من البعث، والحشر والحساب،

(١) العمدة.

والميزان، والجزاء، والجنة والنار. هم يوقنون؛ أي:[1] يعلمون علماً قطعياً مُزيحاً لما كان عليه أهل الكتاب من الشكوك والأوهام التي من جملتها: زعمهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنَّ النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، واختلافهم في أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا؟ وهل هو دائم أو لا؟ فقال فرقة منهم: يجري حالهم في التلذذ بالمطاعم، والمشارب، والمناكح على حسب مجراها في الدنيا، وقال آخرون: إنّ ذلك إنّما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام، ولمكان التوالد والتناسل، وأهل الجنة مستغنون عنه، فلا يتلذذون إلا بالنسيم، والأرواح العبقة، والسماع اللذيذ، والفرح والسرور. وفي بناء ﴿يُوقِنُونَ﴾ على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، فإنّ اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة، فضلاً من الوصول إلى مرتبة اليقين. فدل التقديم على التخصيص، بأن إيقان من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، مقصورٌ على الآخرة الحقيقية لا يتجاوز إلا ما أثبته الكفار بالإقرار من أهل الكتاب.

واليقين[2]: هو التصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردد، ويُعرَف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال، فمن يشهد الزور، أو يشرب الخمر، أو يأكل حقوق الناس يكن إيمانه بهما خيالاً يلوح في الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين، إذ لم يظهر آثاره في الجوارح واللسان، وهو لا يكون إيماناً حقّاً إلاّ إذا كان مالكاً لزمام النفس مصرّفاً لها في أعمالها.

والإيمان على الوجه الصحيح يحصل من أحد طريقين:

١ ـ البحث والتأمّل فيما يُحتاج إلى ذلك، كالعلم بوجود الله سبحانه ورسالة الرسل.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

٢ ـ خَبَرُ الرسول بعد أن تقوم الدلائل على صدقه فيما يبلغ عن ربه، أو خبر من سمع منه بطريق لا تحتمل ريباً ولا شكّاً، وهي طريق التواتر، كالعلم بأخبار الآخرة وأحوالها، والعالم العُلوي وأوصافه. وعلينا أن نقف عند ذلك، فلا نزيد فيه شيئاً، ولا نخلطه بغيره مما جاء عن طريق أهل الكتاب، أو عن بعض السلف بدون تمحيص ولا تَثَبُّت من صحته، وقد دَوَّنه المفسرون في كتبهم، وجعلوه من صلب الدين، وهو ليس منه في شيء.

قال أبو الليث ـ رحمه الله تعالى ـ في «تفسيره»: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين عيان، ويقين دلالة، ويقين خبر. فأما يقين العيان: فهو أنّه إذا رأى شيئاً زال الشك عنه في ذلك الشيء. وأما يقين الدلالة: فهو أن يرى الرجل دخاناً ارتفع من موضع يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها. وأما يقين الخبر: فهو أنّ الرجل يعلم باليقين أنّ في الدنيا مدينة يقال لها: بغداد وإن لم ينته إليها.

فههنا يقين خبر ويقين دلالة؛ لأنّ الآخرة حقّ، ولأنّ الخبر يصير معاينة عند الرؤية. انتهى. ويقال: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص فيها، وحقّ اليقين المشاهدة فيها، ثُمَّ ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها. فقد قيل: عشرةٌ من المغرورين: من أيقن أنّ الله خالقه ولا يعبده، ومن أيقن أنّ الله رازقه ولا يطمئن به، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها، ومن أيقن أنّ الورثة أعداؤه ويجمع لهم، ومن أيقن أنَّ الموت آت فلا يستعدُّ له، ومن أيقن أنَّ القبر منزله فلا يعمره، ومن أيقن أنّ الديَّان يحاسبه فلا يصحح حجته، ومن أيقن أنّ الصراط مَمَرُّهُ فلا يخفف ثقله، ومن أيقن أنَّ النار دار الفجّار فلا يهرب منها، ومن أيقن أنّ الجنّة دار الأَبْرار فلا يعمل لها، كما في «التيسير».

قال ذو النون المصريُّ: اليقين داع إلى قِصَر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب. اهـ.

وجملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محل[١] الرفع، إن جُعِل أحد المَوصولَيْنِ

(١) روح البيان.

مفصولاً عن المتقين على أنّها خبر له، وكأنّه لما قيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قيل: ما بالهم خُصُّوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات. وإلاّ فاستئنافٌ لا محلَّ لها، فكأنَّه ينتجه الأحكام السابقة، والصفات المتقدمة. وأولاء: جمع، لا واحد له من لفظه، مبني على الكسر، وكافه للخطاب كالكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكورون قبله، وهم المتقون الموصوفون بالإيمان بالغيب وسائر الأوصاف المذكورة بعده. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك أكمل تميُّزٍ، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار بعلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم في الفضل.

وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجل: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ خبره، وما فيه من الإبهام المفهوم من التنكير؛ لكمال تفخيمه، كأنّه قيل: على هُدًى؛ أيْ: هدى لا يُبلَغ كنهه ولا يُقادَر قدره، كما تقول: لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً. وإيراد كلمة الاستعلاء؛ لتمثيلِ حالهم في ملابستهم بالهدى، وتمسكهم به، واستقرارهم عليه بحال من يقبل الشيء، ويستولي عليه. يعني: شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد؛ وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل. يعني: أكرمهم الله تعالى في الدنيا، حيث هداهم، وبيَّن لهم طريق الفلاح قبل الموت.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفةً له، مبيِّنة لفخامته الإضافية إثر بيان فخامته الذاتيّة، مؤكِّدةً لها؛ أي: على هدى كائن من ربهم سبحانه، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى وفنون توفيقه. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم؛ لغاية تفخيم الموصوف، والمضاف إليهم وتشريفهما.

ثُمَّ في هذه الآيةِ[1] ذَكَر الهدى للموصوفين بكل هذه الصفات، وفي قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ

(١) روح البيان.

﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ ذكر لهم الهداية بالإقرار والاعتقاد بدون سائر الطاعات؛ بياناً لشرف الإيمان، وجلالة قدره، وعلو أمره، فإنّه إذا قوي لم يبطله نفس المخالفات، بل هو الذي يغلب، فيُرَدُّ إلى التوبة بعد التمادي في البطالات، وكما هُدِيَ اليوم إلى الإيمان يُهدَىٰ غداً إلى الجنان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾. وذلك، أنَّ المطيعين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهم على مراكب طاعاتهم، والملائكة تتلقاهم. قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾، وتتلقَّاهم الملائكة، وتبقى العصاة منفردين منقطعين في متاهات القيامة، ليس لهم نور الطاعات، ولا في حقهم استقبال الملائكة، فلا يهتدون السبيل، ولا يهديهم دليل.

وقرأ ابن هرمز ﴿من ربِّهُم﴾ بضمّ الهاء، وكذلك سائِر هاءَات جمع المذكر والمؤنث على الأصل من غير أن يراعي فيها سبق كسر أو ياءٍ، ذكره في «البحر».

فإن قلت: لِمَ ذكر هدى هنا مع قوله أولاً: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؟

قلت: لأنّه ذكر هنا مع هدًى فاعلَه بخلافه ثَمَّ. ذكره في فتح الرحمن. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تكرير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[1]؛ للدلالة على أنّ كلّ واحد من الحُكْمين مستبدّ في تميّزهم به عن غيرهم، فكيف بهما، وتوسيط العطف بينهما؛ تنبيه على تغايرهما في الحقيقة لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا، بخلاف قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ فإنّ التسجيل بالغفلة، والتشبيه بالبهائم شيء واحد، فكانت الجملة الثانية مقررة للأولى، فلا تناسب الفصل.

وفائدة الفصل بين المبتدأ والخبر بالضمير: الدلالة على أنّ ما بعده خبر لا صفة، وأنّ المسند ثابت للمسند إليه دون غيره، فصفةُ الفلاح مقصورة عليهم، لا تتجاوز إلى من عداهم من اليهود والنصارى، ولا يلزم من هذا أن لا يكون ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ صفة أخرى غير الفلاح، فالقصر قصر الصفة على الموصوف لا العكس، حتى يلزم ذلك. أو ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ خبره والجملة خبر

(١) روح البيان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. والمفلح بالحاء والجيم: هو الفائز بالبغية بعد سعي في الحصول عليها، واجتهاد في إدراكها، كأنّه انفتحت له وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه من الفلح، وهو الشقُّ والقطع، ومنه سمّي الزارع فلاحاً؛ لأنّه يشقّ الأرض. وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين، نحو: فلق، وفلذ، وفلىٰ يدلّ على الشق والفتح. والمشار إليه بأولئك في الموضعين واحد، وهم المؤمنون من غير أهل الكتاب، والمؤمنون منهم.

تنبيه[1]: تأمّل كيف نبّه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد من وجوه شتّى: بناء الكلام على اسم الإشارة؛ للتعليل مع الإيجاز، وتكريره، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل لإظهار قدرهم، والترغيب في اقتفاء أثرهم. وقد تشبثت الوعيدية بهذه الآية في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب، ورُدَّ بأن المراد بالمفلحون: الكاملون في فلاحهم، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح لهم رأساً، كما في «تفسير البيضاوي».

وحاصل الفلاح يرجع إلى ثلاثة أشياء[2]: أحدها: الظفر على النفس فلم يتابعوا هواها، والدنيا فلم يَطغَوْا بزخارفها، والشيطان فلم يُفتَنوا بوساوسه، وقرناء السوء فلم يُبْتَلُوا بمكروهاتهم.

والمعنى: أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة، كائنون على هدى ورشادٍ كائنٍ من ربّهم، ومعبودهم، ومالكهم، وأولئك المذكورون هم المفلحون؛ أي: الفائزون في الدنيا وفي الآخرة بالجنّة، والناجون من النار، والمقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة. وقال ابن كثير: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي[3]: المُنجِحون المدرِكون ما طلبوا عند الله بأعمالهم، وإيمانهم بالله، وكتبه، ورسله من الفوز

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) ابن كثير.

بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب. انتهى.

فائدة: ويستفاد من هذه الآيات[1]: أنَّ الهداية الموصلة إلى الفلاح الأبديّ لا تحصل إلا لمن اتصف بالتقوى، وآمن بالغيب الذي أخبر به محمد ﷺ وأقام الصلاة المفروضة، وأنفق في الواجبات مما رزقه الله تعالى، وآمن بالكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وعلى الرسل قبله عليهم الصلاة والسلام، وأيقن مجيء الدار الآخرة.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿الٓمٓ﴾ كلمة أريد لفظها لا معناها؛ لأنها اسم للسورة، في محلّ الرفع خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هذه ﴿الٓمٓ﴾، أي: هذه السورة مسمّاة بلفظ ﴿الٓمٓ﴾ مبني على السكون؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً وضعياً. أو مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ألم هذا محلُّه. وقد تقدم بسط الكلام في معناه وإعرابه في مبحث التفسير، فراجعه. والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محلّ لها من الإعراب.

وعبارة «عمدة التفاسير» هنا: قوله: ﴿الٓمٓ﴾ تقدم لك أنّ الأرجح فيه القول: بأنّه مما انفرد الله سبحانه وتعالى بعلم المراد منه، وعلى هذا القول فلا يوصف بإعراب، ولا بناء؛ لأنّ الإعراب فرع عن إدراك المعنى، ومعناه لم يُعلَم لنا. وعلى القول: بأنّه اسم لهذه السورة مثلاً، ففيه ثلاثة أوجه من الإعراب:

الأول: الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف،

والثاني: النصب على أنّه مفعول به لفعل محذوف وجوباً؛ لشبهه بالمثل، تقديره: اقرؤوا ﴿الٓمٓ﴾ اقرؤوا فعل وفاعل، ﴿الٓمٓ﴾ في محل النصب مفعول به،

---

(١) العمدة.

مبني على السكون؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً استعمالياً بواسطة شبهه بأسماء الأصوات، والجملة الفعلية مستأنفة.

والثالث: الجرّ على أنّه مُقْسَم به حُذِف منه حرف القسم. اهـ. وقال العكبري: هذه الحروف المقطعة كل واحدة منها اسم، فألف: اسم يُعبَّر به عن مثل الألف الذي في (قال)، ولام: اسم يعبّر به عن مثل اللام الذي في (قال)، وكذلك ما أشبهها. والدليل على أنها أسماء: أنّ كلاًّ منها يدلّ على معنى في نفسه، وهي مبنية؛ لأنّك لا تريد أن تخبر عنها بشيء، وإنما يحكي بها ألفاظ الحروف التي جعلت أسماء لها، فهي كالأصوات، نحو: غاق في حكاية صوت الغراب. انتهى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ذا: اسم إشارة يشار به للمفرد المذكر البعيد تنزيلاً للبعد المعنوي منزلة البعد الحسي، في محلّ الرفع مبتدأ، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، واللام: لبعد المشار إليه، أو لمبالغة البعد، والكاف: حرف دالّ على الخطاب. ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان منه، مرفوع بالضمة الظاهرة. ﴿لَا﴾ نافية لحكم الخبر عن جنس الاسم، تعمل عمل إنّ، ﴿رَيْبَ﴾ في محل النصب، اسمها مبني على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمّنه معنى من الاستغراقية، ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف وجوباً؛ لوقوعه خبراً للا، تقديره: لا ريب موجود فيه، وجملة لا من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد ﷺ مُخبَر عنه بعدم وجود ريب فيه، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿هُدًى﴾ خبر ثان للمبتدأ، ففيه الإخبار بالمفرد بعد الإخبار بالجملة، فهو جائزٌ فصيحٌ، والخبر مرفوع بالمبتدأ، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الألف المحذوفة، للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها التعذّر؛ لأنّه اسم مقصور، مثل: فتىً، وصح الإخبار به مع كونه اسم معنى؛ لأنّه في تأويل هاد، ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ خبر أول له؛ لأنه قصد به الإخبار بأنه الكتاب المقدّس المستحق لهذا الاسم، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثان له، أو حال من الكتاب، و﴿هُدًى﴾ خبر ثالث له، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جار ومجرور، وعلامة جره الياء؛ لأنّه من جمع المذكر السالم، وهو جمع مُتَّقٍ

أصله: متقيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى، فحذفت الضمة فالتقى ساكنان، وهما الياءان، فحذفت إحداهما، وهي الأولى، فصار متقين، كما سيأتي بسط الكلام فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. الجار والمجرور متعلّق بهدًى؛ لأنّه مصدر، ويجوز أن تجعله صفة لهدى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول لجمع المذكر في محل الجر صفة للمتقين، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، ويجوز فيه القطع إلى الرفع، أو النصب. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والواو ضمير لجماعة الذكور الغائبين، في محلّ الرفع. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بيؤمنون، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد الواو في يؤمنون، وهو أعني الموصول جامد مؤول بمشتق مأخوذ من الصلة، تقديره: هدى للمتقين المؤمنين بالغيب، أو مأخوذ من ضدّ معنى الموصول، تقديره: للمتقين المعلوم إيمانهم بالغيب. ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على يؤمنون على كونه صلة الموصول. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿ممّا﴾ من حرف جرّ مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل الجر بمن، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، الجار والمجرور متعلّق بينفقون المذكور بعده، قُدِّم عليه اهتماماً بشأن المنفق، أو لرعاية الفاصلة. ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ومما رزقناهم إياه، وهو المفعول الثاني لرزقناهم، وفي «الجَمَل»: أنّ العائد محذوف، فيقدّر متصلاً أو منفصلاً على حدّ قول ابن مالك:

وصل أو افصل هاء سلنيه

﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ على كونها صلة الموصول والعائد إلى الموصول الواو في ﴿يُنفِقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر، معطوف على الموصول الأوّل، على كونه صفة للمتقين. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جرّ. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محلّ الجر بالباء، والجار والمجرور متعلّق بيؤمنون. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، مبني على الفتح، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿إِلَيْكَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل. ﴿وَمَآ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾ في محلّ الجر معطوفة على ما الأولى. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعل مستتر فيه، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل. ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ﴾ الواو عاطفة. ﴿بالآخرة﴾ جار ومجرور متعلّق بيوقنون الآتي، قُدِّم عليه اهتماماً بشأن الآخرة، أو لرعاية الفاصلة. ﴿هُمْ﴾ الهاء ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً وضعياً، والميم حرف دالّ على الجمع. ﴿يُوقِنُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والتقدير: وهم موقنون بالآخرة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ على كونها صلة الموصول، ففيه عطف الجملة الإسمية على الفعلية، وهو جائز.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة يشار به للجمع المطلق، في محلّ الرفع مبتدأ، مبني على الكسر؛ لشَبَهه بالحرف شَبَهاً معنوياً، الكاف حرف دال على الخطاب مبني على الفتح. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: كائنون على هدى، والجملة الإسمية مستأنفة استئنافاً بيانيّاً، لا محلّ لها من الإعراب. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صفة لهدى، تقديره: على هدى كائن من ربّهم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿هُمُ﴾ ضمير

فصل، حرف لا محلّ له من الإعراب. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر المبتدأ، مرفوع بالواو، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ويصحّ أن يعرب ﴿أولئك﴾ مبتدأ أول. و﴿هُمُ﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين، في محلّ الرفع مبتدأ ثان ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريفُ ومفرداتُ اللغة

﴿الٓمٓ﴾ هي وأمثالها من الحروف المقطعة، نحو: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٓ﴾ وغيرها، أسماء مدلولها حروف المعجم، ولذلك نطق بها نطق حروف المعجم، وهي موقوفة الآخر، لا يقال: إنّها معرَبة؛ لأنّها لم يدخل عليها عامل فتعرب، ولا يقال: إنها مبنية؛ لعدم سبب البناء، لكن أسماء حروف المعجم قابلةٌ لتركيب العوامل عليها فتُعرَب، فتقول: هذه ألف حسنة، ونظير سرد هذه الأسماء موقوفةً أسماء العَدد إذا عدوا يقولون: واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة. وقد اختلف العلماء في المراد بها، كما مرّ بسطه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الكتاب يطلق على معان كثيرة، منها: العقد المعروف بين العبد وسيّده على مالٍ منَجَّم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وعلى الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وعلى الحُكْم قاله الجوهري، كما في قوله ﷺ: «لأقضيَنَّ بينكما بكتاب الله، كتاب الله القصاص»، وعلى القَدَر، كما في قوله:

يا ابْنَةَ عَمِّي كتابُ اللَّهِ أَخْرَجني عَنْكُم وهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ ما فَعَلا

أي: قَدَرُ الله سبحانه، وعلى مصدر كَتَبْتُ، تقول: كتبت كتاباً وكتباً، ومنه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى المكتوب، كالحساب بمعنى المحسوب، ومنه قول الشاعر:

بَشَرْتُ عِيالِي إذْ رأيتُ صَحِيفَةً أتَتْكَ مِن الحَجَّاجِ يُتلى كتابها

ومنه ما هنا.

﴿لَا رَيْبَۛ﴾ الريب: الشكّ بتهمة، وللريب في اللغة ثلاثة معان.

أحدها: الشكّ، وهو المراد هنا.

وثانيها: التهمة، كما في قول جميل:

بُثَيْنَةُ قالَتْ يا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي   فقلتُ كِلاَنا يا بُثَيْنُ مُرِيبُ

وثالثها: الحاجةُ، كما قال الشاعر:

قَضَيْنَا مِنْ تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ   وخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

﴿هُدًى﴾؛ أي: رشادٍ وبيانٍ، فهو مصدرٌ من هداه، كالسُّرَى والبُكى. اهـ. «أبو السعود». ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جمع متَّقٍ، وأصله: مُتَّقيين بياءين، الأولى لام الكلمة، والثانية علامة الجمع، فاستثقلت الكسرة على لام الكلمة، وهي الياء الأولى فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت إحداهما، هي الأولى، فقيل: للمتقين. ومتَّقٍ: اسم فاعل من الوقاية؛ أي: المتخذ له وقاية من النار. اهـ. «جمل». وأصل هذه الكلمة: موتقيين بوزن مفتعلين؛ لأنّ أصل المادّة من الوقاية، وفعلها: وقى لفيف مفروق، واتقى منه وزنه افتعل، وأصل اتقى أو تقي تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثمّ أبدلت الواو - فاء الكلمة - تاء، وأدغمت في تاء الافتعال على حدّ قول ابن مالك في باب التصريف:

ذو اللِّيْن فا تَا فِي افْتِعَالٍ أُبْدِلا   وشذَّ في ذِي الهَمْزِ نَحْوَ ائتكَلاَ

وعليه فاسم الفاعل مُوْتَقِيٌ بوزن مفتَعلٍ، أبدلت الواو تاء وأدغمت في تاء الافتعال، كما تقدّم قريباً، ثم أُعلّ إعلال قاض بحذف يائه، وأصل التقوى: وقياً، أبدلت الواو تاءً، كما أبدلت الياء واواً فقيل: تقوى بعد أن كانت وقياً، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

مِنْ لاَمِ فعْلَى اسماً أتى الوَاوُ بَدَلْ   يَاءٍ كَتَقْوَى غَالِباً جَا ذَا البدلْ

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يؤمنون على وزن يُفْعِلون بضمّ حرف المضارعة

مضارع آمن الرباعي، أصله: أأمن بوزن أفعل، فكرهوا اجتماع الهمزتين في كلمة، فقلبوا الثانية ألفاً.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مضارع أقام الرباعيّ، وفيه حذف همزة أفعل، إذ القياس إثباتها، وفيه إعلالٌ بالتسكين والقلب، فأصله: يُقْوِمون، نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها، فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياءً حرف مدّ، فوزنه يفعلون. وفي «الجمل»: أصله: يؤقومون، حذفت همزة أفعل؛ لوقوعها بعد حرف المضارعة، فصار يُقوِمون بوزن يُكرِمون، فاستثقلت الكسرة على الواو، فنقلت إلى القاف، ثمّ قلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها. اهـ. «سمين». الصلاة أصله: صَلَوَة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ففيه إعلال بالقلب. وقيل: من الوُصلة؛ لأنها وُصلة بين العبد وبين ربّه، وعليه فأصلها وَصْلة، قُلبت الواو قلباً مكانياً فصار صَلْوَة، ثمّ يقال: تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿يُنفِقُونَ﴾ فيه حذف همزة أفعل من المضارع، إذ القياس: يؤنفقون. ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ﴾ الآخرة مؤنث الآخر، كما أنّ الدنيا مؤنث الأدنى، ثمّ صارا عَلَمين للدارين. ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أصله: يُيْقِنون بياءين؛ لأنّ المادة من اليقين، وفيه همزة أفعل؛ لأنّه من مضارع أيقن، وفيه إعلال بالقلب حيث قلبت الياء الثانية الساكنة واواً؛ لسكونها إثر ضمّة، فجُعِلَتْ حرف مدّ، وهذا على حدّ قول ابن مالك:

وَوَجب إبدالُ واوٍ بَعْد ضَمٍّ مِنْ ألف ... ويأكُموقن بِذالَهُ اعْتُرِفْ

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جمع مفلح، أصله: مؤفلح بوزن مفعل، ففيه حذف همزة أفلح الرباعي من اسم الفاعل، أصله: المؤفلحون.

البلاغة

وقد تضمَّنت هذه الآيات الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حسن الافتتاح في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ حيث افتتح بما فيه غموض ودقة؛

لتنبيه السامع على النظر، والفكر، والاستنباط.

ومنها: الإتيانُ باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى بعد منزلته ورتبته.

ومنها: التعريف بالألف واللام في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره.

ومنها: معدول الخطاب في قوله: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾، حيث عبّر فيه بصيغة الخبر مراداً به الأمر؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومنها: تقديم الريب على الجار والمجرور في هذه الجملة؛ لأنّه أولى بالذكر أوّلاً استعداداً لصورته حتى تتجسّد أمام السامع.

ومنها: المجاز العقليّ في قوله: ﴿هُدًى﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، حيث أسند الهداية إلى الكتاب والهادي في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الصائرين إلى التقوى، علاقته اعتبار ما يؤول إليه.

ومنها: الإيجاز في ذكر المتقين؛ لأنّ الوقاية اسم جامع لكلّ ما تجب الوقاية منه.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لكونهم المنتفعين به.

ومنها: إطلاق المصدر، وإرادة اسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنّه بمعنى الغائب مبالغة فيه.

ومنها: تقديم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ على ﴿يُنفِقُونَ﴾ اهتماماً بشأن المنفق به، أو لرعاية الفاصلة.

ومنها: التعبير بضمير جماعة المتكلمين في قوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مع كون الله واحداً لا شريك له؛ جرياً على عادة خطاب الملوك في التعبير عن أنفسهم بصيغة الجمع، كما مرّ في مبحث التفسير.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وفي قوله: ﴿الذين والذين﴾ إن كان الموصوف واحداً، فهو تكرار اللفظ والمعنى، وإن كان مختلفاً كان من تكرار اللفظ دون المعنى.

ومنها: تكرار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للدلالة على أنّ كلّ واحد من الحُكْمَين مستبدّ في تميُّزِهم به من غيرهم، فكيف بهما؟.

ومنها: توسيط العاطف بينهما؛ تنبيهاً على تغايرهما في الحقيقة.

ومنها: الفصل بين المبتدأ والخبر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ للدلالة على أنّ ما بعده خبر لا صفة، وأنّ المسند ثابت للمسند إليه دون غيره. وفي هذه الجملة أيضاً: قصر الصفة على الموصوف؛ لأنّ صفة الفلاح مقصورة عليهم لا تتجاوز إلى من عداهم من اليهود والنصارى، وفي هذه الجملة أيضاً: تأكيد المُظهَر بالمُضمَر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ تشبيهاً لحال المتقين بحال من اعتلى صهوة جواده، فحذف المشبه فاستعيرت كلمة على: الدالَّة على الاستعلاء؛ لبيان أنّ شيئاً تفوَّق واستعلى على ما بعدها حقيقةً، نحو: زيد على السطح، أو حُكْماً، نحو: عليه دَيْنٌ، فالدَّين لِلزومِهِ وتحمُّله، كأنّه ركب عليه وتحمَّله. والدِّقَّةُ: أنَّ الاستعارة بالحرف، ويقال في تقريرها: شُبِّه مطلق ارتباط بين هدى ومهدى بمطلق ارتباط بين مستعل ومستعل عليه؛ بجامع التمكن في كلّ منهما، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، ثمّ استعيرت على وهي من جزئيات المشبه به لجزئيٍّ من جزئيات المشبه على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الحذف، وهو في مواضع: فمنها: قوله هذه: ﴿الٓمٓ﴾ على قول من يقدر ذلك، وقوله: ﴿هُدًى﴾ أي: هو هدى، فحذف المبتدأ، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: المال. ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: من القرآن. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل إرسالك، أو قبل الإنزال إليك. ﴿وَبِٱلْأٓخِرَةِ﴾؛ أي: بجزاء الآخرة.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مع كون بعضه مترقباً حينئذٍ؛ لتغليب المحقَّق على المترقَّب نزوله، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحقّقه منزلة الواقع.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾؛ للدلالة على كمال تفخيمه، كأنّه قيل: على هُدًى أيّ هدى لا يُقادَر قدره.

ومنها: التعرّض لعنوان الربوبية في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ للدلالة على تفخيم الموصوف، وشرف المضاف إليهم.

ومنها: حسن التقسيم، وهو فنّ من فنون البلاغة، وهو استيعاب المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئاً، فقد استوعبت هذه الآيات جميع الأوصاف المحمودة، والعبادات التي يعكف عليها المؤمنون؛ لأنّ العبادات كلّها تنحصر في نوعين: بدنيّة ومالية، ولا بدّ من استيفائهما لتكون العبادات كلّها مستوفاة.

فائدة مستجادة: وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث[1]:

منها: ما أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» والحاكم والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال: «كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابيّ، فقال: يا نبي الله! إنّ لي أخاً وبه وجع، فقال: «وما وجعه؟» قال: به لَمَم، قال: فأتني به، فوضعه بين يديه فعوَّذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب، وأربع آيات من أوّل سورة البقرة وهاتين الآيتين: وإلٰهكم إلٰه واحد، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وآية من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وآخر سورة المؤمنين ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾، وآية من سورة الجنّ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين. فقام الرجل كأنّه لم يَشْتكِ قطّ،

---

(١) الشوكاني.

وأخرج نحوه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» من طريق عبد الرحمن بن أبي يعلى، عن رجل، عن أُبيٍّ مثله.

وأخرج الدارميّ، وابن الضريس عن ابن مسعود قال: (من قرأ أربع آيات من أوّل سورة البقرة، وآية الكرسي، وآيتين بعد آية الكرسي، وثلاثاً من آخر (سورة البقرة) لم يقربه ولا أهله يومئذٍ شيطان، ولا شيء يكرهه في أهله ولا ماله، ولا تُقرأ على مجنون إلاّ أفاق. وأخرج الدارميّ، وابن المنذر، والطبراني عنه قال: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة، لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح؛ أربع من أوّلها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث خواتمها: أوّلها ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وأخرج سعيد بن منصور، والدارمي والبيهقي عن المغيرة بن سبيع وكان من أصحاب عبد الله بن مسعود بنحوه. وأخرج الطبراني، والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم فلا تَحْبِسُوْه، وأسرعوا به إلى قبره، وليُقرأْ عند رأسه بفاتحة البقرة، وعند رجليه بخاتمة سورة البقرة.

وقد ورد في ذلك غير هذا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾.

المناسبة

مناسبةُ هاتين الآيتين لما قبلهما: أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا[1] بيَّن حالَ المتقين الذين يؤمنون بالغيب، وبما أُنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله، وبيّن ما آل إليه أمرهم من الهداية والفلاح، أعقب هذا بشرح طائفة ثانية، وهم الكفرة الفجرة، وأبان أنّه قد بلغ من أمرهم في الغواية والضلال أن لا يُجْدِي فيهم الإنذارُ والتبشيرُ، وأن لا تُؤثِّر فيهم العِظَةُ والتذكير، فهم عن الصراط السوي ناكبون، وعن الحق معرضون. فالإنذار وعدمه سِيَّانِ، فماذا يَنْفَعُ النورُ مهما سطع، والضوء مهما ارتفع؟ مع مَنْ أَغْمض عَيْنَيه حتى لا يراهُ بغضاً له وعداوةً لِمن دعا إليه، لأنّ الجهلَ أفسد وُجْدانَه، وأصبح لا يميِّزُ بين نورٍ وظلمةٍ، ولا بين نافع وضارّ.

وقد جَرَتْ عادةُ الله في مِثل هؤلاءِ الذين مَرَنُوا على الكفر أن يَخْتِمَ على قلوبهم، فلا يُبْقِي فيها استعداداً لغير الكفر، ويَختِمَ على سمعهم، فلا يسمعون إلاّ أصواتاً لا يَنْفُذ منها إلى القلب شيءٌ يُنْتَفَعُ به، ويَجْعَلَ على أبصارهم غشاوةً، إذ هم لم ينظروا إلى ما في الكون من آيات وعِبَرٍ، ولم يبصروا ما به يتقون الخطر، فكأنّهم لا يبصرون شيئاً، وكأنّه قد ضُرِب على أبصارهم بغشاوة.

وقد حكم الله سبحانه عليهم بالعذاب الأليم في العقبى، وفَقْدِ العِزّ والسلطان في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

---

(١) المراغي.

أسباب النزول

روي: أنّ هاتين الآيتين نزلتا في مَنْ عَلِمَ اللَّهُ عدمَ إيمانه من الكفار، إما مطلقاً، وإما في طائفة مخصوصة، كأبي جهل، وأبي لهب، وغيرهما من كفار مكة. والحكمة في إخبار الله سبحانه نبيّه ﷺ بذلك؛ إراحة قلبه من تعلّقه بإيمانهم، فلا يُشغَل بهدايتهم ولا تأليفهم. قال أبو حيان: وذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين أقوالاً:

أحدها: أنّها نزلت في يهود كانوا حول المدينة، قاله ابن عباس، وكان يسميهم.

الثاني: نزلت في قادة الأحزاب من مشركي قريش، قاله أبو العالية.

الثالث: في أبي جهل، وخمسة من أهل بيته، قاله الضحاك.

الرابع: في أصحاب القليب، وهم: أبو جهل، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

الخامس: في مشركي العرب قريش، وغيرها.

السادس: في المنافقين.

والحكمة في عدم الدعاء منه عليهم مع علمه بأنّه يستحيل إيمانهم، أنّه يرجو الإيمان من ذرّيتهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وجحدوا، وأنكروا بآيات الله، وكذبوا برسوله محمد ﷺ وأصرّوا، وداموا على ذلك. ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أي: مُسْتَوٍ عندهم في عدمِ الإفادة، إنذارك وتخويفُك يا محمد إياهم من عذاب الله على كفرهم، وعدمُ إنذارك إيّاهم. فهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: لا يصدّقون بما جئتهم به من التوحيد، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ لأنّه قد سبق في علمنا عدم إيمانهم بك. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له.

لمَّا ذَكَر سبحانه خاصَّةَ عباده، وخالصة أوليائه بصفاتهم التي أهّلتهم للهدى والفلاح، أعقبهم بأضدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يغني عنهم الآيات والنذر. وتعريف الموصول: إمّا للعهد، والمراد به: ناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود، أو للجنس متناولاً كلّ من صمّم على كفره تصميماً لا يرعوي بعده وغَيْرَهم، فخصّ منهم غير المصرّين بما أسند إليه.

والكُفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافراً، لأنّه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر:

في ليلةٍ كَفَر النجومَ غَمامُها

أي: سترها. وشرعاً: إنكار ما عُلِم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به.

واعلم: أنّ الكفر على أربعة أضرب[1]:

كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله سبحانه أصلاً، ككفر فرعون، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾.

وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه، ولا يقرّ بلسانه، ككفر إبليس اللعين.

وكفر عناد: وهو أن يعرف الله بقلبه، ويقرّ بلسانه، ولا يدين به، ككفر أمية ابن أبي الصلت، وأبي طالب، حيث قال في شعر له:

ولقد علِمْتُ بأنَّ دينَ محمد ... من خير أديان البريّة دينا

لَوْلاَ المَلامةُ أو حَذَارُ مَسبَّة ... لوجدتُني سمحاً بذاك مُبينا

وكُفر نفاق: وهو أن يقرّ بلسانه، ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه، فجميعُ هذه الأنواع كفر.

---

(١) الخازن.

وحاصلُه[1]: أنَّ مَن جحد الله سبحانه، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله، أو أنكر نبوةَ محمد ﷺ، أو نبوة أحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهو كافر، فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها، ولا يغفر الله سبحانه له.

والمراد بالذين كفروا هنا: مَن علم الله سبحانه أنّ الكفر قد رسخ في قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدّين للإيمان بجحودهم بالنبي ﷺ، وبما جاء به بعد أن بلغتهم رسالته بلاغاً صحيحاً، وعرضت عليهم الدلائل على صحتها للنظر والبحث، فأعرضوا عنها عناداً واستهزاءً. وسبب كفرهم: إما عناد للحق بعد معرفته، وقد كان من هذا الصنف جماعة من المشركين واليهود في زمن النبي ﷺ، كأبي جهل وأضرابه، وأحبار اليهود، ككعب بن الأشرف وإما إعراض عن معرفته، واستكبار عن النظر فيه.

والمعرضون عن الحقّ يوجَدون في كلّ زمان ومكان، وهؤلاء إذا طاف بهم طائف الحقّ لوّوا رؤوسهم، واستكبروا، وهم معرضون، وفيهم يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي[2]: مستو عند هؤلاء الكفرة، وهو اسم مصدر بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر مبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. وارتفاعه على أنّه خبر إنّ، وقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ مرتفع على الفاعلية بسواء؛ لأنّ الهمزة وأم مجرّدتان عن معنى الاستفهام؛ لتحقيق معنى الاستواء بين مدخوليهما، كما جرّد الأمر والنهي عن معنييهما؛ لتحقيق معنى الاستواء في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كأنّه قيل: إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، كقولك: إن

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

زيداً مختصم أخوه وابن عمّه. وقيل: ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدم للمصدر المنسَبك من الجملة التي بعده من غير سابك لإصلاح المعنى، وخبر إنّ جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآتية، وجملة ﴿سَوَآءٌ﴾ معترضة بين اسم إنّ وخبرها. وصحّ على هذا القول الابتداء بالفعل والإخبار عنه بسواء؛ هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنّه قيل: إنذارك إياهم وعدمه سواء، كقولهم: تسمع بالمعيدي خَيْرٌ مِنْ أن تراه، أي: سماعك به خير من رؤيته.

وأصلُ الإنذار: الإعلامُ بأمر مخوف، وكلُّ مُنْذِرٍ مُعْلِمٌ، وليس كلّ مُعْلِمٍ مِنذراً، كما في «تفسير أبي الليث»، والمرادُ ههنا: التخويفُ من عذاب الله وعقابه على المعاصي، وإنّما اقتصر على الإنذار دون التبشير؛ لَمَّا أنَّهم ليسوا بأهل للبشارة أصلاً؛ ولأنَّ الإنذار أوقع في القلوب، وأشدّ تأثيراً في النفوس، فإنّ دفع المضار أهمُّ من جلب المنافع، فحيثُ لم يتأثّروا به فَلأَن لا يرفعوا للبشارة رأساً أولى.

فإن قلت: لم حذف الواو هنا، وأثبت في (يس) حيث قال فيها: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾؟

قلت: لأنّ (ما) هنا جملة هي خبر عن اسم إنّ، و(ما) هناك جملة عطفت على أخرى، فبينهما فرق. وإنما لم يقل: (سواء عليك)، كما قال لعبدة الأوثان: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، لأنّ إنذارك، وترك إنذارك ليسا سواءً في حقِّك؛ لأنّك تثاب على الإنذار وإن لم يؤمنوا، وأمّا في حقّهم فهما سواءٌ في عدم الإفادة؛ لأنّهم لا يؤمنون في الحالين، وهو نظير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإنّه يثاب به الآمر وإن لم يمتثل المأمور. وكان هؤلاء القوم، كقوم هود عليه السلام حيث قالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلّة على الوجه الأول، مؤكدة لما قبلها، مبيِّنة لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أيْ: مُوضحة لتساوي الإنذارِ وعدمه في حقّهم لا في حقِّه ﷺ، ولا في حقِّ الدُّعَاةِ إلى دينه، إذْ هم يَدْعُون كلَّ كافر إلى الدين الحقّ، لا فرق بين المستعدِّ للإيمان وغيرِ

المستعد. أو حال مؤكدة، أو بدل منه، أو خبر إن، والجملة قبلها اعتراضٌ بما هو علُة الحكم.

ثّم هذا تَيْئِيسٌ للنبي ﷺ، وتَفْرِيغٌ لقلبه، حيثُ أَخْبَرَهُ عن هؤلاء بما أَخْبَر به نوحاً عليه السلام في الانْتِهاءِ، فإنّه قال تعالى لنوح عليه السلام بعد طول الزمان، ومقاساة الشدائد والأحزان: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فدعا بهلاكهم بعد ذلك، وكذلك سائرُ الأنبياء.

وفي الآية الكريمة: إخبار بالغيب على ما هو به، إن أريد بالموصول أشخاصٌ بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة. وفي الآية: إثبات فعل العبادة، فإنّه قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيه إثباتُ الاختيار، ونَفْيُ الإكراهِ، والإِخْبارُ، فإنّه لم يَقُلْ: لا يستطيعون، بل قال: لا يؤمنون.

فإن قلت[1]: حين علم الله أنهم لا يؤمنون، فلِمَ أمر النبي ﷺ بدعائهم؟

قلت: فائدةُ الإنذار بعد العلم: بأنّه لا يُنجع إلزامُ الحجة، كما أنّ الله تعالى بعث موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان، وعلم أنّه لا يؤمن، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

فإن قلت: قد أخبر الله رسوله أنّهم لا يؤمنون، فهلاّ أهلكهم كما أهلك قوم نوح عليه السلام، بعدما أخبره أنّهم لا يؤمنون؟

قلت: لأنّ النبي ﷺ كان رحمة للعالمين، كما ورد به الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

والآية[2] مما احتَّج به مَنْ جوَّز تكليفَ ما لا يطاق، فإنّه سبحانه وتعالى

---

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

أخبر عنهم بأنّهم لا يؤمنون، وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً، وشمل إيمانهم الإيمان بأنّهم لا يؤمنون، فيجتمع الضدّان، والحقّ أنّ التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إنّ الأحكام لا تستدعي غرضاً سيّما الامتثال، لكنه غير واقع للاستقراء والإخبارُ بوقوع الشيء، أو عدمه لا ينفي القدرة عليه، كإخباره سبحانه عمّا يفعله هو أو العبدُ باختياره، فلا يلزم جواز تكليف ما لا يطاق.

وقال صاحب اللوامح[1]: قرأ الجُحْدَريُّ ﴿سَوَآءٌ﴾ بتخفيف الهمزة على لغة الحجاز، فيجوز أنّه أخلص الواو، ويجوز أنّه جعل الهمزة بين بين، وهو أن يكون بين الهمزة والواو، وفي كلا الوجهين لا بدّ من دخول النقص فيما قبل الهمزة المليّنة من المدّ. انتهى.

فعلى هذا: يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ ليس لامه ياءً، بل واواً، فيكون مِنْ بابِ قَواءٍ. وعن الخليل: ﴿سُوْءٌ عليهم﴾ بضمّ السين مع واو بعدها مكان الألف، مثل ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ على قراءة من ضمّ السين، وفي ذلك عدول عن معنى المساواة إلى معنى القُبْح والسَّبِّ، ولا يكون على هذه القراءة له تعلُّق إعرابٍ بالجملةِ بعدها، بَلْ يبقى قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ إخباراً بانتفاء إيمانهم على تقدير إنذارك، وعدم إنذارك، وأمّا سواء الواقعُ في الاستثناء في قولهم: (قاموا سواك) بمعنى: قاموا غيرك، فهو موافق لهذا في اللفظ مخالف في المعنى، فهو من باب المشترك، وله أحكام ذُكرت في باب الاستثناء.

وقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فيه خمس قراءات سبعيّة[2]:

الأولى: تحقيق الهمزتين مع إدخال ألف؛ أي: مدّ طبيعيّ بينهما.

والثانية: تحقيق بلا إدخال ألف بينهما.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) صاوي بتصرف.

والثالثة: تسهيل الثانية، وهو أن تكون بين الهمزة والهاء مع إدخال ألف بين المسّهلة والأخرى.

والرابعة: تسهيل الثانية بلا إدخال ألف بين المسّهلة والأخرى.

والخامسة: إبدال الثانية ألفاً؛ أي: مدّاً لازماً، وقدره سّت حركات خلافاً للبيضاوي، حيث قال: إنّ قراءة الإبدال لحنٌ؛ لوجهين:

الأوّل: أنّ الهمزة المتحركة لا تبدل ألفاً.

والثاني: أن فيه التقاء الساكنين على غير حدّه.

ورَدَّ عليه مُلَّا عَلِي القَارِي: بأنّ القراءة متواترةٌ عن رسول الله ﷺ ومن أنكرها كَفَر، فيُستدلُّ بها لا لها. وأما قوله: إنّ الهمزة المتحركة لا تُبدل ألفاً في القلب القياسيّ، وأمّا السماعّي كما في سأل، ومِنْسَأته، فلا لحن فيه؛ لأنّه يُقتصر فيه على السماع. وقوله: فيه التقاء الساكنين على غير حدّه نقول: سَهَّلَه طُولُ المدّ والسماعُ اهـ. صاوي بتصرف، وسيأتي بسطه في مبحث القراءة.

وفي «الجمل»: قال الجَعْبَرِيُّ[1]: وَجْهُ الإبدال المبالغةُ في التخفيف، إذ في التسهيل قِسْطُ هَمْزٍ. قال قُطرب: هي قرشيّة وليست قياسيّة، لكنها كثرت حتى اطّرَدَتْ، وأما تعليلهُم بأنّه يُؤدّي إلى جمع الساكنين على غيره، فمدفوع بأنّ من يقلبها ألفاً يُشبع الألف إشباعاً زائداً على مقدار الألف بحيث يصير المدُّ لازماً، فيكون فاصلاً بين الساكنين، ويقوم قيامَ الحركة، كما في ﴿محياي﴾ بإسكان الياء لنافعٍ وَصْلاً، ويُسمّي هذا حاجزاً. وقد أجمع القُراء وأهلُ العربية على إبدال الهمزة المتحركة الثانية في نحو: الآن، ثم اعلم أنَّ موافقة العربية؛ إنما هي شرط لصحة القراءة، إذا كانت بطريق الآحاد، وأما إذا ثبتت متواترة فيُسْتشهد بها لا لها، وإنّما ذكَرْنَا ما ذُكر؛ تفهيماً للقاعدة، وتتميماً للفائدة اهـ.

ثمَّ بيَّن سبب تركهم الإيمان، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، وقفّل

---

(١) الفتوحات.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وطَبَع عليها، وطَمَس[1] نُور بصيرتهم بحيثُ لا تَعِي خبراً ولا تفهمه، فلا يدخل فيها نور، ولا يُشرق فيها إيمان. وذلك أنَّ القلوب إذا كَثُرت عليها الذنوب طمسَتْ نُورَ البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَكٌ، ولا للكفر عنها مَخْلَص. والمرادُ بالختم هنا: عدم وصول الحقّ إلى قلوبهم، وعدمُ نفوذِه واستقرارِه فيها. وهذه الجملة مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما سَبَق من الحكم، وهو عدم إيمانهم.

وأصلُ الختم[2]: التغطيةُ، وحقيقتُه: الاستيثاقُ من الشيء؛ لكي لا يَخرُج منه ما حصل فيه، ولا يَدْخُله ما خرج منه. ومنه: ختم الكتاب ولا خَتْم في الحقيقة، وإنما المراد به: أن يُحدث في نفوسهم هيئةَ تَمرُّنِهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات، بسبب غَيّهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا يَنْفذُ إليها الحقّ أصلاً. وسَمَّى هذه الهيئة: ختماً على سبيل الاستعارة، فالمرادُ بالقلب هنا: مَحلُّ القوة العاقلة من الفؤاد. وقد يطلق ويراد به: المعرفة والعقل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. والمراد[3] بالقلب هنا: جسم لطيف قائم بالقلب اللحمانيّ، الصنوبري الشكل، قيام العرض بمحله، أو قيام الحرارة بالفحم، وهذا القلب: هو الذي يحصل به الإدراك، وترتسم فيه العلوم والمعارف، وهو العقل، بخلاف القلب الذي بمعنى اللحمة الصنوبرية الشكل، فإنّها للبهائم والأموات.

﴿و﴾ ختم الله ﴿على سمعهم﴾ وآذانهم؛ أي: أصمّ مواضع سمعهم، فجعلها بحيثُ تعَافُ استماعَ الحقّ، ولا تُصْغِي إلى خير، ولا تَعِيه، ولا تَقْبَلُه. والخَتْمُ عقوبةٌ لهم على سوء اختيارهم، وميلهم إلى الباطل، وإيثارهم إياه. والسمع هو: إدراك القوة السامعة، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها،

---

(١) عمدة التفاسير.

(٢) روح البيان.

(٣) العمدة.

وهو المراد هنا؛ لأنّه أشدّ مناسبة للختم، وهو المختوم عليه أصالة.

والمعنى: أصمّ مواضع سمعهم، فلا يسمعون الحقّ، ولا ينتفعون به: لأنّها تَمُّجه، وتَنْبُو عن الإصغاء إليه. وقرىء شاذاً ﴿وعلى أسماعهم﴾، كما سيأتي في مبحث القراءة.

وإنّما أفرده وجمع صَاحِبَيْهِ؛ لأنّه مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع. وقيل: أفرده لوحدة المسموع، وهو الصوت، كذا في «الجمل». وفي «الروح»: وفي توحيد السمع وجوه[1]:

أحدها: أنّه في الأصل مصدر، والمصادر لا تثنى ولا تجمع؛ لصلاحيتها للواحد والاثنين والجماعة.

فإن قلت: فلم جمع الأبصار والواحد بصر، وهو كالسمع؟

قلنا: إنّه اسم للعين، فكان اسماً لا مصدراً فجُمع لذلك.

وثانيها: أنّ فيه إضماراً، أي: على مواضع سمعهم وحواسّه، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أهلها. وثبت هذا الإضمار بدلالة أنّ السمع فعل، ولا يختم على الفعل، وإنّما يختم على محله.

وثالثها: أنّه أراد سمع كلّ واحد منهم، والإضافة إلى الجمع تغنى عن الجمع، وفي التوحيد أمن اللبس، كما في قول الشاعر:

كُلُوا في نِصْفِ بَطْنِكُمُ تَعِيشُوا فَإِنَّ زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيصُ

أي: في أَنصافِ بطونكم، إذا البطنُ لا يُشترك فيه.

ورابعها: قول سيبويه: أنّه توسّط بين جمعين، فدلّ على أنّه جمع معنى وإن توّحد لفظاً، كما في قوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، دلّ على الأنوار ذِكْرُ الظلمات.

---

(١) روح البيان.

وتقديمُ ختمُ قلوبهم؛ للإيذان بأنَّها الأصلُ في عدم الإيمان، وتقديم حال السمع على حال أبصارهم؛ للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال. قالوا: السمع أفضل من البصر؛ لأنّه تعالى حيث ذكرهما، قدّم السمع على البصر، ولأنّ السمع شرط النبوة، ولذلك ما بعث الله تعالى رسولاً أصمّ، ولأنّ السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارفِ إلَى تُتلَقَّفُ مِنْ أصحابها.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فالوقف عليه تامّ، وما بعده جملة اسمية. وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ خبر مقدم، جمع بصر، وهو إدراك العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضوين، وهو المراد ههنا؛ لأنّه أشدّ مناسبة للتغطية. ﴿غِشَٰوَةٌۖ﴾ مبتدأ مؤخر، أي: غطاء عظيم، وساتر جسيم، فلا يبصرون الحقّ، وفي الحقيقة لا تَغْشِيَةَ، وإنّما المرادُ بها: إحداثُ حالة تجعلُ أبصارَهم بسبب كفرهم لا تَجْتَلِي الآياتِ المنصوبةَ في الأنفس والآفاق، كما تَجْتِلَيها أَعْينُ المستبصرين، وتَصير كأنّها غُطّي عليها، وحيل بينها وبين الإبصار. ومعنى التنكير: أنّ على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً مما يتعارفه الناس، وهي غشاوة التعامي عن الآيات.

ولما اشترك السمع والقلب في الإدراك من جميع الجوانب، جَعَل ما يَمنَعهما مِن خاصٍّ فعلهما الخَتْمَ الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما كان مما اختصَّ بجهة المقابلة، جعل المانع لها من فعلها الغشاوةَ المختصة بتلك الجهة.

وإنّما خَصَّ سبحانه وتعالى هذه الأعضاءَ الثلاثةَ بالذكر؛ لأنَّها طُرُقٌ للعلم، فالقلب محلّ العلم، وطريقُه: إما السماعُ، وإما الرؤية. اهـ. كرخي. وقال في «التيسير»: إنّما ذَكَر في الآية القلوب، والسمع، والأبصار؛ لأنّ الخطاب كان باستعمال هذه الثلاثة في الحقّ، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ اهـ.

﴿وَلَهُمْ﴾ أي: ولهؤلاء الكفار المذكورين في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عذاب شديد دائم لا ينقطع بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى. والعذابُ

كالنكال وزناً ومعنى، وهو إيصال الآلام إلى الحيوان على وجه الهَوان، فإيلام الأطفال والبهائم ليس بعذاب. يقال: أَعْذَب عن الشيء، إذا أمْسَكَ عنه، وسُمّي العذاب عذاباً، لأنّه يمنع عن الجناية إذا تأمَّل العاقل فيها، ومنه الماءُ العذب، لما أنّه يقمَع العطشَ، أي: يَكْسِره ويَرْدَعُه بخلاف المِلْح فإنّه يزيدُه. وقيل: إنمَّا سُمِّيَ به؛ لأنَّه جزاء ما استعذبه المرء بطبعه؛ أي: استطابه، ولذلك قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى﴾، وإنما يُذاق الطيب على معنى: أنّه جزاءُ ما استطابه واستحلاه بهواه في الدنيا. والعظيم[1]: نقيضُ الحقير، والكبير: نقيض الصغير، فكان العظيم فوق الكبير، كما أنّ الحقير دون الصغير. قال في «التيسير»: ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: كبير، أو كثير، أو دائم، وهو التعذيب بالنار أبداً، ثُمَّ عِظمُه بأهواله، وبشدةِ أحواله، وكثرةِ سَلاسلِه وأغلاله. فتكون هذه الآيةُ وعيداً وبياناً لما يستحقُّونه في الآخرة. وقيل: هو القتل والأسر في الدنيا، والتحريق بالنار في العقبى.

ومعنى التوصيف بالعظيم: أنّه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه، ومعنى التنكير: أنّ لهم من الآلام نوعاً عظيماً لا يعلم كنهه إلاّ الله سبحانه وتعالى، فعلى العاقل أنّ يجتنب عمّا يؤدّي إلى العذاب الأليم، والعقاب العظيم، وهو الإصرار على الذنوب، والإكبابُ على اقتراف الخطيئات والعيوبِ. وأمّهاتُ الخطايا ثلاث: الحرص، والحسد، والكبر. فحصل من هؤلاء سّت خصال، فصارت جملتها تسعاً: الشبع، والنوم، والراحة، وحّب المال، وحبّ الجاه، وحّب الرياسة. فحّب المال والرياسة من أعظم ما يجرّ صاحبه إلى الكفر والهلاك.

وظاهر قوله تعالى[2]: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أنّه إخبار من الله تعالى بختمه، وحمله بعضهم على أنّه دعاء عليهم، وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحقّ ولا تعيه؛ لإعراضها عنه، فاستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

أو مثّل القلب بالوعاء الذي خُتم عليه؛ صوناً لما فيه، ومنعاً لغيره من الدخول إليه. والأول مجاز بالاستعارة، والثاني مجاز بالتمثيل. وتكرير حرف الجرّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يدلّ على أنّ الختم ختمان، أو على التوكيد إن كان الختم واحداً، فيكون أدلّ على شدّة الختم.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿وعلى أسماعهم﴾، فطابق في الجمع بين القلوب، والأسماع، والأبصار. وقرأ الجمهور ﴿وعلى سمعهم﴾ على التوحيد، إمّا لكونه مصدراً في الأصل، فلُمِح فيه الأصل، وإمّا اكتفاء بالمفرد عن الجمع؛ لأنّ ما قبله وما بعده يدلّ على أنّه أريد به الجمع. وقرأ الكوفيون، وابن ذكوان وروح، عن يعقوب وخلف العاشر قوله: ﴿ءَأنذرتهم﴾ بتحقيق الهمزتين، وهو الأصل. وأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلباً للتخفيف؛ فقرأ قالون عن نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بينهاوبين الألف مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير ورويس عن يعقوب بتسهيل الهمزة الثانية من غير إدخال ألف بينهما، ولهشام وجهان: الأول: تحقيق الهمزتين مع إدخال ألف بينهما وهي قراءة ابن عباس، وابن أبي إسحاق، والثاني: التسهيل مع إدخال الألف. ولورش عن نافع أيضاً وجهان: الأول: كابن كثير ورويس، والثاني: إبدال الثانية ألفاً مع المد المشبع فيلتقي ساكنان على غير حدهما وقد أنكر هذه القراءةَ الزمخشري، وزَعَم أنّ ذلك لحن وخروج عن كلام العرب من وجهين، وقد مرَّ لنا ذِكْرُ الوجهين مع الرد عليهما، فراجعه. وما قاله الزمخشري هو مذهب البصريين. وقد أجاز الكوفيون الجَمْعَ بين الساكنين على غير الحد الذي أجازه البصريون. وقراءةُ ورش صحيحةُ النقل، لا تُدفع باختيار المذاهب، ولكن عادة هذا الرجل إساءةُ الأدب على أهل الأداء ونَقَلَةِ القرآن. وقرأ الزهري، وابن مُحَيْصِنٍ ﴿أنذرتهم﴾ بهمزة واحدة حَذَفا الهمزةَ الأولى؛ لدلالةِ المعنى عليها، ولأجل ثُبوتِ ما عادلها، وهو ﴿أَمْ﴾ وقرأ أبيٌّ أيضاً[2]: بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الساكنة قبلها، والمفعول الثاني لأنْذَر محذوف؛ لدلالة المعنى عليه، والتقدير: أأنذرتهم العذاب على كفرهم أم لم تُنْذِرْهُموه. وقد قرئ ﴿أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ بالإمالة، وهي جائزة، لأنّه قد غَلَبَتْ الراءُ المكسورة حرف الاستعلاء، إذ لولاها لما جازت الإمالة، وهذا بتمامه مذكور في كتب النحو.

وقرأ الجمهور ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ بكسر الغين ورفع التاء، وكانت هذه الجملة ابتدائية؛ ليشمل الكلام الإسنادين: إسناد الجملة الفعلية، وإسناد الجملة الابتدائية. فيكون ذلك آكد؛ لأنّ الفعلية تدلّ على التجدّد والحدوث، والاسمية تدلّ على الثبوت والدوام، وكان تقديم الفعلية أولى، لدلالتها على أنّ ذلك قد وقع وفَرِغ منه. قال الفرّاء[1]: أما قريش وعامّة العرب، فيكسرون الغين من ﴿غِشَٰوَةٌ﴾، وعكل يضمّون الغين، وبعض العرب يفتحها، وأظنُّها لربيعة. ورَوَى الفَضلُ عن عاصم ﴿غِشاوَةً﴾ بالنصب على تقدير: جَعَلَ على أبصارهم غشاوةً، أو على[2] عطفِ ﴿أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ على ما قبله، ونصب ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ على حذف حرف الجر؛ أي: بغشاوة، وهو ضعيف. قال أبو علي: وقراءة الرفع أولى؛ لأنّ النصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، يكون الكلام عليه من باب: علفتها تبنا وماء بارداً. ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار. وقرأ الحسن باختلافٍ عنه، وزيدُ بن عليّ ﴿غُشاوةٌ﴾ بضمّ الغين ورفع التاء، وأصحابُ عبد الله بالفتح والنصب وسكون الشين، وعُبيد بن عمير كذلك، إلاّ أنّه رَفَع التاء. وقرأ بعضهم ﴿غِشْوَةٌ﴾ بالكسر والرفع. وقرأ بعضهم ﴿غَشْوَةٌ﴾ بالفتح والرفع والنصب، وهي قراءة أبي حيوة، والأعمش. قال الثوري: وكان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿غَشْيَةٌ﴾ بفتح الغين والياء والرفع، وقال يعقوب ﴿غُشاوةٌ﴾ بالضمّ لغة، ولم يُؤثرها عن أحدٍ من القراء. وقرأ بعضُهم ﴿عِشَاوَةٌ﴾ بالعين المهملة المكسورة والرفع، من العشي، وهو شِبْهُ العمى في العين. وقال بعض المفسرين: وأَصْوَبُ هذه القراءاتِ المقروء بها: ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن عِمامة.

---

(١) زاد المير.

(٢) البحر المحيط.

وحاصل معنى الآية: أنّ الله سبحانه وتعالى[1] ضَرَب مثلاً لحال قلوب أولئك القوم، وقد تمكَّن الكفر فيها حتى امتنع أن يصل إليها شيء من الأمور الدينية النافعة لها في معاشها ومعادها، وحِيل بينها وبينه، بحالِ بيوتٍ مُعدّة؛ لحلول ما يأتي إليها مما فيه مصالح مهمّة للناس، لكنّه مُنِعَ ذلك بالختم عليها، وحِيل بينها وبين ما أُعدت لأجله. فقد حدث في كلّ منهما امتناع دخول شيء بسبب مانع قويّ، وكذلك حدث مثل هذا في الأسماع، فلا تسمع آيات الله المنزَلة سماعَ تأمّل وتدبّر، وجعل على الأبصار غشاوة، فلا تُدرِك آياتِ الله المبصَرة في الآفاق والأنفس الدالّة على الإيمان، ومن ثمّ لا يرجى تغيير حالهم، ولا أن يدخل في قلوبهم الإيمان.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر، في محل النصب اسمها، مبنيّ على الفتح. ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والألف تكتب؛ للفرق بين واو الضمير وبين واو جزء الكلمة في غير الرسم العثماني، وفرقاً بين المتطرّفة والمتوّسطة في الرسم العثماني. والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿سَوَآءٌ﴾ خبر مقدم، أو خبر إنّ. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ جار ومجرور، متعلّق بسواء؛ لأنّه اسم مصدر لاستوى الخماسّي. ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ الهمزة في أصلها للاستفهام، ولكن سَحَبَتْ معناها الأصلي، فجعلت للتسوية؛ لوقوعها بعد سواء. ﴿أنذرتهم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف؛ لدلالة المقام عليه؛ أي: أنذرتهم العذاب، والجملة من الفعل والفاعل في تأويل مصدر من غير سابك؛ لإصلاح المعنى، مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً لسواء، والتقدير: إنّ الذين كفروا إنذارك إياهم وعدم إنذارك إياهم سيّان عندهم. والجملة من المبتدأ المؤَخَّر وخبره المقدم في محلّ الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة، أو في تأويل مصدر مرفوع

---

(١) المراغي.

على كونه فاعلاً لسواء، الذي أجري مَجرى المصادر في عمله عمل الفعل، والتقدير: إنّ الذين كفروا مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه. ويجوز أن يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ مبتدأ، سوّغ الابتداء بالنكرة عمله في الجار والمجرور، والمصدر المنسبك مما بعدها خبرها، وجملة ﴿سَوَآءٌ﴾ معترضة، لا محلّ لها من الإعراب، لاعتراضها بين اسم إنّ وخبرها، وهو جملة قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآتية، وفي «الصاوي»: وعلى ما ذكرنا هنا فقولهم: الفعل لا بدّ له من سابك قاعدة أغلبية. وقيل: السابك هنا الهمزة؛ لأنّ بعض النحاة جعل السابك للفعل ستة، وعدّ منها هذه الهمزة، كما ذكره الفَاسِيُّ في «حاشيته على الألفيّة». ﴿أَمْ﴾ عاطفة متصلة؛ لوقوعها بعد همزة التسوية. ﴿لَمْ﴾ حرف نفي وجزم. ﴿تُنذِرْهُمْ﴾ فعل مضارع ومفعول أول وفاعل مستتر مجزوم بلم، والثاني محذوف، تقديره: العذاب. والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، على كونها في تأويل مصدر مرفوع على الابتداء، أو على الفاعلية، أو على الخبرية لسواء، والتقدير: إنّ الذين كفروا، إنذارك إياهم العذاب، وعدم إنذارك إياهم سواء في عدم الإفادة لهم. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، أو خبر بعد خبر لها، أو في محل النصب حال من ضمير عليهم، أو مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها، لا محلّ لها من الإعراب، والتقدير: على كونها خبراً؛ لأنّ إنّ الذين كفروا عادمون الإيمان بك، لما سبق في علمي من كفرهم فلا تأس عليهم، وإنذارك إياهم وعدمه سواء عليهم، لا ينتفعون به. وجملة إنّ مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة؛ لتعليل عدم إيمانهم. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور، متعلّق بختم. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿على أبصارهم﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدم. ﴿غِشَاوَةٌ﴾ مبتدأ مؤخّر والجملة معطوفة على جملة ﴿خَتَمَ﴾ عَطْفَ اسمية على فعلية، كما مرّ. ﴿وَلَهُمْ﴾

الواو عاطفة ﴿لهم﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لعذاب، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ختم أيضاً على كونها مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

فصل في هاء الضمير

نحو: (عليهم، وعليه، وفيه، وفيهم). وإنّما أفردناه بالفصل؛ لكثرة تكرّره في القرآن، والأصل في هذه الهاء الضمّ؛ لأنّها تضمّ بعد الفتحة والضمة والسكون، نحو: (أنه، وله، وجاء غلامه، ويسمعه، ومنه). وإنما يجوز كسرها بعد الياء، نحو: (عليهم وأيديهم)، وبعد الكسر، نحو: (به وبداره). وضمّها في الموضعين جائز، لأنّه في الأصل كما قرأ به حفص بعد الياء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾. وإنّما كسرت في الموضعين؛ لتجانس ما قبلها من الياء والكسرة، وبكلّ من الضمّ والكسر قد قرىء. انتهى من «العكبري».

فوائد:

١ ـ همزة التسوية هي الواقعة بين سواء وبعد ما أبالي، وما أدري، وليت شعري. وضابطها: أنّها الهمزة التي تدخل على جملة يصحّ حلول المصدر محلّها، كما رأيت.

٢ ـ أم: لها حالان:

أ ـ متصلة وهي منحصرة في نوعين؛ وذلك لأنّها: إما أن تتقدم عليها همزة التسوية، كما في الآية، أو همزة يطلب بها وبأم التعيين، نحو: أزيد في الدار أم عمرو، وسمّيت متصلة؛ لأنّ ما قبلها وما بعدها لا يُسْتغنى بأحدهما عن الآخر، وتسمّى أيضاً معادلة؛ لمعادلتها الهمزة في النوع الأول، إذ كلتاهما تفيد التسوية.

ب ـ منقطعة: وهي المسبوقة بالخبر المحض، نحو: قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. وسمّيت منقطعة؛

لانقطاع ما بعدها عمّا قبلها، فكلّ منهما كلام مستقل لا ارتباط له بالآخر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَوَآءٌ﴾ فيه إعلال بالإبدال، فأصله: سواي، أبدلت الياء همزة؛ لتطرفها إثر ألف زائدة، وهو اسم مصدر بمعنى الاستواء، أجري مُجرى المصادر، فلذلك لا يثنّى ولا يجمع. قالوا: هما وهم سواء، فإذا أرادوا لفظ المثنى قالوا: سيّان، وإن شئت قلت سواءان، وفي الجمع: هم أسواء، وأيضاً على غير القياس: هم سَوَاسي وسَواسِيَة؛ أي: هما متساويان وهم متساوون. والسَّواءُ: العَدْلُ الوسطُ بين حديثين يقال: ضَرَبَ سَواءَه، أي: وسَطَه، وجِئتُه في سواءِ النهار؛ أي: في منتصفه. وإذا كانت سواءٌ بعد همزة التسوية، فلا بدّ من (أَمْ) اسمين كانَتْ الكلمتان أم فعلين. وإذا كان بعدها فعلان بغير همزة التسوية، عُطف الثاني بأو، نحو: سواء عليّ قُمْتُ أو قعدت، وإذا كان بعدها مصدران عطف الثاني بالواو أو بأو، نحو سواء عليّ قيامُك وقعُودك، وقيامك أو قعودك.

وقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قراءةُ وَرْشٍ بإبدال همزة التعدية حرفَ مدّ مجانساً لحركة همزة الاستفهام المفتوحة في رواية عنه، وعليه يكون في الكلمة إبدالُ حرف بحرف، وذلك نوع من التصريف، كما هو معروف، وقس على هذا اللفظ كلّ ما شابهه مما اجتمعت فيه همزتان: إحداهما للاستفهام والثانية للتعدية.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ والخَتْمُ الكَتْمُ، سُمّي به الاسْتِيثَاقُ من الشيءِ بضَرْبِ الخاتَم عليه؛ لأنّه خُتم له، وبُلوغُ آخره، ومنه خَتْمُ القرآنِ. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ جمعُ قلبٍ، وهو الفُؤاد، سمّي قلباً؛ لتقلُّبِه في الأُمور، ولتصرّفه في الأعضاء، كما قال بعضهم:

وَمَا سُمِّيَ الإنسانُ إلاّ لِنَسْيِهِ   وَمَا القَلْبُ إلاَّ أَنَّهُ يتقَلَّبُ

وفي «تفسير الشيخ»: القَلْبُ: قِطعةُ لحم مَشكَّل بالشكل الصنوبري معلَّق بالوَتِين مقلوباً، والوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه، ويقال: الأبهر. وفي «تفسير الكواشي» القلب: قطعة سوداء في الفؤاد، وزعم بعضهم: أنّه الشكل

الصنوبري المعلّق بالوتين مقلوباً. وفي «تعريفات السيّد»: القلب لطيفة ربّانية، لها بالقلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّقٌ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، والمراد بالقلب في الآية: محلّ القوة العاقلة من الفؤاد، كما مرّ. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ والسمع: هو إدراك القوة السامعة، وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا، كما مرّ. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ جمع بصر، وهو إدراك العين وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة. ﴿غِشَٰوَةٌ﴾ وهو فعالة من غشاه، أو غشيه إذا غَطَّاه، وهذا البناء لما يشتمِلُ على الشيء، كالعصابة والعمامة. ويجوز في الغين الكسر، والضمّ والفتح. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ والعذاب: العقوبة. يقال: أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه، وسمّي العذاب عذاباً، لأنّه يمنع من الجناية إذا تأمّل فيها العاقل. ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: قوي شديد، ومنه: العَظْمُ. والعَذَابُ: إِيصالُ الألم إلى الحيّ هَواناً وذُلاًّ، كما مّر. والعظيم: ضدّ الحقير، وفعيل له معان كثيرة، يكون اسماً وصفة، والاسم: إما مفرد أو جمع، والمفرد: إما اسمُ معنى أو اسم عين، نحو: قَمِيص، وظريف، وصهيل، وكَلِيب جمعُ كَلْب، ويكون اسم فاعل من فَعُل المضموم، نحو: عظيم من عَظُم، ومبالغةً في فاعل، نحو: عليم في عالم، وبمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، ومُفْعِل، كسميع بمعنى مُسْمِع، ومُفِاعل، كجَليس بمعنى مُجالس، ومفتعل، كبديع بمعنى مبتدع، ومُنفعِل، كسعير بمعنى مُنْسعر، وفَعَل، كعجيب بمعنى عَجَب، وفعال، كصحيح بمعنى صحاح، وبمعنى الفاعل والمفعول، كصريخ بمعنى صارخ أو مصروخ، وبمعنى الواحدِ والجمعِ، نحوُ: خليط، وجَمْعُ فاعل، كغريب جمعُ غارب. اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الخطاب العام: اللفظ الخاص المعنى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إذا أريد بهم أشخاص معيّنون.

ومنها: الاستفهام الذي يراد به: تقرير المعنى في النفس؛ أي: تقرير أنّ الإنذار وعدمه سواء عندهم في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ الخ.

ومنها: مجاز بالاستعارة في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾، لأنّ حقيقة الختم: وَضْعُ محسوس على محسوس يَحْدُث بينهما رَقْمٌ، يكون علامةً للخاتم. والخَتْم هنا معنويٌّ، فإنّ القلب لما لم يَقْبَلِ الحق مع ظهوره، استُعير له اسم المختوم عليه على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. وقيل: في إسناد الختم إلى القلوب استعارة تمثيلية، فقد شبّهت قلوبهم في نُبُوِّها عن الحقّ، وعدم الإصغاء إليه بحال قلوب ختم الله عليها، وهي قلوب البهائم، وهو تشبيه معقول بمحسوس، أو هو مجاز عقلّي، وهو باب واسع عند العرب. يقولون: سال بهم الوادي؛ إذا هلكوا، وطارَتْ بِفُلانٍ العَنْقَاء؛ إذا طَالَتْ غَيْبَتُهُ.

ومنها: توحيد السمع لوحْدةِ المسموع، وهو الصوت دون القلوب والأبصار؛ لتنوعِ المُدْرَكَاتِ والمَرْئيَّاتِ.

ومنها: تنكير ﴿غِشَٰوَةٞ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ إشارة[1] إلى أنّ على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً مما يتعارفه الناس، وهي غشاوة التعامي عن الآيات الكونية.

ومنها: تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ إشارة إلى أنّه نوع منه مجهول الكمّ والكيف.

ومنها: وصفه بعظيم؛ لدفع الإيهام بقلّته وندرته، وللإشارة إلى أنّ لهم من الآلام نوعاً عظيماً، لا يعلم كنهه إلاّ الله عزّ وجلّ.

ومنها: الحذف، وهو في مواضع[2].

منها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: إنّ القوم الذين كفروا بالله وبك، وبما

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

جئت به.

ومنها: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بالله، وبما أخبرتهم به عن الله.

ومنها: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فلا تعي. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: فلا تصغي.

ومنها: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ على قراءة من نصب، أي: وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا يبصرون سبيل الهدى.

ومنها: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم يوم القيامة عذاب عظيم دائم، ويجوز أن يكون التقدير: ولهم عذاب عظيم في الدنيا بالقتل والأسر، أو بالإذلال ووضع الجزية، وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا[1] ذكر أوّلاً من أخلص دينه لله، ووافق سرّه علنه، وفعله قوله، ثمّ ثنّى بذكر من محّضوا الكفر ظاهراً وباطناً. ثلّث هنا بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة؛ لأنّهم ضموا إلى الكفر استهزاء، وخداعاً، وتمويهاً، وتدليساً، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

وقد وصف الله سبحانه حال الذين كفروا في آيتين، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية. نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، واستجهلهم،

---

(١) المراغي.

واستهزأ بهم، وتهكّم بفعلهم، ودعاهم صمّاً بكماً عمياً، وضرب لهم شنيع الأمثال.

فنعى عليهم خبثهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، ونعى عليهم مكرهم في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفضحهم في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، واستجهلهم في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وتهكّم بفعلهم في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، ودعاهم صمّا بكماً عمياً في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾، وضرب لهم شنيع الأمثال في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ، وفي قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وعبارة أبي حيان هنا: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] مَنِ الكتابُ هُدًى لهم، وهم المتقون الذين جمعوا أوصاف الإيمان من خلوص الاعتقاد، وأوصاف الإسلام من الأفعال البدنية والمالية، وذكر ما آل أمرهم إليه في الدنيا من الهدى، وفي الآخرة من الفلاح. ثمّ أعقب ذلك بمقابلهم من الكفار الذين ختم عليهم بعدم الإيمان، وختم لهم بما يؤولون إليه من العذاب في النيران، وبقي قسم ثالث: أظهروا الإسلام مقالاً، وأبطنوا الكفر اعتقاداً، وهم المنافقون. أخذ يذكر شيئاً من أحوالهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾. الخ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر في الآيات السابقة مقالتهم الكاذبة، وخداعاتهم العاطلة، وأمراضهم المعضلة، عدّد[2] في هذه الآيات الثلاث بعض شناعاتهم المترتّبة على كفرهم ونفاقهم. ففصّل بعض خبائثهم وجناياتهم، وذكر

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بعض هفواتهم. ثمّ أظهر فسادها، وأبان بطلانها، فحكى ما أسداه المؤمنون إليهم من النصائح حين طلبوا منهم ترك الرذائل التي تؤدّي إلى الفتنة والفساد، والتمسك بأهداب الفضائل، واتباع ذوي الأحلام الراجحة والعقول الناضجة. ثمّ ما أجابوا به، مما دلّ على عظيم جهلهم، وتماديهم في سفههم وغفلتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها. أنّه سبحانه وتعالى لمّا ذكر فيما قبلها بعض خبائثهم وجناياتهم، وبعض هفواتهم، ذكر[1] هنا حال جماعة من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل، قد بلغ مِن دَعارتهم، وتمردهم في النفاق وفساد الأخلاق أن كانوا يظهرون بوجهين، ويتكلّمون بلسانين، فإذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا بما أنتم به مؤمنون، وإذا خلوا إلى شياطينهم دعاة الفتنة والإفساد الذين يصدّون عن سبيل الحقّ. قالوا لهم: إنّما نقول ذلك لهم استهزاءً بهم، وقد فضح الله بهتانهم، وأوعدهم شديد العقاب على استهزائهم، وزادهم حيرة في أمورهم. ثمّ ذكر أنّهم قد اختاروا الضلالة على الهدى، إذ هم أهملوا العقل في فهم الكتاب بعد أن تمكنت منهم التقاليد والعادات، وتحكمت فيهم البدع، فخسروا في تجارتهم، وما كانوا مهتدين فيها؛ لأنّهم باعوا ما وهبهم الله تعالى من النور والهدى، بضلالات البدع والأهواء.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّ الله سبحانه لما ذكر فيما قبلهما بعض أحوال المنافقين الذين يظهرون بوجهين، ويتكلّمون بلسانين، أراد أن يضرب لهم الأمثال؛ لأنّ نهج القرآن الكريم، كنهج لغات العرب في أساليبها، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ. فضرب الأمثال التي تُجْلِي المعاني أتمَّ جلاء، وتحدث في النفوس من الأثر، ما لا يُقْدَر قَدْره ولا يُسْبر غوره؛ لما فيها من إبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجليّة، وإظهار ما ينكر في لباس ما يعرف ويشهر. وعلى هذا السنن ضرب الله سبحانه مثل المنافقين، فمثّل حالهم حينما

---

(١) المراغي.

أسلموا أوّلاً، ودخل نور الإيمان في قلوبهم، ثمّ داخلهم الشكّ فيه، فكفروا به، إذ لم يدركوا فضائله، ولم يفقهوا محاسنه، وصاروا لا يبصرون مسلكاً من مسالك الهداية، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين. بحال جماعة أوقدوا ناراً؛ لينتفعوا بها في جلب خير، أو دفع ضرّ، فلمّا أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن جاءها عارض خفِيّ، أو أمر سماوي، كمطر شديد، أو ريح عاصف، جرفها وبدّدها فأصبحوا في ظلام دامس، لا يتسنّى لهم الإبصار بحال.

ثمّ جعلهم مرّة أخرى كالصمّ البكم العمي الذين فقدوا هذه المشاعر والحواسّ، إذ هم حين لم ينتفعوا بآثارها فكأنّهم فقدوها، فما فائدة السمع إلاّ الإصاخة إلى نصح الناصح وهدى الواعظ، وما منفعة اللسان إلاّ الاسترشاد بالقول، وطلب الدليل والبرهان؛ لتتجلّى المعقولات وتتضح المشكلات، وما مزية البصر إلاّ النظر والاعتبار؛ لزيادة الهدى والاستبصار، فمن لم يستعملها في شيء من ذلك فكأنّه فقدها، وأنّى لمثله أن يخرج من ضلالة أو يرجع إلى هدى.

ثمّ أراد سبحانه أن ينتقل إلى أسلوب آخر من الأمثال، فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فضرب[1] سبحانه في هذه الآيات مثلاً آخر، يشرح به حال المنافقين، ويبيّن فظاعة أعمالهم وسوء أفعالهم؛ زيادة في التنكيل بهم وهتكاً لأستارهم، إذ كانوا فتنة للبشر، ومرضاً في الأمم، فجعل حالهم، وقد أتتهم تلك الإرشادات الإلٰهية النازلة من السماء، فأصابهم القلق والاضطراب، واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد، والخوف من ذمّ الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم، ثمّ استبان لهم أثناء ذلك قبس من النور يلمع في أنفسهم حين يدعوهم الداعي، وتلوح لهم الآيات البيّنة والحجج القيّمة، فيعزمون على اتباع الحقّ، وتسير أفكارهم في نوره بعض الخطى، ولكن لا يلبثون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشبهات، فتقيد

(١) المراغي.

الفكر وإن لم توقف سيره، بل تعود به إلى الحيرة، كحال قوم في إحدى الفلوات، نزل بهم بعد ظلام الليل صيّب من السماء فيه رعود قاصفة، وبروق لامعة، وصواعق متساقطة، فتولاّهم الدهش والرعب، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم كلّما قصف هزيم الرعد؛ ليسدُّوا منافذ السمع لما يحذرونه من الموت الزؤام، ويخافونه من نزول الحمام، ولكن هل ينجي حذرٌ من قدر؟ تعددت الأسباب والموت واحد! بلى إنّ الله قدير أن يذهب الأسماع والأبصار التي كانت وسيلة الدهش والخوف، ولكن لحكمةٍ غاب عنّا سِرُّها، ومصلحة لا تعرف كنهها، لم يشأ ذلك وهو الحكيم الخبير.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيات، نزلت[1] هذه الآيات في المنافقين: عبد الله بنِ أبيّ ابنِ سلول، ومعتّب بن قُشير، وجُدّ بن قيس، وأصحابهم. وذلك أنّهم أظهروا كلمة الإسلام؛ ليَسْلَموا بها من النبي ﷺ وأصحابه، وأسرّوا الكفر واعتقدوه، وأكثرهم من اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآية، سبب نزوله: ما أخرجه الواحدي، والثعلبيّ من طريق محمد بن مروان السدّي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (نزلت[2] هذه الآية في عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وذلك أنّهم خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبيّ: أنظروا كيف أردّ عنكم هؤلاء السفهاء، فذهب فأخذ بيد أبي بكر، فقال: مرحباً بالصِّدِّيق سيد بَنِي تيم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثمّ أخذ بيد عمر، فقال: مرحباً بسيّد بني عديّ بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله وختنه سيد بني

---

(١) الخازن.

(٢) لباب النقول.

هاشم ما خلا رسول الله. ثمّ افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيراً. فرجع المسلمون إلى النبي ﷺ وأخبروه بذلك، فنزلت هذه الآية). ولكن هذا الإسناد واه جداً، فإنّ السدي الصغير كذّاب، وكذا الكلبي، وأبو صالح ضعيف.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ الآية، سبب نزوله: ما أخرجه[1] ابن جرير من طريق السدي الكبير، عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس وعن مرّة، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة قالوا: (كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد شديد، وصواعق، وبرق، كلّما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما؛ من الفرَق أن تدخل الصواعق في مسامعهما، فتقتلهما. وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يُبصِرا، فأتيا مكانهما يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً، فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما، ووضعا أيديهما في يده، وحسن إسلامهما). فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس رسول الله ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ فرقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو يُذكَروا بشيء فيُقتَلوا، كما كان كذلك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾؛ أي: فإذا كثرت أموالهم وولدهم، وأصابوا غنيمة أو فتحاً مشوا فيها، وقالوا حينئذٍ: إنّ دين محمد صِدْقٌ، واستقاموا عليه، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهما البرق، وإذا أظلم عليهم قاموا، وكانوا إذا هلكت أموالهم وأولادهم، وأصابهم البلاء قالوا: هذا من أجل محمد، وارتدّوا كفاراً، كما قال ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهما.

وفي «الصاوي»: والمراد من المنافقين هنا: بعض سكان البوادي؛ وبعض

---

(١) لباب النقول.

أهل المدينة في زمنه ﷺ. وخَيْرُ ما فسَّرْتَه بالوارد، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ...﴾ الآية. وأخَّرهم عن المؤمنين والكافرين ظاهراً وباطناً؛ إشارة إلى أنّهم أسوأ حالاً من الكفار.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾؛ أي: وبعض[1] الناس يقولون بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: صدّقنا بوحدانية الله تعالى. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي: صدّقنا بمجيء اليوم الآخر بما فيه من البعث، والحشر والجزاء، وبجميع ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات. وفي تكرير الباء؛ ادّعاء الإيمان بكلّ واحد على الأصالة والاستحكام، ذكره البيضاوي. وفي «العمدة»: وأعاد الجار؛ لإفادة تأكيد دعواهم الإيمان بكلّ ما جاء به محمد ﷺ. فردّ الله سبحانه عليهم بأبلغ ردّ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ حيث أتى بالجملة الاسمية، وزاد الجار في الخبر. أي: يقولون ذلك والحال أنّهم غير مصدّقين بما ذكر؛ لأنّهم يقولون ذلك قولاً لسانياً دون اعتقاد، وكلاماً خداعياً دون تصديق. والمراد باليوم الآخر: يوم القيامة، سمّي بذلك؛ لأنّه يأتي بعد الدنيا، وهو آخر الأيام المحدودة المعدودة، وما بعده فلا حدّ له ولا آخر.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لمّا افتتح الله سبحانه وتعالى[2] كتابه بشرح حاله، وسَاقَ لبيانه ذِكْرَ الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثَنّى بأضدادهم الذين محّضوا الكفر ظاهراً، وباطناً. ثَلَّث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أي المنافقون أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله؛ لأنّهم موّهوا الكفر، وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك طوّل في بيان خبثهم.

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

قال الفاشانيّ: الاقتصار في وصف الكفار المصرِّين المطبوع على قلوبهم على آيتين، والإطناب في وصف المنافقين في ثلاث عشرة آية للإضراب عن أولئك صفحاً، إذ لا ينجع فيهم الكلام، ولا يجدي عليهم الخطاب. وأمّا المنافقون فقد ينجع فيهم التوبيخ والتعيير، وعسى أن يرتدعوا بالتشنيع عليهم، وتفظيع شأنهم وسيرتهم، وتهجير عادتهم، وخبث نيتهم وسريرتهم، وينتهوا بقبح صورة حالهم، وتفضيحهم بالتمثيل بهم وبطريقتهم فتلين قلوبهم، وتنقاد نفوسهم، وتَزَّكّىٰ بواطنهم، وتضمحل رذائلهم، فيرجعون عما هم عليه، ويصيرون من المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

والنَّاسُ[1]: اسم جمع لِلناسي، سمّي به؛ لأنه عُهِدَ إليه فنَسِيَ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي: نَسَّاءٌ للنعم، ذكَّارٌ للمِحَن. وقيل: سمي به؛ لظهوره من آنس؛ أي: أبصر؛ لأنّهم ظاهرون مبصرون، ولذلك سمّوا بشراً، كما سمّي الجنّ جناً؛ لاجْتِنَانِهِم؛ أي: استتارهم عن أعين الناس. وقيل: هو من الأُنس الذي هو ضدّ الوحشة؛ لأنّهم يستأنسون بأمثالهم، أو يستأنس أرواحهم بأبدانهم، وأبدانهم بأرواحهم. واللام فيه للجنس. و﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ نكرة موصوفة، إذ لا عهد، فكأنّه قال: ومن الناس ناس يقولون؛ أي: يقرُّون باللسان. والقول: هو التلفظ بما يفيد، ويأتي بمعنى المقول. وللمعنى المحصور في النفس المعبّر عنه باللفظ وللرأي، وللمذهب مجازاً. ووحَّد الضمير في ﴿يَقُولُ﴾باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾، وقوله: ﴿وَمَا هُم﴾ باعتبار معناها؛ لأنّ كلمة ﴿مَن﴾ تصلح للواحد والجمع، أو اللام فيه للعهد، والمعهود: هم الذين كفروا. و﴿مَن﴾ موصولة مراد بها: عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، ونظراؤه من المنافقين، حيث أظهروا كلمة الإسلام؛ ليسلموا من

---

(١) روح البيان.

النبي ﷺ وأصحابه، واعتقدوا خلافها، وأكثرهم من اليهود، كما مرّ. فإنّهم من حيث إنهم صمّموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم. واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس، فإنّ الأجناس إنما تتنوّع بزيادات يختلف فيها أبعاضها. فعلى هذا تكون الآية تقسيماً للقسم الثاني.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّقنا بالله. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وهو من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى؛ أي: الوقت الدائم الذي هو آخر الأوقات المنقضية، والمراد به: البعث، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ لأنّه آخر الأيام المحدودة، إذ لا حدّ وراءه، وسمّي بالآخر؛ لتأخّره عن الدنيا.

وتخصيصُهم للإيمان بهما بالذكر له؛ ادّعاءُ أنّهم قد حازوا الإيمان من قطريه، وأحاطوا به من جانبيه، وإيذان بأنّهم منافقون فيما يظنّون فيه، فكيف بما يقصدون به النفاق؛ لأنّ القوم كانوا يهوداً، وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً كَلاَ إيمان؛ لاعتقادهم التشبيه، واتخاذ الولد، وأنّ الجنة لا يدخلها غيرهم، وأنّ النار لن تمسهم إلاّ أياماً معدودة، وغيرها، ويرون المؤمنين أنّهم آمنوا مثل إيمانهم. وحكاية الله سبحانه عبارتهم؛ لبيان كمال خبثهم، فإنَّ ما قالوه لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق، وعقيدتهم عقيدتهم الأولى، لم يكن ذلك إيماناً، فكيف وهم يقولونه تمويهاً على المسلمين واستهزاءً بهم، فكان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر.

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما هم[1] بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين، الذين يشعرون بعظيم سلطان الله، ويعلمون أنه مطلع على سرّهم ونجواهم، إذ كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أنّ ذلك يُرضي ربّهم، ثمَّ هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب، وغِشٍّ، وخيانة، وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم، ونقله الرواة أجمعون.

---

(١) المراغي.

و﴿مَا﴾ نافية[1] بمعنى ليس، ولهذا عقَّب بالباء؛ أي: ليسوا بمصدّقين؛ لأنّهم يضمرون خلاف ما يظهرون بل هم منافقون. وفي الحكم عليهم بأنّهم ليسوا بمؤمنين، نَفْيُ ما ادّعوه على سبيل البت والقطع؛ لأنّه نفيُ أصل الإيمان منهم بإدخال الباء في خبر ﴿مَا﴾، ولذا لم يَقُلْ: وما هم من المؤمنين، فإنّ الأول أبلغ من الثاني.

دلَّتْ الآية: على أنَّ الدعوى مردودةٌ، إذا لم يقم عليها دلائل الصحة. قال بعضهم: مَنْ تحلَّى بغير ما فيه فضح الامتحان ما يدَّعِيه، فإنّ من مدح نفسه ذُمَّ، ومن ذَمَّ نفسه مُدح، قال فرعون عليه لعنة الله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل فيه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقال يونس ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقيل له: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾.

وقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ جملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين؟ فقيل: يخادعون الله الخ. أي: يخدعون الله سبحانه وتعالى، وإنما أخرج على زنة فاعل؛ للمبالغة، فليست المفاعلة على بابها، وخداعهم مع الله ليس على ظاهره؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية؛ ولأنّهم لم يقصدوا خديعته بل المراد إما مخادعة رسوله ﷺ فيكون الكلام على حذف مضاف، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: يخادعون رسول الله ويغرُّونه بما أظهروا من الإسلام، أو على أنّ معاملة الرسول معاملة الله، من حيث إنه خليفته في أرضه، والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده. ففيه رفع درجة النبي ﷺ حيث جعل خداعه خداعه.

والخَدْعُ على ما ذكرنا من جانب المنافقين لله وللمؤمنين، والتعبير بصيغة المخادعة؛ للدلالة على المبالغة في حصول الفعل، وهو الخدع، أو للدلالة على حصوله مرّة بعد أخرى، كما يقال: مارَسْتُ الشيء وزاولته، إذ هم كانوا مداومين على الخدع، إذ أعمالهم الظاهرة لا تُصدّقها بواطنهم، وهذا لا يكون إلاّ من

---

(١) روح البيان.

مخادع، لا من تائبٍ خاشع والخَدْعُ: أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه؛ لتحول بينه وبين ما يريد. وقيل: الخدع: أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه؛ ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به؛ لِيغتَرَّ بذلك، فيتجوَّز منه بسهولةٍ من قولهم: ضبٌّ خادع وخدعٌ، وهو الذي إذا أمرَّ الحارشُ يده على باب جحره يوهمه الإقبال عليه، فيخرج من بابه الآخر. وكلا المعنيين مناسب للمقام، فإنّهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين، فيحملوها إلى أعدائهم، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب بسائر الكفرة من القتل، والأسر، والنهب، وأن ينالوا به نظم مصالح الدنيا جميعاً، كأن يُفعل بهم ما يُفعل بالمؤمنين من الإعطاء. وإما لأنّ صورة صنعهم مع الله من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصُنْع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده تعالى أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجاً لهم، وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله تعالى في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم صورة صنع المخادعين، فتكون المخادعة بين الاثنين، فتكون المفاعلة على بابها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معطوف على الجلالة؛ أي: ويريدون بذلك القول: أن يخدعوا الذين آمنوا، ويغروهم بإظهار الإيمان، وإخفاء الكفر للاطلاع على أسرارهم، وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، ودفع الأذى عن أنفسهم.

وجملة قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾؛ أي: يخادعون الله والمؤمنين بذلك القول، والحال أنّهم ما يضرّون بخداعهم ومكرهم في الحقيقة إلاّ أنفسهم؛ لأنّ وبال خداعهم وعقوبته راجعٌ إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه، وأمره بإخراجهم من المسجد. ونزل فيهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ الآيات، ويعاقبون في الآخرة بالعذاب الدائم المُؤبّد في الدرك الأسفل من النار. أي: فدائرةُ فعلهم مقصورة عليهم. ومن راعى صيغة المفاعلة قال: وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلاّ بأنفسهم؛ لأنّ ضررها لا يحيق إلاّ

بهم، ووبال خداعهم راجع إليهم. والمراد بأنفسهم هنا: ذواتهم لا سائر المعاني التي تدخل في مسمى النفس، كالروح، والدم، والقلب.

وجملة قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من ضمير ﴿ما يخدعون﴾؛ أي: يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنّهم ما يُحِسُّون وما يعلمون ذلك. أي: أنّ ضرر خدعهم ووباله عليهم؛ لتمادي غفلتهم وتكامل حماقتهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا الخداع، بل أخلصوا في إيمانهم.

والخدع، وكذا الخديعة، والحيلة، والمكر: هو ما يُتوصّل به إلى المقصود بطريق خفيّ، كما ذكره القسطلاني في كتاب الحِيل من «صحيح البخاري». والشعور: إدراك الشيء من وجه يدقّ ويخفى، مشتق من الشعر لدقّته. وقيل:[1] هو الإدراك بالحاسّة، مشتق من الشعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه: مشاعر الإنسان؛ أي: حواسه الخمس التي يشعر بها. اهـ. «سمين». وسُمْيت مشاعره حواس؛ لكون كلّ حاسة منها محلاًّ للشعور والعظة.

والمعنى: أنّ لحوق ذلك لهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حسّ له. ثمّ في هذه الآية[2] نفي العلم عنهم، وفي قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إثبات العلم لهم، فبينهما معارضة، فما وَجْهُ الجمع بينهما؟ قلت: الجمع بينهما بأن يقال: إنّهم علموا به حقيقة، ولكن لم يعملوا بما علموا، فكأنّهم لم يعلموا، وهو كقوله عز وجلّ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فكانوا ناطقين سامعين ناظرين حقيقة، لكن لم ينتفعوا بذلك، فكانوا كأنّهم صمّ بكم عمي، فذو الآلة إذا لم ينتفع بها، فهو وعادمُ الآلة سواء، والعالم الذي لا يعمل بعلمه، فهو والجاهل سواء، والغني الذي لا ينتفع بماله، فهو والفقير سواء. فإثبات العلم للكفار إلزام الحجة، وذكر الجهل إثبات المنقصة، بخلاف المؤمنين فإنّ إثبات العلم لهم إثبات الكرامة، وذكر الجهل تلقين عذر المعصية. فعلى المؤمن أن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يتحلَّى بالعلم والعمل، ويجتنب عن الخطاء، والزلل، والبطالة، ويطيع ربّه خالصاً لوجهه الكريم، ويعبده بقلب سليم.

وفي الحديث: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم يجازي العباد بأعمالهم»: (اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم خيراً). وإنّما يقال لهم ذلك: لأنّ عملهم في الدنيا كان على وجه الخداع، فيعاملون في الآخرة على وجه الخداع، كذا في «تنبيه الغافلين».

وأخرج[1] أحمد بن منيع في «مسنده» بسند ضعيف، عن رجل من الصحابة: «أنّ قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله ما النجاة غداً؟ قال: «لا تخادع الله»، قال: وكيف نخادع الله؟ قال: «أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره، فاتقوا الرياء، فإنّه الشرك بالله، فإنّ المُرائي ينادىٰ يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء»: يا كافر، يا فاجر، يا خاسر، يا غادر ضَلّ عملك، وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله، فالتمس أجرك ممن كنت تعملُ له يا مخادع، وقرأ آياتٍ من القرآن ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية، و﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير، عن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؟ قال: هؤلاء المنافقون يخادعون الله ورسوله والذين آمنوا، أنّهم مؤمنون بما أظهروه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو[2]: ﴿يخادعون﴾ بالألف في الموضعين، وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي، وابن عامر في الثاني ﴿يَخْدَعُونَ﴾ بلا ألفٍ. والمراد بمخادعتهم أنفسهم: أنّهم يُمَنُّونها الأماني الباطلة، وهي كذلك تُمنِّيهم.

والحاصل: أنّه قد نفى[3] الشعور عنهم في مخادعتهم؛ لأنّهم لم يحاسبوا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه في أفعالهم، ولم يفكّروا فيما يرضيه، بل جَرَوا في ريائهم على ما ألفوا وتعودوا، فهم يعملون عمل المخادعين، وما يشعرون، فإذا عرض لهم زاجرٌ من الدين يحول بينهم وبين ما يشتهون، وجدوا لهم من المعاذير ما يسهّل أمره، إمَّا بأملٍ في المغفرة، أو تحريف في أوامر الكتاب، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يسمّونها إيماناً، وهم في الحقيقة مخدوعون، وعن الصراط السويّ ناكبون.

والمشاهد: أنّ الإنسان إذا همّ بعمل وناجى، وجد كأنّ في قلبه خصمين مختصمين:

أحدهما: يميل به إلى اللذة، ويسير به في طريق الضلال والغواية.

وثانيهما: يأمره بالسير في الطريق القويم، وينهاه عن اتباع النفس والهوى. ولقد جاء في كلامهم عن المتردّد: (فلان يشاور نفسه) ولا يترجّح عنده جانب الشرّ إلاّ إذا خدع نفسه، وصرفها عن الحقّ، وزيّن لها اتباع الباطل. وإنّما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة، تَجُولُ في الخاطر، وتَهْجُسُ في النفس، ربّما لا يلتفت إليها الإنسان، ولا يشعر بما يجول بين جنبيه.

﴿فِي قُلُوبِهِم﴾؛ أي: في قلوب هؤلاء المنافقين وعقولهم، فالمراد بالقلوب هنا: العقول، وهو تعبير معروف عند العرب. ﴿مَّرَضٌ﴾؛ أي: مرض معنوي الذي هو الشكّ، والكفر، والنفاق. والمرضُ: حقيقةٌ فيما يَعْرِضُ للبدن، فيخرجه عن الاعتدال اللائق، ويوجب الخلل في أفاعيله، ويؤدّي إلى الموت. ومجازٌ في الأعراض النفسانية التي تُخِلُّ بكمالها: كالجهل، وسوء العقيدة، والحسد، والضغينة، وحبّ المعاصي، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني؛ لأنّها مانعة عن نيل الفضائل، أو مؤدّية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية، والآيةُ الكريمةُ تحتملها، فإنّ قلوبهم كانت متألّمة تَحَرّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ﴾ على مرضهم الأول ﴿مَرَضًا﴾ آخر بما أنزله من القرآن؛ لأنّ

نزول القرآن يزيد الكافر والمنافق مرضاً بمعنى: كفراً وشكّاً، فينشأ عنه المرض الحسّيّ، كما يزيد المؤمن إيماناً فينشأ عنه البهجة والسرور. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا...﴾ الآياتِ، ويحتمل بما أنزله في حقّهم من فضيحتهم خصوصاً بسورة التوبة، فإنّها تسمّى الفاضحة.

والمعنى: فزاد الله غمَّهم بما زاد في إعلاء أمره ورفع قدره، وأنَّ نفوسهم كانت مَؤُوْفَةً بالكفرِ، وسوء الاعتقاد، ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله ذلك بأن طبع على قلوبهم؛ لعلمه تعالى بأنّه لا يؤثّر فيها التذكير والإنذار، وبازدياد التكاليف الشرعية، وتكرير الوحي، وتضاعف النصر؛ لأنّهم كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً، وقد كان يشقّ عليهم التكلم بالشهادة، فكيف وقد لحقتهم الزيادات، وهي وظائف الطاعات، ثُمَّ العقوبة على الجنايات، فازدادوا بذلك اضطراباً على اضطراب، وارتياباً على ارتياب، ويزدادون بذلك في الآخرة عذاباً على عذاب. قال تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، والمؤمنون لهم في الدنيا ما قال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، وفي العقبى ما قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

قال القطب العلاَّمة: أمراض القلب: إمَّا متعلّقة بالدين، وهو سوء الاعتقاد والكفر، أو بالأخلاق، وهي إما رذائل فعليَّةٌ، كالغِلّ والحسد، وإما رذائل انفعاليَّة، كالضعف والجُبْنِ. فحُمِل المرضُ أوّلاً على الكفر، ثمّ على الهيئات الفعلية، ثمّ على الهيئات الانفعالية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ دعاءً عليهم.

فإن قلت:[1] فكيف يحمل على الدعاء، والدعاءُ للعاجز عرفاً، والله تعالى منزَّه عن العجز؟

قلت: هذا تعليمٌ من الله لعباده أنّه يجوز الدعاء على المنافقين، والطردُ لهم؛ لأنّهم شرُّ خلق الله؛ لأنّه أعد لهم يوم القيامة الدرك الأسفل من النار، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

وعبارة المراغي هنا: وقد وُجد[1] هذا المرض عند هؤلاء المنافقين حين كانوا في فترة من الرسل، فلم يكن لهم حظّ من قراءة كتب الدين إلاّ تلاوتها، ولا من أعماله إلاّ إقامة صُورها، من غير أن تنفذ أسرارها إلى قلوبهم، فتهذب النفوس، وتسمو بها إلى فضائل الأخلاق، والتفقُّهِ في الدين.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ بعد أن جاء النذير البشير، ومعه البرهان القاطع، والنور الساطع وأبوا أن يتبعوه، وزاد تمسكُّهم بما كانوا عليه، فكان ذلك النور عَمىً في أعينهم ومرضاً في قلوبهم، وتحرَّقَتْ قلوبهم حسرةً على ما فاتهم من الرياسة، وحسداً على ما يرونه من ثبات أمر الرسول ﷺ وعلوِّ شأنه يوماً بيوم. انتهى.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: ولهؤلاء المنافقين في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ يصل ألمه إلى القلوب، وهو بمعنى: المؤلَم بفتح اللام على أنّه اسم مفعول من الإيلام. يقال: ألم يألم فهو أليم بمعنى: مُؤلم، كسميع بمعنى: مُسْمع. وُصف به للمبالغة، وهو في الحقيقة صفة المعذَّب بفتح الذال المعجمة، كما أنّ الجدّ للجادّ في قولهم: جَدَّ جِدُّه. وجه المبالغة: إفادة أنَّ الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذَّب بفتح الذال إلى العذاب المتعلِّق به.

أي: ولهم عذاب مُوجع ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ بالتخفيف[2]؛ أي: بسبب كذبهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾، وقرىء بالتشديد؛ أي: بسبب تكذيبهم النبيّ ﷺ فيما جاء به في السرّ. والكذب: هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، كقولك: الجهل نافع والعلم ضارّ، وهو قبيحٌ كُلُّه.

و(الباء)[3] فيه للسببية، أو للمقابلة، و﴿مَا﴾ مصدرية، داخلةٌ في الحقيقة على ﴿يَكْذِبُونَ﴾ وكلمة ﴿كَانُواْ﴾ مقحمة؛ لإفادة دوام كذبهم وتجدده؛ أي: بسبب

---

(١) المراغي.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

كذبهم المتجدّد المستمر الذي هو قولهم: ﴿ءَامَنَّا...﴾ إلخ. وفيه رَمْزٌ إلى قُبح الكذب وسماجته، وتخييل أنّ العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم نظراً إلى ظاهر العبارة المتخيَّلة، لانفراده بالسببية مع إحاطة علم السامع بأنّ لحوق العذاب بهم من جهات شتَّى، وأنّ الاقتصار عليه للإشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه. وأمّا ما روي: أنّ إبراهيم عليه السلام كَذَبَ ثلاثَ كذبات، فالمراد به: التعريض، لكن لمَّا شابه الكذب في صورته سُمّي به، وهي قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله: (هذه أختي) كما هو مذكور في محلّه.

وحاصل معنى الآية: أنَّ الله سبحانه جعل[1] العذاب جزاء الكذب دون سائر موجباته الأخرى، كالكفر وغيره من أعمال السوء؛ للتحذير منه، وبيان فظاعته، وعظم جرمه؛ وللأشعار بأنَّ الكفر من محتوياته، وإليه ينتهي في حدوده وغاياته، ومن ثم حذر منه القرآن أتمَّ التحذير. فما فشا في أُمةٍ إلاّ كثرت فيها الجرائم، وشاعت فيها الرذائل، فهو مصدر كل رذيلةٍ ومنشأ كلِّ كبيرة. وقد روي عن النبي ﷺ: أنّه قال: «إياكم والكذب، فإنّه مجانب للإيمان»؛ يعني: أنَّ الإيمان في جانب والكذب في جانب آخر منه، مقابلٍ له، وهذا كنايةٌ عن كمال البعد بينهما.

وفي الحديث[2]: «ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار». كلّ الكذب مكتوب كذباً لا محالة، إلاّ أن يكذب الرجل في الحرب، فإنّ الحرب خُدعةً، أو يكون بين رجلين شحناء، فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته ليرضيها، مثل أن يقول: (لا أحد أحبّ إليّ منك)، وكذا من جانب المرأة. فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها: ما أدَّاها إذا ارتبط بمقصودٍ صحيحٍ له، أو لغيره، لكن هذا في حقِّ الغير، وأمَّا في حقّ نفسه، فالصدق أولى وإن لزم الضرر.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

واعلم: أنَّ المراد بالكذب في الحقيقة: الكذب في العبوديّة والقيام بحقوق الربوبيّة، كما للمنافقين ومن يحذو حذوهم، ولا يصح الاقتداء بأرباب الكذب مطلقاً، ولا يعتمد عليهم، فإنّهم يجرُّون إلى الهلاك، والفراق عن مالك الأملاك.

وأمال حمزة[1] ﴿فَزَادَهُمُ﴾، ووافقه ابن ذكوان، وأجمع القراء على فتح الراء في قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾، إلاّ ما رواه الأصمعيُّ، عن أبي عمرو: أنّه قرأ بإسكان الراء. وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائي ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتخفيف. وقرأ الحرميان: نافع، وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو، وابن عامر بالتشديد.

وقد سُئل[2] القرطبيُّ وغيره من المفسرين، عن حكمة كفّه ﷺ عن قتل المنافقين مع عِلْمه بأعيان بعضهم؟ فذكروا أجوبةً عن ذلك.

منها: ما ثبت في «الصحيحين»: أنّه ﷺ قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ: «أكْرَهُ أن يتحدَّث العرب أنَّ محمداً يقتل أصحابه».

ومنها: ما قال مالك: (إنّما كفَّ رسول الله ﷺ عن المنافقين؛ ليبيِّن لأُمَّته أنَّ الحاكم لا يحكم بعِلْمه).

ومنها: ما قاله بعضهم: أنّه إنما لم يقتلهم؛ لأنّه كان لا يخاف من شرّهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم، يتلو عليهم آيات الله بينات. فأمّا بعده: فيُقتَلون إذا أظهروا النفاق، وعلمه المسلمون. انتهى.

ثُمَّ[3] شرع في بيان قبائحهم وأحوالهم الشنيعة، وفي الحقيقة: هو تفصيل للمخادعة الحاصلة منهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: وإذا قال المسلمون لهؤلاء المنافقين: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بالكفر، وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وإفشاء أسرار المؤمنين إلى

---

(١) البحر المحيط.

(٢) ابن كثير.

(٣) العمدة.

الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك.

وإسناد[1] ﴿قِيلَ﴾ إلى ﴿لَا تُفْسِدُوا۟﴾ إسنادٌ له إلى لفظه، كأنّه قيل: وإذا قيل لهم: هذا اللفظ، كقولك: أَلِّفَ ضرب من ثلاثة أحرف. والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته، وكونه منتفعاً به، وضدُّه: الصلاح، وهو الحصول على الحال المستقيمة النافعة. وكلاهما يعمّان كلّ ضارّ ونافع، والفساد في الأرض: تهييجُ الحروب والفتن المستتبعة؛ لزوال الاستقامة عن أحوال العباد، واختلال أمر المعاش والمعاد. والمراد بما نهوا عنه: ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار، وإغرائهم عليهم، وغير ذلك من فنون الشرور. فلمّا كان ذلك من صنيعهم مؤدّياً إلى الفساد. قيل: ﴿لَا تُفْسِدُوا۟﴾، كما يقال للرجل: لا تقتل نفسك بيدك، ولا تُلْقِ نفسك في النار، إذا أقدم على ما هذه عاقبته. وكانت الأرض قبل البعثة يُعلَن فيها بالمعاصي، فلمّا بعث النبي ﷺ ارتفع الفساد، وصلحت الأرض، فإذا أعلنوا بالمعاصي، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، كما في «تفسير أبي الليث».

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جواب لإذا، وردٌّ للناصح على سبيل المبالغة؛ أي: نحن مقصورون على الإصلاح المحضِ؛ أي: ليس شأننا الإفسادَ أبداً، بل نحن محصورون في الإصلاح، لا نخرج عنه إلى غيره، فهو من حصر المبتدأ في الخبر.

والمعنى[2]: أنّه لا يصح مخاطبتنا بذلك، فإنّ شأننا ليس إلاّ الإصلاح، وإنّ حالنا متمّحضة عن شوائب الإفساد، وإنّما قالوا ذلك؛ لأنّهم تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾. فأنكروا كون ذلك فساداً، وادَّعوا كونه إصلاحاً محضاً. وهو من قصر الموصوف على الصفة، مثل: إنّما زيد منطلق.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قال ابن التمجيد[1]: إنّ المسلمين لمّا قالوا لهم: لا تفسدوا في الأرض، توهَّموا أنَّ المسلمين أرادوا بذلك أنّهم يخلطون الإفساد بالإصلاح، فأجابوا بأنَّهم مقصورون على الإصلاح، لا يتجاوزون منه إلى صفة الإفساد، فيلزم منه عدم الخلط. فهو من باب قصر الإفراد، حيث توهَّموا أنّ المؤمنين اعتقدوا الشركة. فأجابهم الله تعالى بعد ذلك بما يدلُّ على القصر القلبيّ، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ أيّها المؤمنون انتبهوا، واعلموا ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فإنّهم لمّا أثبتوا لأنفسهم إحدى الصفتين، ونفوا الأخرى، واعتقدوا ذلك، قلب الله اعتقادهم هذا بأن أثبت لهم ما نفوه، ونفى عنهم ما أثبتوا.

والمعنى: هم مقصورون على إفساد أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، لا يتخطّون منه إلى صفة الإصلاح، من باب قصر الشيء على الحكم، فهم لا يعدون صفة الفساد والإفساد، ولا يلزم منه أن لا يكون غيرهم مفسدين.

ثمّ استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم مفسدون، للإيذان بأنّ كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة، لكن لا حسّ لهم حتى يدركوه. قال الشيخ في «تفسيره»: ذِكرُ الشعور بإزاء الفساد أوفق؛ لأنّه كالمحسوس عادة، ثمّ فيه بيان شرف المؤمنين، حيث تولّى جواب المنافقين عما قالوه للمؤمنين.

والحاصل: أنّهم أكّدوا ذلك بإنّما المفيدة للحصر، وبالجملة الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار. فردّ الله سبحانه عليهم بجملة مؤكّدة بأربع مؤكّدات: ﴿أَلَآ﴾ التي للتنبيه و﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل، وتعريف الخبر، حيث قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ أي: إنّهم وحدهم هم المفسدون، لا مَنْ أومَأوُا إليهم من المؤمنين، ولكن لا يعلمون أنَّ ما فعلوه فساد؛ لأنّه أصبح غَريزةً في طباعهم؛ بما تمكَّن فيها من الشُّبه بتقليدهم أحبارهم الذين أشربت قلوبهم تعظيمهم، والثقة بآرائهم. أو لا يعلمون أنّ الله تعالى يُطْلِعُ نبيَّه ﷺ على فسادهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ من طرف المسلمين بطريق الأمر بالمعروف، إثر نهيهم عن

---

(١) روح البيان.

المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشاد، فإنّ كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عمّا لا ينبغي، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، والإتيانُ بما ينبغي، وهو المطلوب بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا﴾ حذف المؤمَنَ به؛ لظهوره؛ أي: آمنوا بالله وباليوم الآخر، أو أُريد: فعلوا الإيمان.

والمعنى: أي[1] وإذا قال لهؤلاء المنافقين النبيُّ ﷺ أو بعض أصحابه بطريق الأمر بالمعروف نصيحةً لهم: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء. ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾؛ أي: كما آمن أصحاب النبي ﷺ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله. والكاف في محل النصب على أنّه نعتٌ لمصدر مؤكّد محذوف؛ أي: آمنوا إيماناً مماثلاً لإيمانهم، فما مصدرية أو كافّة؛ أي: حقّقوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم. واللام[2] في ﴿النَّاسُ﴾ للجنس، والمراد به: الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العَقْلِ، أو للعهد، والمراد به: الرسول ﷺ ومن معه، أو من آمن من أهل بلدتهم؛ أي: من أهل ضيعتهم: كابن سلام وأصحابه.

والمعنى: آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص، متمَحّضاً من شوائب النفاق، مماثلاً لإيمانهم.

﴿قَالُوا﴾ مقابلين للأمر بالمعروف بالإنكارِ المُنْكَرِ، واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمزة فيه للإنكار مع الاستهزاء والسخرية، واللام فيه مشارٌ بها إلى الناس الكاملين، أو المعهودين، أو إلى الجنس بأسره، وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد. والسفه: خفَّةُ عقل وسخافة رأي، يورثهما قصور العقل، ويقابله الحلم والأناة. وإنَّما نسبوهم إليه مع أنّهم في الغاية القاضية من الرشد، والرزانة، والوقار؛ لكمال انهماك أنفسهم في السفاهة، وتماديهم في الغواية، وكونهم ممن زُيّن له سوء عمله، فرآه حسناً،

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

فمن حسِب الضلالَ هدًى يُسمِّي الهدى لا محالة ضلالاً؛ أو لتحقير شأنهم، فإنّ كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء، ومنهم الموالي، كصهيب، وبلال، أو للتجلُّد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس: عبد الله بن سلام وأمثاله. وقيل: إنّما سفَّهوهم؛ لأنَّ الصحابة أنفقوا أموالهم في سبيل الله حتى افتقروا، وتحملَّوا المشاقَّ، فسموهم سفهاء لذلك.

فإن قيل: كيف يصحّ النفاق مع المجاهرة بقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

قلنا: فيه أقوال:

الأول: إنّ المنافقين لعنهم الله، كانوا يتكلمون بهذا الكلام في أنفسهم دون أن ينطقوا به بألسنتهم، لكن هتك الله أستارهم، وأظهر أسرارهم عقوبةً على عداوتهم، وهذا كما أظهر ما أضمره أهل الإخلاص من الكلام الحسن، وإن لم يتكلموا به بالألسن؛ تحقيقاً لولايتهم، قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وكان هذا في قلوبهم، فأظهره الله تعالى تشريفاً لهم وتشهيراً لحالهم. وهذا قول صاحب «التيسير».

والثاني: أنّ المنافقين كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بذلك، هذا قول البغويّ.

والثالث: قول أبي السعود في «الإرشاد» حيث قال: هذا القول وإن صدر عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جواباً عن نصيحتهم، لكن لا يقتضي كونهم مجاهرين لا منافقين، فإنّه ضَرْبٌ من الكفر أنيقٌ، وفنٌّ في النفاق عَرِيقٌ؛ لأنّه محتمل للشرّ، كما ذكر في تفسيره، وللخير بأن يحمل على ادّعاء الإيمان، كإيمان الناس، وإنكار ما اهْتَمُّوا به من النفاق على معنى: أنؤمن كما آمن السفهاء والمَجَانِينُ الذين لا اعتداد بإيمانهم لو آمنوا، ولا نؤمن كإيمان الناس حتى تأمرون بذلك، قد خاطبوا به الناصحين استهزاءً بهم مرائين لإرادة المعنى الأخير

وعلى الأول: ردّ الله ـ سبحانه ـ ذلك عليهم بجملة مؤكّدة بأربع تأكيدات كالسابقة، حيث قال: ﴿أَلَآ﴾ فانتبهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إنّ المنافقين

القائلين ما ذكر ﴿هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لا غيرهم؛ لأنّ من ركب متن الباطل كان حقيقاً بالسفه بلا امتراء. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم هم السفهاء، ولا يحيطون بما عليهم من داء السفه، والمؤمنون بإيمانهم وإخلاصهم هربوا من السفه، وغبُّوا في العلم والحقّ، وهم العلماء في الحقيقة، والمستقيمون على الطريقة.

فائدة: قال أبو حيان: وإذا التقت الهمزتان، أولاهما مضمومة، والثانية مفتوحة، نحو: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ﴾ ففي ذلك أوجه:

أحدها: تحقيق الهمزتين، وبذلك قرأ الكوفيون، وابن عامر.

والثاني: تحقيق الأولىٰ وتخفيف الثانية بإبدالها واواً، وبذلك قرأ الحرميان، وأبو عمرو.

والثالث: تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو، وتحقيق الثانية.

والرابع: تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو وإبدال الثانية واواً.

وأجاز قوم وجهاً.

خامساً: وهو جعل الأولى بين الهمزة والواو وجعل الثانية بين الهمزة والواو، ومنع ذلك بعضهم.

وهذا ردّ[1] ومبالغة في تجهيلهم، فإنّ الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتمّ جهالة من المتوقّف المعترف بجهله، فإنّه ربّما يعذر وتنفعه الآيات والنذر. وقال النسفيّ: وإنّما ذكر هنا ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾. وفيما تقدم ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنه قد ذكر السفه هنا، وهو جهل، وكان ذكر العلم أحسن طبقاً له. انتهى.

وفي «الروح»: واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في الآية الأولى: نفي

---

(١) روح البيان.

الإحساس عنهم، وفي الثانية: نفي الفِطْنة؛ لأنّ معرفة الصلاح والفساد يُدرَك بالفطنة، وفي الآية الثالثة: نفي العلم، وفي نفيها على هذه الوجوه تنبيهٌ لطيفٌ ومعنى دقيق، وذلك: أنّه بيّن في الأولىٰ: أنَّ في استعمالهم الخديعة نهاية الجهل الدال على عدم الحسّ، وفي الثانية: أنّهم لا يفطنون تنبيهاً على أنّ ذلك لازمٌ لهم؛ لأنّ من لا حِسَّ له لا فطنة له، وفي الثالثة: أنّهم لا يعلمون تنبيهاً على أنّ ذلك أيضاً لازم لهم؛ لأنّ من لا فطنة له لا علم له، فإنَّ العلم تابع للعقل، كما حكي: أنّ الله تعالى لمّا خلق آدم عليه السلام أتى إليه جبريل عليه السلام بثلاث تُحَفٍ: العلم، والحياء، والعقل. فقال: يا آدم اختر من هذه الثلاث ما تريد، فاختار العقل. فأشار جبريل إلى العلم والحياء بالرجوع إلى مقرّهما، **فقالا**: إنّا كنا في عالم الأرواح مجتمعين، فلا نرضى أن يفترق بعضنا عن بعض في الأشباح أيضاً، فنتبع العقل، حيث كان، فقال جبريل عليه السلام: استقرا، فاستقر العقل في الدماغ، والعلم في القلب، والحياء في العين.

فليسارع[1] العاقل إلى تحصيل العلم والمعرفة، حتى يصل إلى توحيد الفعل والصفة. قال الإمام القُشيري ـ رحمه الله تعالى ـ: للعقل نجوم، وهي للشيطان رجوم، وللعلوم أقمار هي للقلوب أنوار واستبصار، وللمعارف شموس، ولها على أسرار العارفين طلوع، والعلم اللدنّي هو الذي ينفتح في بيت القلب من غير سبب مألوف من الخارج، وللقلب بابان: باب إلى الخارج يأخذ العلم من الحواس، وباب إلى الداخل يأخذ العلم بالإلهام. فمثل القلب، كمثل الحوض الذي يجري فيه أنهار خمسة، فلا يخلو ماؤه عن كدرة ما دام يحصل ماؤه من الأنهار الخمسة، بخلاف ما إذا خرج ماؤه من قعره حيث يكون ماؤه أصفى وأجلى، فكذا القلب إذا حصل له العلم من طريق الحواس الخمس الظاهرة لا يخلو من كدرة، وشكّ، وشبهة، بخلاف ما إذا ظهر من صميم القلب بطريق الفيض الإلٰهيّ، فإنّه أصفى وأولى. انتهى.

---

(١) روح البيان.

قال الشيخ زين الدين الحافيّ ـ رحمه الله تعالى ـ: والعجب ممن دخل في هذه الطريقة المحمدية، وأراد أن يصل إلى الحقيقة اليقينية، وقد حصَّل من الاصطلاحات ما يستخرج بها المعاني من كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ، ثمّ لا يشتغل بذكر الله وبمراقبته، والإعراض عما سواه، لتنصبّ إلى قلبه العلوم اللدنية التي لو عاش ألف سنة في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها، لا يشمّ منها رائحة، ولا يشاهد من آثارها وأنوارها لمعة. فالعلم بلا عمل عقيم، والعمل بلا علم سقيم، والعمل بالعلم صراط مستقيم. انتهى.

وعبارة المراغي هنا:[1] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين اتبعوا قضيّة العقل، وسلكوا سبيل الرشاد، وكان للإيمان سلطانٌ على نفوسهم، وعليه بَنَوْا تصاريف أعمالهم، كعبد الله بن سلام وأشباهه من أحبارهم. ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أرادوا بالسفهاء: أتباع النبي ﷺ. أمّا المهاجرون منهم: فلأنّهم عادَوا قومهم وأقاربهم، وهجروا أوطانهم، وتركوا ديارهم؛ ليتبعوا النبي ﷺ، ويسيروا على هديه. وأمّا الأنصار: فلأنّهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم، ولا يستبعد ممن انهمك في السفاهة، وتمادى في الغواية، ومن زُيّن له سوء عمله، فرآه حسناً، وظنّ الضلال هدى أن يسُمّي الهدى سفهاً وضلالاً، كما مرّ. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وحدهم دون مَنْ عرَّضوا بهم، ونسبوهم إلى السفه، إذ هم لهم سلفٌ صالح تركوا الاقتداء بهم، واكتفوا بانتظار شفاعتهم، ولم يجروا على هديهم وسنتهم، بخلاف أولئك المؤمنين الذين لا سلف لهم إلاّ عابدي أصنام، وقد هداهم الله تعالى، وصارت قلوبهم مطمئنة بالإيمان. ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقته؟ حتى يعلموا أنَّ المؤمنين سفهاءُ.

وقد ختمت هذه الآية بـ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وسابقتها بـ ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنّ الإيمان لا يتمّ إلاّ بالعلم اليقينيّ، والفائدة المرجوة منه، وهي السعادة في المعاش والمعاد، لا يدركها إلاّ من يعلم حقيقته ويدرك كنهه، فهم قد أخطأوا في

---

(١) المراغي.

إدراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم.

أمَّا نفاقُهم وإفسادهم في الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة التي تصل إلى الحواس والمشاعر، ولكن لا حسّ لهم حتى يدركوه. انتهى.

ثُمَّ بيَّن سبحانه وتعالى، مصانعتهم ومعاملتهم مع المؤمنين بعد ما بيّن أولاً مذهبهم ونفاقهم في الواقع، ونفس الأمر بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فلا تكرار بين ما هنا وهناك، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال صاحب «الروح»: وهذا بيان لمعاملتهم مع المؤمنين والكفار، وما صُدّرت به القصة، فمساقه؛ لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم، فليس بتكرير مع ما سبق؛ أي: وإذا لَقِي هؤلاء المنافقون، وعاينوا، وصَادقُوا، واستقبلوا الذين آمنوا بالحقّ، وهم المهاجرون والأنصار ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال هؤلاء المنافقون كذباً: ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم وتصديقكم، كما سبق في سبب النزول: أنّ عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الخ.

أي: وإذا رأى هؤلاء المنافقون المؤمنين، واجتمعوا معهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة. ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾؛ أي: مضوا، أو اجتمعوا على الخلوة. و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى: مع أو انفردوا و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى: الباء، أو بمعنى: مع، تقول: خلوت بفلان، وإليه، إذا انفردت معه. ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: إلى أصحابهم المُماثلين للشيطان في التمردّ والعناد المظهرين لكفرهم. وإضافة الشياطين إلى ضميرهم للمشاركة في الكفر، أو إلى كبار المنافقين، والقائلون صغارهم، وكلُّ عاتٍ متمرّدٍ فهو شيطان.

وقال الضحاك: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ المراد بشياطينهم: كهنتهم، وهم في بني قريظة: كعب بن الأشرف، وفي بني أسلم: أبو بردة، وفي جهينة: عبد الدار، وفي بني أسد: عوف بن عامر، وفي الشام: عبد الله بن سوداء. وكانت العرب تعتقد فيهم أنّهم مطّلعون على الغيب، ويعرفون الأسرار، ويداوون المرضى، وليس من كاهن إلاّ وعند العرب أنّ معه شيطاناً يلقي إليه

كهانته، وسمّوا شياطين؛ لبعدهم عن الحقّ، فإنّ الشُّطون هو البعد، كذا في «التيسير».

والمعنى: أي وإذا انفردوا عن المؤمنين، ورجعوا إلى شياطينهم؛ أي: إلى كبرائهم، ورؤسائهم في الضلال والنفاق الذين شابهوا الشياطين في تمردهم وعتوهم، أو إلى كهنتهم. ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال هؤلاء المنافقون لرؤسائهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: أي: مصاحبوكم، وموافقوكم على دينكم واعتقادكم لا نفارقكم في حال من الأحوال. وكأنه قيل لهم عند قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾: فما بالكم توافقون المؤمنين في الإتيان بكلمة الشهادة، وتشهدون مشاهدهم، وتدخلون مساجدهم، وتحجون، وتغزون معهم؟ فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ في إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة، فنريهم أنا نوافقهم على دينهم ظاهراً وباطناً، وإنما نكون معهم ظاهراً؛ لنشاركهم في غنائمهم، وننكح بناتهم، ونطّلع على أسرارهم، ونحفظ أموالنا، وأولادنا، ونساءنا من أيديهم. والاستهزاء: التجهيل للغير، والسخرية به، والاستخفاف به.

والمعنى: إنَّا نُجهِّلُ محمداً وأصحابه، ونسخر بهم بإظهارنا الإسلام. وقرىء ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بتحقيق الهمزة، وهو الأصل، وبقلبها ياءً مضمومة؛ لانكسار ما قبلها، ومنهم من يحذف الياء؛ تشبيهاً بالياء الأصلية في نحو: يرمون، ذكره في «البحر».

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم، أو ينزل الحقارة بهم والهوان الذي هو لازم الاستهزاء والغرض منه، أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم، أمَّا في الدنيا: فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال، والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبما يروى: أنّه يفتح لهم باباً إلى الجنة، وهم في جهنّم، فيسرعون نحوه، فإذا وصلوا إليه سدّ عليهم الباب، ورُدّوا إلى جهنم. والمؤمنون على الأرائك في الجنة، ينظرون إليهم، فيضحكون لهم كما ضحكوا من المؤمنين في الدنيا، فذلك بمقابلة هذا.

ويُفعل بهم ذلك مرة بعد مرّة.

قال ابن كثير: وهذا إخبار من الله تعالى أنّه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزاء، مَخرج الخبر عن الفعل الذي استحقّوا العقاب عليه. فاللفظ متفق والمعنى مختلف، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ لأنّ الأول ظلم والثاني عدل.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾؛ أي: يزيدهم، ويقويهم من مدّ الجيش وأمده؛ إذا زاده وقوّاه، لا من المدّ في العمر، فإنّه يعدى باللام كأملي لهم. ويدلّ عليه قراءة ابن كثير ﴿ويُمِدُّهم﴾. ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ متعلّق بيمدّهم. والطغيان: مجاوزة الحد في كلّ أمر، والمراد هنا: إفراطهم في العُتوّ، وغلُوّهم في الكفر. وفي إضافته إليهم إيذان باختصاصه بهم، وتأييد لما أشير إليه من ترتب المدّ على سوء اختيارهم. والمشهور فتح الياء من ﴿يمدهم﴾. وقرىء شاذاً بضمّها، فقيل: الثلاثي والرباعي بمعنى واحد، ونسبت هذه القراءة إلى ابن مُحَيصِن، وشِبْلٍ، وابن كثير، كما مرّ.

حالة كونهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ فيه؛ أي: يتردَّدُون في الضلالة، متحيّرين عقوبةً لهم في الدنيا لاستهزائهم. وهو حال من الضمير المنصوب، أو المجرور، لكون المضاف مصدراً، وهو مرفوع حكماً. والعمه في البصيرة، كالعمى في البصر، وهو التحيُّر والتردُّد بحيث لا يدري أين يتوجَّه.

والمعنى: أي يزيدهم بطريق الإمهال والترك في طغيانهم، وضلالتهم، وكفرهم حالة كونهم يعمهون؛ أي: يتردَّدُون ويتحيّرون في طغيانهم، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأنّ الله طبع قلوبهم، وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون سبيلاً، أو المعنى: يتردَّدُون في البقاء على الكفر وتركه، والدخول في الإيمان.

والمراد بالعمه: عدم معرفة الحقّ من الباطل، فمنهم: من يظهر له وجه الحقّ، ويكفر عناداً ومنهم: من يشكّ في الحقّ ويقال له: عمي أيضاً. فبين العمه والعمى عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في طَمْس القلب، وينفرد العمى بفقد البصر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون المتصفون بما ذكر من الصفات الشنيعة، المميّزة لهم عمن عداهم أكمل تميز، بحيث صاروا كأنّهم حضارٌ مشاهدون على ما هم عليه من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى هنا. والإشارة إليهم باسم إشارة البعيد؛ للإيذان ببعد منزلتهم في الشرّ، وسوء الحال. ومحلّه الرفع على الابتداء، وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وأصل الاشتراء: بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأشياء، ثمّ استعير للإعراض عمّا في يده محصّلاً به غيره، ثمّ اتسع فيه، فاستعمل في الرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، وهو هٰهنا عبارة عن معاملتهم السابقة المحكيّة.

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿اشتروِا الضلالة﴾ بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أبو السماك قعنب العدوي بفتحها؛ لخفة الفتحة، وأجاز الكسائي همز الواو. وقرأ الجمهور بضمّ الواو، وأمال حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿الهدى﴾، وهي لغة تميم، وقلله ورش والباقون بالفتح، وهي لغة قريش.

أي: أولئك المنافقون هم الذين اشتروا الضلالة، وأخذوها، واختاروها، وهي الكفر والعدول عن الحقّ، والصواب بدل الهدى، وهو الإيمان والسلوك في الطريق المستقيم، والاستقامة عليه أخذاً متّصفاً بالرغبة فيها والإعراض عنه؛ أي: اختاروها عليه، واستبدلوها به، وأخذوها مكانه، وجعل الهدى كأنّه في أيديهم لتمكنهم منه، وهو الاستعداد به، فبميلهم إلى الضلالة عطلوه، وتركوه. والباء تدخل على المتروك في باب المعاوضة. وهذا دليل: على أنّ الحكم في البيع ونحوه، يثبت بالتعاطي من غير تكلم بالإيجاب والقبول على ما ذهب إليه الأحناف، فإنّ هؤلاء سُمُّوا مشترين، بترك الهدى وأخذ الضلال من غير تكلُّمٍ بصيغة المبادلة، كما في «التيسير». فيكون دليلاً لهم على أنّ من أخذ شيئاً من غيره، وترك عليه عوضه برضاه فقد اشتراه وإن لم يتكلم.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي:[1] ما ربحت صفقتهم في هذه المعاوضة؛ أي:

---

(١) روح البيان.

ما ربحوا في تجارتهم ومعاوضتهم، وهذا ترشيح للمجاز؛ أي: ما ربحوا فيها، فإنّ الربح مسند إلى أرباب التجارة في الحقيقة، فإسناده إلى التجارة نفسها على الاتساع؛ لتلبّسها بالفاعل؛ أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران، ودخلت الفاء؛ لتضمّن الكلام معنى الشرط، تقديره: وإذا اشتروا فما ربحوا، كما في «الكواشي». والتجارة: صناعة التجار، وهو التصدّي بالبيع والشراء لتحصيل الربح، والربح: هو الفضل على رأس المال.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق التجارة، فإنّ المقصد منها سلامة رأس المال مع حصول الربح، ولئن فات الربح في صفقة، فربّما يتدارك في صفقة أخرى؛ لبقاء الأصل، وأمّا اتلاف الكلّ بالمرة، فليس من باب التجارة قطعاً، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين؛ لأنَّ رأس مالهم كان الفطرة السليمة والعقل الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم، واختلَّ عقلهم، ولم يبق لهم رأس مال يتوسّلون به إلى درك الحق، ونيل الكمال، فبقوا خاسرين آيسين من الربح، فاقدين الأصل نائين عن طريق التجارة بألف منزل.

واعلم: أنّ المهتدي: هو الذي ترك الدنيا والعادة، ثمّ اشتغل بوظائف الطاعة والعبادة، لا من اتبع كلّ ما يهواه، وخلّط هواه بهداه.

فإن قلت[1]: مقتضى هذه الآية: أنّ الهدى كان موجوداً ثمّ دفعوه، وأخذوا الضلالة.

قلت: الأمر كذلك؛ لقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه» الحديث؛ ولأنّهم في العهد يوم ألست بربكم أجابوا بالإيمان جميعاً؛ أو لأنّهم لمّا تمكنوا من الإيمان جُعِلُوا كأنّ الهدى بأيديهم، فتركوه، وأخذوا الضلالة. فمثلهم، كمثل من عنده كنز عظيم ينفع في الدنيا والآخرة، فاستبدله بالنار؛ لأنّ الضلالة سبب النار.

وحاصل معنى الآيات: أي[2] وإذا رأى المنافقون المؤمنين، واجتمعوا بهم

---

(١) الصاوي.

(٢) المراغي.

قالوا كذباً وبهتاناً: آمنا كإيمانكم، وصدّقنا كتصديقكم، وإذا انفردوا بأمثالهم من دعاة الفتنة والإفساد قالوا لهم: إنّا على عقيدتكم، وموافقوكم على دينكم، وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاء بهم؛ لنشاركهم في الغنائم، ونحفظ أموالنا، وأولادنا، ونساءَنا من أيديهم، ونطّلع على أسرارهم ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ أي: الله يجازيهم بالعقاب على استهزائهم، وسمّي هذا الجزاء استهزاء؛ للمشاكلة في اللفظ، كما سمّي جزاء السيئة سيئة، ويزيدهم في عتوهم وكفرهم، ويجعلهم حائرين متردّدين في الضلال؛ عقوبة لهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾؛ أي: هؤلاء هم الذين رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم، ومالوا إلى الضلال، واشتروه، ولكن لم تكن تجارتهم رابحة إذ أضاعوا رأس المال، وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة، والاستعداد لإدارك الحقائق ونيل الكمال، فأصبحوا خاسرين آيسين من الربح، وإنَّ من كانت هذه حالتهم فلا علم لهم بطرق التجارة، فإنّ التاجر إن فاته الربح في صفقة، فربّما تداركه في أخرى ما دام رأس المال موجوداً، أمَا وقد فقد رأس المال فلا سبيل إلى الربح بحال.

ولمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى قبائحهم وعاقبة أمرهم، شرع يضرب أمثالهم، ويُبيِّن فيها وصفهم وما هم عليه، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ...﴾ إلخ، والمثل في الأصل: بمعنى النظير، ثمّ قيل: للقول السائر المُمثل بمورده، كما ورد من غير تغيير، ولا يضرب إلاّ بما فيه غرابة، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثُمَّ استعير لكل حالٍ، أو قصةٍ، أو صفةٍ لها شأن عجيب، وفيها غرابة، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقوله أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الوصف الذي له شأن من العظمة والجلال.

وعبارة «الروح»: ولمَّا جاء الله بحقيقة حال المنافقين، عَقَّبها بضرب المثل؛ زيادةً في التوضيح والتقرير، فإنّ التمثيلَ ألطف ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع ثورة الجامح الأبيّ، كيف لا يلطف وهو إبداءٌ للمنكر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف، وإراءةٌ للمخيَّل محقّقاً، وللمعقول محسوساً، وتصويرٌ للمعاني بصورة الأشخاص، ومن

ثمَّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجليّ والغائب بالشاهد، ولأمرٍ مَّا أكثر الله سبحانه في كتبه الأمثال والعبر، وفي الإنجيل سورة تسمّى سورة الأمثال، وفي القرآن ألف آيةٍ من الأمثال والعبر، وهي في كلام الأنبياء عليهم السلام والعلماء والحكماء كثيرةٌ، لا تحصى، ذكر السيوطي في «الإتقان» من أعظم علم القرآن أمثاله، والناس في غفلةٍ عنه.

والمعنى[1]: مثلهم؛ أي: حالهم وصفتهم العجيبة الشأنِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾؛ أي: كحال الذين من باب وضع مفرد الموصول موضع الجمع منه؛ تخفيفاً للكلام؛ لكونه مستطالاً بصلته، كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، والقرينة ما قبله وما بعدهُ، لكن إنَّه وحَّد الضمير في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ نظراً إلى صورة اللفظ، وجمع في الأفعال الآتية نظراً إلى المعنى. والاستيقاد: طلب الوقود، والسعي في تحصيله، وهو سطوع النور، وارتفاع لهبها. والنار: جوهر لطيف مضيء محرق حارٌّ، والنور ضوؤها وضوء كلّ نيّر، وهو نقيض الظلمة؛ أي: كمثل الذي أوقد في مفازة في ليلة مظلمة ناراً عظيمة؛ خوفاً من السباع وغيرها. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ الإضاءة: فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾. وقرأ ابن السميقع، وابن أبي عبلة ﴿فلما ضاءت﴾ ثلاثياً فيتخرَّج على زيادة ﴿ما﴾، أو على أن تكون هي الفاعلة، إما موصولةٌ، أو موصوفةٌ؛ أي: أنارت النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ أي: ما حول المستوقد من الأماكن والأشياء على أنَّ ﴿مَا﴾ مفعول ﴿أَضَآءَتْ﴾ إن جعلته متعدّياً و(حول) نصب على الظرفية، وإن جعلته لازماً، فهو مسند إلى ﴿مَا﴾، والتأنيث؛ لأنَّ ما حوله أشياء وأماكن، وأصل الحول: الدَّوران، ومنه الحول للعام؛ لأنّه يدور. وجواب ﴿لَمَّا﴾ قوله سبحانه ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أذهبه بالكلية، وأطفأ نارهم التي هي مدار نورهم. وإنّما علّق الإذهاب بالنور دون نفس النار؛ لأنّه المقصود بالاستيقاد. وقرأ اليمانيُّ ﴿أذْهَبَ الله نُورهم﴾، وهذا يدلّ على مُرادفةِ الباء للهمزة في التعدية.

---

(١) روح البيان.

وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى[1]: إمّا لأنّ الكلّ بخلقه تعالى؛ وإما لأنّ الإنطفاء حصل بسبب خفي، أو أمر سماوي، كريح أو مطر؛ وإما للبمالغة، كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة؛ لما فيها من معنى الاستصحاب والإمساك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله تعالى وأمسكه، فلا مرسل له من بعده، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى الظاهر إلى النور؛ لأنّ ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور في الجملة، لعدم استلزام عدم القوي، لعدم الضعيف، والمراد إزالته بالكُلِّية، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فإنّ الظلمة هي عدم النور، وانطماسه بالمرة، لا سيّما إذا كانت متضاعفةً متراكمةً متراكباً بعضها فوق بعض، كما يُفيده الجمع، والتنكير التفخيميُّ، وما بعده من قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ لا يتحقّق إلاّ بعد أن لا يبقى من النور عَيْنٌ ولا أثر. و(ترك) في الأصل بمعنى: طَرح وخلّى، وله مفعول واحد، فضُمّن معنى التصيير، فجرى مجرى أفعال القلوب؛ أي: صيَّرهم ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم. فعلى هذا يكون قوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ وقوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ مفعولين لصيّر بعد المفعول الأول على سنن الأخبار المتتابعة للمخبر عنه الواحد، وإن حمل معناه على الأصل يكونان حالين من المفعول، مترادفين، أو متداخلين.

والمعنى[2]: أنّ حالهم العجيبة التي هي اشتراؤهم الضلالة التي هي: عبارة عن ظلمتي الكفر والنفاق، المستتبعين لظلمة سخط الله تعالى، وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، وظلمة العقاب السرمدي بالهدى الذي هو الفطري النوري، المؤيَّد بما شاهدوه من دلائل الحقّ، كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها، فأطفأها الله تعالى، وتركه في ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار.

وقرأ الأعمش، والحسن، وأبو السماك ﴿ظلْمات﴾ بإسكان اللام على الأصل. وقرأ أشهب العقيليّ بفتح اللام. وقرأ الجمهور بضمّ اللام. وهذه اللُّغي

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الثلاث جائزة في جمع فعلةِ الاسم الصحيح العين غير المضعَّف، ولا المُعَل اللام بالياء.

وفي «التيسير والعيون»: إنّ المنافقين أظهروا كلمة الإيمان، فاستناروا بنورها، واستعزّوا بعزّها، وأمنوا بسببها، فناكحوا المسلمين، وورثوهم، وقاسموهم الغنائم، وأمنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا بلغوا إلى آخر العمر كَلَّ لسانهم عنها، وبقوا في ظلمة كفرهم أبد الآباد، وعادوا إلى الخوف والظلمة.

وعبارة «العمدة» هنا: ﴿مَثَلُهُمْ﴾؛ أي: صفة هؤلاء المنافقين في نفاقهم وحالهم الشنيعة، كصفة الشخص الذي أوقد ناراً ليستدفىء بها، ويستضيء. ﴿فلما﴾ اتقدت تلك النار، و﴿أَضَآءَتْ﴾؛ أي: أنارت له ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: المكان الذي حوله، فأبصر، واستدفأ، وأمن مما يخافه من عدوّ، وسباع، وحيّات، وغير ذلك مما يضرّه، وتمَّ له النفع بها، أطفأ الله تلك النار، و﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: أذهب الله، وأعدم نور نارهم وضوءَها، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾؛ أي: خلاّهم، وصيّرهم ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة السحاب والريح مع المطر حالة كونهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم متحيِّرين عن الطريق خائفين.

فكذلك هؤلاء المنافقون أمنوا على أنفسهم، وأولادهم، وأموالهم من القتل والسبي، وانتفعوا بأخذ الغنائم والزكاة، حيث أسلموا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فإذا ماتوا فقد ذهب الله بنورهم، فلم يؤمنوا من النار، ولم ينتفعوا بالجنة، وتركهم في ظلمات ثلاث: ظلمة الكفر، والنفاق، والقبر، والجامع بينهما قِلَّة الانتفاع، ودفع المضار في كلّ منهما.

﴿صُمٌّۢ﴾ أي: هم صمّ عن الحقّ، لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوا، فكأنّهم لم يسمعوا. والصمم: انسداد خروق المسامع، بحيث لا يكاد يصل إليها هواءٌ يحصل الصوت بتموجه. والصُّمُّ: جمع أصمَّ وهو من انسدَّت خروق مسامعه. وقرأ ابن مسعود، وحفصة أمّ المؤمنين[1]: ﴿صمّاً بكماً عمياً﴾ بالنصب على الذمّ

---

(١) الشوكاني.

في الثلاثة، ويجوز أن ينتصب بقوله: ﴿تركهم﴾.

﴿بُكۡمٌ﴾؛ أي: خرسٌ عن نطق الحقّ، لا يقولونه لَمَّا أبطنوا خلاف ما أظهروا، فكأنّهم لم ينطقوا. وهو جمع أبكم، والأبكم: الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس. وقيل: الأبكم والأخرس كلاهما بمعنى واحد، والبكم: آفةٌ في اللسان يمنع اعتماد الصوت على مخارج الحروف.

﴿عُمۡيٌ﴾؛ أي: فاقدوا الأبصار عن النظر الموصل إلى العبرة التي تؤدّيهم إلى الهدى، وفاقدوا البصيرة أيضاً؛ لأن من لا بصيرة له كمن لا بصر له. فالعَمَىٰ هنا مستعملٌ في عدم البصر والبصيرة جميعاً، والعَمَىٰ: فقدان البصر خلقة كان أم لا. والكلام في كل من الثلاثة على التشبيه البليغ، كما سيأتي. وهذه صفاتهم في الدنيا، ولذلك عوقبوا في الآخرة بجنسها. قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾، فلا يسمعون سلام الله، ولا يخاطبون الله، ولا يرونه، والمسلمون كانوا سامعين للحقّ قائلين بالحق، ناظرين إلى الحقّ، فيكرَمون يوم القيامة بخطابه، ولقائه، وسلامه.

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون عن الضلالة إلى الهدى الذي تركوه، وضيَّعوه، وباعوه. أو لا يرجعون عمَّا هم عليه من الغيّ، والضلال، والفساد. والفاء: للدلالة على أنّ اتصافهم بالأحكام السابقة سبب تحيُّرهم واحتباسهم. وهذه الآية فذلكة التمثيل ونتيجته، وأفادت أنّهم كانوا يستطيعون الرجوع باستطاعة سلامة الآلات، حيث استحقُّوا الذمَّ بتركه، وأنَّ قوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ ليس بنفي الآلات، بل هو نفي تركهم استعمالها.

ثمّ ذكر الله سبحانه وتعالى مثلاً آخر لهم؛ زيادةً في الكشف والإيضاح، فقال: ﴿أَوۡ﴾ مثلهم في حيرتهم وترددهم ويصحّ أن تكون ﴿أَوۡ﴾ للتنويع، أو للإبهام، أو للشكّ، أو الإباحة، أو التخيير، أو الإضراب، أو بمعنى الواو، وأحسنها الأول. قال الشوكاني عطف هذا المثل على المثل الأول بحرف الشك؛ لقصد التخيير بين المثلين؛ أي: مَثِّلوهم بهذا أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل

للشكّ، فقد توسّع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شكّ. وقيل: إنّها بمعنى الواو، قاله الفرّاء، وغيره. انتهى. وقوله: ﴿كَصَيِّبٍ﴾ على حذف مضاف؛ أي: صفتهم وحالهم في تردّدهم وحيرتهم، كصفة وحال أصحاب صيّب؛ أي: مطر يصوب؛ أي: ينزل من السماء، ويقع على الأرض من الصوب، وهو النزول. أصله: صيوب نظير سيّد، كما سيأتي. والكاف مرفوع المحل، معطوف على الكاف الذي في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾. و ﴿أَوْ﴾ للتخيير والتساوي.

أي:[1] كيفية قصة المنافقين شبيهةٌ بكيفية هاتين القصتين، والقصتان سواءٌ في استقلال كلّ واحدة منهما بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيبٌ، وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك. وقرىء ﴿أو كصايب﴾ وهو اسم فاعل من صاب يصوب، وصيبٌ أبلغ من صائب، ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلّق بصيّب؛ أي: كأصحاب مطرٍ نازلٍ من السماء. والسماء: سقفُ الدنيا، وتعريفها للإيذان بأنّ انبعاث الصيّب ليس من أفق واحد، فإنّ كلّ أفق من آفاقها؛ أي: كلّ ما يحيط به كلّ أفق منها سماء على حدة. والمعنى: أنّه صيّب عامّ نازل من غمام مطبق، آخذ بآفاق السماء. وفيه أنّ السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماؤه، لا كزعم من يزعم أنّه يأخذه من البحر.

قال الإمام: من الناس من قال: المطر إنما يتحصّل عن ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء، فينعقد هناك من شدّة برد الهواء، ثمّ ينزل مرة أخرى، وأبطل الله ذلك المذهب هنا، بأن بيّن أنّ ذلك الصيب نزل من السماء.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ تحت العرش بحراً ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحي إليه فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا، ويوحي إلى السحاب أن غربله، فيغربله، فليس من قطرة تقطر، إلاّ ومعها ملك يضعها موضعها، ولا ينزل من السماء قطرة، إلاّ بكيل معلوم، ووزن

---

(١) روح البيان.

معلوم، إلاّ ما كان من يوم الطوفان من ماء، فإنّه نزل بلا كيل ولا وزن، كذا في تفسير «التيسير».

قال الشوكاني[1]: وفائدة ذكر نزوله من السماء مع كونه لا يكون إلاّ منها: أنّه لا يختص نزوله بجانب منها دون جانب. وإطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

إذا نزلَ السماءُ بأرض قومٍ   رعيناه وإن كانوا غضابا

﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الصيّب ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أي: أنواعٌ من ظلمات، وهي ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر، وظلمة إظلال ما يلزمه من الغمام المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وليس في الآية ما يدلُّ على ظلمة الليل، لكن يمكن أن يؤخذ ظلمة الليل من سياق الآية، حيث قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وبعده ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾. فإنّ خطف البرق البصر، إنما يكون غالباً في ظلمة الليل، وكذا وقوف الماشي عن المشي، إنما يكون إذا اشتدت ظلمة الليل، بحيث يحجب الأبصار عن إبصار ما هو أمام الماشي من الطريق وغيره، وظلمةُ سَحْمَةِ السحاب وتكاثفه في النهار، لايوجب وقوف الماشي عن المشي. وجعل[2] المَطر محلاّ للظلمات، مع أنّ بعضها لغيره، كظلمة الغمام والليل؛ لما أنَّهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغةً في شِدّته، وتهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنّه من الشدة والهول، بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام.

﴿وَرَعْدٌ﴾ هو صوتٌ قاصفٌ شديدٌ يسمع من السحاب، والصحيح الذي عليه المعوَّل: أنّه اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب، لما روى الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سألتِ اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال:

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

«ملكٌ من الملائكة بيده مخاريق» جمع مخراق: آلة تزجر الملائكة بها السحاب مثل السوط من نار، «يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمعُ؟ قال: «زَجْرهُ بالسحاب إذا زَجَرَه حتى ينتهي إلى حيث أمر»، قالت: صدقت. الحديث بطوله، وفي إسناده مقال. فالمراد بالرعد في هذه الآية: صوت ذلك الملك لا عينه، كما في بعض الروايات: من أنّ الرعد: ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأنّه يحوز الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبّح الله، فإذا سبّح الله لا يبقى ملك في السماء إلاّ رفع صوته بالتسبيح، فعندها ينزل المطر.

قال القرطبيُّ: وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، والمشهور عند الحكماء: أنَّ الرعد يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض، أو من إقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح إياها سوقاً عنيفاً، وإلى هذا ذهب جمعٌ من المفسرين تبعاً للفلاسفة، وجهلة المتكلمين.

﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو لمعانٌ يظهر من السحاب إذا تحاكَّت أجزاؤه، أو عند ضرب الملك السحاب بالمخاريق عند سوقه، وهي جمع مخراق، كما مرّ آنفاً، والمخراق في الأصل: ثوب يلفُّ، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وهي هنا: آلة تَزْجُرُ بها الملائكة السحاب. وكونهما؛ أي: الرعد والبرق في الصيّب مع أنَّ مكانهما السحاب، باعتبار كونهما في أعلاه ومُنْصَبِّه، وملتبسين في الجملة ووصول أثرهما إليه، فهما فيه.

والضمائر في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ للمضاف المحذوف في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ لأنّ التقدير: أو كأصحاب صيّب، كما مرّ. وهو وإن حذف لفظه وأقيم الصيب مقامه، لكن معناه باق، فيجوز أن يعود عليه الضمير، ولا محلَّ لهذه الجملة؛ لكونها مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأنّه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن الشدة والهول، فكأنَّ قائلاً قال: كيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذنهم، والمراد: أناملهم، وفيه من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، كأنّهم يدخلون من شدّة الحيرة أصابعهم كُلَّها في آذانهم لا أناملها

فحسب، كما هو المعتاد. ويجوز[1] أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حيرتهم، وفرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصبع المعتاد؛ أعني: السبّابة. وقيل: لرعاية الأدب؛ لأنّها فعّالةٌ من السبّ، فكأن اجتنابها أولى بآداب القرآن. ألا ترى أنّهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والمهلِّلة، وغيرهما، ولم يذكر من أمثال هذه الكنايات؛ لأنّها ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد. وإطلاق الأصبع على بعضها ـ وهو الأنملة ـ مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية؛ لأنّ الذي يجعل في الأذن، إنما هو رأس الأصبع لا كلها.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلّق بيجعلون؛ أي: يجعلون من أجل خوف الصواعق المقارنة للرعد. والصواعق[2]: ويقال لها: الصواقع، جمع صاعقة، وهي قطعة نار، تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه على السحاب وشدة ضربه لها، كما روي: إذا اشتدَّ غضبه على السحاب طارت من فيه النار، فتضطرب أجرام السحاب، وترتعد. اهـ. «كرخي».

ويدلُّ على ذلك: ما في حديث ابن عباس الذي ذكرنا بعضه قريباً، وبه قال كثير من علماء الشريعة، ومنهم من قال: إنها نار تخرج من فم الملَك، وقال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار، تحرق ما أتت عليه. وقال أبو زيد: الصاعقةُ: نار تسقط من السماء في رعد شديد، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة: ومن قال بقولهم: إنّها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكّت أجرامها، وسيأتي في (سورة الرعد) إن شاء الله تعالى في تفسير الرعد، والبرق، والصواعق، ماله مزيد فائدةٍ وإيضاح.

وقوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ منصوب[3] بيجعلون على أنّه مفعول لأجله؛ أي:

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البروسوي.

يجعلونها في آذانها؛ لأجل مخافة الهلاك من سماعها. والموت: فساد بنيَة الحيوان، أو عرضٌ لا يصحُّ معه إحساسٌ معاقبٌ للحياة.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ﴾ أصل الإحاطة: الإحداق بالشيء من جميع جهاته، بحيث لا يفوت المحاط به المحيط بوجه من الوجوه؛ أي: والله سبحانه محيط محدق ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعلمه وقدرته، لا يفوتونه، كما لا يفوت المحاط به المحيط حقيقة، فيحشرهم يوم القيامة، ويعذّبهم، وهذه الجملة اعتراضية منبهة، على أنَّ ما صنعوا من سَدِّ الآذان بالأصابع لا يغني عنهم شيئاً، فإنّ القدر لا يدافعه الحذر، والحيل لا تردُّ بأس الله عز وجلّ. وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع إلى أصحاب الصيّب؛ الإيذان بأنَّ ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم.

وحاصل معنى الآية[1]: صفة هؤلاء المنافقين في حيرتهم ودهشتهم، كصفة أصحاب مطر شديد نازل من السماء ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أي: مع ذلك المطر ظلمات متكاثفة مجتمعة من ثلاثة أنواع: ظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الليل. ﴿و﴾ معه ﴿رعد﴾ قاصف؛ أي: شديد، وهو صوت الملك الموكل بالسحاب، ﴿و﴾ معه ﴿برق﴾ خاطف؛ أي: مسرع، وهو لمعان سوطه التي يسوق بها السحاب، وهي من نار ﴿يَجْعَلُونَ﴾؛ أي: يجعل أصحاب الصيّب أصابعهم؛ أي: رؤوس أصابعهم ويضعونها في آذانهم ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾؛ أي: من أجل شدّة صوت الرعد. فـ (أل) في ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ للعهد الذكري؛ لأنّه تقدم ذكرها بعنوان الرعد، فهي عين الرعد السابق، فالتعبير هنا بالصواعق، وهناك بالرعد؛ للتفنّن، ولا يضرُّ في العهد الذكري اختلاف العنوان، كما هو مقرر في محلّه، كما في «الجمل». ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: لأجل خوف الموت والهلاك من سماعها. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: محيط بهم بقدرته وعلمه، وهم في قبضته، وتحت إرادته ومشيئته، لا يفوتونه، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كلّ جانب.

---

(١) عمدة التفاسير.

والمعنى: أي والله مطّلع على أسرارهم، عالم بما في ضمائرهم، قادر على أخذهم أينما كانوا، فما صنعوا من سدّ الآذان بالأصابع لا يغني عنهم من الله شيئاً، إذ لا يغني حذر من قدر، فمن لم يمت بالصاعقة مات بغيرها.

وقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ من تمام المَثَل، وأمّا قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فجملة معترضة بين أجزاء المشبّه به، كما مرّ قريباً، جيء بها تسلية للنبي ﷺ؛ أي: يقرب البرق لشدّته وقوته، وكثرة لمعانه ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ أي: يختلس أبصار أصحاب الصيّب ويستلبها، ويأخذها بسرعة، ويذهبها من شدّة ضوئه. وجملة يكاد مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل: يكاد ذلك البرق يخطف أبصارهم.

وقرأ مجاهد، وعليّ بن الحسين، ويحيى بن زيد[1]: ﴿يخْطِف﴾ بسكون الخاء وكسر الطاء. قال ابن مجاهد: وأظنه غلطاً، واستدل على ذلك: بأنّ أحداً لم يقرأ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ بالفتح. وقال الزمخشري: الفتح - يعني في المضارع - أفصح. انتهى. والكسر في طاء الماضي لغة قريش، وهي أفصح، وبعض العرب يقول: خطَف بفتح الطاء يخطف بالكسر. قال ابن عطيّة: ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن، وأبي رجاء، وذلك وهْم. وقرأ علي، وابن مسعود ﴿يختطف﴾. وقرأ أبيّ ﴿يتخطّف﴾، وقرأ الحسن أيضاً ﴿يَخَطّف﴾ بفتح الياء والخاء والطاء المشددة. وقرأ الحسن أيضاً، والجحدري، وابن أبي إسحاق ﴿يَخَطِّف﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الطاء المكسورة، وأصله: ﴿يختطف﴾، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء، وعاصم، والجحدري وقتادة ﴿يَخِطّف﴾ بفتح الياء وكسر الخاء والطاء المشددة. وقرأ أيضاً الحسن، والأعمش ﴿يِخِطِّف﴾ بكسر الثلاثة وتشديد الطاء. وقرأ زيد بن علي ﴿يُخَطِّف﴾ بضمّ الياء وفتح الخاء وكسر الطاء المشددة، من (خطّف) المضعف، وهو تكثير مبالغة لا تعدية. وقرأ بعض أهل المدينة ﴿يَخْطِّف﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الطاء المكسورة.

---

(١) البحر المحيط.

والتحقيق: أنّه اختلاسٌ لفتحة الخاء لا إسكان؛ لأنّه يؤدّي إلى التقاء الساكنين على غير حدّة، فهذا الحَرْف قُرِىء عَشْرُ قراءات، واحدةٌ سبعيّةٌ، وهي ﴿يَخْطَفُ﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الطاء، وباقيها شواذّ. ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ ولمع البرق ﴿لَهُم﴾ أي: لأصحاب الصيّب. ولفظ[1] ﴿كُلَّمَآ﴾ ظرف زمان، ضمّن معنى الشرط، والعامل فيه جوابه، وهو ﴿مَّشَوْاْ﴾. و﴿أَضَآءَ﴾ متعد؛ أي: كلّما أنار البرق الطريق في الليلة المظلمة، وهو استئناف ثالث، كأنّه قيل: كيف يصنعون في تَارَتي خُفُوقِ البرق وخُفْيَتِهِ؟ أيفعلون بأبصارهم ما يفعلون بآذانهم أم لا؟ فقيل: كلّما نوَّر البرق لهم ممشًى ومسلكاً ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المسلك؛ أي: في مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو؛ للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم. وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين بشدَّته على أهل الصيِّب. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مضوا فيه﴾.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾ البرق ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: خفي، واستتر، فصار الطريق مظلماً ﴿قَامُواْ﴾؛ أي: وقفوا في أماكنهم، وثبتوا على ما كانوا عليه من الهيئة، متحيّرين، مترصّدين لحظة أخرى عسى يتسنّى لهم الوصول إلى المقصد، أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم. وقرأ زيد بن قطيب، والضحاك ﴿وإذا أُظْلِم﴾ مبنياً للمفعول، ذكره في «البحر».

وهذا تصوير[2] لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة، مع خوفهم أن يخطف أبصارهم انتهزوها فرصة، فيخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي، واستتر، وفتر لمعانه، وفقد: وقفوا عن السَّيْر، وثبتوا في مكانهم؛ خشية التردّي في حفرة، فكذلك المنافقون لمّا آمنوا بألسنتهم مشوا فيما بين المؤمنين؛ لأنّه يقبل إيمانهم اللسانيُّ، فلما ماتوا بقوا في ظلمة القبر والعذاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مفعوله[1] محذوف، تقديره: أي: ولو أراد الله سبحانه أن يُذهب الأسماع التي في الرأس، والأبصار التي في العين، كما ذهب بسمع قلوبهم وأبصارها ﴿لَذَهَبَ﴾؛ أي: لأذهب سبحانه ﴿بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ﴾؛ أي: لأذهب الأسماع بصوت الرعد، والأبصار بنور البرق عقوبة لهم؛ لأنّه لا يعجز عن ذلك؛ أي: لزاد في قصف الرعد، فأصمَّهم، وأذهب أسماعهم، ولزاد في ضوء البرق فأعماهم، وأذهب بأبصارهم، لكنّه لم يشأ؛ لحِكَم ومصالح هو بها عليم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه وأراده؛ أي: على كلّ موجود بالإمكان، والله تعالى وإن كان يطلق عليه الشيء، لكنه موجود بالوجوب دون الإمكان، فلا يشكّ العاقل، أنّ المراد من الشيء في أمثال هذا الموضع ما سواه تعالى، فالله تعالى مستثنى في الآية مما يتناوله لفظ الشيء بدلالة العقل، فالمعنى: على كلّ شيء سواه قدير، كما يقال: فلان أمين، على معنى: أمين على من سواه من الناس، ولا يدخل فيه نفسه، وإن كان من جملتهم، كما في «حواشي ابن التمجيد». ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: فاعل له على قدر ما تقتضيه حكمته لا ناقصاً ولا زائداً؛ أي: قادر على إيجاده وإعدامه لا منازع له فيه، ومنه إذهاب أسماعهم وأبصارهم. قال ابن جرير: وإنّما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كلّ شيء في هذا الموضع؛ لأنّه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنّه محيط بهم، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر. اهـ.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿لأذهب بأسماعهم وأبصارهم﴾، فالباء زائدة، التقدير: لأذهب أسماعهم وأبصارهم.

ثمّ اعلم[3]: أنّ هذا التمثيل كشف بعد كشف، وإيضاح بعد إيضاح، أبلغ

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

من الأوّل. شبّه الله حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وشدّة الأمر عليهم، وخزيهم، وافتضاحهم بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد، وبرق، وخوف من الصواعق والموت.

هذا إذا كان التمثيل مركباً، وهو الذي يقتضيه جزالة التنزيل، فإنّك تتصوَّر في المركَّب، الهيئة الحاصلة من تفاوت تلك الصور، وكيفياتها المتضامَّة، فيحصل في النفس منه ما لا يحصل من المفردات، كما إذا تصوّرت من مجموع الآية، مكابدة من أدركه الوابل الهطل، مع تكاثف ظلمة الليل وهيئة انتساج السحاب بتتابع القطر، وصوت الرعد الهائل، والبرق الخاطف، والصاعقة المحرقة، ولهم من خوف هذه الشدائد حركَاتُ مَنْ تَحذَّر الموتَ. حصل لك منه أمْرٌ عجيبٌ، وخَطْبٌ هائل، بخلاف ما[1] إذا تكلَّفت لواحدٍ واحدٍ مشبَّهاً به. يعني: إن حمل التمثيل على التشبيه المفرَّق، فشبه القرآن، وما فيه من العلوم والمعارف التي هي مدار الحياة الأبدية بالصيّب الذي هو سبب الحياة الأرضية، وما عرض لهم بنزوله من الغموم، والأحزان، وانكساف البال بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد، بالرعد والبرق، وتصاممهم عمَّا يقرع أسماعهم من الوعيد، بحال من يهوّله الرعد والبرق، فيخاف صواعقه، فيسد أذنه، ولا خلاص له منها، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه، أو رفد يحرزونه، بمشيهم في مطرح ضوء البرق، كلما أضاء لهم، وتحيرهم في أمرهم، حين عَنَّ لهم مصيبةٌ بوقوفهم إذا أظلم عليهم. فهذه حال المنافقين، قصارى عمرهم الحيرة والدهشة. فعلى العاقل أن يتمسَّك بحبل الشرع القويم، والصراط المستقيم، كي يتخلَّص من الغوائل والقيود، ومهالك الوجود، وغاية الأمر خَفِيَّةٌ لا يدري بم يختم.

الإعراب

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ﴾ الواو استئنافية. ﴿من الناس﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم

---

(١) البروسوي.

موصول بمعنى الذي، أو نكرة موصوفة بمعنى فريق، في محل الرفع مبتدأ مؤخّر. ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع وفاعله مستتر، يعود على من، وجملة يقول صلة من الموصولة، لا محلّ لها من الإعراب، إن قلنا: ﴿مَن﴾ موصولة، تقديره: والذي يقول آمنا بالله كائن من الناس. أو في محل الرفع صفة لمن، إن قلنا: ﴿مَن﴾ نكرة موصوفة، تقديره: وفريق يقول آمنا بالله كائن من الناس. والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿يَقُولُ﴾. وردّه[1] أبو السعود فقال: أمّا جعل الظرف خبراً مقدماً، كما هو الشائع في الاستعمال، فيأباه جزالة معنى القرآن؛ لأنّ كون القائل: آمنا بالله من الناس ظاهر معلوم، فالإخبار به عارٍ عن الفائدة، والحقّ أن يقال في إعرابه: ﴿مِن﴾ اسم بمعنى: بعض في محل الرفع مبتدأ، مبني بسكون مقدر؛ لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، و﴿مِن﴾ مضاف. ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه مجرور بها. ﴿مَن يَقُولُ﴾ مَن اسم موصول، أو موصوف في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكن المقصود بالإخبار الصلة لا الموصول، والمعنى: وبعض الناس يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ. والجملة الإسمية على كلا التقديرين مستأنفة استئنافاً نحوياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ مقول محكيّ ليقول، لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، والمقول منصوب بالقول، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية. وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، وحدّ الفعل آمن، آمن فعل ماض مبني بفتحة ظاهرة على النون المدغمة في نون نا. ﴿نا﴾ ضمير لجماعة المتكلمين في محل الرفع فاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلّق بآمنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ليقول. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿ٱلْآخِرِ﴾ صفة لليوم. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية. ﴿مَا﴾ نافية حجازية، تعمل عمل ليس. ﴿هُم﴾ ضمير منفصل لجماعة الغائبين في محل الرفع اسمها. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ الباء حرف جرّ زائد للتوكيد؛ لأنّه ليس في القرآن حرف زائد خال عن الفائدة. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ خبر ما الحجازية، منصوب وعلامة نصبة الباء المقدرة، منع من

---

(١) الصاوي والجمل.

ظهورها الياء المجلوبة لحرف جرّ زائد؛ لأنّه من الجمع المذكر السالم، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل يقول.

﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل. ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به، منصوب بالفتحة، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لوقوعها في جواب سؤال مقدر، كأنّه قيل: ما الحامل لهم على إظهار الإيمان وإخفاء الكفر؟ فأجاب بقوله: لأنّهم يريدون مخادعة الله سبحانه والمؤمنين. أو بدل من صلة من في قوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ بدل اشتمال؛ لأنّ قولهم ذلك مشتمل على الخداع؛ أي: ومن الناس من يقول آمنا بالله ويخادع الله والذين آمنوا. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب معطوف على الجلالة، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَخۡدَعُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من فاعل يخادعون؛ أي: يخادعون الله والمؤمنين حال كونهم غير مخادعين إلاّ أنفسهم. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول به، وهو مضاف، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿وَمَا﴾ الواو حالية، أو استئنافية، أو عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل يخدعون؛ أي: وما يخدعون إلاّ أنفسهم حالة كونهم غير شاعرين بذلك، أو مستأنفة، أو معطوفة على جملة يخدعون، ومفعول ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ محذوف للعلم به، تقديره: وما يشعرون أنّ خداعهم راجع إلى أنفسهم، ويسمّى هذا الحذف حذف اختصار. وهو حذف الشيء لدليل.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكۡذِبُونَ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿مَّرَضٞ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الفاء عاطفة. ﴿زادهم الله﴾ فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿مَرَضٗاۖ﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ عطف فعلية على اسمية. ويحتمل أن تكون الفاء استئنافية، وتكون جملة ﴿زادهم﴾ جملة دعائية لا

محل لها من الإعراب. ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية. ﴿لهم﴾ خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخّر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة معطوفة على جملة قوله في قلوبهم مرض، أو مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنّه قيل: ما عاقبة خداعهم؟ فقال: عاقبتهم عذاب أليم. ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جرّ وسبب. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْذِبُونَ﴾ في محل النصب خبر كان؛ أي: بما كانوا كاذبين أو مكذبين، وجملة كان صلة (ما) المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالياء؛ أي: بسبب كذبهم أو تكذيبهم، الجار والمجرور متعلّق بالنسبة الكائنة بين المبتدأ والخبر في قوله: ولهم عذاب أليم، أو صفة ثانية لعذاب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه، منصوب بجوابه متعلّق بالجواب الآتي. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بقيل. ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نائب فاعل محكي لقيل؛ لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُفْسِدُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بتفسدوا، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ولكنّها لا تؤول بمفرد؛ لأنّها محكية، وجملة قيل في محل الجرّ مضاف لإذا على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول الواقعة صلة لمن الموصولة. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ مقول محكيّ لقالوا، منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ونفي بمعنى (ما) النافية، وإلاّ المثبتة. ﴿نَحْنُ﴾ ضمير لجماعة المتكلمين في محل الرفع مبتدأ. ﴿مُصْلِحُونَ﴾ خبر مرفوع بالواو، والجملة الإسمية في محل النصب مقول لقالوا. ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل حرف لا محل له من الإعراب، أو

حرف عماد. ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ خبر إنّ مرفوع بالواو. أو ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ خبره، وجملة المبتدأ مع خبره في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إن مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك لا عمل لها. ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يَشْعُرُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة إنّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، متعلّق بالجواب الآتي. ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، مبني على الفتح. ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بقيل. ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ نائب فاعل محكي لقيل؛ لأنّ مرادنا لفظه لا معناه، مرفوع، وعلامة رفعه ضمّة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية، وجملة قيل في محل الجرّ مضاف إليه لإذا على كونه فعل شرط لها. وإن شئت قلت: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ولكنّها لا تؤوّل؛ لأنّها محكية. ﴿كَمَآ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: آمنوا إيماناً كائناً، كإيمان الناس في كونه قلبيّاً لا لسانيّاً. ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسابقتها. ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ مفعول محكي لقالوا، منصوب بفتحة مقدرة. وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري. ﴿نؤمن﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على المنافقين، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿كَمَآ﴾ الكاف حرف جرّ وتشبيه. ﴿ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، الجار والمجرور متعلّق بمحذوف صفة لمصدر

محذوف، تقديره: أنؤمن إيماناً كائناً كإيمان السفهاء؛ أي: لا نؤمن. ﴿أَلَآ﴾ حرف استفتاح وتنبيه. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو حرف عماد. ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ خبر إنّ أو ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ خبره، والجملة خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة إنّ.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلّق بالجواب الآتي، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿قَالُوٓا۟﴾ جواب إذا، لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسوابقها. ﴿ءَامَنَّا﴾ مقول محكيّ لقالوا منصوب بفتحة مقدرة، وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول قالوا. ﴿وَإِذَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان متعلّق بالجواب الآتي. ﴿خَلَوْا۟﴾ فعل وفاعل في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ متعلّق بخَلَوا. ﴿قَالُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، جواب إذا، وجملة إذا مستأنفة، أو معطوفة على جملة يقول كسوابقها. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ مقول محكيّ لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه، ﴿مَعَكُمْ﴾ مع منصوب على الظرفية الاعتبارية بالفتحة الظاهرة. ﴿مع﴾ مضاف، والكاف ضمير المخاطبين في محل الجرّ مضاف إليه، مبني على الضمّ، والميم حرف دالّ على الجمع، والظرف متعلّق بمحذوف خبر إنا، تقديره: إنّا كائنون معكم، وجملة إنا في محلّ النصب مقول قالوا. ﴿إِنَّمَا﴾ كافّة ومكفوفة. ﴿نَحْنُ﴾ مبتدأ. ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ خبر المبتدأ مرفوع بالواو، والجملة في محل النصب مقول قالوا.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بِهِمْ﴾ متعلّق بيستهزىء، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة يستهزىء، على كونها خبر المبتدأ. ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ متعلّق بيمدهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير يمدهم، أو من ضمير طغيانهم، وجاءت الحال من المضاف إليه؛ لأنّ المضاف مصدر مضاف إلى فاعله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ مفعول به. ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ متعلّق باشتروا. ﴿فَمَا﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿رَبِحَت﴾ فعل ماض، و(التاء) لتأنيث الفاعل. ﴿تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ فاعل، والجملة معطوفة على جملة اشتروا. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مُهْتَدِينَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة ربحت. ﴿مَثَلُهُمْ﴾ مبتدأ ومضاف إليه. ﴿كَمَثَلِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مثلهم كائن كمثل الذي استوقد ناراً، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿مثل﴾ مضاف. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل الجرّ مضاف إليه. ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، واستعمل ﴿ٱلَّذِى﴾ في موضع الذين، ولذلك قال فيما بعد: ﴿بِنُورِهِمْ﴾. ﴿نَارًا﴾ مفعول به. ﴿فَلَمَّآ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿أَضَآءَتْ﴾ فعل ماض، والتاء علامة تأنيث الفاعل، وفاعله ضمير مستتر يعود على النار، والجملة فعل شرط للمّا لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى المكان في محلّ النصب، مفعول به. ﴿حَوْلَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية المكانية. ﴿حول﴾ مضاف، والهاء

مضاف إليه، والظرف متعلّق بمحذوف صلة لما، تقديره: ما استقرّ حوله. ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب لما، وجملة لما من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة أستوقد، على كونها صلة الموصول. ﴿بِنُورِهِمْ﴾ متعلّق بذهب. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله، ومفعول أول؛ لأنّ (ترك) هنا بمعنى صيّر. ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ جار ومجرور متعلّق بترك على كونه مفعولاً ثانياً له، تقديره: وصيّرهم كائنين في ظلمات، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ذهب، ﴿لَّا﴾ نافية. ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب حال من ضمير تركهم، أو من الضمير المستكن في الجار والمجرور؛ أعني: في ظلمات، ومفعول يبصرون محذوف، تقديره: ما حولهم، ويحتمل كون (ترك) بمعنى: خلّى وأهمل، فيتعدّى إلى مفعول واحد، وهو الضمير البارز في تركهم وفي ظلمات لا يبصرون حالان من الضمير في تركهم.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿صُمٌّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هم صمّ، والجملة مستأنفة. ﴿بُكْمٌ﴾ خبر ثان. ﴿عُمْىٌ﴾ خبر ثالث، وهذه الأخبار وإن تباينت في اللفظ متحدة في المدلول والمعنى؛ لأنّ مآلها إلى عدم قبول الحقّ مع كونهم سُمْعَ الآذان، فصحاء الألسن، بصراء الأعين. فليس المراد نفي الحواسّ الظاهرة. وقرىء شاذّاً بالنصب على الحال من الضمير في ﴿يُبْصِرُونَ﴾. ﴿فَهُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محلّ الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على جملة قوله: (هم صمّ بكم عمي).

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أو حرف عطف وتفصيل؛ أي: إنّ الناظرين في حالهم منهم مَنْ يُشبِّهُهم بحالِ المستوقد، ومنهم من يُشبِّههم بأصحاب صيب. ﴿كَصَيِّبٍ﴾ جار ومجرور معطوف على كمثل، ولا بدّ من تقدير مضاف؛ أي: كأصحاب صيّب، بدليل قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ على كونه خبر المبتدأ، تقديره: أو مثلهم كائن كمثل أصحاب صيّب. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق

بمحذوف صفة لصيّب، تقديره: نازل من السماء. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لقوله: ظلمات، و﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، مرفوع بالضمة الظاهرة، ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوفان على ظلمات، والتقدير: ظلمات ورعد وبرق كائنات في ذلك الصيّب، والجملة الإسمية في محلّ الجر صفة ثانية لصيّب، تقديره: موصوف بكون ظلمات ورعد وبرق فيه. ﴿يَجْعَلُونَ﴾ فعل وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، واقعاً في جواب سؤال مقدر، فكأنّه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول قيل: فكيف حالهم مع ذلك الرعد القاصف؟ فأجاب بقوله: يجعلون... إلخ. ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بيجعلون على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جار ومجرور متعلّق بيجعلون. و﴿مِّنَ﴾ سببيّة. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول لأجله ليجعلون، وهو مضاف. ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو اعتراضية. ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿مُحِيطٌۢ﴾ خبره. ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلّق بمحيط، والجملة الإسمية جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين جملتين من أجزاء المشبّه به، وهما: يجعلون أصابعهم، ويكاد البرق.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَكَادُ﴾ فعل مضارع من أفعال المقاربة تعمل عمل كان، وفيها لغتان: فَعِلَ وفَعُلَ، ولذلك يقال فيها عند اتصال ضمير الرفع بماضيه: كدت كبعت، وكدت كقلت. ﴿ٱلْبَرْقُ﴾ اسمها مرفوع. ﴿يَخْطَفُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو، يعود على البرق، وجملة يخطف في محل النصب خبر يكاد، وجملة يكاد مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنّه قيل: ما حالهم مع تلك الصواعق؟ فأجاب بقوله: يكاد البرق، أو معطوفة بعاطف مقدر على يجعلون. ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿كُلَّمَآ﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب، وهو ﴿مَّشَوْا۟﴾ ﴿أَضَآءَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على البرق. ﴿لَهُم﴾ متعلق بأضاء، والجملة الفعلية فعل شرط لكلما، لا محل لها من

الإعراب. ﴿مَّشَوۡاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِيهِ﴾ متعلق بمشوا، والجملة الفعلية جواب كلما لا محل لها من الإعراب، وجملة كلما من فعل شرطها وجوابها مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب، كأنّه قيل: ما يفعلون في حالتي خفوق البرق وخفيته؟ فأجاب بذلك. وهذا أصحّ ما قيل في إعراب كلّما، كما في كتب النحاة، كما بسطناه في تفسيرنا «عمدة التفاسير والمعربين». ﴿وَإِذَآ﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه. ﴿أَظۡلَمَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو، يعود على البرق، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلّق بأظلم. ﴿قَامُواْۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا معطوفة على جملة كلما على كونها مستأنفة. ﴿وَلَوۡ﴾ الواو استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: ذهاب سمعهم وأبصارهم. والجملة الفعلية فعل شرط للو. ﴿لَذَهَبَ﴾ اللام رابطة لجواب لو الشرطية. ﴿ذهب﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، يعود على الله. ﴿بِسَمۡعِهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلّق بذهب. ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ معطوف على سمعهم، وجملة ذهب جواب لو، لا محل لها من الإعراب، وجملة لو الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلّق بقدير، و﴿قَدِيرٞ﴾ خبره، وجملة إنّ مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناس اسم جمع، لا واحد له من لفظه، ومادّته عند سيبويه والفرّاء همزة ونون وسين، وحذفت همزته شذوذاً، وأصله: أناس، وقد نطق القرآن بهذا الأصل، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾. وذهب الكسائي إلى أنّ مادّته: نون وواو وسين، مشتق من النوس، وهو الحركة، يقال: ناسَ ينوس نوسا، والنَّوْسُ: تذبذبُ الشيء في الهواء، ومنه: نوس القرط في الأذن، وسمي أبو نواس بذلك؛ لأنَّ ذؤابتين له كانتا تنوسان عند أذنيه، واسمه

الحقيقي الحسن بن هانىء. وإنَّما أطلنا في هذا البحث؛ لأنَّ بعض المعاجم الحديثة خلط في أصله، فأوردوه في مادة أنس، وبعضها أورده في مادة نوس، وأضاعوا بذلك الطالب والمراجع في متاهات لا منافذ منها. اهـ. درويش.
وقيل: أصله من نسي، فوقع فيه القلب المكاني بتقديم الياء على السين، فصار نيس بوزن فعل، تحركت الياء عندئذٍ وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، فقيل: ناس، فدخلت الألف واللام للتعريف، فصار الناس. وعلى هذا سمُّوا بذلك لنسيانهم، ووزن الفعل عليه فلع، وعلى القول الأول وزنه فعالٌ، وعلى القول الثاني أجوف واويٌّ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، وقيل غير ذلك.

﴿مَن يَقُولُ﴾ أصله: يَقْوُل بوزن يفعُل، نقلت حركة الواو إلى القاف فسكنت الواو، فصارت حرف مدّ. ﴿ءَامَنَّا﴾ أصله: أأمنَّا بوزن أفعلنا، أبدلت الهمزة الثانية حرف مدّ مجانساً لحركة الأولى، وهكذا كُلّ همزة ساكنة وقعت فاءً للفعل ودخلت عليها همزة مفتوحة، وقوله ﴿الآخر﴾، الألف فيه مبدلة من همزة ساكنة.

﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ الخداع في الأصل: الإخفاء. ومنه سُمِّي البيت المفرد في المنزل مخدعاً تُسْتَرُ أهلُ صاحب المنزل فيه، ومنه: الأخدعان: وهما العرقان المستبطنان في العنق، وسمّي الدهر خادعاً؛ لما يخفي من غوائله.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الشعور؛ إدراك الشيء من وجه يدقُّ ويخفى، وهو مشتقّ من الشعر لدقّته، كما مرّ. وقيل: هو الإدراك بالحاسَّةِ، فهو مشتق من الشعار، وهو ثوبٌ يلي الجسد، ومشاعر الإنسان حواسه، وشَعَرَ بالأمر من بابي: نصر وكرم: علم به وفطن له، ومنه يسمي الشاعر شاعراً؛ لفطنته ودقّةِ معرفته. والتحقيق: أنَّ الشعور إدراك ما دَقَّ من حسي وعقلي.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض مصدر مَرِض، ويطلق في اللغة على الضعف والفتور، وقالوا المرض في القلب: الفتور عن الحقّ، وفي البدن فتور الأعضاء، وفي العين فتور النظر. ويطلق المرض فيراد به الظلمة، كقوله:

في لَيْلَةٍ مَرِضَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... فما يُحسُّ بها نَجْمٌ ولا قَمَرُ

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ وزاد يستعمل لازماً ومتعدياً لاثنين، ثانيهما غير الأول، كأعطىٰ وكَسَا، فيجوز حذف مفعوليه وأحدهما اختصاراً واقتصاراً، فالأول حذف لدليل والثاني حذف بلا دليل، تقول: زاد المال فهو لازم، وزدت زيداً خيراً، ومنه: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ وزدتُ زيداً ولا تذكر ما زدتَه، وزدتُ مالاً ولا تذكر من زدته، وألف زاد منقلبةٌ عن ياءٍ لقولهم: يزيد. اهـ. «سمين». وأصل زاد زَيَد بوزن فعل بفتح العين، يفعِل بكسرها يائي العين، نظير باع يبيع، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ من أَلِمَ من باب طرب، فهو أليم، كوَجِع فهو وجيع؛ أي متألم ومتوجع. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ الباء سببية، وما يجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بكونهم يكذبون، وهذا على القول: بأنْ كان لها مصدر، وهو الصحيح عند بعضهم للتصريح به في قول الشاعر:

بِبذلٍ وحِلْمٍ سَادَ في قومه الفَتَى وكونُك إيَّاه عليك يَسِيرُ

وقد صرَّح بالكون، وعلى هذا فلا حاجة إلى ضمير عائد على ما؛ لأنّها حرف مصدري على الصحيح، خلافاً للأخفش وابن السرَّاج، في جعل ما المصدرية اسماً، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وحينئذٍ فلا بدَّ من تقدير عائد؛ أي: بالذي كانوا يكذبونه، وجاز حذف العائد لاستكمال الشروط وهو كونه متصلاً منصوباً بفعل، وليس ثمَّ عائد آخر. اهـ. «سمين». ﴿يكذبون﴾ قرىء بالتخفيف مضارع كذب الثلاثي، وقرىء بالتشديد مضارع كذَّب المضعف.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مبني للمجهول واوي العين، أصله: قُوِلَ استثقلت الكسرة على الواو، والانتقال من ضمّ إلى كسر، فحذفت حركة الفاء التي هي القاف، ونقلت إليها حركة العين التي هي الواو، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مدّ، وهكذا كلُّ فعل من هذا النوع معتل العين بني للمجهول. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أصله: قَوَلوا، تحركت الواو وفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار: قالوا.

﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والفساد: خروج الشيء عن حال استقامته،

ونقيضه: الصلاح. والفساد في الأرض: تهييج الحروب وإثارة الفتن، والإخلال بمعايش الناس. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ألا: حرف تنبيه واستفتاح، وليست مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية، بل هي بسيطة، ولكنها لفظٌ مشترك بين التنبيه والاستفتاح، فتدخل على الجملة اسميةً كانت أو فعلية وبين العرض والتحضيض، فتختصُّ بالأفعال لفظاً أو تقديراً. اهـ. «سمين». ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فيه حذف همزة أفعل من اسم الفاعل، كما تقدم في ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه، وهو المنسوب إلى السفه، والسفه: خِفّة رأيٍ، وسخافةٌ يقتضيها نقصان العقل، ومقابله الحلم، يقال: سفه بكسر الفاء وضمّها.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من اللقاء، وهو المصادفة، يقال: لقيته ولاقيته، إذا صادفته واستقبلته، ومنه: ألقيته إذا طرحته، فإنّك بطرحه جعلته بحيث يلقى. اهـ. «بيضاوي». وأصل لقوا: لقيُوا بوزن شربوا، استثقلت الضمة على الياء، ثمّ نقلت إلى ما قبلها بعد سلب حركته، فالتقى ساكنان، وهما الياء وواو الجماعة، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ثمّ ضمّت القاف؛ لمناسبة الواو، فصار لقوا بوزن فعوا بعد أن كان على وزن فَعِلُوا.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أصله: خَلَوُوا بوزن نصروا، تحركت الواو الأولى التي هي لام الكلمة وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان وهما الألف وواو الضمير، ثمّ حذفت الألف؛ لبقاء دالّها وهو فتحة اللام، فصار خلوا بوزن فَعَوا.

﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ جمع شيطان، نحو: غرانين في جمع غرنان، حكاه الفراء. والشيطان فيعالٌ عند البصريّين، فنونه أصليةٌ من شطن؛ إذا بعد، واسم الفاعل شاطن، قال أُميّةُ:

أيُّـمـا شَـاطـنٍ عَـصَـاهُ عَـكَـاهُ ثُـمَّ يُـلْـقَـى فـي الـسِّـجـن، والأكْـبَالِ

وعند الكوفيّين وزنه فعلان، فنونه زائدة من شاط يشيط؛ إذا هلك، قال الشاعر:

قَدْ تَظْفَرُ العِيرُ في مَكْنُونِ قائلةٍ وقـد تَـشيطُ عَـلى أرْمَـاحنـا الـبُـطُـلُ

والشيطانُ: كلُّ متمرّد من الجنّ، والإنس، والدوابّ، قاله ابن عباس، وأنثاه: شيطانةٌ، قال الشاعر:

هي البَازِلُ الكَوْمَاءُ لا شَيْءَ غَيْرُها   وشَيْطَانةٌ قَدْ جُنَّ منها جُنونُها

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ اسم فاعل من استهزأ السداسي، والاستهزاء بالشيء: السُّخرية منه يقال: هَزَأت واستهزأْتُ بمعنى، وأصله: الخِفَّةُ من الهَزْءِ، وهو القَتْلُ السريعُ، وهزأ يهزأ: مات فجأةً، وتَهْزَأُ به ناقته؛ أي: تُسرع به وتخبُّ. اهـ. «أبو السعود».

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ من مدَّ الجيش من باب ردَّ، وأمده إذا زاده وقواه، ومنه: مددت السراج والأرض؛ إذا أصلحتهما بالزيت والسماد، أصله: يمددهم نقلت حركة الدال الأولى إلى الميم، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿فِي طُغْيَنِهِمْ﴾ الطُّغيانُ: مصدر طغى يطغى طُغياناً بضم الطاء، وطِغياناً بكسرها ولام طغى. قيل: ياءٌ وقيل: واوٌ. يقال: طغيت وطغوت، وأصل المادّة مجاوزة الحدّ، ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ من العمه، وهو التردّد والتحيّر، وهو قريب من العمى، إلاّ أنّ بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً؛ لأنّ العمى يطلق على ذهاب ضوء العين، وعلى الخطأ في الرأي، والعمه لا يطلق إلاّ على الخطأ في الرأي، يقال عَمِهَ يعمه من باب طرب عمها وعمهاناً، فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ اهـ. «سمين».

﴿ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الاشتراء، والشراء بمعنى: الاستبدال بالشيء والاعتياض منه، إلاّ أنّ الاشتراء يستعمل في الابتياع والبيع، وهو مِمَّا جاء فيه افتعل بمعنى: الفعل المجرّد، وهو أحد المعاني التي جاء لها افتعل، وأصل اشترى اشتَرَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً، ثُمَّ أسند الفعل إلى واو الجماعة فالتقى ساكنان: الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالَّةً عليها، ثُمَّ تحركت الواو لالتقائها ساكنة مع الساكن بعدها؛ لأنّ همزة الوصل ساقطة في الدرج، وخُصَّت بالضمة؛ لأنّها أخت الواو، وأخفُّ

الحركات عليها. وقرىء بكسرها على أصل التقاء الساكنين وبفتحها؛ لأنّه أخفُّ.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ الربح: ما يحصل من الزيادة على رأس المال. والتجارة: هي صناعة التاجر، وهو الذي يتصرَّف في المال لطلب النُّمو والزيادة. ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ أصله: كَوَنوا؛ لأنّه أجوف واويٌّ تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ﴿مُهْتَدِينَ﴾ وزنه مفتعين، أصله: مهتديين بياءين: الأولى لام الكلمة، والثانية ياء إعراب الجمع، استثقلت الحركة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء الأولى لام الكلمة. وهو جمع مهتد، وهو اسم فاعل من اهتدى الخماسي، وافتعل فيه للمطاوعة، يقال: هديته فاهتدى، نحو: سويته فاستوى، وغممته فاغتم، والمطاوعة أحد المعاني التي جاءت لها افتعل، ولا يكون افتعل للمطاوعة، إلاّ إذا كان من الفعل المتعدّي.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ المثل في أصل كلام العرب بمعنى: المِثْل، والمثيل، كالشَّبه والشِّبه والشبيه، وهو النظير، ويجمع المَثَل، والمِثْل على أمثال، قال اليزيدي: الأمثال: الأشباه، وأصل المثل؛ الوصف. يقال: هذا مثل كذا؛ أي: وصْفه مساوٍ لوصف الآخر بوجه من الوجوه. وأما المَثَل في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ فهو القول السائر الذي فيه غرابةٌ من بعض الوجوه، ولذلك حوفظ على لفظه فلم يُغيَّر، فيقال لكلّ من فرَّط في كل أمرٍ عسرٍ مُدْرَكهُ: (الصيفَ ضيّعتِ اللبن) سواء كان المخاطب به مفرداً، أو مثنى، أو مجموعاً، أو مذكراً، أو مؤنّثاً. ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ والاستيقاد بمعنى: الإيقاد واستدعاء ذلك، ووقود النار: ارتفاع لهبها. ﴿وَٱلنَّارُ﴾: جوهر لطيف مُضيء حارٌّ محرق، والنار مؤنثة، وهي واويّة العين؛ لأنّ تصغيرها نُوير، والجمع نوَرٌ ونيرانٌ، وأصل الثاني نِوران، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة، وعليه فوزنها فعل بفتح العين، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، وقِسْ على هذا ما ورد من هذا اللفظ.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ من الإضاءة، وهو الإشراق، وهو فرط الإنارة، أصله: أضوأ بوزن أفعل من الضوء، نقلت حركة حرف العلة (الواو) إلى الساكن الصحيح قبله (الضاد)، فتحركت الضاد بالفتح، ثم أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها في

الأصل، وانفتاح ما قبلها الآن، وقس على هذا ما شاكله من الأفعال: كاستجاب، وأصاب، وأناب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ جموع كثرة على وزن فُعْلٍ، كأحمر وحمر. والصُّمّ جمع أصمّ، وهو الذي لا يسمع، يقال: صَمَّ يَصَمُّ بفتح الصاد فيهما؛ إذا ثقل السمع منه. قيل: أصله السدّ، تقول: صممت القارورة؛ إذا سددتها، والصمم: داءٌ يحصل في الأذن يسد العروق، فيمنع من السمع، وقيل: أصله الصَّلابةُ، قالوا: قناةٌ صمَّاء، والأصمُّ أصله: أصمم نقلت حركة الميم الأولى إلى الصاد، فسكنت، فأدغمت في الميم الثانية، فوزنه أفعل. ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم، والبكم: آفةٌ في اللسان تمنع من الكلام. قاله أبو حاتم، وقيل: الذي يولد أخرس، وقيل: الذي لا يفهم الكلام، ولا يهتدِي إلى الصواب، فيكون إذ ذاك داءٌ في الفؤاد لا في اللسان. ﴿عُمْيٌ﴾ جمع أعمى، والعمى: ظلمةٌ في العين تمنع من إدراك المبصَرات، والفعل منها على وزن فعِل بكسر العين، واسمُ الفاعل على أفعل، وهو قياس الآفات والعاهات. فوزن الكلمات الثلاث بعد الجمع فعلٌ بضمّ الفاء وسكون العين، ووزن مفردها أفعل، ويجمع أفعل قياساً على فعل بضمّ الفاء، فالأوصاف الثلاثة صفاتٌ مشبهة، جاءت على هذا الوزن، قال ابن مالك في «الخُلاصة»: فعل لنحو أحمر وحمراء.

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ والرجوع إن لم يتعدَّ فهو بمعنى العود، وإن تعدّى فبمعنى الإعادة. ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فيه إعلال بالقلب والإدغام. أصله: صيوبٌ من الصَّوب، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما ساكنةً، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، فصار صيِّبٌ، كما فعل في ميّت وسيّد. قال ابن مالك في باب التصريف:

إنْ يَسْكُنِ السَّابقُ من وَاوٍ ويَا ... وَاتَّصلاَ ومِنْ عُرُوضٍ عَرِيَا
فياءَ الواوَ اقْلِبَنَّ مُدْغِماً ... وشَذَّ مُعْطىً غَيْرَ مَا قَدْ رُسِمَا

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والسماء: كُلُّ ما علاك فأظلّك، والسماء مؤنّث وقد يُذَكر، كما في قول الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إليه قوماً لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ

وأصل السماء: السماو من السمو، أبدلت فيه الواو همزةً لمَّا تطرَّفت إثر ألف زائدة، وهذا القلب مطرد فيها، وفي الياء المتطرفة أيضاً بعد ألف زائدة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مادّة البناء، وقد تقدم عند قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿مُحِيطٌۢ﴾ وزنه: مفعلٌ اسم فاعل من أحاط الرباعيّ، فأصله: مُحْوِط واويُّ العين، إذ يقال: حاطه يحوطه حوطاً وحوَّط تحويطاً، فالمصدر ظهرت فيه الواو، ولمَّا كان أصله مُحرط، نقلت حركة الواو إلى الحاء، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مدّ.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ أصله: يكوَد بفتح العين بوزن يفعل؛ لأنّ الصحيح أنّه من باب فعل مكسور العين، نقلت حركة حرف العلّة إلى الساكن الصحيح قبله، ثمّ أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها في الأصل، وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أصله: مَشَيُوا بوزن ضربوا، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان: الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ أصل قام قَوَم، بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ثمّ أسند الفعل إلى واو الجماعة، فضمّ آخره. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أصله: شَيِءَ بوزن فَعِل بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، دلَّ على ذلك كون مضارعه يشاء، وسيأتي بيان تصريف مضارعه إن شاء الله تعالى في محلّه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة، والبيان، والبديع:

فمنها: الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، حيث لم يقل: وما آمنوا المطابق لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة؛ لإفادتها الدوام والاستمرار؛ أي: لم يتصفوا

بالإيمان في حال من الأحوال، لا في الماضي، ولا في الحال، ولا في الاستقبال، بخلاف الفعلية الموافقة لدعواهم، فلا تفيد إلاّ نفيه في الماضي. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: إعادة الجار في قوله: ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لإفادة تأكُّد دعواهم الإيمان، بكلّ ما جاء به الرسول ﷺ، فردَّ عليهم المولى بأبلغ ردّ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، حيث أتى بالجملة الإسمية وزاد الجار في الخبر.

ومنها: المشاركة في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾؛ لأنَّ المفاعلة تقتضي المشاركة في المعنى، وقد أطلق عليه تعالى مقابلاً؛ لما ذكره من خداع المنافقين، كمقابلة المكر بمكرهم، ومن أمثلة هذا الفنِّ في الشعر قول بعضهم:

قَالُوا الْتَمِسْ شَيْئاً نُجِدْ لك طَبْخَهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وقَمِيْصا

ومنها: الاستعارةُ التمثيلية في الخداع المنسوب إليه تعالى، حيث شبّه حالهم مع ربّهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر، بحال رعية تخادع سلطانها، واستعير اسم المشبّه به للمشبّه، بطريق الاستعارة التمثيلية، أو شبه حالهم في معاملتهم مع الله تعالى، بحال المخادع مع صاحبه من حيث القُبْحِ، أو من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية، حيث أسند الشيء إلى غير من هو له، وأصل التركيب: يخادعون رسول الله، أو من مجاز الحذف، أو من باب التورية، حيث ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع. اهـ. من «أبي السعود» وغيره. والتورية: أن يكون للكلام معنى قريب وبعيد، فيطلق القريب ويُراد البعيد، وهو مطلق الخروج عن الطاعة باطناً، وإن كان العالم لا تخفى عليه خافية اهـ. «صاوي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، حيث استعير المرض لما رَانَ على قلوبهم، من جَهْلٍ وسوء عقيدة؛ لأنّ المرض حقيقة في الأجسام.

ومنها: زيادة كان في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ لتأكيد الكلام؛ ولإفادة دوام كذبهم وتجدّده.

ومنها: قصر الموصوف على الصفة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾؛ أي: مقصورون على الإصلاح، نظير قولهم: إنّما زيد منطلق. وقال ابن التمجيد: هذا القصر إفراد؛ لأنّه لما قال المسلمون لهم: لا تفسدوا توهّموا أنّ المسلمين أرادوا بذلك، أنّهم يخلطون الإفساد بالإصلاح، فأجابوهم بأنّهم مقصورون على الإصلاح، لا يتجاوزون عنه إلى صفة الإفساد، فيلزم منه عدم الخلط، فهو من باب قصر الإفراد، حيث توهّموا أنّ المؤمنين اعتقدوا الشركة، فأجابهم الله سبحانه بعد ذلك، بما يدل على القصر القلبي بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾، فإنّهم لما أثبتوا لأنفسهم إحدى الصفتين، ونفوا الأخرى، واعتقدوا ذلك، قلب الله اعتقادهم هذا، بأن أثبت لهم ما نفوه، ونفى عنهم ما أثبتوا. والمعنى: هم مقصورون على إفساد أنفسهم بالكفر، والناس بالتعويق عن الإيمان، لا يتخطّون منه إلى صفة الإصلاح. اهـ. «روح».

ومنها: جمع المؤكدات في هذه الجملة؛ لتأكيد الردّ عليهم، حيث أكد بألاْ، وبأنَّ، وبضمير الفصل، وتعريف الخبر مبالغةً في الردّ عليهم، لما ادَّعوه من قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾؛ لأنّهم أخرجوا الجواب جملة اسمية مؤكَّدة بإنما، ليدلُّوا بذلك على ثبوت الوصف لهم، فردَّ الله عليهم بأبلغ وأوكد مما ادعوه. اهـ. «سمين». وكذا جملة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

ومنها: المفارقة بين الجمل في قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾. فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وهي جملة ﴿ءَامَنَّا﴾، وخاطبوا شياطينهم بالجملة الإسمية، وهي جملة ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾؛ وذلك لأنّ الجملة الإسميّة أثبت من الجملة الفعلية، فإيمانهم قصير المدى لا يَعْدُو تَحْرِيكَ اللسان، أو مدةَ التقائهم بالمؤمنين وركونُهم إلى شياطينهم، دائمُ الاستمرار والتجدُّد، وهو أعَلْقُ بنفوسهم وأكثر ارتباطاً بما رَسَخ فيها.

ومنها: المخالفة بين جملة مستهزِؤن، وجملة يستهزىء؛ لأنّ هزء الله بهم متجدد وقتاً بعد وقت، وحالاً بعد حال، يوقعهم في مَتاهَاتِ الحيرةِ والإرتباك، زيادةً في التنكيل بهم.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾؛ لأنّ الاستهزاء ضرب من العَبَثِ واللهو، وهما لا يليقان به سبحانه وتعالى، وهو منزَّه عنهما، ولكنه سمَّى جزاء الاستهزاء استهزاءً، فهي مشاكلةٌ لفظيّةٌ لا أقلَّ ولا أكثر. فالمشاكلة: هي الإتفاق في اللفظ دون المعنى.

ومنها: الفصل الواجب في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾؛ لأنّ في عطفها على شيء من الجمل السابقة مانعاً قويّاً؛ لأنّها تدخل حينئذٍ في حيّزِ مقول المنافقين، والحال: أنّ استهزاء الله بهم وخذلانه إيّاهم ثابتان مستمرّان، سواءٌ خلوا إلى شياطينهم أم لا. فالجملة مستأنفة على كلّ حال، واجبة الفصل عمّا قبلها؛ لأنّها مظنة سؤال ينشأ، فيقال: ما مصير أمرهم؟ ما عقبى حالهم؟. فيستأنف جواباً عن هذا السؤال.

ومنها: الإتيان باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ للإيذان ببعد منزلتهم في الشرّ، وسوء الحال.

ومنها: الاستعارة التصريحية الترشيحية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، حيث استعار الشراء الذي هو بذل الثمن؛ لتحصيل ما يطلب لاختيارهم الضلالة بدل الهدى، ورشَّح تلك الاستعارة وقوّاها، بذكر الربْحِ والتجارة، لأنّ الترشيح ذكر ما يلائم المستعار منه الذي هو الشراء هنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ حيث أسند الربح إلى التجارة؛ لكونها سببه، وحقُّ الإسناد أن يقال: فما ربحوا في تجارتهم.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، وهو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه بكلمةٍ أو جملةٍ، تُتِمُّ معنى الكلام السابق، فقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ تتميم لما قبله؛ لأنّه أفاد أنّهم ضالّون مخطئون في جميع ما فعلوه من عمل الشراء، وغيره.

ومنها: التشبيه التمثيلي في قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ الخ، وكذلك في قوله: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. والتشبيه التمثيلي: هو أن يكون وجه

الشبه منتزعاً من أمور متعدّدة، فقد شبّه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار. وفي المثال الثاني شبّه الإسلام بالمطر؛ لأنّ القلوب تحيا به، كحياة الأرض بالمطر، وشبّه شبهات الكفّار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد، بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الفتن، والبلايا بالصواعق.

ومنها: المخالفة بين الضميرين، فقد وحّد الضمير في قوله: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ نظراً إلى جانب اللفظ؛ لأنّ المنافقين كلّهم على قول واحد وفعل واحد، وجمع في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ﴾ رعاية للمعنى لكون المقام مقام تقبيح أحوالهم، وبيان صفاتهم وضلالهم، فإثبات الحكم لكلّ فرد منهم واقع.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فقد شبّههم بالصمّ، والبكم، والعمي، وطوى ذكر المشبّه، وجعله بعضهم من التشبيه البليغ؛ أي: هم كالصمّ البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فصار تشبيهاً بليغاً، وهو في كلامهم كثير، كقوله:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ به وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ حيث أطلق الأصابع، وأراد رؤوسها، فهو من إطلاق الكلّ وإرادة الجزء؛ لأنّ إدخال الأصبع كلّها في الأذن لا يمكن.

ومنها: جمع الأصابع إشارة إلى أنّه لم يرد أصبعاً معيّنة؛ لأنّ الحالة حالة دهش وحيرة، فأيّةُ أصبعٍ اتّفق لهم أن يسَدّوا بها آذانهم، فعلوا غير معرِّجين على ترتيب معتاد، أو تعَيينٍ مفترَضٍ.

ومنها: إفراد البرق والرعد، وجمع الصواعق، لكونهما في الأصل مصدرين، والمصادر لا تجمع. يقال: رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً، فراعى فيهما حكم الأصل، فترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع، ولا يخفى أنّ من

الألفاظِ ما يَعْذُب مفردُه ويَقْبَحُ جَمْعُه، وبالعكس.

ومنها: تعريف السماء في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإيذان بأنَّ انبعاث الصيّب ليس من أفق واحد، فإنَّ كلَّ أُفقٍ من آفاقها سماءٌ على حدةٍ، والمعنى: أنّه نازل من غمامٍ مُطبِقٍ، آخذٍ بآفاق السماء كلها.

ومنها: التعبير بالأصابع دون الأنامل في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ إشارةً إلى أنّهم لشدّة حيرتهم ودهشتهم، يدخلون أصابعهم كلَّها في إذانهم لا أناملهم فقط، كما هو المعتاد.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث لم يَقُلْ: والله محيط بهم بالضمير الراجع إلى أصحاب الصيّب، إيذاناً. بأنّ ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكيَّة بسبب كفرهم.

ومنها: إيثار المشي في قوله: ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ على ما فوقه من السَّعْي والعدو؛ للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم وحيرتهم.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

فائدة: والحاصل: أنَّ الله وصف المنافقين في هذه الآيات، بثمان صفاتٍ كُلُّها قبيحة شنيعة تدلّ على رسوخهم في الضلال، وهي: الكذب، والخداع، والسفه، والاستهزاء، والإفساد في الأرض، والجهل والضلال، والمرض.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ...﴾ الآيات، مناسَبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى[1]، لما ذكر أصناف الخلق، وبيّن أنّ منهم المهتدين والكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية، والمنافقين المذبذبين بَيْنَ ذلك.. دعا الناس إلى دين التوحيد الحقّ، وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص، حتى كأنّهم ينظرون إليه، ويرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنّه يراهم، فإن

---

(١) المراغي.

فعلوا ذلك أعدّوا أنفسهم للتقوى، وبلغوا الغاية القصوى.

ثمّ عدّد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر، فجعل منها خلقهم أحياءً قادرين على العمل والكسب، ثُمَّ خلق الأرض مستقرّاً ومهاداً؛ لينتفعوا بخيراتها، ويستخرجوا معادنها ونباتها. ثمَّ بنى لهم السماء التي زيّنها بالكواكب، وجعل فيها مصابيح يهتدي بها الساري في الليل المظلم، وأنزل منها الماء، فأخرج به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها وأشكالها، أفليس في كلٍّ هذا ما يطوّح بالنظر، ويهدي الفكر إلى أنَّ خالق هذا الكون البديع المثال، لا نِدَّ له ولا نظير، وأنَّ ما جعلوه أنداداً له لا يقدرون على إيجاد شيء مما خلق، وأنّهم يعلمون ذلك حقَّ العلم، فكيف يدعون غير الله من الأصنام والأحجار، ويستشفعون به، ويتوسَّلون إليه مع أنّه لا خالق ولا رازق إلاّ الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر[1] أنَّ الناس بالنظر إلى القرآن أقسامٌ ثلاثةٌ: متقون يهتدون بهديه، وجاحدون معاندون معرضون عن سماع حججه وبراهينه، ومذبذبون بين ذلك.. طلب هنا إلى الجاحدين المعاندين في نبوة محمد ﷺ وفي أنَّ القرآن معجزته، أن يتعرّفوا إن كان هو من عند الله كما يَدَّعي هو أو من عند نفسه كما يدَّعون، فَيرُوِّزُوا أنفسهم، ويحاكموه، لعلَّهم يأتون بمثل سورة من أقصر سُوَرة، وهم فرسان البلاغة، وعصرهم أرقى عصور الفصاحة، والكلام ديدنهم، وبه تفاخرهم، وكثير منهم حاز قصب السبق في هذا المضمار، ولم يكن محمد من بينهم، فهو لم يمرَّن عليه، ولم يبار أهله، ولم ينافسهم فيه.

فإن عجزوا ولم يستطيعوا ذلك، وهم لا يستطيعون، وإن تظاهر أنصارهم وكثر أشياعهم، بل لو اجتمعت الإنس والجنّ جميعاً، فليعلموا أنَّ ما جاءهم به، فأعجزهم لم يكن إلاّ بوحي سماوي وإمدادٍ إلٰهيّ، لا يسمو إليه محمد بعقله، ولا

---

(١) المراغي.

يصل بَيَانُه إلى مثل أسلوبه ونظمه. وإذا استبان عجزهم ولزمتهم الحجة فقد صدق النبي ﷺ فيما ادعى، وكان من ارتاب في صدقه معانداً مكابراً، واستحقّ العقاب، وكان جزاءه النار التي وقودها العصاة الجاحدون، وما عبدوه من أحجار وأصنام، أعدّت لكلّ من جحد الرسل أو استحدث في الدين، ما هو منه براءٌ.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر الكافرين، وما أعدَّ لهم من العقاب. قفَّى على ذلك ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أعدَّ لهم من نعيم مقيم في الدار الآخرة، وقد جرت سنّة القرآن أن يقرن الترهيب بالترغيب؛ تنشيطاً لاكتساب ما يوجب الزلفى عند الله؛ وتثبيطاً عن اقتراف ما يوجب البعد من رضوانه تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا...﴾ الآيات، مناسبتها لِمَا قبلها: أنّ الله سبحانه[1]، لما ذكر الدليل القاطع على أنّ القرآن كلام الله، لا يتطرّق إليه شكّ ولا ريب، وأنّه كتاب معجز، أنزله على خاتم المرسلين، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله. ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه، وهي: أنّه جاء في القرآن ذكر النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل، وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فضلاً من كلام ربّ الأرباب. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردّ عليهم: بأنّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكرها مشتملاً على حكم بالغة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أنّ الله سبحانه وتعالى، لما[2] ذكر أولئك الفاسقين الذين ضلوا بالمثل، ووصفهم بالصفات الشنيعة من نقض العهد الموثّق، وقطع ما أمر

---

(١) عمدة التفاسير والمعربين.

(٢) المراغي.

الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض، وجّه الخطاب إليهم في هاتين الآيتين. وجاء به على طريق التوبيخ والتعجيب من صفة كفرهم، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان الصادّة عن الكفر، وهي النعم المتظاهرة الدالّة على قدرته تعالى، من مبدأ الخلق إلى منتهاه من إحيائهم بعد الإماتة، وتركيب صورهم من الذّرات المتناثرة، والنطف الحقيرة المهينة، وخلق ما في الأرض جميعاً لهم؛ ليتمتعوا بجميع ما في ظاهرها وباطنها على فنون شتّى وطرق مختلفة، وخلق سبع سموات ٍ مُزيَّنة بمصابيح؛ ليهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر.

أفبعد هذا كله يكفرون به، وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويضرب لهم الأمثال؛ ليهتدوا بها في إيضاح ما أشكل عليهم مما فيه أمر سعادتهم في دينهم ودنياهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية:[1] ما أخرجه ابن جرير عن السدي بأسانيده، لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال المنافقون: الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. وما أخرجه الواحدي من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفيّ، عن موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (إنّ الله ذكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾، وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمدّ، أيّ شيء كان يصنع بهذا؟ فأنزل الله هذه الآية). وعبد الغني واهٍ جدّاً، وقال عبد الرزاق في «تفسيره»: أخبرنا معمر، عن قتادة: لمّا ذكر الله العنكبوت

---

(١) لباب النقول.

والذباب، قال المشركون ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله هذه الآية. وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن قال: لما نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قال المشركون: ما هذا من الأمثال فيضرب؟ أو ما يشبه هذه الأمثال، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا...﴾ الآية. قلت: القول الأول أصحّ إسناداً، وأنسب بما تقدّم أوّل السورة، وذكر المشركين لا يلائم كون الآية مدنية. وما أوردناه عن قتادة والحسن حكاه عنهما الواحديُّ بلا إسناد بلفظ (قالت اليهود)، وهو أنسب.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يا أيُّها المكلّفون من الإنس والجنّ ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾؛ أي: وحّدوا، وأفرِدُوا بالعبادة، والطاعة، والاستغاثة، والدعاءِ ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: خالقكم الذي ابتدع خلقكم على غير مثال سابق؛ لأنّه الذي يستحقّ العبادة منكم دون غيره من الأصنام، والأحجار، لأنّ تعليق الحكم بمشتقّ يؤذن بعليّة ما منه الاشتقاق، فكأنّه قال: اعبدوه لخلقه إيّاكم، فإنّه هو الذي يُعبد دون غيره.

وهذه الآية[١] مسوقة لإثبات التوحيد، وتحقيق نبوة محمد ﷺ ـ اللذين هما أصل الإيمان. والناس يصلح اسماً للمؤمنين، والكافرين، والمنافقين. والنداء فائدته؛ تنبيه الغافلين، أو إحضار الغائبين، وتحريك الساكنين؛ وتعريف الجاهلين، وتفريغ المشغولين، وتوجيه المعرضين، وتهييج المحبّين، وتشويق المريدين.

قال بعضهم: أقبل عليهم بالخطاب جبراً؛ لما في العبادة من الكلفة بلذّة الخطاب؛ أي: يا مُؤْنِسُ لا تَنْسَ أُنْسَكَ بي قبل الولادة، أو يا ابنَ النسيان تَنَبَّهْ، ولا تَنْس حيث كنتُ نسياً منسياً، ولم تك شيئاً مذكوراً، فخلقتك وخمرتك طيناً،

---

(١) روح البيان.

ثم نطفةً، ثم دماً، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً ولحوماً وعروقاً وجلوداً وأعصاباً، ثمّ جنيناً، ثم طفلاً، ثمّ صبياً، ثمّ شاباً، ثمّ كهلاً، ثمّ شيخاً، وأنت فيما بين ذلك تتمرَّغ في نعمتي، وتسعى في خدمة غيري، تعبد النفس والهوى، وتبيع الدين بالدنيا، لا تَنس مَنْ خلقك، وجعلك مِنْ لا شيءَ شيئاً مذكوراً كريماً مشكوراً، علَّمك، وقوَّاك، وأكرمك، وأعطاك ما أعطاك. فهذا خطاب للنفس والبدن. قال في «التيسير»: وإذا كان الإنسان من النسيان، ففيه عتاب وتلقين، أمّا العتاب، فكأنّه يقول: أيّها الناس! قابلتم نعمنا بالكفران، وأوامرنا بالعصيان، وأمَّا التلقين للعذر، فكأنَّه يقول: أيّها المخالف لنا ناسياً لا عامداً، وساهياً لا قاصداً! اعذرناك لنسيانك، وعفونا عنك لإيمانك.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما[1] ـ: يا أيّها الناس: خطاب لأهل مكة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب لأهل المدينة. وهو هنا خطاب عامّ لسائر المكلّفين؛ لأنّ ذلك أمر أغلبي على أنّ السورة مدنية.

واعلم[2]: أنّ النداء الواقع في القرآن على سبعة مراتب:

الأول: نداء مدح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

والثاني: نداء ذمّ، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

والثالث: نداء تنبيه، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

والرابع: نداء إضافة، كقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾.

والخامس: نداء نسبة، كقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والسادس: نداء تسمية، كقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

والسابع: نداء تعنيف، كقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) صاوي.

(٢) الخازن.

﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يقول للكفّار:[1] وحّدوا ربّكم، ويقول للعاصين: أطيعوا ربّكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربّكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربّكم. واللفظ يحتمل لهذه الأوجه كلّها، وهو من جوامع الكلم، كما في «تفسير أبي الليث». والعبادة: استفراغ الطاقة في استكمال الطاعة، واستشعار الخشية في استبعاد المعصية. ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة جرت عنه للتعظيم والتعليل معناه: أطيعوا ربّكم الذي خلقكم، لخلقكم ولم تكونوا شيئاً. والخلق: اختراع الشيء على غير مثال سبق. ﴿وَ﴾ خلق ﴿الذين من قبلكم﴾؛ أي: من أهل زمن قبل زمانكم من الأمم. فـ ﴿مِن﴾ ابتدائية متعلّقة بمحذوف، وفي الوصف به، إيماء إلى سبب وجوب عبادته تعالى، فإنّ خلق أصولهم من موجبات العبادة، كخلق أنفسهم. وفيه دلالة على شمول القدرة، وتنبيه من سنة الغفلة؛ أي: أنّهم كانوا فمضوا، وجاءوا وانقضوا، فلا تنسوا مصيركم، ولا تستجيزوا تقصيركم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: اعبدوه وحده؛ لتجعلوا عبادته وقاية وستراً بينكم وبين عذابه، هذا إن جرينا على أنّ (لعلّ) للتعليل. ويحتمل كونها على أصل معناها من الترجيّ، فتكون جملتها حالاً من فاعل ﴿اعْبُدُواْ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة حالة كونكم راجين أن تدخلوا، وتُنَظَّموا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين لجوار الله تعالى. و(لعلّ) للترجّي والإطماع، وهي من الله تعالى واجب؛ لأنّ الكريم لا يُطْمِع إلاّ فيما يفعل. والأولون والآخرون مخاطبون بالأمر بالتقوى. وخصّ المخاطبين بالذكر؛ تغليباً لهم على الغائبين، كما في «الكواشي».

وقرأ ابن السميفع[2] ﴿وخلق مَنْ قبلكم﴾ جعله من عطف الجمل. وقرأ زيد بن علي ﴿والذين مَنْ قبلكم﴾ بفتح ميم (من) قال الزمخشري: وهي قراءة مشكلة، ووجهها على إشكالها بأن يقال: أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته؛ تأكيداً، كما أقحم جرير في قوله:

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

يـا تـيـم تـيـم عـدي لا أبـالَـكُـمُ

تيما الثاني بين الأول وما أضيف إليه، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في (لا أبالك). انتهى كلامه. ذكره في «البحر».

وفيه تنبيه: على أنّ التقوى منتهى درجة السالكين، وهو التبرّي من كلّ شيء سوى الله تعالى، وأنّ العابد ينبغي له أن لا يغترّ بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾.

وحاصل المعنى: أي أنّ هذا الربّ العظيم المتصف بتلك الصفات التي تعلمونها، هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم، وربّاكم وربّى أسلافكم، ودبّر شؤونكم، ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة مثل ما وهبهم، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا بعبادته أحداً من خلقه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: فاعبدوه على تلك الشاكلة، فإنّ العبادة على هذا السنن هي التي تعدّكم للتقوى، ويرجى بها بلوغ درجة الكمال القصوى.

ثمّ ذكر بعض خصائص الربوبيّة التي تقتضي الاختصاص به تعالى، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وصيّر ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ صفة ثانية لربّكم؛ أي: بساطاً تقعدون، وتنامون عليها، وتتقلّبون فيها، كالفراش المبسوط.

وقدم[1] ذكر الأرض على السماء وإن كانت أعظم في القدرة، وأمكن في الحكمة، وأتمّ في النعمة، وأكبر في المقدار؛ لأنّ السقف والبنيان فيما يعهد، لا بدّ له من أساس وعمد مستقرّ على الأرض، فبدأ بذكرها، إذ على متنها يوضع الأساس، وتستقرّ القواعد، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقرّ عليها قواعده؛ أو لأنّ خلق الأرض متقدم على خلق السماء، ذكره في «البحر».

قال أهل اللغة: الأرض: بساط العالم وبسيطها، من حيث إنّه يحيط بها

---

(١) البحر المحيط.

البحر الذي هو البحر المحيط أربعة وعشرون ألف فرسخ، كلّ فرسخ ثلاثة أميال، وهو اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، وكلّ ذراع ستّ وثلاثون أصبعاً، كلّ أصبع ستّ حبّات شعير، مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. فللسودان: اثنا عشر ألف فرسخ، وللبيضان: ثمانيةٌ، وللفرس: ثلاثة، وللعرب ألف، كذا في كتاب «الملكوت».

وسَمْتُ وسط الأرض المسكونة حضرة الكعبة المشرفة، وأمّا وسط الأرض كلّها عامرها وخرابها، فهو الموضع الذي يُسمَّى قُبَّة الأرض، وهو مكانٌ يعتدل فيه الأزمان في الحرّ والبرد، ويستوي الليل والنهار أبداً، لا يزيد أحدهما على الآخر، كما في «المَلَكُوتِ».

وروي عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: أنّه قال: (إنّما سميت الأرض أرضاً؛ لأنّها تتأرّض ما في بطنها)؛ يعني: تأكل ما فيها. وقال بعضهم: لأنّها تتأرّض بالحوافر والأقدام.

ومعنى جعلها ﴿فِرَٰشًا﴾ جعل بعضها بارزاً من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب، وجعلها متوسّطة بين الصلابة واللين، صالحة للقعود عليها والنوم فيها، كالبساط المفروش، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحاً حقيقياً، وهو الذي له طول وعرض، فإنّ كرويّة شكلها مع عظم جرمها مصّححة لافتراشها.

وعبارة النسفي هنا: وليس فيه دليل على أنّ الأرض مسطّحة أو كروية، إذ الافتراش ممكن على كلا التقديرين.

﴿و﴾ جعل ﴿السماء﴾ وهو ما علاك وأظلّك؛ لأنّه من السموّ بمعنى: العلوّ. ﴿بِنَآءً﴾ أي: سقفاً مبنياً فوق الأرض مرفوعاً فوقها، كهيئة القبّة؛ أي: جعلها قبّة مضروبة عليكم. وكلّ سماء مطبقة على الأخرى، مثل: القبّة، والسماء الدنيا ملتزقة أطرافها على الأرض، كما في «تفسير أبي الليث».

قيل[1]: إذا تأمّل الإنسان المتفكّر في العالم، وجده كالبيت المعمور فيه كلّ

---

(١) الخازن.

ما يحتاج إليه، والسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة كالبساط، والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وفيه ضروب النبات المهيّئة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخرة له هذه الأشياء، شكر الله تعالى عليها بالتوحيد، والإيمان، والطاعة. وما أحسن قول أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلٰه ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيءٍ له آية ... تدلّ على أنّه الواحدُ

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً عَذْباً فراتاً، أو أنزل من السماء مطراً ينحدر منها على السحاب، ومنه على الأرض. وفيه ردٌّ لزعم من قال: إنّه يأخذه من البحر. ﴿فَأَخْرَجَ﴾ سبحانه وتعالى بفضله وقدرته، وأنبت ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء الذي أنزل من السماء ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والفواكه والنباتات، فالمراد بالثمرات هٰهنا: المأكولات كلّها من الحبوب والفواكه، وغيرها مما يخرج من الأرض والشجر، كما في «التيسير». ﴿رِزْقًا﴾ وغذاء وقوتاً ﴿لَّكُمْ﴾ وعلفاً لدوابّكم.

وذلك[١] أنّه أودع في الماء قوةً فاعليَّةً، وفي الأرض قوةً منفعلةً، فتولّد من تفاعلهما أصناف الثمار، فبين المظلّة والمقلّة شبه عقد النكاح، بإنزال الماء منها عليها، والإخراج به من بطنها، أشباه النسل المنتج من الحيوان من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم، ولسائر الأنعام والدوابّ. و﴿مِنَ﴾ للبيان، و﴿رِزْقًا﴾؛ أي: طعاماً وعلفاً لكم ولدوابّكم، كما مرّ آنفاً، ففيه تقديم البيان على المبيّن؛ لغرض الاهتمام.

والمعنى[٢]: أنّ الله تعالى أنعم عليكم بذلك كلّه، لتعرفوه بالخالقيّة والرازقيّة، فتوحّدوه.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والفاء فيه إما تفريعية، أو فصيحية؛ أي: إذا عرفتم أنّه خالق السموات والأرض وما فيهما، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم، فأقول لكم: لا تجعلوا لله سبحانه وتعالى أنداداً؛ أي: شركاء وأشباهاً من الأصنام، وغيرها تشركونها مع الله تعالى في العبادة. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أنّها لا تخلق شيئاً، ولا ترزق أحداً، وأنّ الله هو الخالق الرازق. أو تعلمون أنّه ليس في التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد. والأنداد: جمع ندّ، وهو المِثل؛ أي: لا تجعلوا له أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله؛ يعني: لا تقولوا له شركاء تعبد معه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (لا تقولوا لولا فلان لأصابني كذا، ولولا كلبنا يصيح على الباب لسرق متاعنا)، وعن النبي ﷺ أنه قال: «إيّاكم ولو فإنّه من كلام المنافقين» قالوا: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أيّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل الله نِدّاً وهو خلقك» الحديث، وكذا حديث معاذ «أتدري ما حقّ الله على عباده؟ حقّ الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً» الحديث.

قال البيضاويّ: واعلم أنّ مضمون الآيتين: هو الأمر بعبادة الله وتوحيده، والنهي عن الإشراك به، والإشارة إلى ما هو العلّة والمقتضي لذلك. انتهى.

وفي «المراغي»: الأنداد[1]: هم الذين خضع الناس لهم، وقصدوهم في قضاء حاجاتهم، وكان مشركوا العرب يسمّون ذلك الخضوع عبادة، إذ لم يكن عندهم شرع ينهاهم عن عبادة غير الله تعالى، وأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أنداداً وأرباباً، كانوا يتحاشَون هذا اللفظ، فلا يسمّون ذلك الاتخاذ عبادة، ولا أولئك المعظَّمين آلهة وأنداداً، بل يسمّون دعاءهم غيرَ الله، والتقرب إليه توسّلاً واستشفاعاً، ويسمّون تشريعهم لهم بعض العبادات، وتحليل

---

(١) المراغي.

المنكرات، وتحريم بعض الطيبات فقهاً واستنباطاً من التوراة، والكل متفقون على أنّه لا خالق إلاّ الله ولا رازق إلاّ هو. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وإنّكم لتعلمون بطلان ذلك، وإنّكم إذا سئلتم من رزقكم من السمٰوات والأرض؟ ومن يدبّر الأمر؟ تقولون: الله، فلم إذاً تدعون غيره وتستشفعون به؟. ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضرّ ولا تنفع؟ ومن أين جاءكم أنّ التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتى قلتم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وقرأ زيد بن عليّ، ومحمد بن السميفع[1]: ﴿ندّا﴾ على التوحيد، وهو مفرد في سياق النهي، فالمراد به: العموم، إذ ليس المعنى: فلا تجعلوا لله نداً واحداً، بل أنداداً.

ولمّا احتجّ سبحانه وتعالى، عليهم في إثبات توحيد الألوهية والربوبيّة بما تقدم، احتجّ عليهم في إثبات نبوة محمد ﷺ بما قطع عذرهم، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيّها الناس ﴿فِي رَيْبٍ﴾ وشكّ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: في كون القرآن المعجز الذي نزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ وحياً منزّلاً من عند الله تعالى، أو مفترى من عند نفسه. والتنزيل[2]: هو النزول على سبيل التدريج، وأُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا إلى بيت العزّة، ثمّ منه إلى النبي ﷺ مفرّقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة؛ ليحفظ، فإنّه ﷺ كان أمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، ففُرّق عليه؛ ليثبت عنده حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنّه كان كاتباً قارئاً، فيمكنه حفظ الجميع من الكتاب، ولذا قالوا: إنّ سائر الكتب الإلٰهية أنزلت جملة.

وفي إضافة العبد إليه تعالى: تنبيهٌ على عُظْم قدره ﷺ واختصاصه بخالص العبودية ورفعِ محلِّه. وإضافَتُهُ إلى نفسه تعالى واسمُ العبد عامّ وخاصّ، وما هنا من الخاص، كقوله:

لا تَدْعُني إلاّ بيا عبدها لأنّه أشرف أسمائيْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

ومن قرأ ﴿عَلَىٰ عبادنا﴾ بالجمع، فقيل: يريد رسول الله ﷺ وأُمَّته، قاله الزمخشري، ذكره في «البحر»؛ لأنّ المكذّب لمحمد مكذِّب لأمته، لأنّهم تبعه.

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾ جواب الشرط، وهو أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة كائنة ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؛ أي: من مثل هذا القرآن الذي نزلناه على عبدنا محمد ﷺ في البلاغة، والفصاحة، والبيان الغريب، وعلوّ الطبقة في حسن النظم، والتركيب، والإخبار عن المغيّبات؛ أي: فهاتوا وجِيئُوْا بسورة واحدة مماثلة له فيما ذكر، فأنتم بشر فصحاء مثله، هذا إن جرينا على أنّ الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ عائد على ما نزلنا، وهو المتبادر.

والمعنى: أي[1] ائتوا أنتم بمثل ما أتى هو، إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر، إذ أنتم وهو سواءٌ في الجوهر، والخلقة، واللسان، وليس هو أولى بالاختلاق منكم. ثمّ القرآن وإن كان لا مثل له؛ لأنّه صفة الله وكلامه ووحيه، ولا مثل لصفاته، كما لا مثل لذاته، لكن معناه من مثله على زعمكم، فقد كانوا يقولون: لو شئنا لقلنا مثل هذا، كما في «التيسير».

ويحتمل[2] عود الضمير على ﴿عَبْدِنَا﴾، والمعنى حينئذٍ: فهاتوا بسورة واحدة واقعة من بشر مماثل لعبدنا محمد ﷺ في كونه عربيّاً فصيحاً. وحدّ السورة: هي قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، مترجم عنها باسم خاصّ، أقلّها ثلاث آيات. وإنّما سميت سورة؛ لكونها أقوى من الآية من سورة الأسد والشراب؛ أي: قوته. والآية قطعة من السورة مميزاً بفصل يسمّى الفاصلة، هذا إن كان واوها أصلية، وإن كانت منقلبة عن همزة، فهي مأخوذة من السؤر الذي هو البقية من الشيء، فالسورة قطعة من القرآن مفرزة باقية من غيرها.

قال القاضي زكريا: إن قلت: لم ذُكرت ﴿مِّن﴾ هنا، وحذفت في سورتي: يونس وهود؟

قلت: لأنّ ﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض، أو للتبيين، أو زائدة على قول الأخفش:

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

بتقدير رجوع الضمير في ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ إلى ما في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا﴾، وهو الأوجه، والمعنى على الأخير: فأتوا بسورة مماثلة للقرآن في البلاغة وحسن النظم، وعلى الأولين: فأتوا بسورة مما هو على صفته في البلاغة وحسن النظم، وحيئنذٍ فكأنّه منه، فحسن الإتيان بمن الدالة على ما ذكر، بخلاف ذاك، فإنّه قد وصف السور بالافتراء صريحاً في هود، وإشارة في يونس، فلم يحسن الإتيان بمن الدالة على ما ذكر؛ لأنّها حينئذٍ تشعر بأنّ ما بعدها من جنس ما قبلها، فيلزم أن يكون قرآناً، وهو محال. ويجوز جَعْلُ ﴿مِّن﴾ للابتداء بتقدير رجوع الضمير في ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ إلى ﴿عَبۡدِنَا﴾؛ أي: محمد، والمعنى: فأتوا بسورة مبتدأة من شخص مثل محمد، ذكره في «فتح الرحمن».

وقوله: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ معطوف على جواب الشرط، جمع شهيد بمعنى: الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إما متعلّقة بادعوا، فالمعنى: ادعوا متجاوزين الله من حضركم كائناً من كان، للاستظهار في معارضة القرآن، أو الحاضرين في مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم من المُلمَّات، وتعوِّلُون عليهم في المهمّات. أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم من أمثالكم المتولّين، لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة. أو القائمين بنصركم حقيقة أو زعماً من الإنس والجنّ، ليعينوكم. وقال القاضي: معنى ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غيره، وهو بهذا المعنى في جميع ما جاء في القرآن.

وإما متعلّقة بشهداءكم، والمراد بهم: الأصنام. و﴿دون﴾ بمعنى: التجاوز على أنّها ظرف مستقرّ وقع حالاً من ضمير المخاطبين، والعامل ما دلّ عليه ﴿شُهَدَآءَكُم﴾؛ أي: ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة، وزعمتم أنّهم يشهدون لكم يوم القيامة أنّكم على الحقّ، متجاوزين الله في اتخاذها كذلك.

والمعنى عليه: وادعوا آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ليساعدوكم في معارضة هذا القرآن والإتيان بمثله. ﴿إن كنتم صادقين﴾ في مقالتكم: إنّ محمّداً افتراه من عند نفسه، فإنّكم عربيون فصحاء مثله. وسميّت الآلهة شهداء؛ لزعمهم

أنّهم يشهدون لهم يوم القيامة بصحّة عبادتهم إياهم. والصدق: خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع أو الاعتقاد، أو لهما على الخلاف المذكور في علم المعاني.

ودلّت الآية: على أنّ الاستعانة بالخلق لا تغني شيئاً، وما يغني رجوع العاجز عن العاجز، فلا ترفع حوائجك إلاّ إلى من لا يشّق عليه قضاؤها، ولا تسأل إلاّ من لا تفنى خزائنه، ولا تعتمد إلاّ على من لا يعجز عن شيء ينصرك من غير معين، ويحفظك من كلّ جانب ومن غير صاحب، ويغنيك من غير مال، فيقلّ أعداد الأعداء الكثيرة إذا حماك، ويكثر عدد المال القليل إذا كفاك.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ محمداً تقوّله من تلقاء نفسه، وفي أنّ فيه مجالاً للريب، وأنّ آلهتكم شهداؤكم. شرط جوابه محذوف، تقديره: فافعلوا؛ أي: فأتوا بسورة من مثله.

وقد نزل في هذا المعنى آيات كثيرة بمكة، أوّلها: ما في سورة الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ الآية، ثمّ ما في سورة هود ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ثمّ ما في سورة يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وما جاء في هذه السورة المدنية.

فائدة: وأصل[1] معنى ﴿دُونِ﴾: أدنى مكان من الشيء، واتسع فيه حتى استعمل في تخطّي الشيء إلى شيء آخر، ومنه ما في هذه الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وله معان أخر:

منها: التقصيرُ عن الغاية والحقارة. يقال: هذا الشيء دون؛ أي: حقيرٌ، ومنه قوله:

إذا مَا عَلاَ الـمَـرْءُ رَامَ الـعُـلاَ ... ويَـقْـنَـعُ بـالـدُّون مَـنْ كـان دُوْنَـا

(١) الشوكاني.

والقرب. يقال: هذا دون ذاك؛ أي: أقرب منه، ويكون إغراءً. تقول: دونك زيداً؛ أي: خذه من أدنى مكان.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ما أُمرتم به من الإتيان بالمثل بعد ما بذلتم في السعي غاية المجهود، يعني: فيما مضى وغبر، وحضر من الزمان، والجملة فعل شرط لإن. وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾. فيما يستقبل أبداً؛ وذلك لظهور إعجاز القرآن. اعتراض بين الشرط وجوابه، وهذه الجملة المعترضة معجزة باهرة، أخبر بها القرآن قبل وقوعها، حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به سبحانه وتعالى، وقد وقع القرآن كذلك، كيف لا ولو عارضوه بشيء بداية في الجملة لتناقله الرواة خلفاً عن سلف، فلم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيّام النبوة وفيما بعدها إلى الآن. وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه. جواب الشرط.

والمعنى: أي[1] فإن لم تأتوا الآن بسورة من مثل المُنزل على محمدّ ﷺ لعجزكم عنها، ولن تقدروا على أن تأتوا بمثله في المستقبل لتحقّق عجزكم الآن ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي: فاجعلوا لأنفسكم وقاية وستراً من النار المذكورة، بتصديق هذا القرآن، ومن جاء به. وعبّر عن الإتيان بالفعل؛ لأنّ الإتيان فعل من الأفعال، ولقصد الاختصار.

والخلاصة: أي[2] وحين عجزتم عن معارضة القرآن، وعن الإتيان بمثله، لزمتكم الحجة على أنّ محمداً رسولي، والقرآن كتابي، ولزمكم تصديقه والإيمان به، وإن لم تؤمنوا صرتم من أهل النار، فاتقوها.

وفي «الكشاف»: لَصِيْقُ اتقاءِ النار، وضَمِيْمَةُ تَرْكِ العنادِ مِنْ حيثُ إنّه من نتائجه؛ لأنَّ من اتَّقى النار ترك المعاندة، فوضع ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ موضع فاتركوا العناد. اهـ.

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

وقال القاضي: إن قلت: لم عرَّف النار هنا، ونكرَّها في التحريم؟

قلت: لأنّ الخطاب في هذه السورة مع المنافقين، وهم في أسفل النار المحيطة بهم، فعرفت بلام الاستغراق، أو العهد الذهني، وفي تلك مع المؤمنين، والذين يعذّبون من عصاتهم بالنار يكونون في جزءٍ من أعلاها. فناسب تنكيرها لتقليلها. وقيل: لأنَّ تلك الآية نزلت في مكة قبل هذه، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة، فنكَّرها ثمَّ، وهذه نزلت بالمدينة، فعرفت إشارة إلى ما عرفوه أوّلاً. وردَّ هذا: بأنّ آية التحريم نزلت بالمدينة بعد هذه الآية التي هنا.

﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾ وحطبها الذي توقد به ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: العصاة من الكفار وغيرهم. وقدم الناس على الحجارة؛ لأنّهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذّبون؛ أو لكونهم أكثر إيقادٍ للنار من الجماد، لما فيهم من الجلود، واللحوم، والشحوم، والعظام، والشعور؛ أو لأنّ ذلك أعظم في التخويف، فإنّك إذا رأيت إنساناً يحرق، اقشعرَّ بَدَنُك وطاشَ لُبُّك، بخلاف الحجر. ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي:[1] حجارةُ الكبريت، وإنما جعل حطبها منها؛ لسرعة اتقادها؛ أي التهابها، وبطيء خمودها، وشدة حرها، وقبح رائحتها، ولصوقها بالبدن. أو الحجارة هي الأصنام التي عبدوها، وإنما جعل التعذيب بها؛ ليتحققوا أنهم عذبوا بعبادتها؛ وليروا ذلها ومهانتها بعد اعتقادهم عزّها وعظمتها، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، والكافر عبَد الصنم، واعتمده، ورجاه، فعُذّب به، إظهاراً لجهله وقطعاً لأمله، كأتْباع الكبراء خدموهم، ورجوهم، وفي النار يسحبون معهم؛ ليكون أشقَ عليهم وأقطع لرجائهم.

فإن قلت: أنار الجحيم كُلُّها توقد بالناس والحجارة، أم هي نيرانٌ شتَّى منها نارٌ بهذه الصفة؟

قلت: بل هي نارٌ شَتَّى منها: نار توقد بالناس والحجارة، يدلُّ على ذلك

---

(١) روح البيان.

تنكيرها في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾، وقوله سبحانه ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾. ولعل لكفّار الجنّ ولشياطينهم ناراً وقودها الشياطين، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم، جزاءً لكلٍّ جنسٍ بما يشاكله من العذاب.

وفي هذا من[1] التهويل ما لا يُقادَر قدره، من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها. ﴿أُعِدَّتۡ﴾ أي: هيِّئت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: للذين كفروا بما نزلناه على رسلنا، وجُعِلت عدّة لعذابهم. وفيه دلالة على أنّ النار مخلوقة موجودة الآن خلافاً للمعتزلة، وفيه أيضاً: دلالة على أنّ الكافرين هم المقصود بخلقها أصالة.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أنَّ ثمرة الأخذ بالقرآن والإقرار به، وبمحمد ﷺ هو النجاة من النار التي وقودها الناس والحجارة، وفيه زيادة فضل القرآن وأهله. قال البغوي عند قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ قيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة، وسمِّيت سورة؛ لأنّ القارىء ينال بقراءتها منزلةً رفيعة، حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن. اهـ.

وخلاصة معنى الآية[3]: إذا ظهر عجزكم عن المعارضة، صحَّ عندكم صدق محمد ﷺ وإذا صحَّ ذلك فاتركوا العناد، وإذا لزمتم العناد استوجبتم العقاب بالنار.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو، وهو الحطب الذي تتقد به، وقد جاء بالفتح مصدراً أيضاً. وقرأ الحسن باختلاف، ومجاهد، وطلحة، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر الهمدانيّ بضمّ الواو، وهو مصدر بمعنى: التوقد، وهو حينئذٍ على حذف مضاف؛ أي: ذو وُقودها، لأنّ الناس والحجارة ليسا نفس الاتقاد،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

أو على أن جُعِلُوا نَفْسَ الوُقود مبالغةً. وقرأ عبيد بن عمير ﴿وَقِيْدُها﴾ على وزن فَعِيل، وهو بمعنى: الحطب، كقراءة الجمهور.

وعبارة المراغي هنا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآية، والنار[1] موطن العذاب، ونحن نؤمن بها كما أخبر القرآن، ولا نبحث عن حقيقتها، والوَقود بفتح الواو: ما توقد به النار، والمراد بالناس: العصاة، والمراد بالحجارة هنا: الأصنام، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: هيّئت للذين لا يستجيبون دعوة الرسل، أو ينحرفون عنها لمخالفتهم هدي الدين، وعمل ما تنكره شرائع الأنبياء والمرسلين من الخرافات والبدع.

والخلاصة: فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتم المجهود ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ فليس في استطاعتكم، فاحذروا من العناد، واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله تعالى، لئلاّ تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدّت لأمثالكم من الكافرين. اهـ.

ولمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الكافرين، عقَّبه بجزاء المؤمنين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز؛ لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الخ. وقال ابن كثير:[2] لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى، ما أعدَّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين بالله وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصحّ أقوال العلماء، وهو أن يذكر الإيمان، ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء، ثمّ الأشقياء أو عكسه. وحاصله: أنّه ذكر الشيء ومقابله. انتهى.

---

(١) المراغي.

(٢) ابن كثير.

والبشارة: الخبر السارُّ الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، والتبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظاهرة من البشر والسرور. والمأمور بالتبشير هنا، قيل: هو النبي ﷺ. وقيل: هو كل أحد ممن يتأتّى منه التبشير، كما في قوله ﷺ: «بَشِّر المشَّائين إلى المساجد في ظلم الليالي، بالنور التامّ يوم القيامة»، فإنّه ﷺ لم يأمر بذلك واحداً بعينه، بل كلَّ أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه ذلك، كالعلماء وولاة الأمور. والأمر على الأول للوجوب؛ لأنّ البشارة من جملة ما أمر بتبليغه.

أي: فرِّح يا محمد قلوب الذين آمنوا، وصدّقوا بأنّ القرآن منزل من عند الله تعالى، وبجميع ما أرسلتَ به. ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ من الفرائض والنوافل، جمع صالحة؛ أي: وعملوا الفعلات الصالحات، وهي كلّ ما كان لله تعالى. وفي عطف[1] العمل على الإيمان، دلالة على تغايرهما، وإشعار بأنّ مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين، فإنّ الإيمان أساس، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأساسٍ لا بناء عليه. وطلب الجنة بلا عمل حال السفهاء؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى، جعل العمل سبباً لدخول الجنة، والعبد وإن كان يدخله الله الجنة بمجرَّد الإيمان، لكن العمل يزيد نور الإيمان، وبه يتنوَّر قلب المؤمن، وكم من عقبةٍ كؤودٍ تستقبل العبد إلى أن يصل إلى الجنة، وأوَّل تلك العقبات عقبة الإيمان، أنّه هل يسلم من السلب أم لا؟ فلزم العمل لتسهيل العقبات.

أي: أخبر يا محمد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بشارةً بـ ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق وبساتين ذات أشجار مثمرة، ومساكن مزيَّنة. والجنة: ما فيه النخيل، والفردوس: ما فيه الكرم، كذا قال الفراء. ولفرط التفاف أغصان أشجارها، وتستّرها بالأشجار سمِّيت جنةً، كأنّها سترة واحدة، لأنّ الجنة بناء مرّةٍ. وإنّما سميت دار الثواب بها مع أنّ فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور؛ لما أنّها مناط نعيمها ومعظم ملاذّها.

---

(١) روح البيان.

فإن قلت: ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟

قلت: الجنة اسم لدار الثواب كلّها، وهي مشتملة على جنّات كثيرة مرتّبة مراتب على استحقاقات العاملين، لكلّ طبقةٍ منهم جنة من تلك الجنات.

والمراد بالجنة هنا[1]: دار الخلود في الحياة الآخرة، أعدّها الله للمتقين، كما أعدّ النار للكافرين، ونحن نؤمن بهما ولا نبحث عن حقيقتهما. ثمّ[2] الجنان ثمان: دار الجلال كلّها من نور مدائنها، وقصورها، وبيوتها، وأوانيها، وشُرُفها وأبوابها، ودرجها، وغرفها، وأعاليها، وأسافلها، وخيامها، وحليها، وكلٌّ ما فيها. ودار القرار كلّها من المرجان، ودار السلام كلّها من الياقوت الأحمر، وجنة عدن من الزبرجد كلُّها، وهي قصبة الجنة، وهي مشرفة على الجنان كلّها، وجنة المأوى من الذهب الأحمر كلّها، وجنَّة الخلد من الفضّة كلّها، وجنة الفردوس من اللؤلؤ كلّها، وجنة النعيم من الزمردّ كلّها، كذا قالوا، والله أعلم.

وجملة قوله: ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ومساكنها على ظهر الأرض من غير حفيرة. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة المذكورة في (سورة محمد)؛ أي: المياه المعهودة في الجنة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية. وهي أنهار الخمر، واللبن، والعسل، والماء. صفةٌ لقوله: ﴿جَنَّـٰتٍ﴾.

والأنهار جمع نهر بفتح الهاء وسكونها وهو[3] المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل وهو نهر مصر، والمراد بها: الماء الجاري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهلها، وكما قال الشاعر:

ونـبِّـئْـتُ أنَّ الـنَّـار بـعَـدك أُوقِـدَتْ واسْـتَـبَّ بَـعْـدَكَ يَـا كُـلَـيْـبُ الـمَـجْـلِـسُ

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

والضمير في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ عائد إلى الجنات، ولكنه على تقدير مضاف؛ لاشتمالها على الأشجار؛ أي: من تحت أشجارها، كما مرّ آنفاً.

فإن قلت[1]: كيف جَرْيُ الأنهار من تحتها؟

قلت: كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية. وعن مسروق: أنَّ أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وهو الشقُّ من الأرض بالاستطالة، وأنزه البساتين، وأكرمها منظراً، ما كانت أشجاره مظللةً، والأنهار في خلالها مطّردةً. ولولا أنَّ الماء الجاري من النعمة العظمى، وأنَّ الرياض وإن كانت أحسن شيء، لا تجلب النشاط حتى يجري فيها الماء، وإلاّ كان السرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا أرواح لها، وصوراً لا حياة لها، لَمَا جاء الله بذكر الجنات ألبتة مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها.

وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ وصفٌ[2] آخر للجنات، أو هو جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنَّ سائلاً قال: كيف ثمارها؟. و﴿كُلَّمَا﴾ ظرف زمان ضُمِّن معنى الشرط؛ أي: متى أطعموا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾؛ أي: من أيّ ثمرةٍ من أنواع ثمراتها. وليس المراد بالثمرة[3]: التفاحة الواحدة أو الرُّمَّانة الفَذَّة، وإنما المراد: نوعٌ من أنواع الثمرات. و﴿مِن﴾ الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية، لأنَّ الرزق قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنّات قد ابتدىء من ثمرة. ﴿رِّزْقًا﴾ مفعول رزقوا. والرزق: ما ينتفع به الحيوان طعاماً. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أصحاب الجنة للملائكة والولدان: ﴿هَٰذَا﴾ الطعام الذي أتيتمونا به هو ﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ به ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مثل الطعام الذي رزقنا به من قبل هذا في الدنيا، ولكن لمَّا استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته.

وإنَّما[4] جعل ثمر الجنة كثمر الدنيا؛ لتميل النفس إليه حين تراه، فإنَّ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) روح البيان.

الطباع مائلةٌ إلى المألوف، متنفرةٌ عن غير المعروف؛ وليتبيَّن لها مزيّةٌ، إذ لو كان جنساً غير معهود، لظن أنّه لا يكون إلاّ كذلك وإن كان فائقاً، فحين أبصروا الرمَّانة من رمّان الدنيا ومبلغها في الحجم، وأنَّ الكبرى لا تفضل عن حدِّ البطيخة الصغيرة، ثمّ يبصرون رمّانة الجنة، وهي تشبع السكن ـ أي: أهل الدار ـ كان ذلك أبين للفضل، وأجلب للسرور، وأزيد في التعجّب من أن يفاجئوا ذلك الرمّان من غير عهدٍ سابقٍ بجنسه. وعموم ﴿كُلَّمَا﴾ يدلُّ على ترديدهم هذه المقالة، كُلَّ مرةٍ رزقوا فيما عدا المرّة الأولى، يظهرون بذلك التبجُّح وفرط الاستغراب، لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذَّة، مع اتحادهما في الشكل واللون، كأنّهم قالوا: هذا عين ما رزقناه في الدنيا، فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب.

ولا يقدح فيه ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (أنّه ليس في الجنّة من أطعمة الدنيا إلاّ الاسم)، فإنّ ذلك، لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذّة، والحسن، والهيئة، لا لبيان أن لا تشابه بينهما أصلاً، كيف لا وإطلاق الأسماء منوطٌ بالاتحاد النوعي قطعاً.

وجملة قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ﴾ حال من فاعل قالوا؛ أي: قالوا ذلك والحال أنّهم أتوا به، أي: جيئوا بذلك الرزق، أو المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً. والضمير عائد إلى ما دلّ عليه فحوى الكلام، مما رُزِقوا في الدارين حال كون ما أتوا به وأعطوه في الدارين. ﴿مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ بعضه بعضاً في اللون والجودة، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك أجود وألذَّ، يعني: لا يكون فيه رديءٌ، فقوله: ﴿مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ حالٌ من ضمير ﴿بِهِۦ﴾.

وقيل المعنى:[1] كلّما رزقوا من الجنة رزقاً من بعض ثمارها قالوا: هذا الذي وعدنا به في الدنيا جزاءً على الإيمان، وصالح الأعمال، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ

---

(١) المراغي.

حَيْثُ نَشَآءُ﴾. ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: إنّ رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته، ويختلف في طعمه ولذته.

وقيل المعنى:[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ وأعطوا، واطعموا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك الجنات ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾؛ أي: عطاءً وطعاماً من ثمرةٍ من ثمارها. ﴿قَالُوا﴾ للملائكة والولدان: ﴿هَٰذَا﴾ الطعام الذي أتيتمونا به في هذه المرّة، مثل الطعام. ﴿الَّذِي رُزِقْنَا﴾ وأعطينا به ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه المرّة في الجنة؛ أي: مثله في الشكل واللون، فتقول الملائكة: كل يا عبد الله، فاللون واحد، والطعم مختلف. ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: والحال أنّهم أعطوا بذلك الطعام، حال كونه متشابهاً بعضه بعضاً في اللون والمنظر دون الطعم؛ أي: تأتيهم الملائكة والولدان برزق الجنة متشابهاً بعضه بعضاً في اللون مختلفاً في الطعم.

وقرأ الجمهور ﴿وَأُتُوا بِهِۦ﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل للعلم به، وهو الخدم والولدان، يُبيِّن ذلك قراءة هارون الأعور، والعتكي ﴿وأَتَوْا به﴾ على البناء للفاعل، ذكره في «البحر».

وروى مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة يأكلون، ويشربون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتمخّطون، ولا يبزقون، ويلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النَّفَس طعامهم جشاء، ورشحهم كرشح المسك. وفي رواية: ورشحهم المسك. وعن مسروق: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها؛ أي: منضودٌ بعضها على بعض؛ أي: متراكبٌ ومجتمع ليس كأشجار الدنيا متفرّقةٌ أغصانها وثمرتها أمثال القلال، كلّما نزعت ثمرةٌ عادت مكانها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعاً، ولو اجتمع الخلائق على عنقود لأشبعهم. وجاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ ـ فقال: يا أبا القاسم! تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون، فقال: «نعم والذي نفس محمد بيده، إنَّ أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل، والشرب، والجماع»، قال: فإنّ الذي يأكل له

---

(١) العمدة.

حاجة، والجنة طيّبة ليس فيها أذًى، قال عليه السلام: «حاجةُ أحدهم عرقٌ كريح المسك».

وجملة قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾؛ أي: في الجنة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: نساءٌ وحور. معطوفة على جملة قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾. على كونها صفة لجنات؛ أي: وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بأنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وجنات لهم فيها أزواج. ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾؛ أي:[1] مهذَّبة منقَّاة من الأحوال المستقذرة، كالحيض، والنفاس، والبول، والغائط، والمنيّ، والمُخاط، والبلغم، والورم، والدَّرَن، والصُّداع، وسائر الأوجاع، والولادة، ودنس الطبع، وسوء الخلق، وميل الطبع إلى غير الأزواج، وغير ذلك.

وقوله: ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة ومتطهرة؛ للإشعار بأنَّ مطَهِّراً طَهَّرهُنَّ، وما هو إلاّ الله سبحانه وتعالى. وقرأ الجمهور[2] ﴿مُّطَهَّـرَةٌ﴾ صفة للأزواج، مَبْنِيَّةٌ على طَهُرت كالواحدة المؤنثة. وقرأ زيد بن علي ﴿مُطهَّرات﴾ فجمع بالألف والتاء على معنى: طُهِّرن. قال الزمخشري: وهما لغتان فصيحتان. يقال: النساء فعلن وهنّ فاعلات، والنساء فعلت وهي فاعلةٌ. وقرأ عبيد بن عمير ﴿مُطَّهِّرة﴾ بتشديد الطاء المفتوحة وتشديد الهاء المكسورة. أصله: متطهرة، وهي مناسبة لقراءة الجمهور. قال الحسن: هنَّ عجائزكم العُمْصُ العُمْشُ طُهِّرن من قاذورات الدنيا. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (خلق الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب؛ أي: الأبيض، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور، إذ أقبلت يتلألأ نور وجهها، كما يتلألأ نور الشمس لأهل الدنيا).

وجملة قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ حال من ضمير لهم؛ أي: ولهم فيها أزواج مطهّرة خالصة من الأدناس الحسية والمعنوية، حالة كونهم خالدين في تلك

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الجنات ماكثين فيها أحياء أبداً، لا يموتون، ولا يخرجون منها؛ لأنّ من تمام النعمة عليهم الخلود فيها.

قال عكرمة:[1] أهل الجنة ولد ثلاثٍ وثلاثين سنة، رجالهم ونساؤهم، وقامتهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم، شبابٌ جردٌ مرْدٌ، مكحلون، عليهم سبعون حُلَّة، تتلوَّنُ كُلُّ حلة في كلِّ ساعة سبعين لوناً، لا يَبْزقون، ولا يتمخّطون، وما كان فوق ذلك من الأذى، فهو أبعد، يزدادون كلّ يوم جمالاً وحسناً، كما يزداد أهل الدنيا هرماً وضعفاً، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم.

واعلم: أنَّ معظم اللذات الحسيَّة، لما كان مقصوراً على المساكن، والمطاعم، والمناكح حسبما يقضي به الإستقراء، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات، إذ كلُّ نعمة وإن جلَّت حيث كانت في شرف الزوال، ومعرض الاضمحلال، فإنّها منغَّصة غير صافية من شوائب الألم، بشَّر المؤمنين بها وبدوامها تكميلاً للبهجة والسرور، ولذلك قيل:

أشدُّ الغَمِّ عندي في سرورٍ تيقَّنَ عنه صاحبه انتقالا

واعلم[2]: أنّ صحبة الأزواج في الآخرة من الأمور الغيبية التي نؤمن بها، كما أخبر الله تعالى، ولا نبحث فيما وراء ذلك، فأطوار الآخرة أعلى مما في حياتنا الدنيا، فهي سالمة من المنغِّصات في الطعام، والشراب، والمباشرة الزوجيَّة، كما أخبره النبي ﷺ في حديث مسلم السابق.

وقد ورد في الحديث الصحيح[3]، ما يدلُّ على كثرة الأزواج من الحور وغيرهنّ، وأريد بالأزواج هنا القرناء من النساء اللاتي تختصُّ بالرجل، لا يشركه فيها غيره، فمعنى تطهيرهنّ: (إن كُنَّ من الحور، كما روي عن عبد الله: خَلَقَهنّ على الطهارة لم يعلق بهنّ دنسٌ ذاتيٌّ ولا خارجيٌّ) (وإن كُنَّ من بني آدم، كما روي عن الحسن: تطهيرُهنّ من الأدناس الَّتِي كانت بها في الدنيا، ذاتِيَّةً كانت

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

كالحَيْضِ، والنفاسِ، والبول، والغائط، أو عرضيَّةً، كالبَخَرِ، والصُّنان، والقيح، والصديد، أو معنويَّةً كالغضب، والحقد، والحدَّةِ، والكيدِ، والمكرِ، والميل إلى غير الأزواج).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾. الخ. أنزل الله سبحانه هذه الآية ردّاً على الكفار، لمَّا أنكروا ما ضربه من الأمثال، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾. وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فقالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال. وقال الحسن وقتادة: لمَّا ذكر الله سبحانه الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية، كما مَرَّ في الأسباب بسطه.

والظاهر[1] ما ذكرناه أوّلاً؛ لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك، لكونه قادحاً في الفصاحة والإعجاز.

والحياء: تغيّر وانكسار، يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذمّ، كذا في «الكشاف»، وتبعه الرازي في «مفاتيح الغيب». وقال القرطبي: أصل الاستحياء: الانقباض عن الشيء، والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محال على الله تعالى. وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياء، فقيل: ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكي عن الكفّار، وقيل: هو من باب المشاكلة، وقيل: هو جار على سبيل التمثيل. قال في «الكشاف»: مثَّل تركه تخييب العبد، وأنّه لا يردُّ يديه صِفْراً من عطائه لكرمه، بترك مَن يترك ردَّ المحتاج إليه حياءً منه. اهـ.

والمعنى: أنّ الله لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحيي أن يمثل بها لحقارتها. وما[2] الأمثال إلاّ إبرازٌ للمعاني المقصودة في قالب الأشياء

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

المحسوسة، لتأنس بها النفس، وتستنزل الوهم عن معارضة العقل. والحكيم علام الغيوب، يعلم حكمة هذا، فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة، وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك.

والناس إزاء هذا فريقان: مؤمنون يقولون: إنّ الله خالق الأشياء حقيرها وعظيمها، فالكلّ لديه سواء، وكافرون يستهزؤن بالأمثال احتقاراً لها، فحقت عليهم كلمة ربّهم، فأصبحوا من الخاسرين.

فمحلّ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾؛ أي: يذكر. نصب[1] على المفعولية؛ أي: إنّ الله لا يترك أن يذكر مثلاً وشبهاً لآلهتهم، وما في قوله: ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾ اسمية إبهامية؛ أي: موجبة لإبهام ما دخلت عليه؛ أي: تزيد ما تقارنه من الاسم المنكَّر إبهاماً وشيوعاً، حتى يكون أعمّ مما كان عليه أوّلاً، وأكثر شيوعاً في أفراده، فكأنّه قيل: يضرب مثلاً ما من الأمثال أيَّ مثل كان، فهي في موضع نصب، صفة لِمَا قَبْلَها، و﴿بَعُوضَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾. ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ معطوف على بعوضة؛ أي: إنّ الله لا يترك أن يذكر مثلاً وشبهاً لآلهتهم أيَّ مثل كان، ولا يترك أن يذكر بعوضةً، فيذكر الذي هو أزيد منها في الكبر، كالذباب والعنكبوت، أو يذكر ما دونها في الصغر، كالذرّة، وجناح بعوضة. قيل: إنّه من الأضداد، ويطلق على الأعلى والأدنى. وقيل: أن يضرب بمعنى: يجعل، فتكون. ﴿بَعُوضَةً﴾ المفعول الثاني، كما سيأتي.

فإن قلت[2]: مثَّل الله آلهتهم ببيت العنكبوت وبالذباب، فأين تمثيلها بالبعوضة فما دونها؟

قلت: في هذه الآية كأنّه قال: إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مَثَل آلهتكم بالبعوضة فما دونها، فما ظنَّكم بالعنكبوت والذباب؟.

والبعوضة: فعولة من بَعَضَ إذا قطع. يقال: بعض وبضع بمعنًى، والبعوض: الناموس، والواحدة: بعوضة. قال الربيعُ بن أنس: ضرْبُ المثل

---

(1) روح البيان. (2) روح البيان.

بالبعوضة عبرةً لأهل الدنيا، فإنّ البعوضة تَحْيَا ما جاعَتْ، وتموت إذا شبعت، فكذا صاحب الدنيا، إذا استغنى طغا، وأحاط به الردى. وقال الإمام أبو منصور: الأُعجوبة في الدلالة على وحدانية الله تعالى، في الخلق الصغير الجُثَّةِ والجسمِ، أكثر منها في الكبار العظام؛ لأنَّ الخلائق لو اجتمعوا على تصوير صورة من نحو البعوض والذباب، وتركيب ما يَحْتَاج من الفم، والأنف، والعين، والرجل، واليد، والمدخل، والمخرج ما قدروا عليه، ولعلَّهم يقدرون على تصوير العظام من الأجسام الكبار منها، فالبعوضة أعطيت على قدر حجمها الحقير، كلَّ آلةٍ وعضوٍ أعطيه الفيل الكبير القويُّ.

قال بعضهم:[1] إنّ الله تعالى قوَّى قلوب ضعفاء الناس بذكر ضعفاء الأجناس، وعرَّف الخلق قدرته في خلق الضعفاء على هيئات الأقوياء، فإنَّ البعوض على صغره بهيئة الفيل على كبره، وفي البعوض زيادة جناحين، فلا يستبعد من كرمه، أن يعطي على قليل العمل ما يعطي على كثير العمل من الخلق، كما أعطَىٰ صغير الجثة ما أعطَىٰ كبير الجثة من الخلقة، ومن العجب أنَّ هذا الصغير يؤذي هذا الكبير، فلا يمتنع منه.

ومن لطف الله تعالى: أنّه خلق الأسد بغاية القوة، والبعوض والذباب بغاية الضعف، ثمّ أعطى البعوض والذباب جراءةً أظهرها في طيرانهما في وجوه الناس، وتماديهما في ذلك مع مبالغة الناس في ذبّهما بالمِذَبَّة، وركَّب الجُبْن في الأسد، وأظهر ذلك بتباعده عن مساكن الناس وطرقهم، ولو تجاسر الأسد تجاسُرَ الذبابِ والبعوضِ لهلك الناس. فمنَّ اللَّهُ تعالى، وجَعَل في الضعيف التجاسر، وفي القوي الجبن، ومن العجب عجزك عن هذا الضعيف، وقدرتك على ذلك الكبير.

وتقدَّم لك أنّ المراد بالبعوض هنا: الناموس، وهو من عجيب خلق الله تعالى، فإنّه في غاية الصغر، وله ستّة أرجل، وأربعة أجنحة، وذنبٌ، وخرطوم

---

(١) روح البيان.

مجوَّف، وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل، والجاموس، والجمل، فيبلغ منه الغاية حتى إنَّ الجمل يموت من قرصته.

قال القشيري ـ رحمه الله تعالى ـ[1]: الخلق في التحقيق بالإضافة إلى قدرة الخالق، أقلُّ من ذرّةٍ من الهباء في الهواء، وسيّان في قدرته العرش والبعوضة، فلا خَلْقُ العرش عليه أعسر، ولا خلق البعوضة عليه أيسر، سبحانه وتقدّس عن لحوق العسر واليسر. انتهى.

أي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ ولا يترك ﴿أَن يَضْرِبَ﴾ ويذكر، ويبيِّن للخلق ﴿مَثَلًا مَّا﴾؛ أي: شبهاً ما أيَّ مثلٍ كان ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾؛ أي: فوق البعوضة في الذات والكبر، كالذباب والعنكبوت، أو فوقها في الغرض المقصود من التمثيل، كجناح البعوضة، أو دونها في الذات، كالذرة صغار النمل، وكيف يستحيي الله سبحانه من ذكر شيء، لو اجتمع الخلائق كلُّهم على تخليقه ما قدروا عليه.

والمعنى: أنَّ الله تعالى، لا يترك ضرب المثل ببعوضة فما فوقها، إذا علم أنَّ فيه عبرةً لمن اعتبر، وحجةً على من جحد. والخلاصة: أي: إنّ الله جلّت قدرته، لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها، لأنّه هو الخالق لكلّ شيء جليلاً كان أو حقيراً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ بياءين، والماضي استحيا، وهي لغة أهل الحجاز، واستفعل هنا جاء للإغناء عن الثلاثي المجرد، كاستنكف، واستأثر، واستبدَّ، واستعبر، وهو من المعاني التي جاء لها استفعل. قال الزمخشري: يقال: حيي الرجل من الحياء، كما يقال: نسي، وخشي، فيكون استحيا على ذلك موافقاً للمجرّد. وقرأ ابن كثير في رواية شِبْلٍ، وابنِ مُحَيْصنٍ، ويعقوب ﴿يَسْتَحِي﴾ بياء واحدة، وهي لغة بني تميم، وبكر بن وائل، يُجْرُونَها مُجرَى

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

يَسْتَبي، قال الشاعر:

ألا تَسْتَحِي مِنَّا ملوكٌ وتَتَّقِي مَحارِمَنا لا يَبُوءُ الدَّمُ بالدَمِ

والماضي اسْتَحىٰ، قال الشاعر:

إذا ما اسْتَحَيْنَ المَاء يُعْرِضُ نَفْسَه كَرَعْنَ بِسِبْتٍ فِي إِنَاءٍ مِن الوَرْدِ

وأصله: ﴿يَسْتَحْيِي﴾ بياءين، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء، فسكنت، ثمّ استثقلت الضمة على الثانية، فسكنت، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين. واختلف النحاة في المحذوفة، فقيل: لام الكلمة، فالوزن: يستفع، فنقلت حركة العين إلى الفاء وسكنت العين، فصارت يستفع. وقيل: المحذوف العين، فالوزن: يستفِلْ، ثمّ نقلت حركة اللام إلى الفاء وسكنت اللام، فصارت يستفل، وأكثر نصوص الأئمّة على أنَّ المحذوف هو العين.

وقرأ الجمهور[1]: بنصب ﴿بَعُوضَةً﴾، واختلف في توجيه النصب على أوجه:

أحدهما: أن تكون صفة لـ﴿مَّا﴾، إذا جعلنا ﴿مَّا﴾ بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ﴿يَضْرِبَ﴾.

والثاني: أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ عطف بيان، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ﴿يَضْرِبَ﴾.

والثالث: أن تكون بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾.

والرابع: أن تكون مفعولاً لـ ﴿يَضْرِبَ﴾، وانتصب ﴿مَثَلًا﴾ حالاً من النكرة مقدَّمةً عليها.

والخامس: أن تكون مفعولاً لـ ﴿يَضْرِبَ﴾ ثانياً، والأول هو ﴿مَثَلًا﴾ على أنّ ﴿يَضْرِبَ﴾ بمعنى يجعل يتعدّى لاثنين.

والسادس: أن تكون مفعولاً أوّل لـ ﴿يَضْرِبَ﴾، و﴿مَثَلًا﴾ المفعول الثاني.

والسابع: أن تكون منصوباً على تقدير إسقاط الجار، والمعنى: أن يضرب

---

(١) البحر المحيط.

مثلاً ما بين بعوضة فما فوقها، نظير قولهم: له عشرون ما ناقةً فجملاً.

وقرأ الضحاك[١]، وإبراهيم بن أبي عبلة، ورؤبة بن العجاج، وقطرب ﴿بَعُوضَةٌ﴾ بالرفع، وهي لغة تميم. قال أبو الفتح: وجه ذلك: أنّ ﴿مَا﴾ اسم بمنزلة الذي و﴿بَعُوضَةٌ﴾ رفع على إضمار المبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية في محلّ الرفع بالابتداء، و﴿بَعُوضَةٌ﴾ وما بعدها خبرها، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدّقوا بالقرآن، وبما جاء به محمد ﷺ، وهو محمد وأصحابه. والفاء؛ للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها، كأنّه قيل: فيضربه فأما الذين آمنوا ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾؛ أي: أنّ ضرب المثل بالبعوضة والذباب هو الأمر ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره حال كونه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا من محمد، فلا يسوغ إنكاره؛ لأنّه ليس عبثاً، بل هو مشتمل على الحِكَم والفوائد، فيؤمنون به. والجار والمجرور[٢] حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أو من الضمير العائد إلى المثل؛ أي: كائناً منه تعالى، فيتفكرون في هذا المثل الحقّ، ويوقنون أنّ الله هو خالق الكبير والصغير، وكلّ ذلك في قدرته سواء، فيؤمنون به.

والمعنى: أي[٣] فالمؤمنون يقولون: ما ضرب الله هذا المثل إلاّ لحكم ومصالح اقتضت ضربه لها، وهي تقرير الحقّ، والأخذ به، فهو إنّما يضرب لإيضاح المبهم بجعل المعقولات تلبس ثوب المحسوسات، أو تفصيل المجمل لبسطه وإيضاحه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا بما جاء به محمد ﷺ وهم اليهود والمشركون، ﴿فَـ﴾ يتعجّبون من ذلك المثل، و﴿يقولون﴾ إنكاراً له: ﴿مَاذَآ﴾؛

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أي: أيّ شيء، أو ما الغرض الذي ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهَٰذَا﴾ المثل الخسيس الذي هو التمثيل بالأشياء الحقيرة من البعوضة والذباب. وفي كلمة (هذا) تحقير للمشار إليه، واسترذال له. ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: من جهة كونه مثلاً من الأمثال، فهو تمييز ذات من اسم الإشارة؛ أي: أيّ فائدة وأيّ غرض في ضرب المثل بهذه الأشياء الخسيسة؟ فليس من الله، بل افتراء من محمّد.

قال في «الروح»[1]: الأصل: ماذا أراد الله بهذا المثل؟ فلما حذف الألف واللام نصب على الحال؛ أي: ماذا أراد الله بهذا حال كونه مُمَثَّلاً به، أو على التمييز؛ أي: من جهة كونه مثلاً.

والمعنى[2]: وأمّا الذين كفروا، وهم اليهود والمشركون، وكانوا يجادلون بعد أن استبانت الحجة، وحَصْحَصَ الحقُّ، ويقولون: ماذا أراد الله بهذه المُثُل الحقيرة التي فيها الذباب والعنكبوت، ولو أنصفوا لعرفوا وجه الحكمة في ذلك، وما أعرضوا، وانصرفوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

فأجابهم الله تعالى، ردّاً عليهم بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾؛ أي: يَخْذِلُ بهذا المثل والإضلال: هو الصرف عن الحقّ إلى الباطل، وإسناد الإضلال؛ أي: خلْقُ الضلال إليه سبحانه، مبنيٌّ على أنَّ جميع الأشياء مخلوقةٌ له تعالى، وإن كانت أفعال العباد مستندةً إليهم من حيث الكسبِ؛ أي: أراد الله بهذا المثل أن يضلّ به ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الكفر والنفاق؛ وذلك. لأنّهم ينكرونه، ويكذّبونه، فيزيدون بإنكاره ضلالاً على ضلالهم الأول. ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا المثل ﴿كَثِيرًا﴾ من أهل الإيمان والإخلاص؛ لأنّهم يعرفون، ويصدّقون به، فيزيدون به إيماناً على إيمانهم. يعني:[3] يضلّ به مَن علم منهم أنّه يختار الضلالة، ويهدي به من علم أنّه يختار الهدى.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

والمعنى: أي[1] إنّ مَن غلب عليهم الجهل إذا سمعوه كابروا، وعاندوا، وقابلوه بالإنكار، فكان ذلك سبباً في ضلالهم، ومَن عادتهم الإنصاف، والنظر بثاقب الفكر إذا سمعوه اهتدوا به؛ لأنّهم يقدِّرون الأشياء بحسب فائدتها. ومن المعلوم: أنَّ أنفع الكلام ما تجلَّت به الحقائق، واهتدى به السامع إلى سواء السبيل، وأجلُّه في ذلك الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، والعالمون: هم المؤمنون المهتدون بهدي الحقّ.

وقد جعل الله سبحانه، المهتدين في الكثرة كالضالين مع أنَّ هؤلاء أكثر، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. إشارةً إلى أنَّ المؤمنين المهتدين على قلَّتهم، أكثر نفعاً وأجل فائدة من أولئك الكفرة الفاسقين، وما أحسن قول بعضهم:

إنَّ الكِرام كَثِيرٌ في البِلاد وإنْ قَلُّوا كما غَيْرهم قلٌّ وإنْ كَثُرُوا

وفي «الروح»: فإن قلت:[2] لِمَ وُصف المهديُّون بالكثرة والقلَّة صفتهم؟

قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلّة إنّما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال، وأيضاً: فإنّ القليل من المهديّين كثيرٌ في الحقيقة، وإن قلُّوا في الصورة؛ لأنَّ هؤلاء على الحقّ، وهم على الباطل. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (السواد الأعظم هو الواحد على الحقّ).

ثمّ أكمل الجواب، وزاد في البيان، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ الله سبحانه ﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بهذا المثل؛ أي: لا يخذل، ولا يذلّ بهذا المثل وتكذيبه ﴿إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾؛ أي: إلاّ الخارجين عن حدّ الإيمان والإخلاص إلى الكفر والنفاق، كاليهود والمنافقين.

أي:[3] وما يُضِلّ بضرب المثل إلاّ الذين خرجوا عن سنّة الله في خلقه،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وعمّا هداهم إليه بالعقل، والمشاعر، والكتب المنزلة على من أوتوها. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ علّة إضلالهم، ما كانوا عليه من الخروج عن السنن الكونية التي جعلها عبرة لمن تذكّر، فقد انصرفت أنظارهم عن التدبّر في حكمة المثل إلى حقارة المُمَثَّل به، حتى رسخت به جهالتهم، وازدادت ضلالتهم، فأنكروه.

والفسق في اللغة[1]: الخروج، وفي الشرع: الخروج عن طاعة الله بارتكاب الكبيرة التي من جملتها الإصرار على الصغيرة، وله طبقات ثلاثٌ:

الأولى: التغابي، وهو ارتكابها أحياناً مستقبحاً لها.

والثانية: الانهماك في تعاطيها.

والثالثة: المثابرة عليها مع جحود قبحها، وهذه الطبقة من مراتب الكفر، فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن، لاتصافه بالتصديق الذي يدور عليه الإيمان.

ثُمَّ زاد في ذمّ الفاسقين بذكر أوصاف مستقبحة لهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: يخالفون، ويتركون أمر الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: من بعد توثيق ذلك العهد، وتوكيده بالقبول. فالضمير للعهد، أو من بعد توثيق الله سبحانه ذلك العهد، بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فالضمير إلى الله. فالمراد بالميثاق هنا: نفس المصدر لا نفس العهد.

أي: الذين يخالفون أمر الله ووصيّته في الكتب المتقدمة، بالإيمان بمحمد ﷺ من بعد ميثاقه وتوكيده عليهم، وإيجاب وفائه عليهم المذكور في آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ الآية.

وقيل[2]: المراد بالعهد: هو الحجة القائمة على عباده الدالّة على وجوب

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

وجوده ووحدانيته، وعلى وجوب صدق رسله. فالمعنى: الذين ينقضون كلّ عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع.

قيل[1]: عهد الله ثلاثة:

الأول: ما أخذه على ذرّيّة آدم ـ عليه السلام ـ بأنّ يقرّوا بربوبيته تعالى.

والثاني: ما أخذه على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أن أقيموا الدين، ولا تتفرّقوا فيه.

والثالث: ما أخذه على العلماء بأن يبيّنوا الحقّ، ولا يكتموه.

والنقض: الفسخ، وفكّ التركيب.

فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين.

وعبارة المراغي هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾؛ أي:[2] الذين يستعملون المواهب التي خلقها الله لعباده من عقل، ومشاعر، وحواس ترشدهم إلى النظر والاعتبار في غير ما خلقت له، حتى كأنّهم فقدوها، كما قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

وهذا العهد الذي نقضوه هو العهد الفطريُّ، وهناك عهد آخر جاءت به الشرائع، وهو العهد الدينيّ، وقد وثّق الله الأول بجعل العقول قابلة لإدراك السنن الإلٰهيّة التي في الكون، كما وثّق الثاني، بما أيّد به الأنبياء من الحجج والبراهين الدالة على صدقهم، فمن أنكر بعثة الرسل، ولم يهتد بهديهم، فهو ناقض لعهد الله، فاسق عن سننه في إبلاغ القوى البشريَّة والنفسيّة حدَّ الكمال الإنسانيِّ الممكن لها.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُضِلُّ﴾ بضمّ الياء وكسر الضاد من (أضلّ) الرباعيّ المبني للفاعل في المواضع الثلاثة، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى. وقرأ زيد بن علـــيّ ﴿يُضَلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيُهْدَى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضَلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فـــي الثلاثة على البناء للمفعول. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة في الثلاثة على البناء للفاعل الظاهر مفتوح حرف المضارعة. وروي عن ابن مسعود: أنّه قرأ ﴿يضلّ﴾ بضمّ الياء في الأول، ﴿وما يَضلّ به﴾ بفتح الياء، و﴿الفاسقون﴾ بالواو، وكذا أيضاً: في القراءتين السابقتين، وهي قراءات متجهة في أنّها مخالفة للمصحف المجمع عليه.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ محلُّ ﴿أَن يُوصَلَ﴾ الجرّ على أنّه بدل من الهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾ العائد إلى ﴿مَآ﴾ الموصولة؛ أي:[2] يقطعون ما أمر الله بوصله، من الأرحام والقرابات الدينية والنسبية. وذلك أنّ قريشاً قطعوا رحم النبي ﷺ بالمعاداة، والله أمرهم أن يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين، فهم انقطعوا عن المؤمنين، واتصلوا بالكفّار. فلفظ[3] القطع عامّ في كلّ قطيعة لا يرضى الله بها، كقطع الرحم، وقطع موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب السماوية في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شرّ، فإنّه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد، من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كلّ وصل وفصل.

وفي الحديث: «إذا أظهر الناس العلم، وضيّعوا العمل به، وتحابّوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام لعنهم الله عند ذلك، فأصمّهم وأعمى أبصارهم». وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: «ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم القيامة: امرأة مات عنها زوجها، وترك عليها يتامى صغاراً، فخُطِبت فلم تتزوج، وقالت:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

أقوم على أيتامي حتى يغنيهم الله تعالى أو يميت ـ يعني: اليتيم أو هي ـ، ورجلٌ له مال صنع طعاماً، فأطاب صنعته، وأحسن نفقته، فدعا عليه اليتيم والمسكين، ورجل وصل الرحم، يوسِّع له في رزقه، ويمدُّ له في أجله، ويكون تحت ظلّ عرش ربّه».

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، وتعويق الناس من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، والاستهزاء بالحقّ، وقطع الصلة التي عليها يدور فَلَكُ نظام العالم، وصلاحه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بنقض العهد وبما بعده ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: المغبونون بفوات المثوبة والجنة لهم، والمصير إلى العقوبة والنار المؤبّدة عليهم؛ لأنّهم استبدلوا الضلالة بالهدىٰ، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبّدة؛ لأنّهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل والفساد بالصلاح.

وروي: أنّه ليس من مؤمن ولا كافر إلاّ وله منزل، وأهل، وخدم في الجنة، فإن أطاع الله تعالى أُعْطِي أهله، وخدمه، ومنزله في الجنة، وإن عصاه ورّثه الله المؤمن فقد غبن عن أهله، وخدمه، ومنزله.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ كيف[1] نصب حالاً من الضمير في ﴿تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: حالة كونكم معاندين تكفرون، وتجحدون ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانية الله، ومعكم ما يصرفكم عن الكفر إلى الإيمان من الدلائل الأنفسيّة والآفاقية. والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ إنكاري، لا بمعنى: إنكار الوقوع، بل بمعنى: إنكار الواقع واستبعاده، والتعجيبِ منه، والتوبيخ عليه؛ لأنّ التعجّب من الله يكون على وجه التعجيب، والتعجيب: هو أن يدعو إلى التعجب، وكأنّه يقول: ألا تتعجّبون أنّهم يكفرون الله، كما في «تفسير أبي الليث». وقال القاضي: هو استخبار، والمعنى: أخبروني على أيّ حال تكفرون.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾؛ أي: والحال أنكم كنتم أمواتاً؛ أي: أجساماً لا حياة

---

(١) روح البيان.

لها، عناصر، وأغذيةً، ونطفاً، ومضغاً مخلَّقة وغير مخلّقة؛ أي: لا ينبغي ولا يليق بكم الكفر مع وجود البرهان الساطع على الوحدانية فيكم. والأموات: جمع ميت، كأقوال جمع قيل.

قال في «الكشاف»: فإن قلت: كيف قيل لهم: أموات حال كونهم جماداً، وإنما يقال: ميتٌ فيما تصحُّ منه الحياة من البُنَىٰ؟ قلت: بل يقال ذلك لعادم الحياة لقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ بخلق الأرواح، ونفخها فيكم في أرحام أمهاتكم، ثمّ في دنياكم. وهذا إلزامٌ لهم بالبعث، والفاء[1] للدلالة على التعقيب، فإنَّ الإحياءَ حاصلٌ إثر كونهم أمواتاً، وإن توارد عليهم في تلك الحالة أطوارٌ مترتّبةٌ بعضها متراخ عن بعض، كما أشير إليه آنفاً.

ثُمَّ لما كان المقام في الدنيا قد يطول، جاء بثمّ الدالة على التراخي، فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر، وأمّا كونها من النعم، فلكونها وسيلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحيوان الأبدي والنعمة العظمى. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للسؤال في القبور، فيحيى الميت حتى يسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين، ويقال: من ربُّك؟ ومن نبيُّك؟ وما دينك؟. ودلّت ﴿ثُمَّ﴾ التي للتعقيب على سبيل التراخي على أنّه لم يرد به حياة البعث، فإنّ الحياة يومئذٍ يقارنها الرجوع إلى الله بالحساب والجزاء، وتتصل به من غير تراخ. فلا يناسب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ودلّت الآية على إثبات عذاب القبر وراحة القبر، كما في «التيسير». ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، وإليه تُنشرون من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه.

فإن قيل: إن علموا أنّهم كانوا أمواتاً، فأحياهم ثمّ يميتهم، لم يعلموا أنه يحييهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قلت: تمكنهم من العلم بهما، لِمَا نصب لهم من

---

(١) روح البيان.

الدلائل منزَّلٌ منزلة علمهم في إزاحة العذر، سيّما. وفي الآية تنبيهٌ على ما يدلّ به على صحتهما. وهو أنّه تعالى، لمَّا قَدَر أَنْ أحياهم أوّلاً، قدر أن يحييهم ثانياً، فإنَّ بَدْءَ الخلق ليس بأهون عليه من إعادته.

وحاصل المعنى على هذا التفسير الذي قرَّرناه: ﴿كنتم أمواتاً﴾؛ أي: نطفاً في أصلاب الرجال. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ حياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في القبور ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في القبور ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة التي ليس بعدها موت. قال القرطبي: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات، وثلاث إحياءات. وكونهم موتى في ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال. فعلى هذا يجيء أربع موتات، وأربع إحياءات.

وقيل معنى الآية:[1] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتجحدون أيّها العباد إنسكم وجنّكم ﴿بِـ﴾ وحدانية ﴿الله﴾ سبحانه وتعالى، وتعبدون معه غيره، ﴿وَ﴾ الحال أنّه قد وجد فيكم ما يدلّ على وحدانية الله؛ لأنّكم ﴿كنتم أمواتاً﴾؛ أي: أجساماً لا حياة لها نطفاً علقاً ومضغاً ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بنفخ الأرواح فيكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في الدنيا بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة بالبعث والنشور. وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة، فمَن بعدهم. قال ابن عطية: وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين، ثمّ أحياء في الدنيا، ثمّ أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى. وقال غيره: والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى لقائه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وتردّون، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ؛ أي: ثمّ إليه تنشرون من قبوركم للحساب.

وعبارة المراغي هنا: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: على[2] أيّ حال

---

(١) العمدة.

(٢) المراغي.

تكفرون بالله؟ وعلى أيّ شُبْهةٍ تعتمدون؟ وحالكم في موتتيكم وحياتيكم لا تدع لكم عذراً في الكفران به، والاستهزاء بما ضربه من المثل، وإنكار نبوة نبيه. ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾؛ أي: والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة في الحياة الدنيا أمواتاً، أجزاؤكم متفرّقة في الأرض بعض منها في الطبقات الجامدة، وأخرى في الطبقات السائلة، وقسم في الطبقات الغازية تشركون سائر أجزاء الحيوان والنبات في ذلك، ثمّ خلقكم في أحسن تقويم، وفضّلكم على غيركم بنعمة العقل، والإدراك، والفهم، وتسخير جميع الكائنات الأرضية لكم. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ حين انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التي بها نظام حياتكم، وحينئذٍ تنحلّ أبدانكم، وتعود سيرتها الأولى، وتنبثّ في طبقات الأرض، وينعدم هذا الوجود الخاصّ الذي لها. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ حياة أخرى أرقى من هذه الحياة، وأكمل لمن زكّى نفسه، وعمل صالحاً، ودونها لمن أفسد فطرته والتدبّرَ في سنن الكون، وأنكر الإلٰه والرسل، وفسق عن أمر ربّه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مبنياً للمفعول من رجع المتعدي. وقرأ مجاهد، ويحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق، وابن مُحيصن، والفيَّاض بن غزوان، وسلاّم، ويعقوب ﴿تَرجِعون﴾ مبنياً للفاعل، حيث وقع في القرآن من رجع اللازم؛ لأنّ (رجع) يكون لازماً ومتعديّاً. وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من الترهيب والترغيب ما يزيد المُسيءَ خشية، ويردّه عن بعض ما يرتكبه، ويزيد المحسن رغبة في الخير، ويدعوه رجاؤه إلى الازدياد من الإحسان.

وبعد أن عدَّد سبحانه آياته في الأنفس بذكر المبدأ والمنتهى، ذكر آياته في الآفاق الدالة على قدرته المحيطة بكلّ شيء، وعلى نعمه المتظاهرة على عباده بجعل ما في الأرض مهيّأً لهم ومعدّاً لمنافعهم. فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ هذا بيان نعمة أخرى؛ أي:[2] قدّر خلقها لأجلكم ولانتفاعكم بها في دنياكم

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ودينكم؛ لأنّ الأشياء كلّها لم تخلق في ذلك الوقت. ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي فيها من الأشياء. ﴿جَمِيعًا﴾ نصب حالاً من الموصول الثاني، وقد يستدلّ بهذا على أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، كما في «الكواشي». وقال في «التيسير»: أهل الإباحة من المتصوّفة الجهلة حملوا اللام في ﴿لَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ على الإطلاق والإباحةَ على الإطلاق، وقالوا لا حَظْرَ ولا نَهْيَ ولا أَمْرَ، فإذا تحقّقت المعرفة، وتأكّدت المحبة سقطت الخدمة، وزالت الحرمة. فالحبيب لا يكلِّف حبيبه ما يتعبه، ولا يمنعه ما يريده ويطلبه. وهذا منهم كفرٌ صريحٌ، وقد نهى الله تعالى، وأمر، وأباح، وحظَّر، ووعد، وأوعد، وبشَّر، وهدَّد، والنصوص ظاهرة والدلائل متظاهرة، فمن حمل هذه الآية على الإباحة المطلقة فقد انسلخ من الدين بالكلية. انتهى كلام «التيسير».

واستدلّ بعضهم بقوله: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على تحريم أكل الطين، قال: لأنّه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض، ذكره في «البحر».

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: قصد إليها؛ أي: إلى خلقها بإرادته ومشيئته قصداً سويّاً بلا صارفٍ يَلْوِيْهِ ولا عاطفٍ يُثْنِيْهِ من إرادة شيءٍ آخر في تضاعيف خلقها، أو غير ذلك. وسيأتي في مبحث الفائدة البسط في معنى الاستواء.

ولا تناقض بين هذا وبين قوله[1]: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ لأنّ ـ الدَّحو هو البسط. وعن الحسن: (خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس، كهيئة الفهرِ ـ أي: الحجر مِلْءِ الكفّ ـ عليها دخانٌ يلتزق بها، ثمّ أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعه ثمّ بسط منه الأرض)، كذا في «الكواشي».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (أوّلُ ما خلق الله جوهرةٌ طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة، فذابت، واضطربت، ثمَّ ثار منها دخانٌ، فارتفع واجتمع زَبَدٌ، فقام فوق الماء، فجعل

---

(١) روح البيان.

الزبد أرضاً، والدخان سماء). قالوا: فالسماء من دخان خلقت، وبريح ارتفعت، وبإشارةٍ تفرّقت، وبلا عماد قامت، وبنفخةٍ تكسَّرت.

وقرأ أهل الحجاز ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بالفتح، وأهل نجد بالإمالة، وقرىء في السبعة بهما.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؛ أي: أتمَّهُنَّ، وقوَّمهنَّ، وخلقهنّ ابتداءً مصونات عن العوج والفطور؛ لأنّه سوّاهنّ بعد أن لم يكن كذلك. والضمير فيه مبهمٌ، فُسِّر بقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ فهو منصوب على أنّه تمييزٌ، نحو: ربَّه رجلاً. وفي هذا تصريحٌ بأنَّ السموات سبع، وأمَّا الأرض فلم يأت في ذكر عددها، إلاّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

قال سَلْمانٌ: (هي سبعٌ. اسم الأولى: رفيْعٌ، وهي من زمرّد خضراء، واسم الثانية: أرفلون، وهي من فضة بيضاء، والثالثة: قَيْدُوْمُ، وهي من ياقوتة حمراء، والرابعة: ماعون، وهي من درّة بيضاء، والخامسة: دبقاء، وهي من ذهب أحمر، والسادسة: وفناء، وهي من ياقوتة صفراء، والسابعة: عروباء، وهي من نور يتلألأ).

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلٌ لما قبله، كأنّه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كُلّها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلال بأنَّ من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإنَّ إتقان الأفعال وإحكامها، وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلاّ من عالم حكيم رحيم. وإزاحةٌ لما يختلج في صدورهم، من أنَّ الأبدان بعد ما تفتَّتت وتكسرت وتبدَّدت أجزاءها، واتصلت بما يشاكلها كيف يجمع أجزاء كُلّ بدن مرّةً ثانيةً، بحيث لا يشذُّ شيءٌ منها، ولا ينضمُّ إليها ما لم يكن معها، فيعاد منها كما كان.

وقرأ بتسكين ﴿وَهْوَ﴾ أبو عَمْرو والكسائي، وقالُون. وقرأ الباقون بضمّ الهاء على الأصل. ووقف يعقوب على ﴿وهو﴾ بالهاء، نحو: وَهْوَه، وتسكين الهاء في هُو، وهي، بعد الواو والفاء واللام قراءة أبي عمرو والكسائي وقالون

وبعد ثُمَّ قراءة الكسائي وقالون، وقَلَّ بعد كاف الجر، وهمزة الاستفهام، وندر بعد لكن في قراءة أبي حَمْدُون ﴿لكِنّ هو الله ربّي﴾، ذكره في «البحر».

وحاصل معنى الآية: ﴿هُوَ﴾؛ أي:[1] الإله الذي ثبتت وحدانيته، ووجبت عبادته هو الخالق ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾؛ أي: لأجل انتفاعكم في الدين والدنيا، بالاستدلال على موجدكم وإصلاح الأبدان ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: الأرض، وجميع ما فيها، بعضه للانتفاع وبعضه للاعتبار. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ أي: قصد، ووجَّه إرادته بعد خلق الأرض ﴿إِلَى﴾ خلق طباق ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾؛ أي: صيَّرهُنّ سبع طباق مستويات، لا شقوق فيها، ولا فطور، ولا تفاوت. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الموجودات ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالمٌ به، إذ بالعلم يصحّ الفعل المُحْكَم، فلا يمكن أن يكون خالقاً للأرض وما فيها، وللسموات وما فيها من العجائب والغرائب، إلاّ إذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها وكلّياتها، أفلا تعتبرون بأنّ القادر على خلق ذلك وهنَّ أعظم منكم قادر على إعادتكم. بلى إنّه على كلّ شيء قدير.

والخلاصة: أنّ هذا النظام المحكم لا يكون إلاّ من لدُنْ حكيمٍ عليمٍ بما خلق، فلا عجب أن يرسل رسولاً يوحي إليه بكتاب لهداية من يشاء من عباده، يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته جلَّ أو حقر، عظم أو صغر.

فائدة: وفي معنى الاستواء هنا سبعة أقوالٍ للعلماء[2]:

أحدها: أَقْبَلَ وعمد إلى خلقها، وقصد من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر، قاله الفرّاء، واختاره الزمخشري.

وثانيها: علا، وارتفع من غير تكييف ولا تحديد، قاله الربيع بن أنس، والتقدير: علا أمره وسلطانه، واختاره ابن جرير.

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

وثالثها: أن يكون ﴿إِلَى﴾ بمعنى على؛ أي: استوى على السماء؛ أي: تفرَّد بملكها ولم يجعلها كالأرض ملكاً لخلقه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فَلَمَّا عَلَوْنَا واسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمُ ... تَرَكْنَاهُمُ صَرْعَى لِنَسْرٍ وَكَاسِرِ

ورابعها: معناه: تحوَّل أمره إلى السماء، واستقرَّ فيها، قاله الحسن البصري.

وخامسها: معناه: استوى بخلقه واختراعه إلى السماء، قاله ابن كيسان، ويؤول هذا المعنى إلى القول الأول.

وسادسها: معناه: كمَّل صنعه فيها، كما تقول: استوى الأمر، وهذا ينبو اللفظ عن الدلالة عليه.

وسابعها: أنَّ الضمير في ﴿اسْتَوَىٰ﴾ عائدٌ على الدخان، وهذا بعيدٌ جِدّاً، يبعده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ واختلاف الضمائر وعوده على غير مذكور، ولا يفسّره سياق الكلام.

وهذه التأويلات كُلُّها فرارٌ عما تقرَّر في العقول، من أنّ الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى، وأن يحل فيه حادثٌ، أو يحل هو في حادث، وسيأتي الكلام على الاستواء بالنسبة إلى العرش إن شاء الله تعالى، ذكره في «البحر».

والقول الأرجح الأسلم: أن يقال في تفسير الاستواء هنا: ثمَّ استوى سبحانه وتعالى إلى السماء، وارتفع، وعلا استواءً يليق به، نثبته ولا نعطله، نعتقده ولا نكيّفه، ولا نمثّله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء للمتوسط، ولم يقع النداء في القرآن بغيرها من

أدوات النداء، مبني على السكون. ﴿أيّ﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب على المفعولية، مبني على الضمّ؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عمّا فات. أيّ من الإضافة مبني بسكون على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بدل من أيّ، أو عطف بيان له، أو صفة له تبعه في لفظه، مرفوع بضمّة ظاهرة، وجملة النداء مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون؛ لأنّه أمر من الأفعال الخمسة، والواو في محل الرفع فاعل، والألف تكتب؛ للفرق بين واو الضمير وواو جزء الكلمة في غير الرسم العثماني؛ وفرقاً بين المتطرّفة والمتوسّطة في الرسم العثماني. ﴿رَبَّكُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعليّة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب، صفة لربكم. ﴿خَلَقَكُمْ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب، معطوف على الكاف من ﴿خَلَقَكُمْ﴾، مبنيٌ على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه؛ أي: وخلق الذين من قبلكم. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف صلة الموصول، تقديره: والذين مضوا من قبلكم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعلّ حرف نصب وترج، أو حرف نصب وتعليل بمعنى: كي، مبنيّ على الفتح، والكاف ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها. ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون؛ لأنّه من الأفعال الخمسة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لعلّ، تقديره: لعلكم متقون، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: لعلّكم تتقونه، وجملة لعلّ من اسمها وخبرها لا محلّ لها من الإعراب؛ لأنّ موقعها مما قبلها موقع الجزاء من الشرط؛ لأنّه في تقدير: إن عبدتم ربّكم ترجى لكم التقوى. أو في محلّ النصب حال من فاعل ﴿ٱعْبُدُواْ﴾، تقديره: يا أيها الناس اعبدوا ربّكم حالة كونكم راجين نيل التقوى. أو في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلّقة باعبدوا تقديره: يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم لوقاية أنفسكم من عذاب الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب، بدل من ربكم، أو صفة ثانية له، أو منصوب بفعل محذوف، تقديره: أمدح، أو مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الذي جعل لكم الأرض. ﴿جَعَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فراشاً؛ لأنّه صفة نكرة تقدمت عليها ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول أوّل لجعل، إن كان من الجَعل بمعنى التصيير. ﴿فِرَٰشًا﴾ مفعول ثان له، وإن كان من الجعل بمعنى الخلق، ففراشاً حال مؤوّلة من الأرض؛ أي: مفروشة. وجملة ﴿جَعَلَ﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ معطوف على الأرض على كونه مفعولاً أوّل لجعل ﴿بِنَآءً﴾ مفعول ثان لجعل، أو حال من السماء.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على جعل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلّق بأنزل ﴿مَآءً﴾ مفعول به لأنزل ﴿فَأَخْرَجَ﴾ الفاء عاطفة سببية ﴿أخرج﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، معطوف على أنزل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بأخرج ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف حال من رزقاً؛ لأنّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول به لأخرج ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صفة ثانية لرزقاً ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾ الفاء عاطفة تفريعية، أو فصيحية؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنّه خالق السموات والأرض وخالق ما فيهما لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول لكم: لا تجعلوا. ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَجْعَلُوا۟﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف، مفعول ثان لجعل، مقدم على الأول وجوباً؛ لأنّ المفعول الأول نكرة ولم يوجد له مسوّغ إلا تقديم الجار والمجرور، ومعنى تجعلوا: لا تصيّروا، أو لا تسمّوا ﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول لتجعلوا، والجملة الفعلية معطوفة على جملة اعبدوا ربكم، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبره، ومفعول العلم محذوف، تقديره: وأنتم عالمون بطلان ذلك، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل تجعلوا.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

﴿وَإِن﴾ الواو استئنافية ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه وحدّ الفعل: كن (كن) فعل ماض في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك، والتاء ضمير لجماعة المخاطبين في محل الرفع اسمها، مبني على الضمّ، والميم: حرف دالّ على الجمع. ﴿فِي رَيْبٍ﴾ جار ومجرور، متعلّق بمحذوف خبر كان، تقديره: وإن كنتم كائنين في ريب.

فائدة: ولا تدخل ﴿إن﴾ الشرطية على فعل ماض في المعنى، إلاّ على كان؛ لكثرة استعمالها؛ ولأنّها لا تدلّ على حدث، ذكره أبو البقاء العكبري.

﴿مِّمَّا﴾ من حرف جرّ، مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿مَا﴾، و﴿مَا﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة، في محل الجرّ بمن، الجار والمجرور متعلّق بمحذوف صفة لريب، تقديره: في ريب كائن من الذي نزلناه، أو كائن في شيء نزلناه على عبدنا. ﴿نَزَّلْنَا﴾ فعل وفاعل، صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: من الذي نزلناه، أو من شيء نزلناه. ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق بنزّلنا. ﴿فَأْتُوا۟﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً: لكون الجواب جملة طلبية ﴿أتوا﴾ فعل أمر، مبني على حذف النون؛ لأنّه أمر من الأفعال الخمسة، والواو ضمير لجماعة المخاطبين، في محل الرفع فاعل، والألف تكتب للفرق، والجملة الفعليّة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة؛ للردّ على من ارتابوا في القرآن تعنّتاً ولجاجاً. ﴿بِسُورَةٍ﴾ جار ومجرور، متعلّق بأتوا، ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف صفة (لسورة) إن قلنا: إنّ الضمير عائد على القرآن، والمعنى على هذا يتناول عدة أمور:

١ ـ فأتوا بسورة كائنة من مثل القرآن في حسن النظم، وبديع الوصف، وروعة الأسلوب وإيجازه.

٢ ـ فأتوا بسورة من مثله في غيبوبة أخباره، وأحاديثه عن الماضين، وتحدّثه عما سيكون.

٣ ـ فأتوا بسورة من مثله فيما انطوى عليه من أمر ونهي، ووعد وعيد، وبشارة وإنذار، وحكم وأمثال.

٤ ـ فأتوا بسورة من مثله في صدقه وصيانته من التحريف والتبديل.

الجار والمجرور متعلّق بأتوا إن قلنا: إنّ الضمير عائد على ﴿عَبْدِنَا﴾، وفي معناه أيضاً عدّة أمور:

(أ) فأتوا من مثل الرسول في كونه أمّيّاً على الفطرة الأصلية، لا يقرأ ولا يكتب.

(ب) فأتوا من مثل الرسول في كونه لم يدارس العلماء، ولم يجالس الحكماء، ولم يتعاط أخبار الأولين، ولم يُؤْثَر ذلك عنه بحال من الأحوال.

(ج) فأتوا من مثل الرسول؛ أي: من كلّ رجل، كما تحسبونه في زعمكم شاعر أو مجنون. وكلا المعنيين واضح صحيح.

﴿وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿وَادْعُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على (أتوا) ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ مفعول به، ومضاف إليه، ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف حال من شهدائكم، تقديره: حال كونهم منفردين عن الله، أو مغايرين لله، أو متعلّق بادعوا؛ أي: وادعوا من دون الله شهداءكم. ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، والتاء ضمير المخاطبين في محل الرفع اسمها ﴿صَادِقِينَ﴾ خبرها، منصوب بالياء، وجواب الشرط معلوم مما قبله، تقديره: فافعلوا ذلك، كذا قال السيوطي قال

المحليّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ...﴾ الآية، إذا اجتمع شرطان وتوسّط بينهما جواب، فالجواب للأخير، والأول قيد فيه، ولا يحتاج لجواب ثان، والتقدير في الآية: إن كنتم صادقين في دعواكم أنّه من عند محمد، ودمتم على الريب فأتوا بسورة من مثله، وهو أولى لعدم التقدير.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَإِن﴾ (الفاء) استئنافية أو فصيحية؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم فأقول: إن لم تفعلوا. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم وقلب ونفي ﴿تَفْعَلُواْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿وَلَن﴾ الواو اعتراضية ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب واستقبال ﴿تَفْعَلُواْ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الشرط وجوابه، قصد بها تأكيد العجز. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، ﴿اتقوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محلّ الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿ٱلنَّارَ﴾ مفعول به منصوب ﴿ٱلَّتِى﴾ اسم موصول في محل النصب، صفة للنار ﴿وَقُودُهَا﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿ٱلنَّاسُ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ معطوف على الناس، والجملة الإسمية صلة الموصول ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والتاء علامة تأنيث نائب الفاعل، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على النار ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلّق بأعدّت، والجملة الفعلية في محل النصب حال لازمة من النار، تقديرها: حالة كونها معدّة مهيّئة للكافرين، أو مستأنفة، كما قاله أبو حيان، وابن عطية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿وَبَشِّرِ﴾ (الواو) استئنافية أو عاطفة ﴿بشر﴾ فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على كلّ من يصلح للتبشير. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به، مبني على الفتح، أو على الياء على الخلاف المذكور في محلّه. والجملة الفعليّة مستأنفة أو معطوفة على معنى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ الآية؛ لأنّه في معنى: وأنذر الذين كفروا بالنار التي وقودها الناس ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد واو الفاعل، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿أَنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ومصدر ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم؛ لأنّ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ اسمها مؤخّر منصوب بالكسرة؛ لأنّه جمع مؤنّث سالم، وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض المتعلّق ببشّر، تقديره: وبشّر الذين آمنوا بكون جنات تجري من تحتها الأنهار لهم؛ لأنّ حذف الجار مع أنّ وأنْ مطرد، كما قال في «الخلاصة»:

نقلاً وفي أنّ وأنْ يطّرد مع أمن لبس كعجبت أن يدوا

﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بتجري ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لجنات، ولكنّها سببيّة، والرابط الضمير في تحتها. ﴿كُلَّمَا﴾ اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلّق بالجواب الآتي. ﴿رُزِقُواْ﴾ فعل ماض مغيّر الصيغة، والواو في محل الرفع نائب فاعل. ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور متعلق برزقوا، والجملة الفعلية فعل شرط لكلّما لا محل لها من الإعراب ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ جار ومجرور، بدل من الجار والمجرور قبله بدل اشتمال بإعادة العامل، وإنّما قلنا بدل اشتمال؛ لأنّه لا يتعلّق

حرفان بمعنى واحد بعامل واحد، إلاّ على سبيل البدلية، أو العطف، والمعنى: كلّ وقت رزقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، ذكره في «الفتوحات».

﴿رِّزْقًا﴾ مفعول ثان لرزقوا؛ أي: مرزوقاً، والأوّل واو الضمير القائمة مقام الفاعل ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب كلّما لا محل لها من الإعراب، وجملة كلما من فعل شرطها وجوابها في محل النصب صفة ثانية لجنات، قاله في «الفتوحات»، أو حال من جنات، أو من الذين آمنوا، تقديره: مرزوقين على الدوام، كما قاله أبو البقاء، والرابط على الوجهين الأولين الضمير في ﴿مِنْهَا﴾، وعلى الثالث الواو في ﴿رُزِقُوا﴾. ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي﴾ خبره، ولكن على تقدير مضاف، كما مرّت الإشارة إليه في مبحث التفسير؛ أي: مثل الذي رزقنا من قبل. والجملة الإسمية في محل النصب مقول لقالوا ﴿رُزِقْنَا﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: رزقناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من حرف جرّ ﴿قَبْلُ﴾ في محل الجر بمن، مبني على الضمّ، لقطعه عن المضاف إليه مع نية معناه، والجار والمجرور متعلّق برزقنا ﴿وَأُتُوا﴾ الواو حالية أو اعتراضية ﴿أتوا﴾ فعل ماض مغير الصيغة، والواو نائب فاعل ﴿بِهِ﴾ متعلّق بأتوا؛ أي: بالثمرة المرزوقة لهم من الجنة، والجملة الفعلية معترضة مقرّرة لمعنى ما قبلها، أو حال من الواو في ﴿قَالُوا﴾، ولكن مع تقدير قد، تقديره: قالوا ذلك وقد أتوا به. ﴿مُتَشَابِهًا﴾ حال من ضمير ﴿بِهِ﴾، ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلّق بالاستقرار المعلوم من الخبر ﴿أَزْوَاجٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ صفة لأزواج، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة تجري، على كونها صفة ثالثة لجنات، أو مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾ الواو عاطفة، أو استئنافية، أو حالية ﴿هم﴾ ضمير لجماعة الذكور الغائبين في محل الرفع مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلّق بـ﴿خَالِدُونَ﴾، وهو خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿تَجْرِي﴾، على كونها صفة رابعة لجنات، أو مستأنفة، أو حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، والعامل فيها معنى الاستقرار.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها منصوب ﴿لَا﴾ نافية ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يَضْرِبَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على الله، وجملة ﴿يَضْرِبَ﴾ مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، إن كان ﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ يتعدّى بنفسه؛ أي: إنّ الله لا يستحيي ضرب مثل، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: من ضرب مثل، إن كان غير متعدّ بنفسه و﴿يَضْرِبَ﴾ إما بمعنى: يبيّن متعدّ لواحد ﴿مَثَلًا﴾ مفعول به ﴿مَّا﴾ اسم مبهم بمعنى: أيّ مَثَل في محل النصب صفة لمثلاً، أو زائدة زيدت؛ لتأكيد الخسّة، ﴿بَعُوضَةً﴾ بدل من مثلاً، بدل كلّ من كلّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ الفاء عاطفة ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب، معطوفة على ﴿بَعُوضَةً﴾، ﴿فوق﴾ منصوب على الظرفية المكانية، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه، والظرف متعلّق بمحذوف صلة لما، أو صفة لها، تقديره: فالذي استقرّ فوقها، أو فشيئاً مستقرّاً فوقها، وإما بمعنى: يجعل فمتعدّ لاثنين. ﴿مَثَلًا﴾ مفعول أول، و﴿مَّا﴾ زائدة ﴿بَعُوضَةً﴾ مفعول ثان، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ معطوف عليه، ويحتمل كون ﴿بَعُوضَةً﴾ مفعولاً أوّل مؤخراً، و﴿مَثَلًا﴾ مفعولاً ثانياً مقدّماً للاهتمام به. وقرىء ﴿بَعُوضَةٌ﴾ بالرفع شاذاً، كما مرّ، على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو بعوضة، والجملة الإسمية في محل النصب صفة لـ ﴿مَثَلًا﴾، و﴿مَّا﴾ زائدة، تقديرها: مثلاً موصوفاً بكونه بعوضة فما فوقها. ﴿فَأَمَّا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّ الله لا يستحيي من ضرب المثل، وأردت بيان فائدة ذلك المثل فأقول لك: أمّا. ﴿أمّا﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أما﴾، واقعة في غير موضعها للثقل، لأنّ موضعها موضع ﴿أمّا﴾. ﴿يعلمون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: فأمّا الذين آمنوا فعالمون أنّه الحقّ، والجملة الاسمية جواب ﴿أمّا﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول

لجواب إذا المقدرة، وجملة (إذا المقدرة) مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محلّ لها من الإعراب. ﴿أَنَّهُ﴾. ناصب واسمه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره ﴿مِن رَّبِّهِمْۖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلّق بمحذوف حال من الحقّ، تقديره: حال كون ذلك الحقّ كائناً من ربّهم، وجملة ﴿أَن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم، تقديره: (فيعلمون كونه الحقّ من ربّهم).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاٗۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

﴿وَأَمَّا﴾ الواو عاطفة ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول ﴿فَيَقُولُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿أمّا﴾، وجملة ﴿يقولون﴾ خبر المبتدأ، تقديره: (وأمّا الذين كفروا فقائلون ماذا أراد الله بهذا مثلاً). والجملة الإسمية جواب ﴿أما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أمّا﴾ في محل النصب معطوفة على جملة أمّا الأولى ﴿مَاذَآ﴾ ما: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ (ذا) اسم موصول بمعنى: الذي، في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب مقول ليقولون ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي أراده الله، وإن شئت قلت: ﴿مَاذَآ﴾ اسم استفهام مركب في محلّ النصب مفعول به مقدم وجوباً لأراد الله، وجملة ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ في محلّ النصب مقول ليقولون؛ أي: يقولون: أيّ شيء أراد الله بهذا مثلاً. ﴿بِهَٰذَا﴾ جار ومجرور، متعلّق بأراد ﴿مَثَلاٗۘ﴾ تمييز ذات لاسم الإشارة، منصوب به، ﴿يُضِلُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بيضلّ، ﴿كَثِيرٗا﴾ مفعول به، منصوب، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، جارية مجرى التفسير، والبيان للجملتين المصدّرتين بأمّا، وهي على هذا من كلام الله تعالى. وقيل: في محل النصب صفة لمثلاً، تقديره: مثلاً يفترق به الناس إلى ضالّين ومهتدين، وهي على هذا من كلام الكفار، وأجاز أبو البقاء أن تكون حالاً من اسم الله؛ أي: مضلّاً به كثيراً وهادياً به كثيراً. ﴿وَيَهۡدِي﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على يضلّ

في إعرابه السابق ﴿بِهِۦ﴾ متعلّق بيهدي ﴿كَثِيرًاۚ﴾ مفعول به ليهدي، ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿ما﴾ نافية. ﴿يُضِلُّ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرّغ، ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مفعول به ليضلّ، منصوب بالياء، وجوّز الفراء أن يكون منصوباً على الاستثناء، والمستثنى منه محذوف، تقديره: وما يضلّ به أحداً إلاّ الفاسقين. اهـ. «سمين».

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محلّ نصب صفة للفاسقين ﴿يَنقُضُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور، متعلّق بينقضون ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾ مضاف إليه، والضمير إما عائد على الله، أو على العهد، كما مرّ. ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿مَآ﴾ اسم موصول في محلّ النصب مفعول به. ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلّق بأمر، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿يُوصَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بأن، ونائب فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، والجملة الفعلية مع أن المصدرية، في تأويل مصدر مجرور على أنّه بدل من ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾ بدل كلّ من كلّ؛ أي: ويقطعون ما أمر الله بوصله، أو مفعول لأجله، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: كراهية وصله، أو لئلاّ يوصل. ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾، ﴿فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ متعلّق بيفسدون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة في محل الرفع مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل، أو حرف عماد لا محل له من الإعراب ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، ولك أن تعرب ﴿هُمُ﴾ مبتدأ. و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محلّ الرفع خبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب على الحال من

فاعل تكفرون و﴿تَكۡفُرُونَ﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلّق بتكفرون، والجملة مستأنفة، والتقدير: أتكفرون بالله حالة كونكم معاندين لوحدانية الله تعالى. ويجوز أن تكون ﴿كَيۡفَ﴾ منصوبة على كونها مفعولاً مقدّماً لتكفرون ﴿وَكُنتُمۡ﴾ الواو حالية ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَمۡوَٰتٗا﴾ خبره، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ ولكنها بتقدير: قد. ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب وترتيب ﴿أحياكم﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾ فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾. ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿إِلَيۡهِ﴾ متعلّق بترجعون ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ فعل مضارع مغيّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿خَلَقَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿لَكُم﴾ متعلّق بخلق، والجملة صلة الموصول ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محلّ النصب مفعول خلق ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جار ومجرور متعلّق بمحذوف صلة لما الموصولة، ﴿جَمِيعٗا﴾ حال من المفعول الذي هو (ما) الموصولة، ولكنه في تأويل مشتقّ، تقديره: مجتمعين. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلّق باستوى، والجملة معطوفة على جملة خلق، وعطف بثمّ؛ إشعاراً بأنّ خلق السماء متأخر عن خلق الأرض بأعمال أخر، كجعل الجبال رواسي، وتقدير الأقوات فيها. ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب (سوّى) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، والهاء ضمير لجماعة الإناث الغائبات في محل النصب مفعول به

أوّل، والنون المشدّدة علامة جمع الإناث. ﴿سَبْعَ سَمَوَٰتٍ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه؛ لأنّ سوى بمعنى صيّر، يتعدّى إلى مفعولين، والجملة الفعلية معطوفة على جملة (استوى). ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بعليم و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها، كأنّه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كُلِّها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، كما ذكره البيضاوي. قال أبو البقاء: ويقرأ (وهو) بإسكان الهاء، وأصلها الضمّ، وإنّما أسكنت هنا؛ لأنّها صارت كعضد، فخفّفت، وكذلك حالها مع الفاء واللام، نحو: فَهْوَ لَهْوَ، ويقرأ بالضمّ على الأصل كما مر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والناس أصله: أناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، وعوّض عنها (أل)، فلا يجمع بينهما. اهـ. شيخنا. ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ والعبادة: خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود. ﴿رَبَّكُمُ﴾ والربّ: هو الذي يسوس من يربيه، ويدبر شؤونه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وفي «السمين» ما نصه: وإذا ورد (لعلّ) في كلام الله تعالى فللناس فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ لعلّ على بابها من الترجي والإطماع، ولكنه بالنسبة إلى المخاطبين؛ أي: لعلكم تتقون على رجائكم وطمعكم. وقد نصّ على هذا التأويل سيبويه في «كتابه» في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾؛ أي: اذهبا على رجائكما، وكذا نصّ عليه الزمخشري في «كشافه».

والثاني: أنها للتعليل؛ أي: اعبدوا ربّكم لكي تتقوا، وبه قال قطرب، واختاره الطبري في «تفسيره الكبير».

والثالث: أنّها للتعريض للشيء، كأنّه قيل افعلوا ذلك متعرّضين لأن تتقوا، نصّ عليه أبو البقاء، واختاره المهدوي في «تفسيره» الممتع. وهذه الجملة على كلّ قول متعلّقة من جهة المعنى باعبدوا؛ أي: اعبدوه على رجائكم التقوى، أو لتتقوا، أو متعرّضين للتقوى.

﴿تَتَّقُونَ﴾ أصله تَوْتَقِيُون على وزن تَفْتَعِلُون، أبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء، ثمّ أدغمت في تاء الافتعال، واستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت الياء، فالتقت مع واو الجماعة الساكنة، فحذفت الياء، ثمّ صُحّحت حركة القاف، فجعلت ضمّة؛ لتناسب الواو، فصار تتقون بوزن تفعلون.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ والفراش: واحد الفُرُش، وفرش الشيء يفرشه بالضمّ فراشاً إذا بسطه. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أصله: بنايٌ بِدَليل قوله: بنيت بنيانا، فلما تطرّفت الياء بعد ألف زائدة قلبت همزة، وهذا مطّرد في كلّ واو أو ياء تطرّفتا بعد ألف زائدة. وفي «السمين»: والبناء مصدر بنيت، وإنّما قلبت الياء همزةً؛ لتطرّفها بعد ألف زائدة، وقد يراد به المفعول. اهـ. وأصل معنى البناء: وضع شيء على شيء آخر، بحيث يتكوَّن من ذلك شيءٌ بصورةٍ خاصة، كوضع حجر على حجر ليتكوَّن البيت. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه إعلالٌ بالقلب والإبدال. أصله: مَوَهٌ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فصار ماه، فاجتمع حرفان ضعيفان: الألف والهاء، فأبدلت الهاء حرفاً قوياً وهو الهمزة؛ ليتقوى بها الضعيف، ودليل ذلك: أنه يصغر على مويه، أما جمعه على مياه، فلإبدال الواو ياء لانكسار ما قبلها، كما فعلوا في ديار إذ الأصل مواه ودوارٌ، وقد جمع على الأصل فقيل: أمواه ﴿أَندَادًا﴾ جمع ند بكسر النون وهو المِثْل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المساوي قال جرير:

أَتَـيْـمٌ تَـجْـعَـلُـون إلـيّ نِـدّاً   وَهَـل تَـيـمٌ لِـذِي حَـسَـبٍ نَـدِيـدُ

وقال أبو البَقَاءِ أنداد جمعُ نِدّ ونديد، وفي جعله جمع نديد نظرٌ؛ لأنَّ أفعالاً إنما يحفظ في فعيل، بمعنى فاعل، نحو: شريف وأشراف، ولا يقاس عليه والنِدُّ المقاوم المضاهي، سواء كان مثلاً، أو ضداً، أو خلافاً. وقيل: هو الضد، وقيل الكفء والمثل. اهـ. بمعنى يقال فلان ند فلان: إذا كان مماثلاً له في بعض الشؤون ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أصل كان: كَوَنَ بوزن فعل واوي العين نظير قال، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصار كان، ثم أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فسكن آخره وهو النون، فالتقى ساكنان الألف وآخر

الفعل، فحذفت الألف فصار اللفظ كنتم بفتح الكاف، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل التي حذفت، هل هي واوٌ أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل وعوض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة، وهي الضمة؛ لأنها تناسب الواو، فقيل: كنتم بوزن فلتم، وهكذا كل فعل من هذا النوع.

﴿فَأْتُوا﴾ أصله: ائتيوا أمرٌ من أتى الثلاثي يائيُّ اللام اتصل به واو الجماعة، فوزنه الأصلي افعلوا، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لمَّا سُكِّنت؛ لالتقاء الساكنين على حد قول ابن مالك في «الكافية»:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سَبَقْ   وإنْ يَكُنْ لِيْناً فحذْفُه اسْتَحَقْ

ثم قلبت كسرة التاء ضمةً، لتناسب الواو، ثم حذفت همزة الوصل للاستغناء عنها بدخول الفاء؛ لأن الغرض منها التوصل إلى النطق بالساكن، وقد توصل إليه بالفاء فوزنه الآن إفعوا.

﴿بِسُورَةٍ﴾ السورة: الطائفة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات، ومن معانيها: المرتبة الرفيعة، قال النابغة الذبياني:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أعطاك سورة   ترى كُلَّ مِلْكٍ دُوْنَها يَتَذَبْذَبُ

وفي «البيضاوي» والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولةً من سور المدينة؛ لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزةٍ محوزةٍ على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة؛ لأن السورة كالمنازل والمراتب، يترقى فيها القارىء، أو لها مراتب في الطول والقصر، والفضل والشرف، وثواب القراءة، وإن جعلت مبدلة من الهمزة فمن السؤر. التي هي البقية والقطعة من الشيء. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: إفراد الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتناسب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ والترغيب فيه، فإنه إذا ختم سورةً نَفَّسَ ذلك عنه بعض كربة، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى بريداً، والحافظ متى حفظها، اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلةً، فعظم ذلك عنه، وابتهج به إلى غير ذلك من

الفوائد. ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ أمر جماعة من دعا يدعو ناقص واويٌّ، فلما أسند الفعل إلى واو الجماعة التقى ساكنان، فأصله هنا: ادعووا بواوين، الأولى مضمومة وهي لام الكلمة، والثانية ساكنة وهي واو الجماعة، فاستثقلت الضمة على الواو الأولى، وحذفت الضمة فاجتمع ساكنان، فحذفت الواو الأولى التي هي لام الكلمة؛ لالتقاء الساكنين، وبقيت واو الجماعة؛ لأنها جيء بها لغرضٍ، فلام الكلمة أولى بالحذف؛ لأنها جزء كلمة، وواو الجماعة كلمة مستقلة، فحذف جزء الكلمة أولى من حذف كلمة مستقلة؛ لما فيه من إجحاف الكلمة، فوزنه إفعوا.

﴿شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والشهداء: جمع شهيد، كشرفاء جمع شريف، وعليم وعلماء، ولا يبعد أن يكون جمع شاهد، كشاعر وشعراء، وليس فعلاء مقيساً لباب فاعل، كما في «البحر» والشهيد الحاضر، أو الناصر، أو القائم بالشهادة، أو الإمام، وكأنه سُمِّي به؛ لأنه يحضر المجالس، وتُبْرَمُ بمحضره الأمور ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء، ومنه: تدوين الكتب؛ لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا؛ أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب، فقيل: زيد دون عمرٍو؛ أي: في الشرف، ومنه: الشيء الدُّون، ثم اتسع فيه، فاستعمل في كل تجاوز حدٍ إلى حد، وتخطى أمرٍ إلى أمر قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾؛ أي: لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، وهي من الظروف المكانية الملازمة الحقيقية، أو المجازية، ولا يتصرف فيه بغير من، وتجيء دون صفةً بمعنى: رديءٍ، يقال: ثوبٌ دونٌ؛ أي: رديءٌ. حكاه سيبويه في أحد قوليه. فعلى هذا يعرب بوجوه الإعراب ويكون مشتركاً ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ والصدق يقابله الكذب وهو: مطابقة الخبر للمخبَر عنه. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ أصله: اتقيوا، استثقلت الضمة على الياء التي هي لام الكلمة فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، ثم ضم ما قبلها؛ لمناسبة الواو ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو وهو: ما توقد به النار من حطب، أو غيره. وأما بضمها فهو: مصدر وقد، وكذا يقال فيما جاء على هذا الوزن، كالوَضوء والطَّهور والسَّحور، وهذه التفرقة على المشهور في أن المفتوح: اسم للآلة والمضموم مصدر، وبعضهم قال: كُلٌ من الضم والفتح يجري في الآلة

والمصدر، فما توقد به النار يقال له وقود بالفتح والضم، وإيقادها كذلك، ومثله نظائره ونحوه. اهـ. بمعنى.

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ جمع الحجر، والتاء فيها لتأكيد تأنيث الجمع، كالفحولة.

﴿أُعِدَّتْ﴾ أصله: أُعْدِدَت، نقلت حركة الدال الأولى إلى العين، فسكِّنت فأدغمت في الدال الثانية.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أصل الكلمة: أُتِيوُا بوزن فُعِلَوا بالبناء للمجهول، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت الياء فحذفت لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة التي أسند إليها الفعل، فوزنه الأصلي فُعِلْوا، ووزنه الحاليُّ فُعُوا؟

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ جمع زوج، والزوج: ما يكون معه آخر، فيقال: زوجٌ للرجل والمرأة، وأمَّا زوجةٌ بالتاء فقليل. ونقل الفراء أنها لغة تميم، والزوج أيضاً: الصنف والتثنية زوجان.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ والطهارة النظافة، والفعل منها: طَهَر بالفتح من باب قتل، ويقل الضم من باب قَرُب، واسم الفاعل: طاهر فهو مقيسٌ على الفتح شاذٌ على الضم، كخاثر، وحامض من خثُر اللبن، وحمُض بضم العين. اهـ. «سمين». ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمراد بالخلود هنا: الدوام لما يشهد له من الآيات والأحاديث، وأصله: ثبات طويلُ المدة دام أو لم يدم، ولذا يوصف بالأبدية. اهـ. كرخي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾ بياءين أولاهما عين الكلمة، والثانية لامها والحاء فاؤها، وفي «السمين»: واستفعل هنا للإغناء عن الثلاثي المجرد؛ أي: إنه موافق له، فإنه قد ورد حَيِيَ واستحيا بمعنى واحد، والمشهور استحيا يستحيي فهو مستحيٌ ومستحيٌ منه من غير حذف، وقد جاء استحى يستحي فهو مستحٍ، مثل: استقى يستقي، وقد قرىء به كما مر، واختلف في المحذوف، فقيل: عين الكلمة فوزنه يستفل، وقيل: لامها فوزنه يستفع، ثم نقلت حركة اللام على القول الأول، وحركة العين على القول الثاني إلى الفاء وهي الحاء. والحياء لغةً: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، أو يذم عليه، واشتقاقه من الحياة؛ ومعناه على ما قاله الزمخشري: نقصت حياته واعتلت مجازاً واستعماله هنا في حق الله

تعالى بمعنى: الترك، وجعله الزمخشري من باب المقابلة يعني: أن الكفار لما قالوا أما يستحي ربُّ محمد أن يضرب المثل بالمحقرات، قُوبِلَ قولُهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ﴾ والضرب: إمساس جسم بجسم بعنفٍ، ويكنى به عن السفر في الأرض، ويكون بمعنى الصنع والاعتمال ﴿فَيَقُولُونَ﴾ أصله: يَقْوُلون بوزن يَفْعُلون بضم العين، فنقلت حركة حرف اللين إلى الساكن الصحيح قبله فسكنت الواو إثر ضمه، فصارت حرف مد ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ أصله: أَرْوَد بوزن أفعل أجوف واويٌّ؛ نقلت حركة عينه الواو إلى الراء، فتحركت الراء بالفتح وسكنت الواو لما سلبت حركتها، لكنها أبدلت ألفاً؛ لتحركها أصالةً وفتح ما قبلها الآن، فلفق لها موجب الإبدال، كما قلبت ياءً في المضارع، فقالوا: يريد، وسقطت في المصدر؛ لاجتماعها مع ألف الإفعال على أن المحذوف هي لا ألف الإفعال، أما على مقتضى قول ابن مالك:

وألف الإفعال واستفعال أزل.

فلم تحذف في المصدر، والهاء عوضٌ عن المحذوفة منهما ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أصله: يُضْلِل بوزن يفعل، فنقلت حركة اللام الأولى إلى الضاد، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أصله: يهدي بوزن يفعِل، سكنت الياء؛ لوقوعها إثر كسرة، فصارت حرف مد ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى، وفي «المصباح»: فسق فسوقاً من باب قعد خرج عن الطاعة، والاسم: الفسق، وفسق يفسق بالكسر من باب جلس. لغة حكاها الأخفش، فهو فاسق، والجمع فساق وفسقة. اهـ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أصل ميثاق: موثاق من الموثق بوزن مفعال، قلبت الواو ياء؛ لسكونها إثر كسرة. ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ جمع. خاسر، والخاسر: من خسر أحد أمورٍ ثلاثة المال، والبدن، والعقل، وهؤلاء من الثالث. اهـ. كرخي. وفي «القاموس»: خسر، كفرح وضرب، خَسْراًوخَسَراً، وخُسْراً، وخُسُراً وخُسْرَاناً، وخسَارةً، وخَساراً: ضلّ، فهو خاسِر، وخسير، وخسِرَ التاجرُ إذا غُبن في تجارته، والخَسْرُ: النقص، كالإخسار والخسران. اهـ.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ كيف: للسؤال عن الأحوال، والمراد هنا: الأحوال التي يقع عليها الكفر من العسر واليسر، والسفر والإقامة، والكبر والصغر، والعز والذل، وغير ذلك، والاستفهام هنا: للتوبيخ والإنكار، فكأنه قال: لا ينبغي أن توجد فيكم تلك الصفات التي يقع عليها الكفر، فلا ينبغي أن يصدر منكم الكفر في كل حال من تلك الأحوال ﴿فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ أصله: أَحْيَيَ بوزن أفعل، عينه ولامه حرفا عِلَّةٍ، تحركت الياء الأخيرة وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ مضارع أمات الرباعي وأصله: يُمْوِتكم بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أصله: يُحْيِيُكم بوزن يفعل، استثقلت الضمة على الياء الأخيرة فحذفت، فلما سكنت إثر كسرة صارت حرف مد ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أصله استوَيَ بوزن افتعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أصله: سَوَّيَ بوزن فعَّل المضعف، قلبت ياؤه ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: ذكر عنوان الربوبية في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين؛ للتفخيم والتعظيم.

ومنها: المقابلة اللطيفة في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء، والفراش والبناء.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ لأنه أشرف أسمائه ﷺ.

ومنها: الالتفات من الغَيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ الخ. إلى التكلم في قوله: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لما فيه من التفخيم للمنزَّل والمنزل عليه، ما لا يؤدِّيه ضمير غائب لو قال مما نزل على عبده، لا سيما كونه أتى بـ(نا) المشعرة بالتعظيم التام، وتفخيم الأمر، ونظيره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾.

ومنها: التعجيز في قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾؛ لأن الأمر هنا، خرج مخرج التعجيز.

ومنها: تنكير السورة؛ لإرادة العموم والشمول.

ومنها: الجملة الاعتراضية في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾؛ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل، وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان، ومن أمثلة الاعتراض، قول عوف بن مُحَلِّم الخزاعيّ:

إنَّ الثمانينَ وبُلِّغْتَها قَدْ أحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تُرْجُمَان

فقوله وبلغتها: اعتراض بين اسم إن وخبرها، وفائدتها: الدعاء للمخاطب، بأن يمتد عمره إلى الثمانين، مع التنصل عن مسؤولية عدم السمع؛ بسبب كبر السن ووقر السمع.

ومنها: إيجاز القصر في قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ والإيجاز: هو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل، مع الإبانة والإفصاح؛ لأن المعنى: فإن عجزتم عن الإتيان بما ذكر في الحال، والمستقبل، والماضي، فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ والعلاقة المحلية، هذا إذا كان النهر مجرى الماء، كما قال بعض علماء اللغة، أما إذا كان بمعنى الماء في المجرى، فلا مجاز فيه.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وسمي بليغاً؛ لأنَّ أداة التشبيه فيه محذوفة، فساوى طرفا التشبيه في المرتبة.

ومنها: وصف الأزواج بمطهرة في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولم يَقُلْ: طاهرةٌ أو متطهرة؛ للإشعار بأنَّ لهن مطهِّراً طهرهن، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم. المعنى: إن الله لا يترك أن يبين مثلاً، فعبَّر بالحياء عن الترك؛ لأنَّ الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل شيء تركه، كما أفاده الزمخشري.

ومنها: الإشارة بهذا في قوله: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ تحقيراً للمشار إليه واسترذالاً له.

ومنها: زيادة ما في قوله: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لتأكيد خسة الممثَّل به وهو البعوض، وغيره، والمراد بقولنا: زيادة ما؛ لتأكيد الخسة رفع ما يقال، إن القرآن مصونٌ عن الحشو والزائد حشو. وعبارة ابن السبكي: ولا يجوز ورود ما لا معنى له في الكتاب والسنة، خلافاً للحشوية، ومحصل جوابه: أنَّ زيادتها لفائدة، وهي التأكيد، فليست حشواً محضاً. وعبارة البيضاوي: ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيانٌ، بل مرادنا بالمزيد، هو الذي لم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضع ليذكر مع غيره فيفيد الكلام وثاقةً وقوَّةً، وهو زيادة في الهدى غير قادح فيه. انتهت. أفاده في «الفتوحات».

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النقض، على سبيل الاستعارة المكنية، لأنه إحدى حالتي الحبل، وهما النقض والإبرام.

ومنها: الإلتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الخ. إلى الخطاب في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ لغرض التوبيخ، والتقريع، والتعجيب.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾، وبين ﴿يَقْطَعُونَ﴾ و﴿يُوصَلَ﴾.

ومنها: تقديم الإضلال فيهما على الهداية، ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب، أمراً فظيعاً يسوؤهم ويفتت أكبادهم.

ومنها: إيثار صيغة الاستقبال فيهما؛ إيذاناً بالتجدد والاستمرار. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلا وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لما امتنَّ على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، وأنه سخرَّ لهم ما في الأرض جميعاً، أتبع ذلك بذكر بدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة في الأرض، وإسكانه دار الكرامة، وأمر الملائكة بالسجود له؛ تعظيماً لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء.

فائدة: والحكمة في إخبار الله تعالى للملائكة، عن خلق آدم واستخلافه في الأرض؛ تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.

---

(١) العمدة.

وقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ الآية. ليس[1] اعتراضاً على الله، ولا حسداً لبني آدم؛ وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك. يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض؟ وإنما[2] علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون في الأرض، بإعلام الله إياهم ذلك، وقيل: كان في الأرض جنٌّ فأفسدوا فيها، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلوهم، فقاست الملائكة بني آدم عليهم. وروى[3] الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء؛ وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله عليهم إبليس في جُنْدٍ من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فعلى هذا القول المعنى: إني جاعل في الأرض خليفة من الجن يخلفونهم فيها، فيسكنونها ويعمرونها. انتهى. ابن جرير.

وفي «المراح» روى الضحاك عن ابن عباس: أنه تعالى إنما[4] قال هذا القول، للملائكة الذين كانوا في الأرض محاربين مع إبليس، لأن الله تعالى لما أسكن الجن الأرض فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، بعث الله إبليس مع جند من الملائكة، فقتلهم إبليس مع عسكره حتى أخرجوهم من الأرض، وألحقوهم بجزائر البحر، وهؤلاء خُزَّان الجنان، أنزلهم الله تعالى من السماء إلى الأرض؛ لطرد الجن إلى الجزائر والجبال، وسكنوا الأرض، فخفف الله عنهم العبادة، وكان إبليس يعبد الله، تارةً في الأرض، وتارةً في السماء، وتارةً في الجنة، فدخله العُجب، فقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا الملك إلا لأني أكرم الملائكة عليه، فقال تعالى له ولجنده هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها:

---

(١) ابن كثير.
(٢) شهيل.
(٣) ابن جرير.
(٤) المراح.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، تخصيص آدم بالخلافة في الأرض، وبعلم ما لم تعلمه الملائكة، ذكر هنا نوعاً من التكريم أكرمه الله تعالى به، وهو أمر الملائكة بالسجود له، وهو أعلى وجوه التكريم والتشريف لهذا لنوع الإنساني.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما شرف آدم برتبة العلم بإسجاد الملائكة له، امتَّن عليه بأن أسكنه الجنة التي هي دار النعيم وأباح له جميع ما فيها إلا الشجرة، على ما سيأتي فيها إن شاء الله تعالى. ذكره في «البحر».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ﴾ مفعول اذكر مقدراً؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك وأخبرهم إذ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾؛ أي: قصة ذلك الوقت، وتوجيه[1] الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث، مع أنها المقصودة بالذات؛ للمبالغة في إيجاب ذكرها؛ لما أن إيجاب ذكر الوقت، إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني؛ ولأن الوقت مشتمل عليها، فإذا استحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها، كأنَّها مشاهدة عياناً، واللام في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للتبليغ وتقديم الجار والمجرور في هذا الباب مطردٌ؛ لما في المقول من الطول غالباً مع ما فيه من الاهتمام بما قُدم والتشويق إلى ما أُخر، والملائكة[2]: جمع ملك بوزن فعل، قاله ابن كيسان، وقيل: جمع مَلأَكٍ بوزن مفعل، قاله أبو عبيدة من لأك إذا أرسل، والأُلوكة: الرسالة، قال لبيد:

وغُـلامٌ أرْسَلَتْهُ أُمُّهُ ... بِأُلوكٍ فَبَذَلْنا مَا سَأَلْ

وقال عدِيٌّ بن زيد:

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

أبلغ النُّعمان عَنِّي مَأْلكاً   أنَّه قَدْ طَالَ حَبْسِي وانْتِظَارْ

ويقال: ألكني؛ أي: أرسلني، وقال النضر بن شميل: لا اشتقاق لمَلَك عند العرب، والهاء في الملائكة؛ لتأكيد تأنيث الجمع، ومثله: الصلادمة والصلادم: الخيل الشداد واحدها صلدمٌ، وقيل: هي للمبالغة، كعلاَّمة، ونسابة وسُموا[1] بها؛ لأنهم وسائط بين الله وبين الناس فهم رسله؛ لأنَّ أصل ملك: مَلْأَكٌ مقلوب مألك من الألوكة وهي الرسالة، كما مرَّ آنفاً، والملائكة عند أكثر المسلمين: أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة. والدليل: أن الرسل كانوا يرونهم كذلك، وروي في بيان كثرتهم: أن بني آدم عشر الجن، وهما عشر حيوانات البر، والكل عشر الطيور، والكل عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، ثم كل أولئك في مقابلة الكرسي نزرٌ قليلٌ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادقٍ واحدٍ من سرادقات العرش، التي عددها ستمائة ألفٍ، طول كل سرادق، وعرضه، وسمكه، إذا قوبلت به السمٰوات والأرض وما فيهما، وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملكٌ ساجدٌ، أو راكعٌ، أو قائمٌ، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتقديس، ثُمَّ كُلُّ هؤلاء في مقابلة الذين يحومون حول العرش، كالقطرة في البحر، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام، والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام، لا يحصى أجناسهم، ولا مدة أعمارهم، ولا كيفيات عباداتهم إلا باريهم العليم الخبير، على ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وأراد بهم هنا الملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله خلق السماء والأرض، وخلق الملائكة والجن، فأسكن الملائكة في السماء، وأسكن الجن في الأرض، والجن هم بنو الجان، والجان: أبو الجن، كآدم أبو البشر، وخلق الله الجان من لهب من نار، لا دخان لها بين السماء والأرض، والصواعق تنزل منها، ثم لما سكنوا فيها كثر نسلهم، وذلك قبل آدم بستين ألف سنة، فعمروا دهراً طويلاً في

---

(١) روح البيان.

الأرض، مقدار سبعة آلاف سنة، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي، فأفسدوا وقتلوا، فبعث الله إليهم ملائكة سماء الدنيا، وأَمَّر عليهم إبليس، وكان اسمه عزازيل، وكان أكثرهم علماً، فهبطوا إلى الأرض حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحور وشعوب الجبال، وسكنوا الأرض، وصار أمر العبادة عليهم أخف؛ لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السموات يكون خوفهم أشدَّ، وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم أيسر من الذين فوقهم، وأعطى الله إبليس مُلْك الأرض، وملك السماء الدنيا، وخزانة الجنة، وكان له جناحان من زمرد أخضر، وكان يعبد الله تارة في الأرض، وتارة في السماء، وتارة في الجنة، فدخله العجب، فقال في نفسه: ما أعطاني الله هذا المُلك إلا لأني أكرم الملائكة عليه، وأيضاً: كُلُّ من اطمأن إلى الدنيا أُمِر بالتحوُّل عنها، فقال الله له ولجنوده ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾؛ أي: خالق ومصيِّر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دون السماء؛ لأن التباغي والتظالم كان في الأرض ﴿خَلِيفَةً﴾ ورسولاً يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وهو آدم عليه السلام، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أو خالقٌ فيها بدلاً منكم، وهو آدم عليه السلام؛ لأنه خلف الجن وجاء بعدهم؛ ولأنه خليفة الله في أرضه؛ أي: أريد أن أخلق في الأرض بدلاً منكم، ورافعكم إليَّ، فكرهوا ذلك؛ لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادةً، والمراد به: آدم عليه السلام. وقرأ الجمهور: ﴿خَلِيفَةً﴾ بالفاء وقرأ زيد بن علي، وأبو البَرْ، هَشِيْم عمران ﴿خليقة﴾ بالقاف، ومعناه واضحٌ ذكره في «البحر».

واعلم[1] أن الله تعالى، يحفظ العالم بالخليفة، كما يحفظ الخزائن بالختم، فالبدء كان آدم، والختام يكون بعيسى عليه السلام، والحكمة في الاستخلاف: قصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقِّي أمره بغير واسطة؛ لأن المفيض

---

(١) روح البيان.

تعالى في غاية التنزُّه والتقدُّس، والمستفيض منغمسٌ في العلائق الدنيئة، كالأكل والشرب، وغيرهما، والعوائق الطبيعية، كالأوصاف الذميمة، فالاستفاضة منه إنما تحصل بواسطة ذي جهتين؛ أي: ذي جهة التجرُّد، وجهة التعلق، وهو الخليفة أيّاً كان، ولذا لم يستنبىء الله سبحانه ملكاً، فإن البشر لا يقدر على الاستفادة منه؛ لكونه خلاف جنسه، ألا ترى أن العَظْم لمَّا عجز عن أخذ الغذاء من اللحم؛ لما بينهما من التباعد، جعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضروف، والأعصاب المناسب، ليأخذ من اللحم ويعطي العظم، وجعل السلطان الوزير بينه وبين رعيته، إذ هم أقرب إلى قَبولهم منه، وجعل المستوقد الحطب اليابس بين النار وبين الحطب الرطب، وحكمة قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أربعة أمور:

الأول: تعليم المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة، ويقال: أعقَلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولى الألباب، وأفره الدواب لا يستغني عن السوط، وأورع النساء لا تستغني عن الزوج.

والثاني: إظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وهو قوله: ﴿أَتَجْعَلُ﴾. إلخ. وجوابه وهو قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والثالث: تعظيم شأن المجعول، بأن بشر بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه.

والرابع: بيان أن الحكمة تقتضي ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير، لأجل الشر القليل، شرٌّ كثير، كقَطْعِ العضوِ الذي فيه أكلةٌ شرٌّ قليلٌ، وسَلاَمَةُ جميع البدن، خيرٌ كثيرٌ، فلو لم يُقْطَعِ ذلكَ العضوُ، سَرَتْ تلك الآفة إلى جميع البدن، وأدَّتْ إلى الهلاك الذي هو شرٌّ كثير.

﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالت الملائكة استكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة، لا اعتراضاً على الله تعالى، ولا طعناً في بني آدم على سبيل الغِيبة، وهو كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قالت الملائكة حينئذٍ، فقيل: قالوا:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾؛ أي: أتجعل يا إلٰهنا في الأرض خليفة ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية، كما أفسدت الجن، وفائدة تكرار الظرف؛ تأكيد الاستبعاد ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بمقتضى القوة الغضبية؛ أي: يصبُّ الدماء ظلماً، كما سفك بنو الجان، فغفلوا عن مقتضى القوة العقلية التي يحصل بها الكمال والفضل، والتعبير عن القتل بسفك الدماء؛ لما أنه أقبح أنواع القتل وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيَسْفِكُ﴾ بكسر الفاء ورفع الكاف، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبلة بضم الفاء، وقرىء ﴿وَيُسْفِكُ﴾ من أسفك الرباعي و﴿يُسَفِّكُ﴾ من سَفَّك المشدد، وقرأ ابن هرمز ﴿وَيُسْفِكَ﴾ بنصب الكاف، فمن رفع الكاف عطف على يُفْسِدُوا ومَنْ نصب، فقال المهدوي: هو نصب في جواب الاستفهام، وهو تخريج حسن.

وفي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إيماءً[2] إلى أن ملائكة الأرض هم الطاعنون، إذ الظن لا يصدر إلا ممن هو في مَعْرِض ذلك المَنْصِب، وأهل السمٰوات مدبِّرات للعالم العلوي، فما قالت الملائكة الأرضية إلا بمقتضى نشأتهم التي هم عليها، من غبطة منصب الخلافة في الأرض، والغَيرةِ على منصب ملكهم وتعبُّدهم، بما هم عليه من التسبيح والتقديس، فكلُّ إناء يَترَشَّحُ بما فيه، وأما الاعتراضُ على فعل الحكيم، والنزاعُ في صُنْعه عند حضرته، فمعفوٌّ عنه؛ لكمال حكمته، وفي «الفتوحات»: إن هاروت وماروت من الملائكة الذين نازعوا آدم، ولأجل هذا ابتلاهما الله تعالى بإظهار الفساد، وسفك الدماء، فَٱفْهَمْ سِرَّ قوله ﷺ: «دَع الشَّماتة عن أخيك، فيعافيه الله تعالى، ويبتليك» وأيضاً من تلك الملائكة الطاعنين بسفك الدماء: الملائكةُ التي أرسلها الله تعالى نصرةً للمجاهدين، وسَفْكِ الدماء غيرةً على دين الله وشرعه، كذا في «حل الرموز وكشف الكنوز».

﴿وَنَحْنُ﴾؛ أي: والحال إنّا ﴿نُسَبِّحُ﴾؛ أي: ننزهك عن كل ما لا يليق

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بشأنك ملتبسين ﴿بِحَمْدِكَ﴾ وثنائك على ما أنعمت به علينا، من فنون النعم التي من جملتها، توفيقنا لهذه العبادة، فالتسبيح؛ لإظهار صفات الجلال، والحمد؛ لتذكير صفات الإنعام ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ تقديساً ﴿لَكَ﴾؛ أي: نصفك بما يليق بك، من العلوّ والعزة، وننزهك عما لا يليق بك، فاللام للبيان، كما في سقياً لك، متعلقة بمصدر محذوف، ويجوز أن تكون مزيدةً؛ أي: نقدسك. قال في «التَّيْسِير» التسبيح: نفي ما لا يليق به، والتقديس: إثبات ما يليق به، وكأنَّه قيل: أتستخلف مَنْ شأنُ ذريته الفساد، مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلاً، والمقصودُ: عَرْضُ أحقيتهم منهم بالخلافة، والاستفسارُ عمَا رَجَح بني آدم عليهم مع ما هو متوقَّع منهم من الفساد، وكأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى جواباً لهم ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم ﴿ما لا تعلمون﴾ه؛ لأنه قد يكون من ذريته الطائع والعاصي، فيظهر الفضل والعدل، وقد يكون منهم من يسبحني، ويقدسني، ويحمدني، فلا تعترضوا على حكمي وتقديري، ولا تستكشفوا عن غيبة تدبيري، فليس كلُّ مخلوق يطلع على غيب الخالق، ولا كلُّ أحدٍ من الرعية يقف على سرِّ الملك، وقالت الملائكة فيما بينهم: لن يخلق ربنا خلقاً أكرَمَ عليه منا، ولا أعلَمَ؛ لسبقنا له، ورؤيتنا ما لم يره، فخلق الله آدم من أديم الأرض؛ أي: ترابها، وسواه ونفخ فيه من روحه، فصار حيواناً حساساً بعد أن كان جماداً ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]؛ أي: خلق في قلبه علماً بأسماء كل ما خلق، من أجناس المحدثات بجميع اللغات المختلفة التي يتكلَّم بها أولاد آدم اليوم، بعد أن عرض عليه المسميات، كما عرضها على الملائكة، فعِلْمُ المسميات مشترك بينه وبينهم، واختصاصه عنهم إنما هو بالأسماء، فكان يعرف أن هذا الجرم يسمى بكذا، وهم يعرفون الجرم ولا يعرفون اسمه، ففاق عليهم بعلم الأسماء.

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى، لما أخبر[2] الملائكة عن وجه الحكمة في

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يفصِّل، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علَّمه الأسماء؛ ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم، فأكَّد الجواب الإجمالي بالتفصيل، ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا؛ لأنه بها يتمُّ المعنى ويصحُّ هذا العطف، تقديرها: فجعل في الأرض خليفة، ولما كان لفظ الخليفة محذوفاً مع الجملة المقدرة، أبرزه في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ ناصًّا عليه ومنوِّها بذكره باسمه، وأبعَدَ مَن زعم: أنَّ وعلَّم آدم معطوفٌ على قوله (قال) من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾ وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء، كما كلم موسى في الأرض، أو بواسطة ملك، أو بالإلهام[1] أقوال أظهرها: أن الباري سبحانه هو المعلم، لا بواسطة، ولا إلهام. وقرأ اليمانيُّ، ويزيد اليزيديُّ ﴿وعُلِّمَ آدمُ﴾ مبنياً للمفعول، وحذف الفاعل؛ للعلم به. والتضعيف في عَلَّم؛ للتعدية، إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد، فعدِّي به إلى اثنين، وليست التعدية بالتضعيف مقيسةً، إنما يُقتصر فيه على مورد السماع، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازماً، أم كان متعدياً، نحو: عَلَّم المتعدية إلى واحد، وأما إن كان متعدياً إلى اثنين، فلا يحفظ في شيء منه التعدية بالتضعيف إلى ثلاثة.

فصل في قصة خلق آدم عليه السلام

قال وهب بن منبه[2]: لما أراد الله أن يخلق آدم، أوحى إلى الأرض؛ أي: أفهمها وألهمها أني جاعل منك خليفة، فمنهم من يطيعني فأدخله الجنة، ومنهم من يعصيني فأدخله النار، فقالت الأرض: مني تخلق خلقاً يكون للنار؟ قال: نعم، فبكت فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة، وبعث إليها جبريل عليه السلام؛ ليأتيه بقبضةٍ من زواياها الأربع، من أسودها، وأبيضها، وأحمرها، وأطيبها، وأخبثها، وسهلها، وصعبها، وجبلها، فلما أتاها جبريل ليقبض منها، قالت الأرض: بالله الذي أرسلك، لا تأخذ مني شيئاً، فإن منافع التقرب إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

السلطان كثيرةٌ، ولكن فيه خطر عظيم، فرجع جبريل عليه السلام إلى مكانه، ولم يأخذ منها شيئاً، فقال: يا رب! حلفتني الأرض باسمك العظيم، فكرهت أن أقدم عليها، فأرسل سبحانه ميكائيل عليه السلام، فلما انتهى إليها، قالت الأرض له، كما قالت لجبريل، فرجع ميكائيل، فقال كما قال جبريل، فأرسل الله سبحانه إسرافيل عليه السلام، وجاء ولم يأخذ منها شيئاً، وقال مثل ما قال جبريل، وميكائيل، فأرسل الله تعالى، ملك الموت، فلما انتهى إليها، قالت الأرض: أعوذ بعزة الله الذي أرسلك، أن تقبض مني اليوم قبضة يكون للنار فيها نصيب غداً! فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بعزته أن أعصي له أمراً! فقبض قبضة من وجه الأرض، مقدار أربعين ذراعاً من زواياها الأربع، فلذلك يأتي بنوه أخيافاً؛ أي: مختلفين على حسب اختلاف ألوان الأرض وأوصافها، فمنهم الأبيض، والأسود، والأحمر، واللين، والغليظ، فصار كل ذرة من تلك القبضة أصل بدن للإنسان، فإذا مات يدفن في الموضع الذي أخذت منه، ثم صعد إلى السماء، فقال الله سبحانه له: (أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك)، فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها، فقال: أنت تصلح لقبض أرواح ولده. قال في «روضة العلماء»: فشَكَت الأرض إلى الله تعالى، وقالت: يا رب نقص مني! قال الله تعالى: (عليَّ أن أرد إليك أحسن وأطيب ممن كان) فمن ثمَّة يحنط الميت بالمسك والغالية. انتهى.

فأمر الله تعالى عزرائيل، فوضع ما أخذ من الأرض في وادي نعمان بين مكة والطائف، بعد ما جعل نصف تلك القبضة في النار، ونصفها في الجنة، فتركها إلى ما شاء الله، ثم أخرجها، ثم أمطر عليها من سحاب الكرم، فجعلها طيناً لازباً، وصور منه جسد آدم.

واختلفوا في خلقة آدم عليه السلام، فقيل: خلق في سماء الدنيا، وقيل: في جنةٍ من جنات الأرض بغربيتها، كالجنة التي يخرج منها النيل، وغيره من الأنهار، وأكثر المفسرين: أنه خلق في جنة عدن، ومنها أُخرج، كما في «كشف الكنوز». وفي الحديث القدسي: (خَمَرت طينةَ آدم بيدي أربعين صباحاً) يعني أربعين يوماً، كل يوم منه ألف عام من أعوام الدنيا، فتركه أربعين سنةً حتى يبس وصار صلصالاً، وهو الطين المصوت من غاية يبسه، كالفخار، فأمطر عليه مطر

الحزن تسعاً وثلاثين سنة، ثم أمطر عليه مطر السرور سنة واحدة؛ فلذلك كثرت الهموم في بني آدم، ولكن يصير عاقبتها إلى الفرح، كما قيل: إن لكل بدايةٍ نهايةً، وإنَّ مع العسر يسرا.

وكانت الملائكة يمرون عليه، ويتعجبون من حسن صورته، وطول قامته؛ لأن طوله كان خمس مئة ذراع، الله أعلم بأيِّ ذراع، وكان رأسه يمسُّ السماء، ولم يكونوا رأوا قبل ذلك صورةً تشابهها، فمرَّ به إبليس فرآه، ثم قال: لأمر ما خلقت، ثم ضربه بيده فإذا هو أجوف، فدخل من فيه وخرج من دبره، وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة: هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك، ثم قال لهم: أرأيتم إنْ فُضِّل هذا عليكم ما أنتم فاعلون. قالوا: نطيع ربنا، فقال إبليس في نفسه: والله لا أطيعه إن فُضِّل عليَّ، ولئن فُضِّلت عليه لأهلكنه، وجمع بزاقه في فمه وألقاه عليه، فوقع بزاق اللعين على موضع سرة آدم عليه السلام، فأمر الله جبريل، فقور بزاق اللعين من بطن آدم، فحفرة السرة من تقوير جبريل، وخلق الله من تلك القوارة كلباً، وللكلب ثلاث خصال، فأُنسه بآدم؛ لكونه من طينه، وطول سهره في الليل؛ من أثر مس جبريل عليه السلام، وعضه الإنسان، وغيره، وأذاه من غير خيانةٍ من أثر بزاق اللعين، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة، وسمي بآدم؛ لكونه من أديم الأرض؛ لأنه مؤلَّف من أنواع ترابها، ولمَّا أراد الله سبحانه أن ينفخ فيه الروح، أمره أن يدخل فيه، فقال: الروح موضعٌ بعيد القعر، مظلم المدخل، فقال له: ثانياً: أدخل، فقال كذلك، فقال له ثالثاً: فقال كذلك، فقال: أدخل كرهاً؛ أي: بلا رضى، واخرج كرهاً، ولذا لا يخرج من البدن إلا كرهاً، فلما نفخه فيه مَرَّ في رأس آدم، وجبينه، وأذنيه، ولسانه، ثم مَرَّ في جسده كله حتى بلغ قدميه، فلم يجد منفذاً، فرجع إلى فخذيه، فعطس، فقال له ربُّه: قل الحمد لله رب العالمين، فقالها آدم، فقال سبحانه له: يرحمك الله، ولذا خلقتك يا آدم، فلما انتهى إلى ركبتيه أراد الوثوب فلم يقدر فلما بلغ قدميه وثب، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فصار بشراً لحماً ودماً، وعظاماً وعصباً، وأحشاءً، ثم كساه لباساً من ظفر يزداد جسده في كل يوم، وهو في ذلك منتطق متوج، وجعل في جسده تسعة أبواب، سبعةً في رأسه، أذنين يسمع بهما،

وعينين يبصر بهما، ومنخرين يجد بهما كل رائحة، وفماً فيه لسان يتكلم به، وحنك يجد به طعم كل شيء، وبابين في جسده وهما قبله ودبره، يخرج منهما ثفل طعامه وشرابه، وجعل عقله في دماغه، وشرهه في كليتيه، وغضبه في كبده، وشجاعته في قلبه، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وفرحه وحزنه في وجهه، فسبحان من جعله يسمع بعظم، ويبصر بشحم، وينطق بلحم، ويعرف بدم، فلما سوّاه ونفخ فيه من روحه علَّمه أسماء الأشياء كلها؛ أي: ألهمه، فوقع في قلبه فجرى على لسانه بما في قلبه بتسمية الأشياء من عنده، فعلمه جميع أسماء المسميات بكل اللُّغات، بأن أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرسٌ، وهذا اسمه بعيرٌ، وهذا اسمه كذا، وعلَّمه أحوالها وما يتعلَّق بها من المنافع الدينية والدنيوية، وعلمه أسماء الملائكة، وأسماء ذريته كلهم، وأسماء الحيوانات والجمادات وصنعة كل شيء، وأسماء المدن والقرى، وأسماء الطير والشجر وما يكون، وكل نسمة يخلقها إلى يوم القيامة، وأسماء المطعومات والمشروبات، وكل نعيم في الجنة، وأسماء كل شيء حتى القصعه والقُصيعة، وحتى الجُنَّة والمحلب ـ والقصعة إناءٌ الأكل معروف، والقُصيعة تصغيرها يعني: حتى الوضيع والحقير، والجُنة الترس، والمحلب إناء يحلب فيه.

وفي الخبر: لما خلق الله آدم، بثَّ فيه أسرار الأحرف، ولم يبث في أحد من الملائكة، فخرجت الأحرف على لسان آدم بفنون اللغات، فجعلها الله صوراً له ومثلت له بأنواع الأشكال. وفي الخبر: علَّمه سبعمائة ألف لغة، فلما وقع في أكل الشجرة سلب اللغات إلا العربية، فلما اصطفاه بالنبوة رد الله عليه جميع اللغات، فكان من معجزاته، تكلمه بجميع اللغات المختلفة التي يتكلَّم بها أولاده إلى يوم القيامة، من العربية، والفارسية، والرومية، والسريانية، واليونانية، والعبرانية، والزنجية، والآرامِيَّة، وغيرها.

قال بعض المفسرين: علم الله آدم ألف حرفة من المكاسب، ثم قال: قل لأولادك: إن أردتم الدنيا فاطلبوها بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين وأحكام الشرائع. وكان آدم حراثاً؛ أي: زراعاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وصالح تاجراً، وداود زرَّاداً، وسليمان كان يعمل الزنبيل في سلطنته، ويأكل من ثمنه ولا

يأكل من بيت المال، وكان موسى، وشعيب، ومحمد رعاةً، وكان أكثر عمله ﷺ في البيت الخياطة، وفي الحديث: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة وعمل الأبرار من النساء الغزل» كذا في «روضة الأخيار».

وقال العلماء: الأسماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ تقتضي الاستغراق واقتران قوله ﴿كُلَّهَا﴾ يوجب الشمول، فكما علمه أسماء المخلوقات علّمه أسماء الحق تعالى، فإذا كان تخصيصه بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضي أن يصح سجود الملائكة له، فما الظنُّ بتخصيصه بمعرفة أسماء الحق، وما الذي يوجب له؟!

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ أي: ثم عرض الله سبحانه وتعالى مسميات تلك الأسماء وأظهرها ﴿عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ وسألهم عن أسمائها تبكيتاً لهم، وإظهاراً لفضل آدم عليه السلام، وذكَّر[1] الضمير في قوله: ﴿عَرَضَهُمْ﴾؛ لأن في المسميات العقلاء فغلَّبهم على غيرهم، والعرض: إظهار الشيء للغير ليعرف العارض منه حاله. وفي الخبر: أنه عرضهم أمثال الذر، ولعله سبحانه وتعالى، عرض عليهم من أفراد كل نوع، ما يصلح أن يكون أنموذجاً يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها. والحكمة في التعليم والعرض؛ تشريف آدم واصطفاؤه، وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة في غيب علمه تعالى، على لسان من يشاء من عباده، وهو المعلِّمُ المكرَّم آدمَ الصفيَّ، كيلا يحتجَّ المَلَك وغيره عليه بعلمه ومعرفته، وذلك رحمة الله التي وسعت كل شيء. وثُمَّ[2]: حرف تراخ ومهلة؛ يعني: علَّم آدم، ثم أمهله من ذلك الوقت إلى أن قال: أنبئهم بأسمائهم ليتقرَّر ذلك في قلبه ويتحقق المعلوم؛ ثم أخبرهم عما تحقق به واستيقنه. وأما الملائكة، فقال لهم على وجه التعقيب من غير مهلة: نبئوني، فلما لم يتقدَّم لهم تعريفٌ، لم يخبروا، ولمَّا تقدم لآدم التعليم، أجاب وأخبر ونطق؛ إظهاراً لعنايته السابقة به سبحانه.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ أبي[1]: ﴿ثُمَّ عرضها على الملائكة﴾ وقرأ عبد الله ﴿ثم عرضهُنَّ﴾ والضمير عائد على الأسماء فتكون هي المعروضة، أو يكون التقدير مسمياتها، فيكون المعروض المسميات لا الأسماء،كما مرَّ. وقوله: ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ظاهرة العموم، فقيل: هو المراد، وقيل: الملائكة الذين كانوا مع إبليس في الأرض. والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى علم[2] آدم الأجناس التي خلقها، وألهمه معرفة ذواتها، وخواصّها، وصفاتها، وأسمائها ولا فارق بين أن يكون هذا العلم في آنٍ واحدٍ، أو آناتٍ متعددة، فالله قادر على كل شيء. وإن كان لفظ عَلَّم يشعر بالتدريج، كما يشهد له نظائره من نحو: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ إلى نحو ذلك من الآيات التي فيها لفظ التعليم. لكن المتبادر هنا أنه كان دفعةً واحدة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ أي: ثم أطلع الملائكة على مجموعة تلك الأشياء إطلاعاً إجمالياً بالإلهام، أو غيره، مما يليق بحالهم، وربما كان بعرض نماذج من كل نوع يتعرف منها أحوال البقية وأحكامها، كما مرَّ. وتقدم لك أن الحكمة في التعليم والعرض؛ تشريف آدم واصطفاؤه، كي لا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم؛ وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة في غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده.

﴿فَقَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى للملائكة تبكيتاً وتعجيزاً لهم، وخطاب[3] التعجيز جائزٌ، وهو الأمر بإتيان الشيء، ولم يكن إتيانه مراداً ليظهر عجز المخاطب، وإن كان ذلك محالاً، كالأمر بإحياء الصورة التي يفعلها المصورون يوم القيامة، ليظهر عجزهم ويحصل لهم الندم، ولا ينفعهم الندم. والفاء[4] في قوله: ﴿فَقَالَ﴾ للتعقيب؛ أي: ولم يتخلل بين العرض والأمر مهلة بحيث يقع فيها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

(٤) البحر المحيط.

تَروٍّ أو فِكْرٍ، وذلك أجدر بعدم الإجابة ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾، أي: أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسميات فرداً فرداً، أو بأسماء هؤلاء الموجودات، كما في «الروح».

وقرأ الأعمش[1]: ﴿نَبُّوني﴾ بغير همز. وقد استدل بقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ على جواز تكليف ما لا يُطاق، وهو استدلال ضعيف؛ لأنه على سبيل التبكيت، ويدل عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وظاهر قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حضور أشخاص من الموجودات حالة العرض على الملائكة، ومن قال إن المعروض إنما هي أسماء فقط، جعل الإشارة إلى أشخاص الأسماء وهي غائبةٌ، إذ قد حضر ما هو منها سببٌ، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم: لأيِّ شخصٍ هذا الاسم؟ وهذا فيه بُعْدٌ وتَكَلُّفٌ، وخروج عن الظاهر بغير داعية إلى ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته، كما ينبىء عنه مقالكم، وهذا شرط[2] جوابه محذوف، تقديره: فأنبئوني يدل عليه أنبئوني السابق، ولا يكون أنبئوني السابق هو الجواب. هذا مذهب سيبويه، وجمهور البصريين، وخالف الكوفيون، وأبو زيد، وأبو العباس، فزعموا: أن جواب الشرط هو المتقدم في نحو هذه المسألة، والصدق هنا هو الصواب، أي: إن كنتم مصيبين، كما يطلق الكذب على الخطأ، كذلك يطلق الصدق على الصواب، ومتعلق الصدق فيه أقوال: إن كنتم صادقين في أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه؛ لأنه هجس في أنفسهم أنهم أعلم من غيرهم، أو فيما زعمتم أن خلفائي يفسدون في الأرض، أو فيما وقع في نفوسكم أني لا أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه، أو بأمور مَن أستَخْلِفُهم بعدكم، أو إني إن استخلفتكم فيها سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت غيركم عصاني، أو في قولكم: إنه لا شيء مما يتعبد به الخلق، إلا وأنتم تصلحون له وتقومون به. قاله ابن مسعود، وابن عباس، أو في ذلك الإنباء، وجواب السؤال بالأسماء.

وأبعَدَ مَن ذهب إلى أن الصدق هنا ضد الكذب المتعارف؛ لعصمة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الملائكة، كما أَبعَدَ مَن جعل إن بمعنى إذ، فأخرجها عن الشرطية إلى الظرفية. وإذا التقت همزتان مكسورتان من كلمتين نحو: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فورش، وقنبل، يبدلان الثانية ياء ممدودة، إلا أن ورشاً في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ﴾ و﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ﴾ أبدل الهمزة الثانية ياءً خفيفة الكسر، أي: مختلة الكسر، وقالون، والبزي، يُسَهِّلان الأولى، ويحققان الثانية. ذكره في «البحر».

ويقال: هذه الآية دليل[1] على أن أولى الأشياء بعد علم التوحيد، تعلم علم اللغة؛ لأنه تعالى أراهم فضل آدم بعلم اللغة، ودلت أيضاً: أن المدعي يطالب بالحجة، فإن الملائكة ادعوا الفضل، فطولبوا بالبرهان، وبحثوا عن الغيب، فقرعوا بالعيان؛ أي: لا تعلمون أسماء ما تعاينون، فكيف تتكلمون في فساد من لا تعاينون. فيا أرباب الدعاوي! أين المعاني؟ ويا أرباب المعرفة! أين المحبة؟ ويا أرباب المحبة! أين الطاعة؟ قال أبو بكر الواسطي: من المحال أن يعرفه العبد، ثم لا يحبه، ومن المحال أن يحبه، ثم لا يذكره، ومن المحال أن يذكره، ثم لا يجد حلاوة ذكره، ومن المحال أن يجد حلاوة ذكره، ثم يشتغل بغيره. قال أبو عثمان المغربي: ما بلاء الخلق إلا الدعاوي، ألا ترى أن الملائكة لمَّا قالوا: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ كيف ردوا إلى الجهل حتى قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ ذكره في «البحر».

وقوله: ﴿قالوا﴾ استئناف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قالوا حينئذٍ؟ هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أولاً؟ فقيل: قالوا؛ أي: قالت الملائكة اعترافاً لعجزهم وقصورهم ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك في حكمك، وتبنا إليك من ذلك القول، أو نسبِّحك عما لا يليق بشأنك الأقدس، من الأمور التي من جملتها خلوُّ أفعالك عن الحِكَم والمصالح، وهي كلمة تُقدَّم على التوبة. قال موسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ وقال يونس عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسبحان: اسم واقع

---

(١) روح البيان.

موقع المصدر، لا يكاد يستعمل إلا مضافاً، فإذا أفرد عن الإضافة، كان اسماً علماً للتسبيح، لا ينصرف للتعريف والألف والنون في آخره، نحو: قول الأعشى:

أقولُ لمَّا جاءَني فَخْرُهُ سُبحانَ مِنْ عَلْقَمةِ الفَاخِرِ

فجعله علماً، فمنعه الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون، وأما صَرْفُه في قول الآخر:

سبحانه ثم سبحاناً نعوذ به وقَبْلنا سَبَّح الجُودِيُّ والجَمَدُ

فضرورةٌ، وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ اعترافٌ منهم بالعجز عما كلفوه، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، إذ معناه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وألهمتنا بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا، ولا قدرة لنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا، حتى لو كنا مستعدين لذلك، لأفضته علينا، يعنون: أن علمهم علم محدود لا يتناول جميع الأشياء، ولا يحيط بكلِّ المسميات، وفيه ثناء على الله بما أفاض عليهم من العلم مع تواضعٍ وأدب، وما في قوله: ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ موصولة، أو موصوفة، ومحلُّه رفع على أنه بدل من موضع ﴿لَا عِلْمَ﴾ كقولك لا إله إلا الله؛ أي: لا علم لنا إلا العلم الذي علمتناه، أو علماً علمتناه.

والمعنى: أي[1] لا معلوم عندنا إلا المعلوم الذي علمتناه من المسميات، فلا علم لنا بأسمائها؛ أي: وإنما قلنا لك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾؛ لأنك أعلمتنا أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقلنا لك ذلك، وأمَّا هذه الأسماء، فإنك ما أعلمتنا إياها فكيف نعلمها، ثم أكدوا ما تقدم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب، أو في محل النصب تأكيد لاسم إن ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بعلمه كل الأشياء فلا تخفى عليه خافيةٌ، وهذه إشارةٌ إلى تحقيقهم لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، المحكِم

---

(1) العمدة.

لمبتدعاته، الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ بالغةٌ. وناسب[١] تقديم الوصف بالعلم على تقديم الوصف بالحكمة؛ لأنه المتصل به في قوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾ ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة، هو العلم، فناسب ذكره متصلاً به؛ ولأنَّ الحكمة إنما هي آثار العلم، وناشئةٌ عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة؛ وليكون آخر مقالهم مخالفاً لأوله، حتى يتبين رجوعهم عن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وفي هذا الجواب[٢] منهم، إيذان بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب عليهم أن لا يغفلوا عن مثله، من التفويض إلى واسع علم الله وعظيم حكمته، بعد أن تبيَّن لهم ما تبيَّن، وإيماءٌ إلى أنَّ الإنسان ينبغي له أن لا يغفل عن نقصانه، وعن فضل الله عليه وإحسانه، ولا يأنف أن يقول لا أعلم إذا لم يكن يعلم، ولا يكتم الشيء الذي يعلم.

وقال العلماء: قول الشخص لا أدري نصف العلم، وسئل[٣] أبو يوسف القاضي عن مسألة؟ فقال: لا أدري، فقالوا له: تَرْتَزِق من بيت المال كُلَّ يوم كذا وكذا، ثم تقول لا أدري، قال: إنما أرتزق بقدر علمي، ولو أعطيت بقدر جهلي لم يسعني مال الدنيا، وحكي: أن عالماً سئل عن مسألة وهو فوق المنبر؟ فقال: لا أدري، فقيل له: ليس المنبر موضع الجُهَّال، فقال: إنما علوت بقدر علمي ولو علوت بقدر جهلي لبلغت السماء.

وقوله: ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى لآدم كلامٌ مستأنف أيضاً ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾؛ أي: أخبر الملائكة وأعلمهم ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها؛ أي: أخبرهم بأسماء هؤلاء المسمَّيات، فسمَّى لهم كل شيء باسمه حتى القصعة والقصيعة، وبين لهم أحوال كلٍ من المسميات، وخواصَّه، وأحكامه المتعلقة بالمعاش، والمعاد.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقال: ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾[1] دون أنبئني؛ للإشارة إلى أنَّ علمه عليه السلام بها ظاهرٌ، لا يحتاج إلى ما يجري مجرى الامتحان، وإلى أنه جديرٌ أن يعلِّم غيره، فتكون له منَّة المعلِّم المفيد، ولهم مقام المتعلم المستفيد؛ ولئلا تستولي عليه الهيبة، فإنَّ إنباء العالم ليس كإنباء غيره. وقرأ الجمهور ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ بالهمز وضم الهاء، وهذا هو الأصل، كما تقول: أكرمهم. وروي عن ابن عباس ﴿أَنۢبِئۡهِم﴾ بالهمز وكسر الهاء، ووجهه: أنه أتبع حركة الهاء لحركة الباء، ولم يعتدَّ بالهمزة؛ لأنها ساكنة، فهي حاجزٌ غير حصين وقرأ الحسن، والأعرج، وابن كثير، من طريق الغواس ﴿أنبهم﴾ على وزن أعطهم. قال ابن جني: وهذا على إبدال الهمزة ياء على أنه تقول: أنبيت، كأعطيت، قال: وهذا ضعيف في اللغة؛ لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر. انتهى. كلام أبي الفتح. ذكره أبو حيان في «البحر المحيط».

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ أي أنبأ آدم الملائكة ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾؛ أي: بأسماء تلك المسميات مفصلةً، وبين لهم أحوال كل منها، وخواصَّه، وأحكامه. رُوي[2] أنه رُفِع على منبر، وأمر أن ينبىء الملائكة بالأسماء، فلما أنبائهم بها وهم جلوس بين يديه، وذكر منفعة كل شيء ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى، للملائكة توبيخاً لهم وتقريراً منهم ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ يا ملائكتي، والاستفهام للتقرير مع التوبيخ؛ أي: قد قلت لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أعلم ما غاب فيهما عنكم مِمَّا كان ومما يكون، مما لا دليل عليه، ولا طريق إليه، وقيل: غيب السموات أكلُ آدم وحواء من الشجرة؛ لأنها أوَّل معصية وقعت في السماء، وغيب الأرض قتلُ قابيل هابيل؛ لأنها أوَّل معصية كانت في الأرض، وقيل غير ذلك. وذلك أنه سبحانه وتعالى، علم أحوال آدم قبل أن يخلقه، فلهذا قال لهم أعلم ما لا تعلمون ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾؛ أي: ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: تسرون من قولكم، لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، وهو استحضار لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وروى الشعبي، عن ابن عباس، وابن مسعود: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما أسر إبليس في نفسه من الكبر، ومن أن لا يسجد، وفيه تعريض[1] بمعاتبتهم على ترك الأولى من السؤال، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يُبيِّن لهم، وفي هذه الآيات دلالةٌ على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات، وعلى فضل العلم على العبادة، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم، ومع ذلك لم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة، وعلى أن شرط الخلافة العلم، بل هو العمدة فيها، وعلى أنَّ آدم أفضل من هؤلاء الملائكة، لأنه أعلم منهم، والأعلم هو الأفضل من غيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالعلم أشرف جوهراً، ولكن لا بُدّ للعبادة مع العلم، فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة، فالشرف للشجرة وهو الأصل، لكن الانتفاع بثمرتها.

وفي استخلاف[2] آدم في الأرض، معنًى سام من الحكمة الإلٰهية، خفي على الملائكة، فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من الخواص، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصَّها الكيمائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية، ولا المستحدثات الطبية، ولا شيءٌ من العلوم التي تفنَىٰ السنون، ولا يدرك الإنسان لها غايةً.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ﴾[3] ياء المتكلم المتحرك ما قبلها، إذا لقيت همزة القطع المفتوحة جاز فيها وجهان: التحريك والإسكان، وقرىء بالوجهين في السبعة

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

على اختلاف بينهم في بعض ذلك، وتفصيل ذلك مذكور في كتب القراءات.

﴿و﴾ اذكر يا محمد لأمتك قصة ﴿إذ قلنا﴾؛ أي: قصة وقت قولنا: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين أنزلهم الله سبحانه إلى الأرض؛ لطرد الجن، أو لجميع الملائكة، وهو الظاهر من قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقرأ الجمهور[1] ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بجر التاء، وقرأ أبو جعفر، يزيد بن القعقاع، وسليمان بن مهران، بضم التاء إتباعاً لحركة الجيم، ونقل أنها لغة أزد شنوءة، وقال الزجاج: هذا غلط من أبي جعفر، وقال الفارسي: هذا خطأ، ولكن لا ينبغي أن يغلَّط؛ لأنَّ القارىء بها أبو جعفر، أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً، عن عبد الله بن عباس، وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهو شيخ نافع بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة، وقد علَّل ضمَّ التاء؛ لشبهها بألف الوصل، ووجه الشبه: أنَّ الهمزة تسقط في الدرج؛ لكونها ليست بأصل، والتاء في الملائكة تسقط أيضاً؛ لأنها ليست بأصل، ألا تراهم قالوا الملائك، وقيل: ضمت؛ لأنَّ العرب تكره الضمة بعد الكسرة لثقلها.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ لله سبحانه وخروا له سجوداً شرعياً بوضع الجبهة مستقبلين إلى ﴿آدم﴾ عليه السلام قبلةً لسجودهم؛ تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله، فجعل آدم قبلةً لسجودهم، والسجود لله، كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة، والصلاة لله، أو اسجدوا لآدم سجود تحية بالانحناء من غير وضع الجبهة على الأرض.

والسجود لغةً[2]: الخضوع والانقياد. وشرعاً: وضْع الجبهة على الأرض مع أعضائه بقصد العبادة. والمأمور به؛ إما المعنى الشرعي، كما ذكرناه أولاً، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبلة سجودهم، تفخيماً لشأنه؛ وإما المعنى اللغوي، كما ذكرناه آنفاً، وهو التواضع لآدم تحيةً وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى من الأمم، ثم نسخ

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

بقوله ﷺ لسلمان الفارسي، حين أراد أن يسجد له ﷺ أوّلَ ما قَدِم على عادة ملوكهم: «لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد إلا الله تعالى، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» فتحية هذه الأمة هي السلام، لكن يكره الإنحناء؛ لأنه يشبه فعل اليهود، كما في «الدرر».

وكان هذا القول الكريم بعد إنبائهم بالأسماء[1]. قيل: لما خلق آدم، أشكل عليهم أن آدم أعلم أم هم، فلما سألهم عن الأسماء فلم يعرفوا، وسأل آدم فأخبر بها، ظهر لهم أن آدم أعلم منهم، ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم، فلما أمرهم بالسجود له، ظهر لهم فضله، ومن لطف الله تعالى بنا، أَنْ أمَر الملائكة بالسجود لأبينا، ونهانا عن السجود لغيره، فقال: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ نقَلَ الملائكة المقربين إلى آدم وسجدَتِه، ونَقَلنا إلى سجدته وخدمته.

وفائدة هذه السجدة راجعة إلى الإنسان لمعنيين:

أحدهما: أنَّ الإنسان يقتدي بهم في الطاعة، ويتأدَّب بآدابهم في امتثال الأوامر، وينزجر عن الإباء والاستكبار، كيلا يلحق به الطرد واللعن، كما لحق بإبليس، ويكون مقبولاً ممدوحاً مكرماً، كما كان الملائكة في امتثال الأمر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

وثانيهما: أن الله تعالى من كمال فضله ورحمته مع الإنسان، جعل همة الملائكة في الطاعة، والتسبيح، والتحميد مقصورةً على استعداد المغفرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فلذلك أمرهم بالسجود لأجلهم، وليستغفروا لهم.

واعلم: أن[2] الملائكة من عالم الغيب لا نعرف حقيقتهم، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف لكل صنف عمل، وقد جاء في لسان الشرع إسناد إلهام

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

الحق والخير إلى الملائكة، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين، وهو مشهور في الكتاب والسنة. فقد روى الترمذي: إن للشيطان لُمّة بابن آدم، وللمَلَك لُمّة؛ فأما لُمّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق؛ وأما لُمّة المَلَك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ واللّمّة الإلمام والإصابة، فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته، بل نؤمن بما ورد فيه ولا نزيد عليه شيئاً آخر.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾؛ أي: سجدت الملائكة كلهم أجمعون؛ أي: لآدم، دل عليه قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾؛ لأنهم خلقوا من نور، كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور» والنور من شأنه الانقياد والطاعة، وكان هذا السجود قبل دخول آدم الجنة؛ لأن الظاهر من السياق وقوع التعليم لآدم، فإنباؤه للملائكة، فأمر الملائكة بالسجود له، فإسكانه الجنة، ثم إخراجه منها وإسكانه الأرض.

وأول من سجد منهم[1]: جبريل، فأكرم بإنزال الوحي على النبيين، وخصوصاً على سيد المرسلين، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم عزرائيل، ثم سائر الملائكة، وقيل: أول من سجد: إسرافيل، فرفع رأسه، وقد ظهر كل القرآن مكتوباً على جبهته كرامة له على سبقه إلى الائتمار.

والفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ للتعقيب؛ لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال، وعدم تلَعْثُمِهم في ذلك، وهذه القصة ذكرت في القرآن في سبع سورٍ، في هذه السورة، والأعراف والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص. والحكمةُ[2] في تكريرها؛ تسليةُ النبي ﷺ، فإنه كان في محنة عظيمة في قومه وأهل زمانه، فكأنه تعالى يقول لنبيه: ألا ترى أن أول الأنبياء وهو آدم عليه السلام، كان في محنة عظيمة في مبدإ خلقه، فاصبر كما صبر.

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾؛ أي: ما سجد؛ لأنه خلق من النار، والنار من شأنها الاستكبار، وطلب العلو طبعاً، وسمي إبليس؛ لأنه أَبْلَسَ من رحمة الله؛ أي: أَيِسَ.

وللعلماء في هذا الاستثناء قولان:

القول الأول: أنه استثناء متصل؛ لأن إبليس كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة، مغموراً بهم، متصفاً بصفاتهم، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم، وأكثر المفسرين: أن إبليس من الملائكة؛ لأن خطاب السجود كان مع الملائكة، فعلى هذا كان منهم ثم أَبْلَسَ وغُضب عليه، ولُعن، فصار شيطاناً. قال البغوي: وهو الأصح وعليه الجمهور، وابن عباس، وابن مسعود، وابن المسيب، وغيرهم. قال في «التيسير»: أما وصف الملائكة بأنهم لا يعصون ولا يستكبرون، فذلك دليل تصوّر العصيان منهم، ولولا التصوُّر لما مدحوا به، لكن طاعتهم طبعٌ، وعصيانهم تكلُّف، وطاعة البشر تكلُّف، ومتابعة الهوى منهم طَبْعٌ، ولا يستنكر من الملائكة تصوُّر العصيان، فقد ذكر من هاروت وماروت ما ذكر.

والقول الثاني: أنه منقطع؛ لأنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن بالنص، قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ وروى ابن مسعود، وشهر بن حوشب. أنه من الجن الذين كانوا في الأرض، وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيراً، وتعبَّد مع الملائكة، وخوطب معهم. وعن الحافظ: أن الجن والملائكة جنس واحد، فمن طهر منهم فهو مَلَك، ومن خبث فهو شيطان، ومن كان بين بين فهو جن ﴿أَبَىٰ﴾؛ أي: امتنع عما أمر به من السجود والإباء إمتناع باختيار ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ أي: تعظم وأظهر كبره، ولم يتخذه وصلة في عبادة ربه، أو تعظيمه، وتلقيه بالتحية والتكبر، أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك بالتشبُّع؛ أي: بالتزين بالباطل وبما ليس له، ولكن السين هنا للمبالغة لا للطب، وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسبَّباً عنه؛ لظهوره ووضوح أثره، فعطفه عليه من عطف العلة على المعلول؛ أي: أبى وامتنع لكبره، كما في «الصاوي».

قالوا[1]: لما سجد الملائكة، امتنع إبليس ولم يتوجه إلى آدم، بل ولاّه ظهره وانتصب هكذا، إلى أن سجدوا وبقوا في السجود مائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة ورفعوا رؤوسهم، وهو قائم معرض لم يندم من الامتناع، ولم يعزم على الاتباع، فلمَّا رأوه عدل ولم يسجد، وهم وفِّقوا للسجود، سجدوا لله تعالى ثانياً، فصار لهم سجدتان، سجدةٌ لآدم، وسجدة لله تعالى، وإبليس يرى ما فعلوُهُ وهذا إباؤه، فغيَّر الله تعالى صفته، وحالته، وصورته، وهيئته، ونعمته، فصار أقبح من كل قبيح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ قال بعضهم: جعل ممسوخاً على مثال جسد الخنازير، ووجهه كالقردة، وللشيطان نسل وذرية، والممسوخ وإن كان لا يكون له نسل، لكن لما سأل النظرة وأُنظِر، صار له نسل. وفي الخبر: قيل له من قبل الحق: اسجد لقبر آدم أقبل توبتك، وأغفر معصيتك، فقال: ما سجدت لقالبه وجثته، فكيف أسجد لقبره وميتته. وفي الخبر أيضاً: إن الله تعالى يخرجه على رأس مائة ألف سنة من النار، ويخرج آدم من الجنة، ويأمره بالسجود لآدم فيأبى، ثم يرد إلى النار.

﴿وَكَانَ﴾ إبليس اللعين ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمرَ الله إياه بالسجود لآدم، اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوصل به، كما أشعر به قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ جواباً لقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ لا بترك الواجب وحده، وإنما قال: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يكن حينئذٍ كافر غيره؛ لأنه كان في علم الله أن يكون بعده كفار، فذكر أنه كان من الكافرين؛ أي: من الذين يكفرون بعده، وهذا كما في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال[2] أبو العالية: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: من العاصين، وصلة (أل) هنا ظاهرها الماضي؛ أي: من الذين كفروا، فيكون قد سبق إبليس كفار، وهم الجن الذين كانوا في الأرض، أو يكون إبليس أول من كفر مطلقاً، إذ لم يصح أنه كان كفار

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قبله، وإن صح فيفيد أول من كفر بعد إيمانه، أو يراد الكفر الذي هو التغطية للحق، وكفرُ إبليس قيل: جَهِلَ سلْب الله ما كان وهبه من العلم فخالف الأمر، ونزع يده من الطاعة، وقيل: كفر عناد ولم يسلب العلم، بل كان الكبر مانعه من السجود.

ومن فوائد هذه الآية[1]: استقباح الاستكبار، وأنه قد يُفْضي بصاحبه إلى الكفر، والحثُّ على الائتمار لأمره، وتَرْكُ الخوض في سره، وأنَّ الأمر للوجوب، وأنَّ الذي علم الله مِنْ حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر حقيقة، إذ العبرة بالخواتم، وإن كان بحكمِ الحالِ مؤمناً وهي مسألة المُوافاة؛ أيْ: اعتبار تمام العمر الذي هو وقت الوفاة، فإذا كان العبرة بالخاتمة، فليسارع العبد إلى الطاعات، فكل ميسر لما خلق له، كما ورد في الخبر الصحيح، خصوصاً في آخر السنة، وخاتمتها، كي يختم له الدفتر بالعمل الصالح. وفي الخبر: قيل يا رسول الله: مَنْ خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره، وساء عمله، وخيف شره، ولم يرج خيره». وقال الحسن البصري لجلسائه: يا معشر الشيوخ، ما ينتظر بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد، قال: يا معشر الشباب، فإن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يبلغ، وأنشد بعضهم:

ألاَ مَـهِّـد لـنـفـسـك قـبـل مـوت فـإنَّ الـشَّـيْـبَ تَـمْـهِـيـدُ الـحِـمَـامِ
وَقَـدْ جَـدَّ الـرَّحِـيـلُ فَـكُـنْ مُـجِـدًّا لِـحَـطِّ الـرَّحْـل فـي دارِ الـمُـقـامِ

وعن الحسن أيضاً: قال يا ابن آدم: لا تحمِّل هَمَّ سنة على يوم، كفى يومك بما فيه، فإن تكن السنةُ من عمرك، يأتك الله فيها برزقك، وإلاّ تكن من عمرك، فأراك تطلب ما ليس لك.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2] معطوف على الجملة السابقة التي هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لا على ﴿قُلْنَا﴾ وحده لاختلاف زمانيهما ومعمول القول المنادَىٰ وما بعده، وفائدة النداء؛ تنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

وتحريكه لما يخاطب به، إذ هو من الأمور التي ينبغي أن يجعل لها البال، وهو الأمر بسكنى الجنة. قالوا: ومعنى الأمر هنا: إباحة السكنى والإذن فيها مثلُ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا۟﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الاستقرار في المواضع الطيبة لا يدخل تحت التَّعبُّد.

قال القرطبي في «تفسيره»: لا خلاف أنَّ الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾؛ أي؛ أقم وامكث، ولازم الجنة، واتخذها مسكناً لك، وهو محل السكون، وليس المراد به ضِدُّ الحركة، بل اللُّبثُ والاستقرار و﴿أَنتَ﴾ تأكيد للضمير المستكن في ﴿ٱسْكُنْ﴾ وهذا أحد المواضع التي يستكن فيها الضمير وجوباً ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوفٌ على ذلك الضمير المُسْتكن، وحسن العطف عليه تأكيده بأنت، كما هو مذكور في محله؛ أي: اسكن أنت وزوجك حواء ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ يقال للمرأة الزوج والزوجة، والزوج أفصح، كما في «تفسير أبي الليث» وإنما لم يخاطبهما أوّلاً؛ تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم، والمعطوف عليه تَبَعٌ له، والجنة هي دار الثواب بإجماع المفسرين، خلافاً لبعض المعتزلة، والقدرية، حيث قالوا: المراد بالجنة بستان كان في أرض فلسطين، أو بين فارس وكرمان، خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وأوَّلُوا الهبوط بالانتقال منه إلى أرض الهند، كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، وفيه نظرٌ؛ لأن الهبوط قد يستعار للانتقال إذا ظهر امتناع حقيقته وابتعادها، وهناك ليس كذلك، وقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ هو من خطاب الأكابر والعظماء، فأخبر الله تعالى عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأنه مَلِك الملوك؛ أي: اتّخذا جنة الخلد مأوى ومنزلاً كُلَّها، وسُمي آدم؛ لأنه خُلق من أديم الأرض؛ أي: ترابها، كما مر. وسميت زوجه حوَّاء؛ لأنها خلقت من حي؛ لأنها خُلقت من ضلع آدم الأيسر، فلذا كان كل إنسان ناقصاً ضلعاً من الجانب الأيسر، فجهة اليمين أضلاعها ثمانية عشر، وجهة اليسار أضلاعها سبعة عشر.

واختلفوا[1] في خلق حواء: هل كان قبل دخول الجنة أو بعده؟ ويدل على

(١) روح البيان.

الأول: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه بعث الله جنداً من الملائكة، فحملوا آدم وحواء على سرير من الذهب مكلل بالياقوت، واللؤلؤ، والزمرد، وعلى آدم منطقة مكللة بالدر والياقوت. حتى أدخلوهما الجنة، ويدل على الثاني: ما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه لما خلق الله الجنة، وأسكن فيها آدم، بقي فيها وحده، فألقى الله عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من الجانب الأيسر، ووضع مكانه لحماً، فخلق منه حواء. ومن الناس من قال: لا يجوز أن يقال خلقت حواء من ضلع آدم؛ لأنه يكون نقصاناً منه، ولا يجوز القول بنقص الأنبياء. قلنا: هذا نقصٌ منه صورةً، تكميلٌ له معنى؛ لأنه جعلها سكنه وأزال بها وحشته، وحزنه، فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدةً، فسألها من أنت؟ فقالت: إني امرأةٌ، فقال: ولِمَ خُلقت، قالت: لتسكن إليَّ، وأسْكُن إليك، فقالت الملائكة: يا آدم! ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ؟ قال: لأنها خلقت من حي، أو لأنها أصل كل حي، أو لأنها كانت في ذقنها حوَّةٌ؛ أي: حمرةٌ مائلة إلى السواد، وقيل: في شفتها، وسميت مرأةً؛ لأنها خلقت من المرء، كما أن آدم سمي بآدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، وعاشت بعد آدم سبع سنين وسبعة أشهر، وعمرها تسعمائة وسبعٌ وتسعون سنة.

واعلم: أن الله تعالى، خلق واحداً من أب دون أم وهو حواء، وآخر من أم دون أب وهو عيسى، وآخر من أب وأم وهم أولاد آدم، وآخر من غير أب وأم وهو آدم عليه السلام، فسبحان من أظهر من عجائب صنعه ما يتحيَّر فيه العقول.

ثم اعلم[1]: أن الله تعالى، خلق حواء لأمر تقتضيه الحكمة؛ ليدفع آدم وحشته بها لكونها من جنسه؛ وليبقي الذرية على ممر الأزمان والأيام إلى ساعة القيام، فإن بقاءها سببٌ لبعثه الأنبياء، وتشريع الشرائع والأحكام، ونتيجةٌ لأمر معرفة الله تعالى، فإن الله تعالى خلق الخلق لأجلها.

وفي الزوجية منافع كثيرة دينية، ودنيوية، وأخروية، ولم يذكر الله تعالى في

---

(١) روح البيان.

كتابه من الأنبياء إلا المتزوجين، وقالوا إن يحيىٰ عليه السلام، قد تزوج لنيل الفضل وإقامة السنة، ولكن لم يجامع؛ لكون ذلك عزيمة في تلك الشريعة، ولذلك مدحه الله تعالى بكونه حصوراً. وفي «الأشباه» ليس لنا عبادة شرعت من عهد آدم إلى الآن، ثم تلك العبادة تستمر في الجنة إلا الإيمان والنكاح. قيل: فضل المتأهل على العزب، كفضل المجاهد على القاعد، وركعة من المتأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب، هذا كله لكون التزوج سبباً لبقاء النسل، وحفظاً من الزنا، والترغيب في النكاح يجري إلى ما يجاوز المائة الأولى من الألف الثاني، كما قال ﷺ: «إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة بعد الألف، فقد حلَّت العزوبة، والعزلة، والترهب على رؤوس الجبال»، وذلك لأن الخلق في المائتين أهل الحرب والقتل، فتربية جروٍ حينئذٍ خير من تربية ولد، وأن تلد المرأة حيَّةً خير من أن تلد الولد.

﴿وَكُلَا﴾ أنتما ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمار الجنة. وجَّه الخطاب[1] إليهما؛ إيذاناً بتساويهما في مباشرة المأمور به، فإن حواء أُسوةٌ له في الأكل بخلاف السكن فإنها تابعة له فيها، ثُمَّ معنى الأمر بهذا والشغل به مع أنه اختصَّه واصطفاه، وللخلافة أبداه أنه مخلوقٌ، والذي يليق بالخلق هو السكون بالخلق، والقيام باستجلاب الحظ؛ أي: وَكُلَا أنتما من ثمار الجنة أكلاً ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: أكلاً واسعاً رافهاً بلا تقدير، ولا تقتير ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: من أيِّ مكان من الجنة شِئتما وأردتما الأكل منه، وسَّع عليهما؛ إزاحةً للعلَّة والعذر، في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر.

فإن قُلْتَ: لِمَ قال هنا ﴿وَكُلَا﴾ بالواو وفي الأعراف ﴿فكلا﴾ بالفاء؟

قلت: لأن اسكن معناه هنا استقر، لكَوْنِ آدم وحواء كانا في الجنة، والأكل يجامع الاستقرار غالباً، فلهذا عطف بالواو الدالَّة على الجمع والمعنى، اجمعا بين الأكل وبين الاستقرار، وفي الأعراف معناه ادخل، لكونهما، كانا

---

(١) روح البيان.

خارجين عنها، والأكل لا يكون مع الدخول عادةً، بل عَقِبه، فلهذا عطف بالفاء الدالة على التعقيب وقد بسطت الكلام على ذلك في «الفتاوي». اهـ. شيخ الإسلام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿رَغَدًا﴾ بفتح الغين، وقرأ إبراهيم النخعي، ويحيىٰ بن وثاب بسكونها ﴿رَغْداً﴾، والتسكين لغة تميم؛ أي: أكلاً واسعاً كثيراً لا عناء فيه ولا حَجْرَ. قال امرؤ القيس:

بَـيْـنَـمَـا الـمَـرْءُ تَـراهُ نَـاعِـمَـا يَـأْمَـنُ الأَحْـدَاثَ فِـي عَـيْـشٍ رَغَـدِ

وبقوله سبحانه: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أباح لهما الأكل حيث شَاءَا، فلم يحظر عليهما مكاناً من أماكن الجنة، كما لم يحظر عليهما مأكولاً إلا ما وقع النهي عنه. و(شاء) في وزنه خلاف: فنقل عن سيبويه: أنَّ وزنه فعل بكسر العين، فنقلت حركتها إلى الشين فسكنت واللام ساكنة للضمير، فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاء الساكنين، وكسرت الشين؛ لتدل على أن المحذوف ياء، كما صنعْتَ؟ في بعتُ، كما سيأتي في مبحث التصريف.

﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ بالأكل ولو كان[2] النهي عن الدنو لضمت الراء ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الشجرة منصوب على أنه بدل من اسم الإشارة، أو نعت له بتأويلها بمشتق؛ أي: هذه الحاضرة من الشجر؛ أي: لا تأكلا منها، وإنما علق النهي بالقربان منها؛ مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه، والشجرة: هي البر والسنبلة. قاله ابن عباس، وأبو مالك، وقتادة، وهو الأشهر، والأجمع، والأنسب؛ لأنَّ النوع الإنساني ظهر في دور السنبلة، وعليها من كل لون، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزُّبد، وأشد بياضاً من الثلج، كل حبةٍ من حنطتها، مثل كُلْية البقرة، وقد جعلها الله سبحانه رزق أولاده في الدنيا، ولذلك قيل: تناول سنبلةً فابتلي بحرث السنبلة، وقيل: الكرمة، ولذلك حُرِّمت علينا الخمر. قاله ابن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

مسعود، وابن عباس أيضاً، وابن جبير. أو التين: قاله بعض الصحابة، وقتادة، ولهذا ابتلاه الحق بلباس ورقها، كما ابتلاه بثمرها، وهو البلاء الحسن، وقيل: شجرة من أكل منها أحدث. قاله أبو العالية، وقالَ عَلِي: شجرةُ الكافور، وقال بعض أهل الكتاب: شجرة الحنظل، وقال أبو مالك: النخلة، والأولى عدم تعينها؛ لعدم ورود النص القاطع فيها.

وقرىء[1]: ﴿وَلَا تِقْرَبَا﴾ بكسر التاء، وهي لغة عن الحجازيين في فعل يفعل، يكسرون حرف المضارعة التاء والهمزة والنون، وأكثرهم لا يكسر الياء، ومنهم من يكسرها، وقرأ ابن محيصن ﴿هذي﴾ بالياء، وقرأ الجمهور بالهاء وقرىء ﴿ٱلشِّجَرَةَ﴾ بكسر الشين، حكاها هارون الأعور، عن بعض القراء، وقرأ أيضاً ﴿الشيرة﴾ بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها، وكره أبو عمرو هذه القراءة وقال: يقرأ بها برابر مكة وسوادنها، وينبغي أن لا يكرهها؛ لأنها لغة منقولة فيها، وقال الأصمعي: نحسبه بين الأنام شيره.

وفي نهي[2] الله سبحانه آدم وزوجه عن قربان الشجرة دليل: على أن سكناهما في الجنة لا تدوم لأن المخلد لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يمنع من شيء.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ إما معطوف على تقربا، أو منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، وهذا هو الأظهر، والتقدير عليه: لا يكن منكما قربان الشجرة فكونكما ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من الذين ظلموا أنفسهم وأضروها بمعصية الله تعالى، أو بإخراجكما من دار النعيم إلى دار الشقاء، أو بالأكل من الشجرة التي نُهِيتُما عنها، أو بالفضيحة في الملأ الأعلى، أو بمتابعة إبليس، أو بترك الأولى. وقال قوم: هما أول من ظلم نفسه من الآدميين. وقال قوم: كان قبلهم ظالمون شبهوا بهم، ونسبوا إليهم، وفي قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

على أن النهي كان على جهة الوجوب لا على جهة الندب؛ لأن تاركه لا يسمى ظالماً.

وقال بعض أهل الإشارات[1]: الذي يليق بالخلق عدم السكون إلى الخلق، وما زال آدم وحده بكل خير وبكل عافية، فلما جاءه الشَّكل والزوج، ظهر إتيان الفتنة وافتتاح باب المحنة، وحين ساكن حواء، أطاعها فيما أشارت عليه من الأكل، فوقع فيما وقع ولقد قيل:

داءٌ قديمٌ في بني آدم صبوة إنسان بإنسان

قال القشيري: نبه سبحانه، على أن عاقبة دخول آدم الجنة خروجه منها بارتكاب الخطيئة بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإذا أخبر سبحانه بجعله خليفة في الأرض، فكيف يمكن بقاؤه في الجنة. كان آدم لا يساويه أحد في الرتبة، يتوالى عليه النداء بيا آدم، ويا آدم، فأمسى وقد نزع عنه لباسه، وسلب استئناسه، والقدرة لا تكابَر، وحكم الله لا يعارَض، وقال الشاعر:

لله درُّهم من فتية بكروا مثل الملوك وراحوا كالمساكين

تتمة[2]: واختلفت آراء العلماء في الجنة المرادة هنا: فمن قائل: إنها دار الثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لسبق ذكرها في هذه السورة، وفي ظواهر السنة ما يدل عليه، فهي إذاً في السماء حيث شاء الله منها. ومن قائل: إنها جنة أخرى، خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام، وكانت بستاناً في الأرض بين فارس وكرمان، وقيل: بفلسطين، وليست هي الجنة المعروفة، وعلى هذا جرى أبو حنيفة، وتبعه أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى «بالتأويلات»، فقال: نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين، أو غيضة من الغياض، كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها، ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف، ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

السنة وغيرهم. اهـ.

قال الألوسي في تفسيره «روح المعاني»:[1] ومما يؤيد هذا الرأي:

١ ـ أن الله خلق آدم في الأرض؛ ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة.

٢ ـ أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الأرض عرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر؛ لأنه أمر عظيم.

٣ ـ أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المتقون، فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

٤ ـ أنها دار للنعيم والراحة لا دار للتكليف، وقد كلف آدم وزوجه أن لا يأكلا من الشجرة.

٥ ـ أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها.

٦ ـ أنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة؛ لأنها دار طهر لا دار رجس، وعلى الجملة فالأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها، ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع، لا تنطبق على جنة آدم.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ أي: كلا منها أكلاً هنيئاً من أي مكانٍ شئتما، وأباح لهما الأكل كذلك، إزاحة للعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها، من بين أشجارها التي لا حصر لها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الخ. لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة، فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع؛ ولأن المقصود يحصل بدون التعيين، ولكنا نقول إن النهي لحكمة، كأن يكون في أكلها ضرر، أو يكون ذلك ابتلاء من الله لآدم واختباراً له، ليظهر به ما في استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها، ولو كان في ذلك معصية يترتب عليها ضرر.

---

(١) روح المعاني.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: أزلق آدم وحواء، ونحاهما، وأبعدهما الشيطان؛ أي: إبليس بوسوسته ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجنة؛ أي: تسبب بوسوسته ودعائه إلى أكل الشجرة في إخراجهما عن الجنة. وقيل: الضمير في عنها عائد إلى الشجرة، وعن بمعنى الباء السببية؛ أي: أوقعهما الشيطان في الزلل، والهفوة، والخطيئة بسبب الشجرة: أي: بسبب حثه إياهما على أكل الشجرة. والإزلال: الإزلاق والزلة بالفتح، الخطأ، وهو الزوال عن الصواب من غير قصد.

فإن قلت[1]: إبليس كافر، والكافر لا يدخل الجنة، فكيف دخل هو؟

قلت: إنما منع من الدخول على وجه التكرمة، كما تدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة؛ ابتلاءً لآدم وحواء. وقيل: إنه دخلها على صورة دابة من دواب الجنة. وقيل: وسوس إليهما وهو خارج عنها، وهما داخلها، لكن أتوا على بابها. وقيل: غير ذلك. وقرأ حمزة، والحسن، وأبو رجاء، فأزالهما، ومعنى: الإزالة التنحية. وروي عن حمزة، وأبي عبيدة إمالة فأزالهما ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾؛ أي: تسبب إبليس في إخراجهما ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم الواسع الذي كانا فيه في الجنة أولاً، بأن قال لهما هل أدلكما على شجرة الخلد، وقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين، فأكلا منها، ولم يقصد إبليس إخراج آدم من الجنة؛ وإنما قصد إسقاطه من مرتبته، وإبعاده، كما أبعد، فلم يبلغ مقصده، فقال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

﴿وَقُلْنَا﴾ نحن لآدم، وحواء، وإبليس ﴿اهْبِطُوا﴾؛ أي: انزلوا إلى الأرض، فالمأمور بالهبوط آدم، وزوجه، وإبليس، وهو المأثور عن ابن عباس، ومجاهد، وكثير من السلف، ويشهد له قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إذ العداوة بين الشيطان والإنسان.

وقيل: الخطاب لآدم وحواء، ورجحه الزمخشري وجمع الضمير؛ لأنهما أصلا الجنس، فكأنهما الجنس كله، ويدل له قوله تعالى في سورة طه: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. وقيل: الخطاب لأربعة،

---

(١) روح البيان.

والرابع الحية. قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال كعب، ووهب: اهبطوا جملة، ونزلوا في بلاد متفرقة. وقال مقاتل: اهبطوا متفرقين، فهبط إبليس. قيل بالأُبُلَّة، وحواء بجدة، وآدم بالهند. وقيل: بسرنديب بجبل يقال له وَاسِمٌ. وقيل: كان غذاؤه جوز الهند، وكان السحاب يمسح رأسه فأورث ولده الصلع، وهذا لا يصح، إذ لو كان كذلك لكان أولاده كلهم صلعاً. ورُوي عن ابن عباس: أن الحية اهبطت بنصيبين. وروى الثعلبي: بأصبهان، والمسعودي: بسجستان، وهي أكثر بلاد الله حيات. وقيل: ببيسان. وقيل: لما نزل آدم بسرنديب من الهند، ومعه ريح الجنة، علق بشجرها وأوديتها، فامتلأ ما هناك طيباً، فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام. وذكر ابن الجوزي كيفية في إخراجه، قال: وأدخل آدم في الجنة ضحوة، وأخرج منها بين الصلاتين، فمكث فيها نصف يوم، والنصف خمس مئة عام مما يعد أهل الدنيا، ولكن لا أصل له.

والأشبه أن قوله[١]: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أمر تكليف؛ لأن فيه مشقة شديدة بسبب ما كانا فيه من الجنة، إلى مكان لا تحصل فيه المعيشة إلا بالمشقة. وقرأ الجمهور ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ بكسر الباء، وقرأ أبو حيوة ﴿اهبُطوا﴾ بضم الباء، وهما لغتان. قال القرطبي[٢] في تفسيره: إن الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض، ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك، وهي نثر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي، إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطهما من الجنة فأخرجهما؛ لأنهما خلقا منها؛ وليكون آدم خليفة الله في الأرض، ولله أن يفعل ما يشاء، وقد قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهذه منقبة عظيمة، وفضيلة كريمة شريفة. انتهى كلام القرطبي. فهبوطه من الجنة هبوط التشريف، والامتحان، والتمييز بين قبضتي السعادة والشقاوة؛ لأن ذلك من مقتضيات الخلافة الإلٰهية، وأكثر المفسرين على أن المعنى: انزلوا استخفافاً بكم، لكن القول ما قالت حذام. وجملة قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) القرطبي.

اهبطوا حالة كونكم متعادين، يبغي بعضكم على بعض بتضليله، حال من[1] فاعل اهبطوا، استغنى فيها عن الواو بالضمير، والعدو يصلح للواحد والجمع، ولهذا لم يقل أعداء، فإبليس عدو لهما، وهما عدو لإبليس، والحية عدو لبني آدم، وهم عدوها، هي تلسعهم وهم يدمغونها، وإبليس يفتنهم وهم يلعنونه، وكذا العداوة بين ذرية آدم وحواء، بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين، والعداوة مع إبليس دينية، فلا ترتفع ما بقي الدين، والعداوة مع الحية طبيعية، فلا ترتفع ما بقى الطبع، ثم هذه عداوة تأكدت بيننا وبينهم، لكنَّ حزباً يكون الله معهم كان الظفر لهم، ثم قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إخبار عن كونه؛ أي: التعادي لا أمر بتحصيله، ولما قال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال آدم: الحمد لله، حيث لم يقل سبحانه: أنا لكم عدو. والعدو: هو المجاوز حده في مكروه صاحبه.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: موضع استقرار على وجهها بالإقامة فيها، أو في القبور. والمستقر ثلاثة:

الأول: رحم الأم. قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أودع في صلب الأب، واستقر في رحم الأم.

والثاني: الدنيا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

والثالث: العقبى، إما في الجنة. قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ وإما في النار. قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ ﴿وَمَتَاعٌ﴾؛ أي: تمتع بنعيمها، وانتفاع به ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقت انقضاء آجالكم؛ يعني: إلى الموت.

والمعنى[2]: أي إن استقراركم في الأرض وتمتعكم فيها، ينتهيان إلى وقت محدد، وليسا بدائمين، كما زعم إبليس حين وسوس لآدم، وسمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد، وفي هذا إشارة إلى أن الإخراج من جنة الراحة إلى الأرض؛ للعمل فيها، لا للفناء، ولا للمعاقبة بالحرمان من التمتع بخيراتها، ولا للخلود فيها.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فائدة لآدم عليه السلام، ليعلم أنه غير باق فيها، ومنتقل إلى الجنة التي وعد الرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد فحسب، ولما هبطوا وقع آدم بأرض الهند، ووقعت حواء بجدة، وبينهما سبعمائة فرسخ، فجاء آدم في طلبها حتى أتى جَمْعَاً، فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، واجتمعا بجمع، والحية بسجستان، وكانت أكثر بلاد الله حيات، ولولا العَربد تأكلها، وتُفْني كثيراً منها، لأُخِلْيَتْ سجستانُ من أجل الحيات، وإبليس بسدِّ يأجوج ومأجوج، فابتلي آدم بالحرث، والكسب، وحواء بالحيض، والحبل، والطلق، ونقصان العقل، وجعل الله قوائم الحية في جوفها، وجعل قُوْتَها التراب، وجعل إبليس بأقبح صورة وأفضح حالة.

يُذْكَر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة، فخانته بأن مكنت عدوه من نفسها، وأظهرت العداوة له هناك، فلما أهبطوا تأكدت العداوة، فقيل لها: أنت عدو بني آدم، وهم أعداؤك، وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك. قيل: إنها أدخلت إبليس الجنة بين فكيها، ولو كانت تنذره ما تركها تدخل به، وقال إبليس: أنتِ في ذمتي، فأمر رسول الله ﷺ بقتلها ولو في الصلاة، والفاء في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ للدلالة على أن التوبة، حصلت عقب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به، ومن ثمة قال القرطبي: إن آدم تاب، ثم هبط، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ثانياً؛ ومنه يعرف أن الأمر بالهبوط ليس للاستخفاف، ومشوباً بنوع سخط، إذ لا سخط بعد التوبة، فآدم أهبط بعد أن تاب الله عليه، ومعنى تلقِّي الكلمات: استقبالها بالأخذ، والقبول، والعمل بها حين علمها، فإن قلت: ما هن؟

قلتُ: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إن أحب الكلام إلى الله تعالى، ما قال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة، وهي: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، لا إلٰه إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وتلقى من باب تفعَّل الخماسي، وهو هنا بمعنى المجرد؛ أي: بمعنى: لقي آدم من ربه كلمات وأخذها. وقرأ الجمهور برفع آدم ونصب كلمات، والمعنى عليه: حفظ آدم، وألهم من ربه

كلمات، يدعو بها لتكون سبباً ووسيلة له، ولأولاده إلى التوبة، وتلك الكلمات مبيَّنة في (سورة الأعراف) بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية. وقرأ ابن كثير بنصب آدم، ورفع كلمات، والمعنى: استقبلت آدمَ، وجاءته من ربه كلمات كانت سبباً لتوبته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: فقبل منه ربه التوبة، وتفضل عليه بالرحمة، ورجع عليه بالقبول، وأصل التوب الرجوع، فإذا وصف به العبد، كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به البارِىء، أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة، والفاء للدلالة على ترتبه، على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة، وتمام التوبة من العبد بالندم على ما كان، وبترك الذنب الآن، وبالعزم على أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان، وبردِّ مظالم العباد، وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه باليد، والاعتذار عنه باللسان واكتفى بذكر[١] آدم عليه السلام؛ لأن حواء كانت تابعة له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الرجاع على عباده بالمغفرة، أو كثير القبول لتوبة عباده، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة لعباده، وفي الجمع بين الوصفين، وعد بليغ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران، والجملة تعليل؛ لقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ نوفل بن أبي عقرب ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة، ووجهه: أنه فتح على التعليل، والتقدير: لأنه، فالمفتوحة مع ما بعدها فضله، إذ هي في تقدير مفرد ثابت واقع مفروغ من ثبوته، لا يمكن فيه نزاع منازع، وأما الكسر، فهي جملة ثابتة تامة، أخرجت مخرج الإخبار المتقبل الثابت.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما[٣] ـ قال: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة، ولم يأكلا، ولم يشربا أربعين يوماً، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة، وقال شهر بن حوشب: بلغني أن آدم لما هبط إلى الأرض،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله. وروي أن الله تعالى: تاب على آدم في يوم عاشوراء.

قالوا: لو أن دموع أهل الأرض جمع، لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة، ولو أن دموع داود، ودموع أهل الأرض جمع، لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة، فإذا كان حال من اقترف خطيئة دون صغيرة هذا، فكيف حال من انغمس في بحر العصيان، والتوبة بمنزلة الصابون، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ الظاهرة، فكذا التوبة تزيل الأوساخ الباطنة، والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله، أصلح الله شأنه وأعاد عليه نعمته الفائتة.

قلت: وما أوردوه في قصة هبوط آدم وحواء من الجنة، وما يتعلق به، قد نقلوا أكثره من الإسرائيليات التي لا يصح شيء منها عند النَّقَدة من أهل العلم، ورجال الدين.

فإن قلت: كيف يصح عصيان آدم ثم توبته، مع أن الأنبياء معصومون؟

قلت: أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

١ ـ أن المخالفة التي صدرت منه كانت قبل النبوة، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها.

٢ ـ أن الذي وقع منه كان نسياناً؛ فسمي عصياناً تعظيماً لأمره، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة.

٣ ـ أن ذلك من المتشابه، كسائر ما جاء في القصة مما لا يمكن حمله على ظاهره، ويجب تفويض أمره إلى الله تعالى، كما هو رأي سلف الأمة، أو هو من باب التمثيل، كما هو رأي الخلف.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾؛ أي: انزلوا ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الجنة إلى الأرض حالة كونكم ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ضمير الجمع؛ تأكيدٌ في المعنى للجماعة من آدم، وحواء، وإبليس، والحية، وكأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان؛ أي: اهبطوا منها حال كونكم مجتمعين

في الهبوط في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة، وكرر[1] الأمر بالهبوط؛ للتأكيد، وإيذاناً بتحتم مقتضاه، وتحققه لا محالة، ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته عليه السلام، من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك؛ ولأن الأول: دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها، ولا يخلدون. والثاني: أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فاختلف المقصود، وكان يصح لو قرن المعنيان بذكر الهبوط مرة، لكن اعترض بينهما كلام، وهو تلقِّيهِ الكلمات، ونيله قبول التوبة، فأعاد الأول ليتصل المعنى الثاني به، وهو الابتلاء بالعبادة، والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية. وقيل: الأول من الجنة إلى السماء الدنيا. والثاني: منها إلى الأرض. قال في «الإرشاد»[2] والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدي إلى النجاة والنجاح، وما فيه من وعيد العقاب، فليس بمقصود من التكليف قصداً أولياً، بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين، ثم إن في الآية دليلاً على أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها؛ لأن آدم قد أخرج من الجنة بمعصية واحدة، وهذا كما قال القائل:

إذا تَمَّ أمْرٌ دَنَا نَقْصُهُ   تَوقَّعْ زَوَالاً إذا قِيلَ تَمْ
إذا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فَارْعَها   فإنَّ المَعَاصِيْ تُزيلُ النِعَمْ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى﴾، يا ذرية آدم؛ أي: إن يأتينكم مني، فما مزيدة، والفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به ﴿هُدًى﴾؛ أي: رشدٌ وبيان شريعة، برسول أبعثه إليكم، وكتاب أنزله عليكم، والخطاب في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ لآدم، والمراد ذريته، وإبليس وذريته، لم يأتهم كتاب ولا رسول، ولا يكون منهم أتباع. وجواب الشرط الأول، هو الشرط الثاني مع جوابه، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾؛ أي: اقتدى برسولي، وتمسك بشريعتي. وكرَّر[3] لفظ الهدى، ولم

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو السعود.

(٣) روح البيان.

يُضمَر بأن. يقال فمن تبعه؛ لأنه أراد بالثاني ما هو أعمُّ من الأول، وهو ما أتى به الرسل من الاعتقاديات والعمليات، واقتضاه العقل؛ أي: فمن تبع ما أتاه من قبل الشرع، مراعياً فيه ما يشهد به العقل من الأدلة الآفاقية والأنفسية ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين، من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب، فالخوف[1] على المتوقع، والحزن على الواقع. وقيل: الخوف غم يلحق الإنسان من توقع أمر في المستقبل، والحزن: غم يلحقه من فوات أمر في الماضي، وهو بمعنى ما قبله، وأما الخوف المثبت لهم في بعض الآيات، فهو في الدنيا. اهـ. «كرخي». أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنه يعتريهم ذلك، لكنهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلاً، بل يستمرون على السرور والنشاط، كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاماً لجلال الله تعالى، وهيبته، واستقصاراً للجد والسعي في إقامة حقوق العبودية، من خصائص الخواص والمقربين.

والمعنى[2]: فبعد هبوطكم إلى الأرض، إن يأتكم من جهتي هدى، وشريعة، وبيان حق، ودعوة إليه على ألسنة رسلي، فمن تبع هداي الذي أرسلت به رسلي، واستمسك بالشرائع التي أتوا بها، وراعى ما يحكم العقل بصحته، بعد النظر في الأدلة التي في الآفاق والأنفس، فلا خوف عليهم في الآخرة من العذاب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا؛ أي: إن المهتدين بهدي الله لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات، فإن من سلك سبيل الهدى، سهل عليه كل ما أصابه، أو فقده؛ لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضي ربه، ويوجب مثوبته، فيكون له من ذلك خير عوضٍ عما فاته، وأحسن عزاء عما فقده، فمثله مثل التاجر الذي يكدُّ ويسعى، وتنسيه لذة الربح آلام التعب.

والأديان قد حرَّمت بعض اللذات، التي كان في استطاعة الإنسان أن يتمتع بها، لضررها إما بالشخص، أو بالمجتمع، فمن تمثلت له المضارُّ التي تعقب

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

اللذة المحرمة، وتصوَّر ما لها من تأثير في نفسه، أو في الأمة، فرَّ منها فرار السليم من الأجرب، إلا أن المؤمن بالله واليوم الآخر يرى في انتهاك حرمات الدين، ما يدنس النفس ويبعدها عن الكرامة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

والخلاصة: أن من جاءه الهدى على لسان رسول بلغه إياه واتبعه، فقد فاز بالنجاة، وبعد عنه الحزن، والخوف يوم الحساب، والجزاء والعرض على الملك الديان يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قرأ الأعرج[1]: (هداي) بسكون الياء، وفيه الجمع بين الساكنين كقراءة من قرأ (محياي)، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ عاصم الجحدري، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن أبي عمر ﴿هُدَيَّ﴾ بقلب الألف ياء، وإدغامها في ياء المتكلم، إذ لم يمكن كسر ما قبل الياء؛ لأنه حرف لا يقبل الحركة، وهي لغة هذيل يقلبون ألف المقصور ياء، ويدغمونها في ياء المتكلم، وقال شاعرهم:

سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهم   فَتُخُرِّموا ولكل قوم مصرع

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع والتنوين، وقرأ الزهري، وعيسى الثقفي، ويعقوب بالفتح في جميع القرآن، وقرأ ابن محيصن باختلاف عنه بالرفع من غير تنوين. وجه قراءة الجمهور، مراعاة الرفع في ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فرفعوا للتعادل. قال ابن عطية: والرفع على إعمالها عمل ليس، ولا يتعين ما قاله، بل الأولى أن يكون مرفوعاً بالابتداء لوجهين:

أحدهما: أنَّ إعمال (لا) عمل ليس قليل جداً.

والثاني: حصول التعادل بينهما، إذ تكون لا قد دخلت في كلتا الجملتين على مبتدأ، ولم تعمل فيهما. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا برسلنا المرسلة

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

إليهم، معطوف[1] على من تبع. إلخ قسيم له، كأنه قيل: ومن لم يتبعه. الخ، وإنما أوثر عليه ما ذكر؛ تفظيعاً لحال الضلالة؛ وإظهاراً لكمال قبحها، وإيراد الموصول بصيغة الجمع؛ للإشعار بكثرة الكفرة.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المنزلة عليهم، أو كفروا بالآيات جَناناً، وكذبوا بها لساناً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار إتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ أي: ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها، وفي الصحبة معنى الوصلة، فسموا أصحابها لاتصالهم بها وبقائهم فيها، فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها ﴿هُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون، والجملة في حيز النصب على الحالية.

وعبارة أبي حيان هنا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2] قسيم لقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾؛ أي: وهو أبلغ من قوله: (ومن لم يتبع هداي) وإن كان التقسيم يقتضيه؛ لأنّ نفي الشيء يكون بوجوه: منها: عدم القابليَّة بخلقةٍ، أو غفلةٍ. ومنها: تعمد ترك الشيء فأبرز القسيم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في صورة ثبوتية، ليكون مزيلاً للاحتمال الذي يقتضيه النفي، ولما كان الكفر قد يعني به كفر النعمة، وكفر المعصية، بين أن المراد هنا الشرك بقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وبآياتنا متعلق بقوله: ﴿وَكَذَّبُوٓاْ﴾ وهو من إعمال الثاني، إن قلنا إن (كفروا) يطلبه من حيث المعنى، وإن قلنا لا يطلبه، فلا يكون من الإعمال.

والآيات هنا الكتب المنزلة على جميع الأمم، أو معجزات الأنبياء عليه السلام، أو القرآن، أو دلائل الله في مصنوعاته أقوال، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾[3] دلالة على اختصاص من كفر وكذب بالنار، فيفهم أن من اتبع الهدى هم أصحاب الجنة، وكان التقسيم يقتضي أن من اتبع الهدى لا خوف ولا حزن يلحقه، وهو صاحب الجنة، ومن كذب يلحقه الخوف والحزن، وهو صاحب

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

النار، فكأنه حُذف من الجملة الأولى شيءٌ أثبت نظيره في الجملة الثانية، ومن الثانية شيء أثبت نظيره في الجملة الأولى، فصار نظير قول الشاعر:

وإنــي لــتــعــرونــي لــذكــراكِ هِــزَّةٌ   كمَا انْتفَض العُصفورُ بَلَّله القَطْرُ

انتهى.

وفي هاتين الآيتين[1]، دلالة على أن الجنة في جهة عالية، دل عليه قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ وأن مُتَّبعَ الهُدى مأمون العاقبة، لقوله تعالى فلا خوف. إلخ. وأن عذاب النار دائم، والكافر مخلد فيه، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإنه يفيد الحصر. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي عن أبي أمامة الباهلي: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبيٌّ كان آدم؟ قال: نعم. قال: كم بينه وبين نوح. قال: عشرة قرون. قال: كم بين نوح وبين إبراهيم. قال: عشرة قرون. قال: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قال: يا رسول الله! كم كانت الرسل في ذلك؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو استئنافية ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بمحذوف جوازاً، تقديره: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ قال ربك.. إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بقال ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه، إن حرف نصب وتوكيد مبني بفتحة مقدرة على الأخير منع

---

(١) روح البيان.

من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة؛ لأن ما قبل الياء لا يكون إلا مكسوراً، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها ﴿جَاعِلٌ﴾ خبرها، وجملة إن في محل النصب مقول قال: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بجاعل إن كان بمعنى خالق، أو في محل المفعول الثاني إن كان من الجعل بمعنى التصيير ﴿خَلِيفَةً﴾ مفعول به لجاعل؛ لأنه اسم فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَتَجْعَلُ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبيِّ المجرد، كأنهم يطلبون اسْتِكْنَاهَ ما خفي عليهم من الحكمة الباهرة ﴿تجعل﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، تقديره: أنت، والجملة في محل النصب مقول قالوا ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بتجعل إن كان بمعنى تخلق، أو في موضع المفعول الثاني المقدم على الأول، إن كان بمعنى تصيِّر ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به أول لتجعل ﴿يُفْسِدُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على من الموصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول؛ والتقدير: أتجعل من يفسد خليفة فيها، كمن كان فيها من قبل، كما ذكره العكبري ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على من الموصولة، والجملة معطوفة على جملة يفسد على كونها صلة لمن.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَنَحْنُ﴾ الواو حالية (نحن) ضمير منفصل لجماعة المتكلمين في محل الرفع مبتدأ ﴿نُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر وجوباً، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿بِحَمْدِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل نسبح، والتقدير: ونحن مسبحون إياك ملتبسين بحمدك، والجملة الإسمية حال من مفعول فعل محذوف، تقديره: وتركتنا عن الخلافة حالة كوننا مسبحين إياك بحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على نسبح ﴿لَكَۖ﴾ جار ومجرور متعلق بنقدس، ويجوز أن تكون زائدة زيدت؛ لبيان المفعول به؛ أي: ونقدسك كاللام في سقياً لك. قال العكبري: ويجوز أن تكون اللام زائدة؛ لتأكيد التخصيص؛ أي: نقدسك. وقال الصاوي: ويحتمل أنها للتعدية والتعليل؛ أي: ننزهك لا طمعاً في عاجل ولا آجل، فتنزيهنا لذاتك فقط. اهـ.

﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، إن حرف نصب وتوكيد، والياء في محل النصب اسمها. قال العكبري: والأصل: إنني بثلاث نونات فحذفت النون الوسطى لا نون الوقاية على الصحيح. اهـ. ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لأَعْلَمُ، لأن علم هنا بمعنى عرف يتعدى إلى مفعول واحد ﴿لَا﴾ نافية ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما لا تعلمونه، وجملة أعلم في محل الرفع خبر إن، تقديره: إني عالم ما لا تعلمونه، وجملة إن في محل النصب مقول قال.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَعَلَّمَ﴾ الواو استئنافية ﴿عَلَّمَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿ءَادَمَ﴾ مفعول أول لعلم ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾ مفعول ثان له (كلها) تأكيد للأسماء، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿عَرَضَهُمْ﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قال ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بعرض ﴿فَقَالَ﴾ الفاء عاطفة (قال) فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة عرض ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو ضمير المخاطبين يعود على الملائكة في محل الرفع فاعل، والنون نون الوقاية، والياء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسْمَآءِ﴾ جار ومجرور متعلق بأنبئوني على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال: ﴿أسماء﴾ مضاف ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿أولاء﴾ اسمُ إشارة للجمع المطلق في محل الجر مضاف إليه مبني على الكسر؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر كان منصوب بالياء، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين فأنبئوني، وجملة إن الشرطيَّة في محل النصب مقول قال ﴿قَالُوا۟﴾ فعل

وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ سبحاز منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: نسبحك سبحاناً وهو مضاف، والكاف ضمير متصل في محل الجر مضاف إليه، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول قالوا ﴿لَا﴾ نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿عِلْمَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿لَنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا، تقديره: لا علم موجود لنا، وجملة لا في محل النصب مقول قالوا ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الرفع بدل من محل لا واسمها؛ لأن محلهما رفع بالابتداء، أو من الضمير المستتر في خبر لا نظير قولك لا إله إلا الله، أو في محل النصب على الاستثناء ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إلا ما علمتناه، وهو العائد على ما الموصولة، والجملة صلة لما الموصولة و(ما) واقعة على معلوم، وعلم بمعنى معلوم، والمعنى: لا معلوم لنا إلا معلوماً، أو معلوم علمتنا إياه، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية؛ أي: لا تعليم لنا إلا تعليمك إيانا ﴿إِنَّكَ﴾ ناصب واسمه ﴿أَنتَ﴾ أن ضمير فصل حرفٌ لا محل له، أو حرف عماد، والتاء حرف دال على الخطاب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبر أول، لأنَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ خبر ثان له، وجملة إن في محل النصب مقول قالوا مسوقة لتعليل ما قبلها، ويحتمل كون ﴿أَنتَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ خبره، والجملة الإسمية خبر إن، ويجوز كونه تأكيداً لاسم إن مستعاراً عن إياك.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء للمتوسط ﴿آدم﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية مبني على الضم، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على الله، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بأنبئهم على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال. ﴿فَلَمَّآ﴾ الفاء فاء الفصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما قال الرب جل جلاله لآدم، وأردت بيان ما قال للملائكة بعد ذلك فأقول لك لما أنبأهم.

﴿لما﴾ حرف شرط غير جازم ﴿أَنۢبَأَهُم﴾ أنبأ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على آدم، والهاء ضمير متصل في محل النصب مفعول أول ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأنبأهم على أنه مفعول ثان له، والجملة الفعلية فعل شرط لِلَمَّا لا محل لها من الإعراب ﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة الفعلية جواب شرط للَمَّا لا محل لها من الإعراب، وجملة لما في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف جزم ﴿أَقُل﴾ فعل مضارع مجزوم بلم، وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا يعود على الله ﴿لَّكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بأقل، والجملة الاستفهامية في محل النصب مقول قال ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿أَعۡلَمُ﴾ في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول لأقل ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على السموات ﴿وأَعۡلَمُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على أعلم الأول ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أعلم﴾، وجملة ﴿تُبۡدُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف تقديره ما تبدونه ﴿وَمَا﴾ اسم موصول في محل النصب معطوف على ما الأولى ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لما الموصولة لا محل لها من الإعراب، والعائد محذوف، تقديره: وما كنتم تكتمونه، وإن شئت قلت إن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ. . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لأقل؛ لأن مرادنا لفظه لا معناه، والمقول منصوب بالقول وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

﴿وَإِذۡ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ قلنا، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة سابقاً، أو مستأنفة. ﴿قُلۡنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ متعلق بقلنا.

﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱسْجُدُواْ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل ﴿لِآدَمَ﴾ اللام حرف جرٍ ﴿ءَادَمَ﴾ مجرور باللام وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمة، والجار والمجرور متعلق باسجدوا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قلنا ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع (سجد) فعل ماض والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة قلنا ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾ مستثنى بإلا متصل إن كان إبليس في الأصل من الملائكة، وقيل: منقطع؛ لأنه ليس من الملائكة، وهو منصوب بالفتحة الظاهرة ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمة ﴿أَبَىٰ﴾ فعل ماض معتل بالألف مبني بفتحة مقدرة، وفاعله ضمير يعود على إبليس، والجملة الفعلية في محل النصب حال من إبليس؛ أي: حالة كونه آبياً وممتنعاً من السجود ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ فعل وفاعل مستتر معطوف على أبى؛ أي: ومستكبراً ﴿وَكَانَ﴾ الواو عاطفة، أو حالية، أو استئنافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على إبليس ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة أبى، أو حالية، أو مستأنفة.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقُلْنَا﴾ الواو استئنافية أو عاطفة ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة على قلنا الأول، واختلاف الزمانين ليس علة مانعة من عطف الفعل على الفعل ﴿يَٰٓـَٔادَمُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول قلنا ﴿ٱسْكُنْ﴾ فعل أمر مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره أنت، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قلنا ﴿أَنتَ﴾ أن ضمير رفع منفصل في محل الرفع مؤكد للضمير المستتر في اسكن، ليصح العطف عليه ﴿وَزَوْجُكَ﴾ معطوف على الضمير المستتر في اسكن، كما قال ابن مالك:

وإن علـى ضمـيـر رفـع مـتـصـل   عطفت فافصل بالضمير المنفصل

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مفعول به وليس بظرف؛ لأنك تقول سكنت البصرة، وسكنت الدار بمعنى: نزلت فهو كقولك: انزل من الدار حيث شئت. ذكره العكبري. ﴿وَكُلَا﴾ الواو عاطفة ﴿كُلاَ﴾ فعل أمر للمثنى مبني على حذف النون، والألف ضمير متصل في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة اسكن ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بكُلا ﴿رَغَدًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: أكلا رغداً. ﴿حَيْثُ﴾ في محل النصب على الظرفية المكانية مبني على الضم؛ لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً ﴿شِئْتُمَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لحيث، والظرف متعلق بكُلا. وقال العكبري: ويجوز أن يكون بدلاً من الجنة، فيكون ﴿حَيْثُ﴾ مفعولا به ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ ناهية جازمة ﴿تَقْرَبَا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والألف في محل الرفع فاعل ﴿هَٰذِهِ﴾ مفعول به ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو صفة له كما مر، والجملة معطوفة على جملة اسكن، أو على جملة كُلا ﴿فَتَكُونَا﴾ الفاء عاطفة سببية ﴿تَكُونَا﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي، والألف ضمير متصل في محل الرفع اسمها ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر تكونا، وجملة تكونا صلة أن المصدرية، وأن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر، متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن قِرْبَانُكما لهذه الشجرة فكَوْنُكُما من الظالمين، ويجوز كون الفاء لمجرد العطف، والفعل مجزوم بالعطف على ما قبله.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه المقام، تقديره: فأكلا من الشجرة التي نهيا عنها، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ (أزل) فعل ماض، و(الهاء) ضمير متصل في محل النصب مفعول به، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فاعل ﴿عَنْهَا﴾ متعلق بأزلهما، وإن شئت قلت: الفاء فاء الفصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهما اسكن أنت وزوجك الجنة. الخ. وأردت بيان حالهما بعد

ذلك فأقول لك: أزلهما، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ الفاء عاطفة ﴿أخرجهما﴾ فعل وفاعل مستتر يعود على الشيطان، ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة أزلهما ﴿مِمَّا﴾ من حرف جر مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر بمن، الجار والمجرور متعلق بأخرجا ﴿كَانَا﴾ كان فعل ماض ناقص، والألف ضمير للمثنى الغائب في محل الرفع اسمها ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلِّقٌ بمحذوف خبر كان، تقديره: مما كانا كائنين فيه، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد ضمير، فيه ﴿وَقُلْنَا﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿قلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فأزلهما﴾، أو مستأنفة ﴿اهْبِطُوا﴾ فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل النصب مقول قلنا ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿لِبَعْضٍ﴾ متعلق بعدو، أو بمحذوف حال من عدو؛ لأنه صفة نكرة تقدمت عليها و﴿عَدُوٌّ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل اهبطوا، تقديره: اهبطوا حالة كونكم متعادين ﴿وَلَكُمْ﴾ الواو عاطفة أو استئنافية ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بمستَقَر و﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿وَمَتَاعٌ﴾ معطوف على مستقر ﴿إِلَى حِينٍ﴾ متعلق بمحذوف صفة لمتاع؛ أي: ممتد إلى حين؛ أي: إلى يوم القيامة، أو متعلق بمتاع؛ لأنه اسم مصدر بمعنى التمتع، والجملة الإسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله بعضكم لبعض عدو، على كونها حالاً من فاعل اهبطوا؛ أي: اهبطوا حالة كونكم متعادين، ومستحقين الاستقرار في الأرض والتمتع إلى حين، أو الجملة مستأنفة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾.

﴿فَتَلَقَّى﴾ الفاء استئنافية أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهم اهبطوا، أو أردت بيان عاقبة أمر آدم بعد ذلك، فأقول: تلقى آدم ﴿تلقى﴾ فعل ماض و﴿آدَمُ﴾ فاعل ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتلقى ﴿كَلِمَاتٍ﴾ مفعول به منصوب بالكسرة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية مستأنفة، أو مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. وقُرِىء بنصب آدم على المفعولية، ورفع كلمات على الفاعلية، كما مرّ

في مبحث القراءة ﴿فَتَابَ﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فقالها فتاب عليه ﴿تَابَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بتاب، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، والمحذوفة معطوفة على جملة تلقى ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، أو حرف عمادٍ، ويجوز أن يكون مبتدأ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول لإن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر ثان لها، ويجوز أن يكونا خبرين لهو، والجملة الإسمية خبر لإن، وجملة إن مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مقول لقلنا ﴿مِنْهَا﴾ متعلق باهبطوا ﴿جَمِيعًاۖ﴾ حال من فاعل اهبطوا؛ أي: مجتمعين في الهبوط في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة ﴿فَإِمَّا﴾ الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق، تقديره: فعاهدنا عليهم، أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قول الله لهم اهبطوا، وأردت بيان ما عاهد عليهم بعد الهبوط، فأقول لك: قال الله لهم: إما يأتينكم مني هدى ﴿إن﴾ حرف شرط جازم يجزم فعلين، مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ما الزائدة و﴿مَا﴾ زائدة زيدت: لتأكيد معنى الكلام ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ ﴿يأتينَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، مبني على الفتح، الكاف ضمير لجماعة الذكور المخاطبين في محل النصب مفعول به، والميم حرف دال على الجمع ﴿مِّنِّي﴾ جار ومجرور متعلق بيأتينكم ﴿هُدًى﴾ فاعل ﴿فَمَن﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿تَبِعَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بمَن الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر يعود على من ﴿هُدَايَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿فَلَا﴾ الفاء رابطة لجواب من الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية ﴿لَا﴾ نافية ملغاة لا عمل لها لتكررها ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة؛ تقدم النفي عليها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بمحذوف خبر

المبتدأ، ولك أن تُعْمِل لا عمل ليس، فخوف اسمها، وعليهم خبرها، والجملة الإسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل الجزم جواب إن الشرطية، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ زائدة؛ زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل الجزم، معطوفة على جملة قوله فلا خوف، على كونها جواباً لمن الشرطية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو عاطفة ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿وَكَذَّبُوا﴾ معطوف على كفروا على كونه صلة الموصول ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بكذبوا لقربه، أو بكفروا لسبقه ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول وخبره في محل الجزم، معطوفة على جملة من الشرطية، على كونها جواباً لأن الشرطية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بخالدون ﴿خَالِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الإسمية في محل النصب حال من أصحاب النار، أي: حالة كونهم مقدراً خلودهم فيها. وفي العكبري، وقيل: يجوز أن تكون الجملة حالاً من النار؛ لأن في الجملة ضميراً يعود عليها، ويكون العامل في الحال معنى الإضافة، أو اللام المقدرة. انتهى. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ اسمٌ ثُنائِيُّ الوضع مبني؛ لشبهه بالحرف شبهاً وضعياً، أو افتقارياً، وهو ظرف زمان للماضي، وما بعده جملة اسمية، أو فعلية، وإذا كانت فعلية، قَبُح تقديم الاسم على الفعل، وإضافته إلى المصدرة بالمضارع، وعمل المضارع فيه، مما يجعل المضارع ماضياً، وهو ملازمٌ للظرفية، إلا أن يضاف إليه زمان، ولا يكون مفعولاً به، ولا حرفاً للتعليل، أو للمفاجأة، ولا ظرف مكان، ولا زائدة، خلافاً لزاعمي ذلك. ولها أحكامٌ غير هذا مذكورةٌ في كتب النحو ﴿قَالَ﴾ أصله: قَوَلَ بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح

ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار قال: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملك وميمه أصليةٌ، وهو فَعَلٌ من المُلْكِ، وهو القوة ولا حذف فيه، وجمع على فعائلة شذوذاً، قاله أبو عبيدة، وكأنهم توهَّمُوا أنه ملاكٌ على وزن فعال، وقد جمعوا فعالاً المذكر والمؤنث على فعائل قليلاً. وقيل: وزنه في الأصل فعأل، نحو: شمألٍ، ثم نقلوا الحركة وحذفوا. وقيل: غير ذلك مما لا يسعه هذا المختصر. والمَلَك: جسمٌ لطيف قادرٌ على التشكل بأشكالٍ مختلفةٍ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾؛ أي: خالق أو مصيِّرٌ، ولم يذكر الزمخشري غيره ﴿خَلِيفَةً﴾ مفعول به على الأول، وعلى الثاني هو المفعول الأول، وفي الأرض هو الثاني قدم عليه. اهـ. «كرخي» كما مرَّ. وصيغة اسم الفاعل في قوله جاعل بمعنى المستقبل، كما ذكره أبو السعود. والخليفة: من يخلف غيره، وينوب منابه فعيل بمعنى فاعل، والتاء للمبالغة، وهو من خلف من باب كتب، كما في «القاموس».

﴿وَيَسْفِكُ﴾ وفي «المصباح» وسفك الدم أراقه، وبابه ضرب، وفي لغةٍ: من باب قتل، وقرىء بهما كما مرَّ في مبحث القراءة ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ جمع دمٍ، أصله: دمْيٌ، أو دمْوٌ، والهمزة في الدماء: إما مبدلة من واو، أو ياء. والثاني: هو مذهب سيبويه، وظاهر كلام صاحب القاموس. والأول ظاهر كلام الجوهري، حيث صدر به، وعلى كلا التقديرين تطرَّفت الواو، أو الياء إثر ألف زائدة فقلبت همزةً، وهذا أمر مطرد، سواء أكان أصله دماوٌ، أو دماي ﴿ونحن نسبِّح بحمدك﴾ التسبيح تنزيه لله وتبرئَتُهُ عن السوء، ولا يستعمل إلا لله تعالى، وأصله: من السَّبْح وهو الجَرْيُ، والمسبِّح جار في تنزيهِ لله تعالى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والتقديس التطهير، ومنه بيت المقدس، والأرض المقدسة، ومنه القدس للسطل الذي يتطهر به، وقال الزمخشري: من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد.

وفائدة الجمع بين التسبيح والتقديس، وإن كان ظاهرُ كلامهم تَرادُفَهُما أن التسبيح بالطاعات، والعبادات، والتقديس بالمعارف في ذات الله تعالى، وصفاته، وأفعاله؛ أي: التفكر في ذلك. اهـ. «كرخي».

﴿وَعَلَّمَ﴾ وزنه فعل المضعَّف، منقول من عَلِم التي تتعدَّى لواحد، فرقوا بينها وبين عَلَّم التي تتعدى لاثنين في النقل، فعدوا تلك بالتضعيف، وهذه

بالهمزة، قاله الاستاذ أبو علي الشلوبين ﴿ءَادَمَ﴾ أصله: أأدم بهمزتين مفتوحةٍ وساكنه، فأبدلت الثانية حرف مدٍّ للأولى. وفي «البحر» آدم: اسمٌ أعجمي كآزر، وعابر، ممنوع الصرف للعلمية والعجمة، ومن زعم أنه أفعل مشتق من الأدمة وهي كالسمرة، أو من أديم الأرض وهو وجهها، فغير صواب؛ لأن الاشتقاق من خواص الألفاظ العربية، قد نص التصريفيُّون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية. وقيل: هو عربيٌّ من الإدام وهو التُّرابُ، ومن زعم أنه فاعل من أديم الأرض، فخَطَؤُهُ ظاهرٌ؛ لعدم صرفه. وأبعد الطبري في زعمه أنه فِعْلٌ رباعي سُمِّي به، ومن هذا الخطإ محاولتهم اشتقاق يعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس، وإذن: يحقُّ لنا أن نتساءل: لِمَ منعت هذه الأعلام من الصرف لولا العلمية والعجمة، فتنبَّه لهذا الفصل.

﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ وزنه أفعال، والهمزة فيه على الصحيح مبدلة من واو؛ لأنه من السمو، كما مرّ في مبحث البسملة؛ أي: علَّمه الأسماء لفظاً، ومعنى، وحقيقة مفرداً، ومركباً، كأصول العلم، فإن الاسم باعتبار الاشتقاق علامةٌ للشيء، ودليله الذي يرفعه إلى الذهن؛ أي: يوصله إلى الفطنة. والمراد بالاسم: ما يَدُلُّ على معنًى، ولو كان ذاتاً وجرماً فهو أعمُّ من الاسم، والفعل، والحرف. اهـ. «كرخي».

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ العَرْضُ: إظهار الشيء حتى تعرف جهته ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي﴾ والإنباء: الإخبار، ويتعدى فعله لواحدٍ بنفسه، ولثان بحرف جر، ويجوز حذف ذلك الحرف، ويضمَّن بمعنى أعلم فيتعدى إلى ثلاثة.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ وسبحان: مصدرٌ كغفرانٍ، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله، كمعاذ الله، ولا يجوز إظهاره ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وهما فعيلٌ بمعنى فاعل، وفيهما من المبالغة ما ليس فيه، والحكمة لغةً: الإتقان والمنع من الخروج عن الإرادة، ومنه حكمة الدابة. والحكيم: صفة ذات إن فُسِّر بذي الحكمة، وصفة فعل إن فُسِّر بأنه المحكم لصنعته ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ أصله: أقول، فدخل على الفعل المضارع الجازم وهو لم، فسكن حرفه الأخير لمَّا جُزم، فصار اللفظ أقول، فالتقى ساكنان الواو ولام الفعل، فحذفت الواو فقيل: أقل على وزن أفل، وهكذا كُلُّ ما كان من هذا القبيل ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ أصله: تبديون

بوزن تفعلون، استثقلت الضمة على الياء فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان فحذفت الياء، ثم ضمت الدال لمناسبة الواو ﴿وَمَا كُنتُمْ﴾ أصله: كَوَن بوزن فعل أجوف واويٍّ مفتوحها، أبدلت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، ولمَّا أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، سُكِّن آخره فالتقى ساكنان الألف وآخر الفعل النون، فصار اللفظ كانت، فحذفت الألف؛ لالتقاء الساكنين، فصار اللفظ كنت بوزن فلت، ولحذف عينه احتيج إلى معرفة العين المحذوفة، هل هي واوٌ، أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل، وعوِّض عنها حركةٌ مجانسةٌ للعين المحذوفة؛ لتدل عليها وهي هنا الضمة؛ لأنها هي التي تجانس الواو، فقيل: كنتم بوزن فلتم، وهكذا كُلُّ فعل أجوف واوي العين أسند إلى ضمير الرفع المتحرك ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ في «المصباح» وأَبْلَس إبلاساً، إذا سكت غمًّا وأبلس أيس، وفي «التنزيل» فإذا هم مبلسون وإبليس أعجمي، ولهذا لا ينصرف للعلمية والعجمة. وقيل: هو عربي مشتق من الإبلاس وهو اليأس. ورد بأنه لو كان عربياً لانصرف كما تنصرف نظائره. اهـ. من «السمين».

﴿أَبَىٰ﴾؛ أي: امتنع وأَنِفَ من السجود لآدم، وأصله: أَبَيَ بوزن فعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؛ أي: تكبَّر وتعاظم في نفسه، والسين للمبالغة لا للطلب، وإنما قدم الإباء على الاستكبار، وإن كان متأخراً عنه في الترتيب؛ لأنه من الأفعال الظاهرة بخلاف الاستكبار، فإنه من أفعال القلوب. واقتصر في (سورة ص) على ذِكْر الاستكبار؛ اكتفاءً به، وفي (سورة الحجر) على ذكر الإباء حيث قال: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿وَكُلَا﴾ أمرٌ من أكل، وقياس الثلاثي إذا بني منه الأمر، أن يؤتى قبله بهمزة وصل؛ توصلاً للنطق بالساكن، كما في اضرب، واصبر، لكن فاء الفعل الساكنة، حذفت من هذا الأمر شذوذاً في القياس غالباً، كما حذفت من الأمر من أخذ وأمر، ومعنى قولي شذوذاً في القياس: أنَّ استعمالها فاشٍ ﴿رَغَدًا﴾ الرَّغَدُ: الهَنِيءُ الذي لا عناء فيه، أو الواسع. يقال: رغد عيش القوم، إذا كانوا في رزق واسع كثير، وأرغد القوم: أخصبوا وصاروا في رغد من العيش ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أصله شَيِءَ بوزن فَعِلَ بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار شاءَ، ثُمَّ أُسْنِد الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، فسكن آخره، فالتقى ساكنان الألف والهمزة آخر الفعل،

فحذفت الألف، فصار اللَّفْظُ شأتُ بوزن فَلْتُ، لحذف عينه، فاحتيج إلى معرفة حركة العين المحذوفة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليها حركة العين المحذوفة وهي الكسرة، كما تقدم، فقيل: شئتما بوزن فلْتُما ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ في «المصباح» قرب الشيء منا قرباً، وقرابةً، وقُرْبَةً، وقُرْبَى؛ أي دَنَا وقربت الأمر أقربه، من باب تعب، وفي لغةٍ: من باب قتل، قرباناً بالكسر، فعلته، أو دانيته، ومن الأول ولا تقربوا الزنا، ومن الثاني لا تقرب الحِمَى؛ أي: لا تدن منه. اهـ. ﴿فَتَكُونَا﴾ أصله تَكْوُنان بوزن تفعُلان، نقلت حركة الواو إلى الكاف قبلها، فسكنت الواو إثر ضمةٍ فصارت حرف مدٍ، ثم حذفت نون الرفع لما نصب الفعل بأن المضمرة بعد الفاء السببية، فوزنه تفعلا ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: أصدر زلتهما وحملهما على الزلّة بسببها، وفي «المصباح» زلَّ عن مكانه زلاً، من باب ضرب نحى عنه، وزل زللاً من باب تعب لغةً، وزل في منطقه، أو فعله يزل، من باب ضرب زلة أخطأ. اهـ. والزلل: السقوط. يقال: زل في طين، أو منطق، يزل بالكسر زللاً. وقال الفراء: زل يزل بالفتح زللاً، وأصله: أزللهما، نقلت حركة اللام الأولى إلى الزاي، فسكنت فأدغمت في اللام الثانية. وقرأ حمزة بِمَدِّ الزاي وتخفيف اللام من الإزالة، وأصله: أزولهما، نقلت حركة حرف العلة الواو إلى الساكن الصحيح قبله، ثم قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها في الأصل وانفتاح ما قبلها الآن.

﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أصله كون، تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم أُلحق به ألف الاثنين، فصار كانا ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ والهبوط، كما قال الرّاغب الانحدار على سبيل القهر، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة في ربوةٍ، فسُمِّي الخروج منها هبوطاً، أو سُمّي بذلك؛ لأنَّ ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه، أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد، كقوله لبني إسرائيل ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أصله عَدوو بوزن فعول، أدغمت الواو الأولى واو فعول في الواو لام الكلمة، وأفرد لفظ عدووَ إن كان المراد به جمعاً لأحد وجهين: إمَّا اعتباراً بلفظ بعض، فإنه مفرد، وإما لأن عدوّاً أشبه المصادر في الوزن، كالقبول، ونحوه. وقد صرَّح أبو البقاء، بأن بعضهم جعل عدواً مصدراً. اهـ. «سمين» ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ والمستقر: الاستقرار والبقاء، وأصله مستقرر بوزن مستفعل، إما اسم مكان، أو مصدر

ميمي، نقلت حركة الراء الأولى إلى القاف، فسكنت وأدغمت في الراء الثانية ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ والمتاع الانتفاع الذي يمتد وقته ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ والحين: مقدار من الزمن قصيراً كان أو طويلاً ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ وتلقي الكلمات: هو أخذها بالقبول والعمل بها حين علمها، وأصله تَلَقَّيَ بوزن تفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ أصله تَوَب بوزن فعل واويُّ العين؛ لأنَّ مصدره توبةٌ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ﴿جَمِيعًا﴾ حال من فاعل اهبطوا؛ أي: مجتمعين، إما في زمان واحد، أو في أزمنة متفرقة؛ لأنَّ المراد الاشتراك في أصل الفعل، وهذا هو الفرق بين جاؤا جميعاً، وجاؤوا معاً، فإن قولك معاً يستلزم مجيئهم جميعاً في زمن واحد؛ لما دلَّت عليه من الاصطحاب، بخلاف جميعاً، فإنها إنما تفيد أنه لم يتخلف أحدٌ منهم عن المجيء، من غير تعرض لاتحاد الزمان. اهـ. «سمين».

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ والهدى: الرشد بإرسال رسول بشريعةٍ يأتي بها، وكتاب ينزله ويبلِّغه لكم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والخوف: ألم الإنسان مما يصيبه من مكروه، أو حرمانه من محبوب، يتمتَّع به أو يطلبه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والحزن: ألمٌ يلمُّ به إذا فقد ما يحب ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ جمع آية، وهي: العلامة الظاهرة، والمراد بها: كلُّ ما يدلُّ على وجود الخالق ووحدانيته، مما أودعه في الكون ونشاهده في الأنفس، وتطلق على كُلِّ قِسْمٍ من أقسام القرآن، التي تتألَّف منها سورة القرآن، ويقف القارىء عندها في تلاوته. والعمدة في معرفة ذلك، على التوقيف المأثور عن النبي ﷺ وسُمِّيت بذلك؛ لأنها دلائل لفظية على الأحكام والآداب، التي شرعها الله سبحانه لعباده. وأصل آية عند الخليل: أيية بوزن فعلة، أبدلت الياء الأولى ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، وكان القياس إبدال الثانية ألفاً وتصحيح الأولى؛ لأن القاعدة المعروفة، أنه إذا استحق حرفان متواليان الإعلال، صحح الأول منهما، وأُعلّ الثاني، ولا يُعلان معا: لئلا يجتمع إعلالان متواليان في كلمة، كما قال ابن مالك:

وإن لحرفين ذَا الإعلَالُ اسْتُحِقّ ... صُحِّح أوَّلٌ وعَكْسٌ قَدْ يَحِق

وأشار بقوله: وعكسٌ قد يحق إلى ما هنا في الآية، وكذلك لفظ راية. ومذهب الكسائي: أن آية أصله آيية بوزن فاعلة، حذفت الياء الأولى؛ لئلا تدغم

في الثانية، كما فعلوا في دابَّة، وكافّة. ومذهب سيبويه: أن أصلها أوية، حكاه عن الجوهري، وقيل في أصلها غير ذلك، ومذهب الخليل أصوب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعريض بعنوان الربوبية في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ مع الإضافة إلى الرسول ﷺ للتشريف والتكريم لمقامه العظيم.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على المقول؛ للاهتمام بما قدم؛ وللتشويق إلى ما أخر.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾.

ومنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ لأن المراد بهم هنا، سكان الأرض من الملائكة بعد الجان على ما قيل.

ومنها: عطف الخاص في قوله: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ على العام في قوله: ﴿مَن يُفْسِدُ﴾؛ اهتماماً بشأن الدماء.

ومنها: العطف للتأكيد في قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ لأنه كالتوكيد للتسبيح؛ لأن التقديس هو التطهير، والتسبيح هو التنزيه والتبرئة من السوء، فهما متقاربان في المعنى ذكره في «البحر».

ومنها: الأمر الذي أريد به التعجيز في قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ مبالغة في التبكيت.

ومنها: إطلاق الأسماء مراداً بها المسميات في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾؛ أي: مسميات الأسماء، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾؛ لأن قبله محذوف، تقديره: فأنبأهم بها، فلما أنبأهم بأسمائهم.

ومنها: تغليب العقلاء على غيرهم في قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛

لأن الميم في هم علامة لجمع الذكور العقلاء، ولو لم يُغلب لقال: ثُمَّ عرضها، أو عرضهن.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾؛ لأن جوابه محذوف، تقديره: إن كنتم صادقين فأنبئوني، يدل عليه أنبئوني السابق.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

ومنها: إبراز الفعل في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر، والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.

ومنها: الطباق بين السموات وبين الأرض في قوله: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبين ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وبين ﴿مَا تَكْتُمُونَ﴾ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذا وإنَّ الطباق من الألفاظ التي خالفت مضمونها، ولذلك سماه بعضهم بالتضادّ والتكافؤ، وهو الجمع بين معنيين متضادين، ولا مناسبة بين معنى المطابقة لغةً، وبين معناها اصطلاحاً، فإنها في اللغة الموافقة يقال: طابقت بين الشيئين، إذا جعلت أحدهما على حذو الآخر، وابن الأثير يعجب من هذه التسمية؛ لأنه لا يعرف من أين اشتقت هذه التسمية، إذ لا مناسبة بين الاسم ومسماه، وابن قدامة يسميه التكافؤ، ولا فرق بين أن يكون التقابل حقيقياً، أو اعتبارياً، أو تقابل السلب والإيجاب، ومن طباق السلب، قول السموءل اليهوديّ:

ونُنْكِر إنْ شِئْنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

فقد طابق بين نُنْكِر وهو إيجابٌ، وبين ولا ينكرون وهو سلب، وقد يصح الطباق مقابلةً حين يؤتى بمعنيين، أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كقول البحتري:

فإذا حَارَبُوا أذلُّوا عَزِيزاً   وإذا سَالَمُوا أعزُّوا ذَلِيلاً

ومنها: التعبير بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ للتعظيم؛ لأنه صيغة مكالمة الأكابر، وهي معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم؛ لتربية المهابة؛ وإظهار الجلالة.

ومنها: إفادة الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ التعقيب؛ لأنها دلت على أنهم سارعوا في الامتثال، ولم يثبِّطوا فيه، وفيه أيضاً: الإيجاز بالحذف؛ لأن التقدير فسجدوا له، وكذلك قوله: ﴿أَبَىٰ﴾ مفعوله محذوف تقديره؛ أي: أبى السجود.

ومنها: التعبير في النهي عن الأكل بالنهي عن القربان في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ فنهى عن القرب من الزنا؛ ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ فإنه أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات، مما لو قيل من النعيم أو الجنة؛ لأنَّ من أعظم أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء وفخامته، أن يعبِّر عنه بلفظٍ مبهم، كما هنا، لتذهب نفس السامع في تصوُّر عظمته إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

ومنها: التعبير بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير التوبة واسع الرحمة؛ لأن فعالاً وفعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ تأكيداً لما قبله، وتوطئة لما بعده.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فائدة: قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية، ولا يحطُّ عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة، لم تخرجه عن حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية، فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

وقال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

والله أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] خطاب المكلفين عموماً في أول السورة، ثم ثنّى بمبدأ خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس اللعين، ثلّث هنا بذكر بني إسرائيل، سواء كانوا في زمنه ﷺ أو قبله، وما يتعلق بهم من هنا إلى قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فعدَّد عليهم نعماً عشراً، وقبائح عشراً، وانتقامات عشراً.

والحكمة في ذكر بني إسرائيل[2]، الذين تقدموا قبل رسول الله ﷺ، مع أنهم لم يخاطبوا بالإيمان برسول الله ﷺ أنَّ من كان في زمنه ﷺ يدَّعي أنه على قدمهم، وأنه متبع لهم، وأن أصولهم كانوا على شيء، فلذلك تبعوهم. فبين

---

(١) الصاوي.

(٢) الصاوي.

سبحانه وتعالى النعم التي أنعم بها على أصولهم، وبين لهم أنهم قابلوا تلك النعم بالقبائح، وبين أنه أنزل عليهم العقاب؛ ليعتبر من يأتي بعدهم.

وحكمة تخصيصهم بالخطاب: أن السورة أول ما نزل بالمدينة، وأهل المدينة كان غالبهم يهوداً، وهم أصحاب كتاب وشوكة، فإذا أسلموا، أو انقادوا، انقاد جميع أتباعهم، لذلك توَجَّه الخطاب لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى أولاً نعمه على بني إسرائيل إجمالاً، ذكر هنا أنواع تلك النعم على سبيل التفصيل، ليكون أبلغ في ذكرها وأدْعَى لشكرها، فكأنه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر، واذكروا إذ واعدنا موسى، وإذ آتينا موسى الكتاب، إلى آخر ما عدده من النعم عليهم، وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا، لا كفرانه وعصيانه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه الواحدي، والثعلبي من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: (نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره، ولذوي قرابته، ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين، أثبت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، فإنَّ أمره حق، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه).

وعبارة أبي حيان هنا قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآيات، هذا[٢] افتتاح الكلام مع اليهود والنصارى، ومناسبة الكلام معهم هنا ظاهرة، وذلك أن هذه السورة افتتحت بذكر الكتاب، وأن فيه هدى للمؤمنين، ثم أعقب ذلك بذكر الكفار المختوم عليهم بالشقاوة، ثم بذكر المنافقين، وذكر جمل من أحوالهم، ثم أمر الناس قاطبة بعبادة الله تعالى، ثم ذكر إعجاز القرآن إلى غير ذلك مما ذكره،

(١) لباب النقول.

(٢) البحر المحيط.

ثم نبههم بذكر أصلهم آدم، وما جرى له من أكله من الشجرة بعد النهي عنها، وأن الحامل له على ذلك إبليس، وكانت هاتان الطائفتان، أعني: اليهود والنصارى أهل الكتاب، مظهرين اتِّباع الرسل والاقتداء بما جاء عن الله تعالى. وقد اندرج ذِكْرُهم عموماً في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فجرَّد ذِكْرَهم هنا خصوصاً، إذ قد سبق الكلام مع المشركين والمنافقين، وبقي الكلام مع اليهود والنصارى، فتكلَّم معهم هُنا، وذكر ما يَقْتَضِي لهم الإيمان بهذا الكتاب، كما آمنوا بكتبهم السابقة إلى آخر الكلام معهم، على ما سيأتي جملة مفصلة، وناسب الكلام معهم قصة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لأنهم بعد ما أوتوا من البيان الواضح، والدليل اللائح، المذكور ذلك في التوراة والإنجيل، من الإيفاء بالعهد، والإيمان بالقرآن، ظهر منهم ضِدُّ ذلك بكفرهم بالقرآن، ومن جاء به وأقبل عليهم بالنداء، ليحرِّكهم لسماع ما يرد عليهم من الأوامر والنواهي، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ و﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ انتهى.

وللشوكاني هنا: كلام في الرد على من يبحث عن المناسبة بين السور وبين الآيات فلا يُغتر بكلامه؛ لأنه إذا ثبت أن ترتيب الآيات والسور في وضع المصاحف، على غير ترتيب النزول، والحال أن ذلك وضع توقيفي، فلا بُدَّ من معرفة حكمة تغيير الترتيب النزولي إلى هذا الترتيب الوضعي، ويتوصل إلى معرفتها بالبحث عن المناسبة الموصل إلى معرفة بلاغات القرآن وإعجازه، فحينئذٍ لا بد من البحث عنها ويقال:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ بَحْثاً صَحِيحاً

لعدم اطِّلاعه على ما فيها ولا نطيل الكلام في الرد عليه، كما أطاله وخطَّأ غيره، وحمَّقه، ولا نقول فيه إلا كما قيل:

وهو بسبق حائزٌ تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلا

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يا أولاد يعقوب، وهذا خطاب مع جماعة اليهود

الذين كانوا بالمدينة في زمن النبي ﷺ وإسرائيل: هو نبي الله يعقوب بن إسحاق، بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، وفي إسرائيل سبع لغاتٌ: إسرائيل بزنة إبراهيم، وإسرائل بمدة مهموزة مختلسة، رواها ابن شَنْبُوذ، عن وَرْش، وإسرائيل بمدّةٍ بعد الياء من غير همزٍ، وهي قراءة الأعمش، وعيسى بن عُمر، وقرأ الحسن من غير همزٍ ولا مدٍّ، وإسرائِل بهمزة مكسورة، وإسراءَلُ بهمزة مفتوحة، وتميم يقولون إسرائين، ذكره الشوكاني وأضافهم[1] إلى لفظ إسرائيل، وهو يعقوب، ولم يَقُلْ: يا بني يعقوب! لما في لفظ إسرائيل من الإضافة المشرفة؛ لأنَّ معناه عبدُ الله، أو صفوة الله، وذلك على أحسن تفاسيره، فهزَّهم بالإضافة إليه، فكأنَّه قيل: يا بني عبد الله أو يا بني صفوة الله، فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير، كما تقول: يا ابن الرجل الصالح! أطع الله، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله؛ لأنَّ الإنسان يُحِبُّ أن يقتفي أثر آبائه، وإن لم يكن بذلك محموداً، فكيف إذا كان محموداً ألا ترى إنا وجدنا آباءنا على أمة بل نتَّبع ما ألفينا عليه آباءنا وفي قوله: يا بني إسرائيل! دليل على أنَّ من انتمى إلى شخص، ولو بوسائط كثيرة، يطلق عليه أنه ابنه، وعليه يا بني آدم! ويسمى ذلك أباً، وفي إضافتهم إلى إسرائيل، تشريف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

ونقل عن أبي الفرج ابن الجوزي: أنه ليس لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ اسمان إلا يعقوب، فإنه يعقوب، وهو إسرائيل ونقل الجوهري في «صحاحه»: أن المسيح اسمٌ علم لعيسى لا اشتقاق له. وذكر البيهقيُّ عن الخليل بن أحمد، خمسةٌ من الأنبياء ذوو اسمين: محمد وأحمد نبينا ﷺ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل.

والمراد بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ من كان بحضرة رسول الله ﷺ بالمدينة وما وَالاها من بني إسرائيل، أو من أسلم من اليهود وآمن

---

(١) البحر المحيط.

بالنبي ﷺ، أو أسلاف بني إسرائيل وقدماؤهم، أقوال ثلاثة: والأقرب الأول؛ لأن من مات من أسلافهم لا يقال له: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إلا على ضربٍ بعيدٍ من التأويل؛ ولأن من آمن منهم لا يقال له: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ إلا بمجاز بعيد.

ويحتمل قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ الذكر باللسان، والذكر بالجنان، فعلى الأول يكون المعنى: أمرُّوا النِّعم على ألسنتكم ولا تغفلوا عنها، فإن إمرارها على اللسان ومدارستها سبب في أن لا تنسى. وعلى الثاني يكون المعنى تنبَّهُوا للنعم ولا تغفلوا عن شكرها وفي النعمة[1] المأمور بشكرها، أو بحفظها أقوالٌ: ما استودعوا من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ أو ما أنعم به على أسلافهم من إنجائهم من آل فرعون، وإهلاك عدوِّهم، وإيتائهم التوراة، ونحو ذلك قاله الحسن، والزجاج، أو إدراكهم مدَّة النبي ﷺ، أو عِلْمُ التوراة، أو جميع النعم على جميع خلقه، وعلى سلفهم وخلفهم في جميع الأوقات على تصاريف الأحوال. وأظهر هذه الأقوال: أنها ما اختصَّ به بنو إسرائيل من النعم لظاهر قوله: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ونعم الله على بني إسرائيل كثيرةٌ، استنقذهم من بلاء فرعون وقومه، وجعلهم أنبياء وملوكاً، وأنزل عليهم الكتب المعظَّمة، وظلَّل عليهم في التيه الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى. قال ابن عباس (أعطاهم عموداً من النُّور ليضيءَ لهم باللَّيل) وكانت رءوسهم لا تتشعَّثُ، وثيابُهم لا تَبْلى، وإنما ذُكِّرُوا بهذه النعم؛ لأن في جملتها ما شهد بنبوة محمد ﷺ وهو التوراة، والإنجيل، والزبور. وليحذروا مخالفة ما دُعوا إليه، من الإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن، ولأنَّ تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الخالفة، وذلك الطمع يمنع من إظهار المخالفة، وهذه النعم وإن كانت على آبائهم فهي أيضاً نعم عليهم؛ لأن هذه النعم حصل بها النسل؛ ولأنَّ الانتساب إلى آباءٍ شرِّفوا بنعم، تعظيم في حق الأولاد. قال بعض العارفين: عبيد النعم كثيرون، وعبيد المنعم قليلون، فالله تعالى ذكَّر بني إسرائيل نعمةُ عليهم، ولما آل الأمر إلى أمة محمد ﷺ ذَكَر

---

(١) البحر المحيط.

المنعِم، فقال: ﴿اذكروني أذكركم﴾ فدلَّ ذلك على فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم. وفي قوله: ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ نوع التفات، لأنه خروج من ضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ إلى ضمير المتكلم الذي لا يُشْعِرُ بذلك. وفي إضافة النعمة إليه، إشارةٌ إلى عظم قدرها، وسعة برِّها، وحسن موقعها. وفي قوله[1]: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ إشعارٌ بأنهم قد نسوها بالكلية، ولم يُخطروها بالبال، لا أنهم أهملوا شكرها فقط. وتقييد النعمة بكونها عليهم؛ لأن الإنسان غيورٌ حسودٌ بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره، حمله الغيرة والحسد على الكفران والسُّخْطِ، ولذا قيل: لا تنظر إلى من هو فوقك في الدنيا، لئلاَّ تزدري نعمة الله عليك، فإنَّ مَنْ نظر إلى ما أنعم الله به عليه، حمله حُبُّ النعمة على الرضى والشكر؛ أي: احفظوا بالجنان، واشكروا باللسان نعمتي التي تفضَّلْتُ بها عليكم. ويجوز[2] في الياء من نعمتي الإسكان والفتح، والقرّاء السبعة متفقون على الفتح، وأنعمت صلة التي، والعائد محذوف، والتقدير: أنعمتها عليكم ﴿وَأَوۡفُواْ﴾؛ أي: أتمُّوا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ الذي قبلتم يوم الميثاق، ولا تتركوا وفاءه وهو عام في جميع أوامره، من الإيمان، والطاعة، ونواهيه، ووصاياه، فيدخل في ذلك ما عهده تعالى إليهم في التوراة، من اتِّباع محمد ﷺ والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً، والمراد منه هنا: الموثق. والوصية والعهد هنا مضاف إلى الفاعل ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ بما ضمنت لكم من الجزاء؛ أي: أُتَمِمْ جزاءَكم بحسن الإثابة، والقبول، ودخول الجنة، والعهد هنا مضافٌ إلى المفعول، فإنَّ العَهْد يضاف إلى المعاهد والمعاهد، فإن الله عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح، بنصب الدلائل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم وأوَّل مراتب الوفاء منَّا: هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله حقن المال والدم، وآخرها منَّا: الاستغراق في بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلاً عن غيرنا، ومن الله الفوز باللِّقاء الدائم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: يا أولاد يعقوب! اذْكُروا بألسنتكم وبقلوبكم نعمتي التي أنعمت بها عليكم، وعلى آبائكم، من الإنجاء من فرعون، وفلق البحر، وتظليل الغمام في التيه، وإخراج الماء من الحَجَرِ، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى، واشكروا عليها بالإيمان بمحمد ﷺ، وحذف الشكْر؛ إكتفاءً بذكر النعمة ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾؛ أي: أتموا وأدّوا بما أمرتكم به من الطاعات، واجتنبوا ما نهيتكم عنه من الكفر والعصيان، أو أوفوا العهد الذي جعلنا عليكم في كتبكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾؛ أي: أوف لكم وأتمم بما عاهدته لكم عليّ، وضمنته لكم، من الجزاء بإثابتكم وإدخالكم الجنة ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ لا غيري ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾؛ أي: خافوني فيما تأتونه وفيما تذرونه؛ أي: خافوا عقابي في نقض ذلك العهد، فإن عذابي لشديد. ونصب[2] ﴿إياي﴾ بمحذوف، تقديره: وإياي ارهبوا، فارهبوني فيما تأتون وتذرون، وخصوصاً في نقض العهد لا بأَرْهَبونِ فإنه قد أخذ مفعوله، والأصل: ارهبوني، لكن حذفت الياء تخفيفاً؛ لموافقة رؤوس الآي، والفاء الجزائية دالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبوني لا غيري. والرهبة: خوف معه تحرز، والآية متضمنة للوعد لقوله: ﴿أُوفِ﴾ والوعيد لقوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ دالة على وجوب الشكر. والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي له أن لا يخاف أحداً إلا الله؛ للحصر المستفاد من تقديم إياي، والمعنى[3]: أي: لا ترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى، وهو القادر على سلبها منكم، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها، ولا يرهب بعضكم بعضاً خوف فوت بعض المنافع، ونزول بعض الأضرار، إذا أنتم اتبعتم الحق، وخالفتم غيركم من الرؤساء.

وقيل: المراد بالنعمة نعمة النبوة التي اصطفاهم بها زماناً طويلاً، حتى

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

كانوا يسمون شعب الله، وهذه المكرمة التي أوتوها، والنعمة التي اختصوا بها، وكانوا مفضلين بها على الأمم والشعوب، تقتضي ذكرها وشكرها، ومن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله الله سبحانه لهداية البشر، لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبي ﷺ، والازدراء به، زعماً منهم أن فضل الله محصور فيهم، فلا يبعث الله نبياً إلا منهم؛ ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام، أو إلى العهود الخاصة المعروفة في كتابهم الذي أنزل الله إليهم. ومنها: أنه سيرسل إليهم نبياً من بني عمهم إسماعيل، يقيم شعباً جديداً لآمنوا بالنبي ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وكانوا من الفائزين. أما عهد الله لهم، فأن يمكن لهم في الأرض المقدسة، ويرفع من شأنهم، ويخفض لهم العيش فيها، وينصرهم على أعدائهم الكفرة، ويكتب لهم السعادة في الآخرة.

وقرأ الزهري[1]: ﴿أوَفِّ﴾ بعهدكم مشدداً، ويحتمل أن يراد به التكثير، وأن يكون موافقاً للمجرد. وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿فارهبوني﴾ بالياء على الأصل. ولما كان من مواضع الوفاء بالعهد، خوف بعضهم من بعض، ذكر هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله تعالى وحده، فقال: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وبعد أن ذكر الوفاء بالعهد العام، انتقل إلى العهد الخاص المقصود من السياق، فقال: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ يا بني إسرائيل: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ إفراد الإيمان[2] بالقرآن بالأمر به، بعد اندراجه تحت العهد؛ لَمَّا أنَّه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهد؛ أي: صدقوا بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؛ أي: حال كون القرآن مصدقاً للتوراة؛ لأنه نازل حسبما نُعِت فيها، وتقييد المنزل بكونه مصدقاً لما معهم؛ لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإن إيمانهم بما معهم، مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعاً ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرِۭ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، فإن وزر المقتدي يكون على المبتدىء كما يكون على المقتدي؛ أي[3]: لا تسارعوا إلى الكفر به؛

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به؛ لَمَّا أنكم تعرفون شأنه وحقيقته بطريق التلقي، مما معكم من الكتب الإلٰهية، كما تعرفون أبناءَكم، وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون، فلا تضعوا موضع ما يتوقع منكم، ويجب عليكم ما لا يتوهم صدوره عنكم، من كونكم أول كافر به. ودلت الآية: على أنه ﷺ قدم المدينة، فكذبه يهود المدينة، ثم بنو قريظة، وبنو النضير، ثم خيبر، ثم تتابعت على ذلك سائر اليهود. وإنما[1] قال: أول كافر به، مع أنه قد تقدمهم إلى الكفر به كفار قريش؛ لأن المراد أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء، وما يلزم من التصديق. وقيل: مفهوم الصفة غير مراد هنا، فلا يرد ما يقال: إن المعنى: ولا تكونوا أول كافر بل آخر كافر، وإنما ذكرت الأولية؛ لأنها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر. وقيل: الضمير في به عائد إلى النبي ﷺ؛ أي: لا تكونوا أول كافر بهذا النبي، مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، مبشراً به في الكتب المنزلة عليكم. وقيل: عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله: ﴿لِمَا مَعَكُمْ﴾، وإنما قال: أول كافر به بالإفراد، ولم يقل كافرين: حتى يطابق ما قبله؛ لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ، متعدد المعنى، نحو: فريق، أو فوج. وقال الأخفش، والفراء: إنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر، وقد يكون من باب قولهم: هو أظرف الفتيان، وأجمله، كما حكى ذلك سيبويه، فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع.

والمعنى[2]: وآمنوا يا أهل الكتاب! بما أنزلته على محمد ﷺ، من القرآن، وصدقوا أنه من عندي، حالة كون ذلك المنزل مصدقاً، وموافقاً لما معكم؛ أي: للكتاب الذي معكم من التوراة والإنجيل في التوحيد، وصفة محمد ﷺ، وبعض الشرائع، ولا تكونوا أيها اليهود أول من يكفر بهذا القرآن من أهل الكتاب؛ لأنكم إذا كفرتم به كفر أتباعكم، فتكونوا أئمة في الضلال، أو لا تكونوا أول من جحد مع المعرفة؛ لأن كفر قريش مع الجهل لا مع المعرفة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) العمدة.

ومفهوم الأولية معطل[1].

ومعنى الآية: لا تكفروا به، فتكونوا أولاً بالنسبة لمن بعدكم من ذريتكم، فتبوءُوا بإثمكم وإثمهم، فهذا أبلغ من قوله ولا تكفروا؛ لأن فيه إثماً واحداً؛ أي: بل يجب أن تكونوا أول من آمن به، لأنكم أهل نظرٍ في معجزاته وعلمٍ بشأنه ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾؛ أي: لا تأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هي الحظوظ الدنيوية، فإنها وإن جلَّت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى ما فاتهم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم، ويُهْدُون إليهم الهدايا، ويعطونهم الرُّشا على تحريفهم الكلم، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع. وكان مُلوكهم يُجْرُونَ عليهم الأموال؛ ليكتموا ويحرفوا، فلما كانت لهم رياسة عندهم، ومآكل منهم، خافوا أن يذهب ذلك منهم؛ أي: من الأحبار لو آمنوا بمحمد واتبعوه، وهم عارفون صفته وصدقه، فلم يزالوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويغيرون نعت محمد ﷺ، كما حكي أن كعب بن الأشرف قال لأحْبَارِ اليهودِ: ما تقولون في محمد؟ قالوا: إنه نَبِيٌّ. قال لهم: كان لكم عندي صلة وعطية لو قلتم غير هذا. قالوا: أجبناك من غير تفكر، فأمهلنا نتفكر وننظر في التوراة، فخرجوا، وبدَّلوا نعت المصطفى بنعت الدَّجال، ثم رجعوا وقالوا ذلك، فأعطى كلَّ واحد منهم صاعاً من شعير، وأربعة أذرع من الكِرْباس، فهو القليل الذي ذكره الله سبحانه في هذه الآية الكريمة.

والمعنى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾؛ أي: لا تأخذوا بكتمان آياتي؛ أي: بكتمان محمد ﷺ المذكور في كتابكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا من سفلتكم يعني: لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من سفلتكم.

وعبارة «الجمل» هُنَا[2]: وذلك أن كعب بن الأشرف، ورؤساء اليهود، وعلماءَهم كانوا يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم، وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئاً معلوماً من زرعهم، وثمارهم، ونقودهم، فخافوا أنهم إن بيَّنوا صفة

---

(١) الفتوحات. (٢) الفتوحات.

محمد وتبعوه تفوتهم تلك الفوائد، فغيروا نعته بالكتابة، فكتبوا في التوراة بدل أوصافه أضدادها، وكانوا إذا سئلوا عن أوصافه كتموها، ولم يذكروها، فأشار إلى التغيير بالكتابة بقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ وإلى الكتمان بقوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾. اهـ. ﴿وَإِيَّايَ﴾ لا غيري ﴿فَاتَّقُونِ﴾؛ أي: فاخشون في أمر محمد ﷺ، لا ما يفوتكم من الرئاسة؛ أي[1]: فاتقون بالإيمان واتباع الحق، والإعراض عن حطام الدنيا وأعاده؛ لأن معنى الأول اخشوني في نقض العهد، وهذا معناه في كتمان نعت محمد ﷺ، أو لأنَّ الخطاب بالآية الأولى، لمَّا عَمَّ العالِم والمقلِّد أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السُّلوك، وبالثانية لمَّا خصَّ أهل العلم، أمرهم بالتقوى الذي هو منتهاه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾؛ أي: ولا تَخْلُطوا ﴿الْحَقَّ﴾ المنزَّل من عندي في أوصاف محمد ﷺ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ المخترع من عندكم؛ أي: لا تخلطوا الحقَّ الذي أنزلت عليكم في التوراة، من صفة محمد ﷺ بالكذب الذي تكتبونه بأيديكم، من تغيير صفته، وتبديل نعته، وهو معطوف[2] على ما قبله. واللَّبس بالفتح: الخلط؛ أي: لا تخلطوا الحقَّ المنزَّل بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتى لا يُميَّز بينهما، أو لا تجعلوا الحقَّ ملتبساً، بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله.

وفي «البحر» ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: الصدق[3] بالكذب، قاله ابن عباس، أو اليهودية والنصرانية بالإسلام، قاله مجاهد، أو التوراة بما كتبوه بأيديهم فيها من غيرها، أو بما بَدَّلُوا فيها من ذكر محمد ﷺ، قاله ابن زيد، أو الأمانة بالخيانة؛ لأنهم ائتُمِنُوا على إبداء ما في التوراة، فخانوا في ذلك بكتمانه وتبديله، أو الإقرار بنبوة محمد ﷺ إلى غيرهم، وجحدهم أنه ما بعث إليهم، قاله أبو العالية، أو إيمان منافقي اليهود بإبطان كفرهم، أو صفة النبي ﷺ بصفة

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

الدجال. وظاهر هذا التركيب: أن الباء في قوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للإلصاق كقولهم: خلطت الماء باللبن، فكأنهم نُهُوا عن أن يخلطوا الحقَّ بالباطل فلا يتميز الحق من الباطل. انتهى.

﴿و﴾ لا ﴿تكتموا الحق﴾ مجزوم[1] عطفاً على تلبسوا، والمعنى: النَّهْيُ عن كل واحد من الفعلين، كما قالوا: لا تأكل السمك وتشرب اللبن بالجزم، نهياً عن كل واحد من الفعلين، أو منصوب بإضمار أن، وعلى الأول يكون كل واحد من اللَّبس والكتم منهياً عنه، وعلى الثاني يكون المنهيُّ عنه هو الجمع بين الأمرين، ومن هذا يظهر رجحان دخوله تحت حكم النهي، وأنَّ كل واحد منهما لا يجوز فعله على انفراده، والمراد: النهي عن كتم حجج الله التي أوجب تبليغها، وأخذ عليهم بيانها. وجملة قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حالية من واو الفاعل في الفعلين؛ أي: حالة كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون، أو أنتم تعلمون أنه حقٌّ نبيٌّ مرسل، قد أنزل عليكم ذكره في كتابكم، فجحدتم نبوته مع العلم به، أو المعنى: وأنتم تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم، وليس إيراد الحال لتقييد المنهي به، بل لزيادة تقبيح حالهم، إذ الجاهل قد يُعْذر.

وقد أبانت الآية طريقهم في الغواية والإغواء، فقد جاء في كتبهم[2]:

١ ـ التحذير من أنبياء كذبةٍ يبعثون فيهم، وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدهش الألباب.

٢ ـ أن الله سبحانه يبعث فيهم نبياً من ولد إسماعيل، يقيم به أمةً، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، وبيَّن علاماتٍ واضحةً له لا لَبْس فيها ولا اشتباه، فأخذ الأحبار والرهبان يلبسُّون على العامَّة الحقَّ بالباطل، ويوهمونهم أنَّ النبي ﷺ من أولئك الأنبياء الكذبة، الذين وُصفوا في التوراة بالكذب، ويكتمون ما يعرفونه من أوصافٍ لا تنطبق إلا عليه، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين. وسبيل دعوتهم إلى الله أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم، بعدم الإيمان بالنبي ﷺ،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بزيادات يتحدَّثُونها، وتقاليد يبتدعونها بضروبٍ من التأويل، والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم، ويحكِّمونها في الدين، ويحتجُّون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشدَّ اتباعاً لهم، فعلى مَنْ بعدهم أنَّ يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذي يصعب علينا فهمه بزعمهم، لكن[1] هذه المعذرة لم يتقبَّلها الله منهم، ونسب إليهم اللبس والكتمان للحق الذي في التوراة إلى يومنا هذا، كما لم يتقبَّل ممن بعدهم من العلماء في أيِّ شريعةٍ ودينٍ، أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها، فكل ما يُعلم من كتاب الله، يجب علينا أن نعمل به، وما لا يعلم يُسأل عنه أهل الذكر، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به. قال في «التيسير» ويجوز صرف الخطاب إلى المسلمين، وإلى كل صنف منهم، وبيانه أن يقال: أيُّها السلاطين! لا تخلطوا العدل بالجور، ويا أيها القضاة! لا تخلطوا الحكم بالرشوة، وهكذا كل فريق. وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل، فهي تتناول مَن فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعيَّن عليه أداؤه، حتى يأخذ عليه أجراً، فقد دخل في حكم الآية. اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ تعلَّم علماً لا يبتغي به وجه الله، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»؛ أي: ريحها. فمن[2] رهب وصاحَب التقوى، لا يأخذ على علمه عوضاً، ولا على وصيته ونصيحته صفداً، بل يبين الحق ويصدع به، ولا يلحقه في ذلك خوفٌ ولا فزع. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان»، وفي التنزيل ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ قال القرطبي: وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعلم لهذه الآية ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والفتوى في هذا الزمان، على جواز الاستئجار لتعليم القرآن، والفقه، وغيره؛ لئلا يضيع. وفي الحديث «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله». والآية في حق من تعيَّن عليه التعليم، فأبى حتى يأخذ عليه

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أجراً، فأما إذا لم يتعيَّن، فيجوز له أخذ الأجرة، بدليل السنة في ذلك، كما إذا كان الغَسَّال في موضع لا يوجد فيه من يغسل الميت غيره، كما في القرى، والنَّواحي، فلا أجر له لتعيُّنه لذلك، وأما إذا كان ثمَّة ناسٌ غيره، كما في الأمصار، والمدن، فله الأجر حيث لم يتعيَّن عليه، فلا يأثم بالترك، وقد يتعيَّن عليه، إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه، ولا على عياله، فلا يجب عليه التعليم، وله أن يقبل على صنعته، وحرفته، ويجب على الإمام أن يُعيِّن له شيئاً، وإلا فعلى المسلمين؛ لأنَّ الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ لمَّا وُلي الخلافة وعُيِّنَ لها، لم يكن عنده ما يقيم به أهله، فأخذ ثياباً، وخرج إلى السوق، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أين أنفق على عيالي، فردوه وفرضوا له كفايته. وكذا يجوز للإمام، والمؤذن، وأمثالهما أخذ الأجرة، وبيع المصحف ليس بيع القرآن، بل هو بيع الورق وعمل أيدي الكاتب.

وقالوا في زماننا: تغيَّر الجواب في بعض المسائل، لتغيُّر الزمان، وخوف اندراس العلم والدِّين.

منها: ملازمة العلماء أبواب السلاطين.

ومنها: خروجهم إلى القرى لطلب المعيشة.

ومنها: أخذ الأجرة لتعليم القرآن، والأذان، والإمامة.

ومنها: العزل عن الحُرَّة بغير إذنها.

ومنها: السلام على شربة الخمور، ونحوها، فأُفتى بالجواز فيها، خشية الوقوع فيما هو أشدُّ منها وأضرُّ. كذا في «نصاب الأحساب»، وغيره.

ثم ذكر لزوم الشرائع لهم بعد الإيمان، فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خطابٌ[1] لبني إسرائيل؛ أي: اقبلوا يا بني إسرائيل! وجوب الصلوات الخمس المفروضة، واعتقدوا فرضيتها، وأدوها بشرائطها، وأركانها، وآدابها في أوقاتها المحدودة لها، كصلاة المسلمين، فإن غيرها كـ: لا صلاة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: اعطوا

---

(١) روح البيان.

الزكاة الواجبة في أموالكم، وأدوها إلى مستحقيها، كزكاة المؤمنين، فإن غيرها كـ: لا زكاة. والزكاة: من زكى الزرع إذا نمىٰ، فإنَّ إخراجها يستجلب بركة في المال، ويثمر للنفس فضيلة الكرم، أو من الزكاة بمعنى الطهارة، فإنها تُطهِّر المال من الخبث، والنَّفْس من البُخْل ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي: صلوا الصلوات الخمس مع المصلين محمدٍ وأصحابه في جماعتهم، فإنَّ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفَذِّ بسبع وعشرين درجة؛ لما فيها من تظاهر النُّفوس، فإن الصلاة كالغَزْو والمحراب كمحل الحرب ولا بد للقتال من صفوف الجماعة، فالجماعة قُوَّةٌ.

وخصَّ الله سبحانه وتعالى الركوع بالذكر؛ تحريضاً لليهود على الإتيان بصلاة المسلمين، فإن اليهود لا ركوع في صلاتهم، فكأنَّه تعالى قال: صلُّوا الصلاة ذات الركوع في جماعة. وقيل: لكونه ثقيلاً على أهل الجاهلية. وقيل: إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة، والركوع الشرعيُّ: هو أن ينحني المصلِّي، ويمدَّ ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه، ويقبض على ركبتيه، ثم يطمئن راكعاً ذاكراً بالذكر المشروع فيه.

والخلاصة[1]: أنه سبحانه وتعالى، بعد أن دعا بني إسرائيل إلى الإيمان، أمرهم بصالح عملٍ على الوجه المقبول عند الله، فطلب إليهم إقامة الصلاة؛ لتطهِّر نفوسهم، كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التي هي: مظهر شكر الله على نعمه، والصلة العظيمة بين الناس؛ لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله، وهم الفقراء؛ ولما بين الناس من تكافُلٍ عامٍ في هذه الحياة، فالغنيُّ في حاجةٍ إلى الفقير، والفقير في حاجةٍ إلى الغني، كما ورد في الحديث «المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضاً».

وبعد[2] إذ أمرهم بالركوع مع الراكعين؛ أي: أن يكونوا في جماعة المسلمين ويصلُّوا صلاتهم، وقد حثَّ على صلاة الجماعة؛ لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله، وإيجاد الألفة بين المؤمنين؛ ولأنه عند اجتماعهم

(١) المراغي. (٢) المراغي.

يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء، أو يجلب لهم السرَّاء. ومن ثم جاء في الخبر: «صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» وعبر عن الصلاة بالركوع؛ ليبعدهم عن الصلاة التي كانوا يصلونها قبلاً، إذ لا ركوع فيها.

والخطاب في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ موجَّهٌ إلى حملة الكتاب من الأحبار والرهبان. فقد روي عن ابن عباس: أنَّ الآية نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون من نصحوه سراً بالإيمان بمحمد ﷺ، ولا يؤمنون به. وقال السدّيُّ: إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى، وينهونهم عن معصيته، وهم يفعلون ما ينهون عنه. والاستفهام[1] فيه للتوبيخ، والتقريع لهم على ما فعلوا من أمر الناس، وترك أنفسهم المضمَّن للإنكار والنهي، ونظيره في النهي، قول أبي الأسود الدؤليّ:

لا تَنْه عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَه   عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عظيمُ

وقال الآخر:

وابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّها   فَإن انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فيقبح في العقول أن يأمر الإنسان بخير وهو لا يأتيه، وأن ينهى عن سُوءٍ وهو يفعله. وفي تفسير البرِّ هنا أقوالٌ: الثَّبات على دين رسول الله ﷺ، وهم لا يتبعونه، أو اتباعُ التوراة وهم يخالفونها في جحدهم صفته ﷺ. ورُوي عن قتادة، وابن جريج، والسدي: أو على الصدقة ويبخلون، أو على الصِدق وهو لا يصدقون، أو على الصلاة، والزكاة وهم لا يأتونهما. وقال القشيري: أتحرضون الناس على البدار، وترضون بالتخلُّف. وقال: أتدعون الخلق إلينا، وتقعدون عنا، ونحو ذلك.

والأمر[2]: القول لمن دونك افعل، والمراد بالناس سفلتهم. والبِرُّ: التوسع في الخير، من البَرّ الذي هو الفضاء الواسع ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي:[3] تتركونها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

من البر، كالمنسيَّات، لأنَّ أصل السهو، والنسيان الترك، إلا أن السهو يكون لما علمه الإنسان، ولما لم يعلمه. والنسيان لما عزب بعد حضوره، كانوا يقولون لفقرائهم الذين لا مطمع لهم فيهم بالسرِّ: آمنوا بمحمد، فإنه حقٌّ، وكانوا يقولون للأغنياء: نرى فيه بعض علامات نبي آخر الزمان دون بعضٍ، فانتظروا، استيفاء لما ينالون منهم، ويؤخِّرون أمور أنفسهم، فلا يتبعونه في الحال، مع عزيمتهم أن يتبعوه يوماً، وكذا حال من تمادى في العصيان، وهو يقول: أتوب عند الكبر والشيب، وربَّما يَفجَؤه الموت، فيبقى في حسرة الفوت ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: والحال أنكم تقرؤون التوراة الناطقة بنعوته ﷺ، الآمرة بالإيمان به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أتدومون على ذلك، فلا تفهمون أنه قبيحٌ، فترجعون عنه؛ أي: أليس لكم عقل تعرفون به، أنه قبيحٌ منكم عدم إصلاح أنفسكم، والاشتغال بغيركم؟!.

والعقل في الأصل: المنع والإمساك، ومنه العقال الذي يُشَدُّ به وظيف البعير إلى ذراعيه لحبسه عن الحراك، سمي به النور الروحانيُّ الذي به تدرك النفس العلوم الضروريَّة، والنظرية؛ لأنه يحبس عن تعاطي ما يقبح، ويعقل على ما يحسن، ومحله الدماغ؛ لأنَّ الدماغ محلُّ الحسِّ، وعند البعض محلُّه القلب؛ لأنَّ القلب معدن الحياة ومادَّة الحواس، وعند البعض هو نورٌ في بدن الآدمي والله أعلم. والأوَّل أرجح، ثم هذا التوبيخ ليس على أمر الناس بالبر، بل لترك العمل به، فمدار الإنكار والتوبيخ هي الجملة المعطوفة، وهي جملة تنسون أنفسكم، دون ما عطفت هي عليه، وهي أتأمرون الناس بالبر. ولا يستقيم قول: من لا يجوِّز الأمر بالمعروف لمن لا يعمل به لهذه الآية، بل يجب العمل به، ويجب الأمر به، وقد جاء في الخبر «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وَانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه»، وذلك؛ لأنه إذا أمر به مع أنه لا يعمل به، وفقد ترك واجباً، وإذا لم يأمر به، فقد ترك واجبين، فالأمر بالحسن حسنٌ وإن لم يعمل به، ولكن قلَّما نفعت موعظة من لم يعظ نفسه. ومن أمر بخير، فليكن أشد الناس مسارعةً إليه، ومن نهى عن شيء، فليكن أشدَّ الناس انتهاءً عنه.

وهذه الآية كما ترى، ناعِيةٌ على من يعظ غيره، ولا يعظ نفسه سوء

صنيعه، وعدم تأثره، وإن فعله فعل الجاهل بالشَّرْع، أو الأحمق الخالي عن العقل. والمراد[1] بها: حثُّ الواعظ على تزكية النفس، والإقبال عليها بالتكميل؛ لتقوم بالحق، وتقيم غيرها، لا منع الفاسق من الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما، لا يوجب الإخلال بالآخر.

ويروى أنه كان عالم من العلماء، مؤثِّر الكلام، قويَّ التصرف في القلوب، وكان كثيراً ما يموت من أهل مجلسه واحدٌ، أو اثنان من شدة تأثير وعظه. وكان في بلده عجوز لها ولدٌ صالح، رقيق القلب، سريع الانفعال، وكانت تحترز عليه، وتمنعه من حضور مجلس الواعظ، فحضره يوماً على حين غفلةٍ منها، فوقع من أمر الله تعالى ما وقع، ثُمَّ إن العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق فقالت:

أَتَهْدِي الأَنَامَ ولا تَهْتَدي ... ألا إن ذلك لا يَنْفَعُ
فَيَا حَجَرَ السَّنِّ حتى مَتَى ... تَسُنُّ الحَديدَ ولا تَقْطَعُ

وأشدُّ[2] ما قرَّع الله سبحانه في هذا الموضع، مَنْ يأْمرُ بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غَيْرُ عاملين بالعِلْم، فاستنكر عليهم أوَّلاً أمرهم للناس بالبِرِّ، مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس؛ إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما يتحمَّلُونه من حججه، ومبيِّنون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك، وأبعدهم من نفعه، وأزهدهم فيه.

وهذا الخطاب[3] وإن كان موجهاً إلى اليهود، فهو عبرة لغيرهم، فلتنظر كل أمة أفراداً وجماعاتٍ في أحوالها، ثم لتحذر أن يكون حالها كحال أولئك القوم، فيكون حكمها عند الله حكمهم، فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح، لا على صنف خاصٍ من الشعوب والأفراد. وبعد أن بيَّن سبحانه

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

سوء حالهم، وذكر أن العقل لم ينفعهم، والكتاب لم يُذكِّرهم، بيَّن[1] لهم طريق التَّغلُّب على الأهواء والشهوات، والتخلُّص من حب الرئاسة والوجاهات، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ يا بني إسرائيل! على ترك ما تحبون من الدنيا، وعلى الدخول في دين محمد ﷺ، الذي كان أثقل ثقيلٍ عليكم؛ أي: اطلبوا المعونة والمساعدة على ذلك ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾؛ أي: بحبس النفس عن الشهوات، ومنعها عنها، وبتحمُّلِ ما يشق عليها من التكاليف الشرعية، كالصوم ﴿وَ﴾ بأداء ﴿الصَّلاةِ﴾ المفروضة التي هي عماد الدين، وجامعةٌ لأنواع العبادات، وناهيةٌ عن الفحشاء والمنكر، أو استعينوا[2] على قضاء حوائجكم، بانتظار الظفر والفرج، توكُّلاً على الله تعالى، أو بالصوم الذي هو صَبْرٌ عن المفطرات، لما فيه من كسر الشهوة، وتصفية النفس ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي الناهية عن الفحشاء والمنكر. وقدَّم الصبر عليها؛ لأنه مقدِّمة الصلاة، فإنَّ من لا صبر له، لا يقدر على إمساك النفس عن الملاهي حتى يشتغل بالصلاة، فلا يمكن حصولها كاملةً إلا به. اهـ. «كرخي»: أي: استعينوا بالتوسُّل... الخ؛ أي: بالتوسل بالصلاة، والإلتجاء إليها حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب، وجبر المصائب، كأنهم؛ أي: بني إسرائيل، لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم، لما فيه من ترك الشهوة، وترك الرياسة، والإعراض عن المال، عُولجُوا بذلك.

وروى أحمد أنه ﷺ: كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة ورُوي أن ابن عباس - رضي الله عنهما - نُعِي له بنت وهو في سفر، فاسترجع وقال: (عورةٌ سترها، ومؤونةٌ كفاها، وأجر ساقه الله، ثم تنحَّى عن الطريق وصلَّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾).

واعلم: أنَّ الصبر[3] الحقيقيَّ إنما يكون، بتذكُّر وعد الله بحسن الجزاء، لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس، وعمل أنواع الطاعات

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

التي تشق عليها، والتفكر في أن المصائب بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع له، والتسليم لأمره. والاستعانة به تكون باتباع الأوامر، واجتناب النواهي بقمع النفس عن شهواتها، وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة؛ لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر؛ ولما فيها من مراقبة الله تعالى في السر والنجوى، وناهيك بعبادةٍ يناجي فيها العبد ربه في اليوم خمس مرات.

﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: وإن الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: لثقيلة شاقّة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؛ أي: إلا على المتواضعين المستكينين إلى طاعة الله تعالى، الخائفين من سطوته، المصدِّقين بوعده ووعيده. وقال ابن جرير: معنى الآية[1]: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين؛ أي: المتواضعين المستكينين لطاعة الله، المتذللين من مخافته. هكذا قال والظاهر[2]: أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، فإنها عامة لهم ولغيرهم. والله أعلم.

وفي «البحر»: أنَّ الضمير في ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائدةٌ على الصلاة، هذا ظاهر الكلام، وهو القاعدة في علم العربية، أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل. وقيل: يعود على الاستعانة، وهو المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ فيكون مثل: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ أي: العدل أقرب. وقيل: غير ذلك، وأظهرها ما بدأنا به أولاً. انتهى.

والاستثناء في قوله[3]: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ مفرغ؛ لأن المعنى: وإنها لكبيرة على كل أحد إلا على الخاشعين؛ أي: وإن الصلاة لشاقّةٌ صعبة الاحتمال، إلا على المخبتين لله، الخائفين من شديد عقابه، وإنما[4] لم تثقل على هؤلاء؛ لأنهم

---

(١) الطبري.

(٢) ابن كثير.

(٣) البحر المحيط.

(٤) روح البيان.

مستغرقون في مناجاة ربهم، فلا يشعرون بشيء من المتاعب والمشاق. ومن ثم قال ﷺ «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»؛ لأنَّ اشتغاله بها كان راحةً له، وكَان غيْرُها من أعمال الدنيا تعباً؛ ولأنهم مترقبون ما ادَّخروا من الثواب، فتَهُون عليهم المشاق. ومن ثم قيل للربيع بن خثيم، وقد أطال صلاته: أتعبت نفسك، قال: راحتها أطلب. وقيل: من عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل، ومن أيقن بالخَلَفِ، جاد بالعطية.

ثُمَّ وصف الخاشعين بأوصاف تقربهم إلى ربهم، وتدعوهم للإخبات إليه، فقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ويوقنون، ويعلمون، ويعتقدون اعتقاداً جازماً في كل لحظة ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ملاقوا جزائه بالموت. والمفاعلة هنا، ليست على بابها، ولا أرى بأساً في حملها على معناها الأصليِّ من دون تقدير مضاف؛ أي: أنهم معاينوه، وراؤوه، وهو كناية عن شهودهم مشهد العرض والسؤال يوم القيامة، وهو الوجه فيما يروى في الأخبار، نحو: لقي الله وهو عليه غضبان، وما يجري مجراه؛ أي: يعتقدون في كل لحظة اعتقاداً جازماً أنهم يبعثون، ويرون ربهم، ويحاسبون على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى ربهم ﴿رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة؛ أي: إلى جزائه إياهم، فيجازيهم بأعمالهم؛ أي: يصدِّقون بالبعث، والحساب، والمجازاة، وأمَّا الذين لا يوقنون بالجزاء، ولا يرجون الثواب، ولا يخافون العقاب، كانت عليهم مشقةٌ خالصة، فتثقل عليهم، كالمنافقين، والمرائين. فالصبر على الأذى والطاعات، من باب جهاد النفس، وقمعها عن شهواتها، ومنعها من تطاولها، وهو من أخلاق الأنبياء، والصالحين. قال يحيى بن اليمان: الصبر: أنَّ لا تتمنَّى حالةً سوى ما رزقك الله، والرضى بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك، وهو بمنزلة الرأس من الجسد. اهـ.

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ مع قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ مع أن الأول يغني عن الثاني؟.

قلت: لا يغني عنه؛ لأنَّ المراد بالأول: أنهم ملاقو ثواب ربهم على الصبر

والصلاة وبالثاني: أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب على ما ذكر.

والخلاصة[1]: أي لا تثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب والجزاء، وأنهم راجعون إليه بعد البعث، فيجازيهم بما قدموا من صالح العمل. وعبر بالظن؛ للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشقُّ عليه الصلاة، فما ظنك بمن يتيقنه، ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ، فكأنَّ هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، لم يصل إيمانهم بكتابهم إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالأحوط في أعماله، ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالى، بنعمه، وآلائه العديدة مرة أخرى، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: يا أولاد العبد الصالح! المطيع لربه، المسمى بإسرائيل؛ أي: بعبد الله ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾؛ أي: اشكروا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ﴾ بها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي[2]: على آبائكم بإنزال المنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، وتفجير الماء من الحجر، وغيرها. وذكر النعم على الآباء، إلزام الشكر على الأبناء، فإنهم يشرفون بشرفهم، ولذلك خاطبهم، فقال: ﴿أني فضلتكم﴾ ولم يقل: فضلت آباءكم؛ لأن في فضل آبائهم فضلهم، وهذا تأكيدٌ لما تقدَّم، وتمهيدٌ لما عطفه عليه من التذكير بالتفضيل، الذي هو من أجل النعم ﴿و﴾ اذكروا ﴿أني فضلتكم﴾؛ أي: فضَّلْت آباءكم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من عطف الخاص على العام للتشريف؛ أي: فضلت آباءكم على عالَمي زمانهم؛ بما منحتهم من العلم، والإيمان، والعمل الصالح، وجعلتهم أنبياء، وملوكاً مقسطين، وهم آباؤهم الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام وبعده، قبل أن يغيِّروا، وهذا كما قال في مريم: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: نساء زَمَانِكِ، فإن خديجة، وعائشة، وفاطمة، أفضل منها، فلم يكن لهم فضلٌ على أمة محمد ﷺ. قال تعالى في حقهم: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، كما في «التيسير». فالاستغراق في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عرفيٌّ لا حقيقيٌّ والمعنى؛ أي[3]: وأعطيتكم الفضل والزيادة على

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

غيركم، بإرسال الرسل منكم، وإنزال الكتب عليكم؛ أي: على غيركم من الشعوب والأمم، حتى الأمم ذات الحضارة والمدنية، كالمصريين، وسكان الأراضي المقدَّسة. وقد ناداهم باسم أبيهم؛ لأنه منشأ فخارهم، وأصل عزهم. وأسند النعمة والفضل إليهم جميعاً؛ لشمولهما إياهم، والتفضيل إنما أتاهم؛ لتمسكهم بالفضائل، وتركهم للرذائل، إذ من يرى نفسه مفضلاً شريفاً يترفع عن الدنيا، وذكَّرهم بهذا الفضل؛ لينبِّههم إلى أن الذي فضَّلهم على غيرهم، له أن يفضل عليهم غيرهم، كمحمد ﷺ، وأمته، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب، بالتأمل فيما أوتيه النبي ﷺ من الآيات، فإنَّ المفضَّل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه، وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء، فلا مزاحم له فيه، ولا تقتضي هذه الفضيلة أن يكون كُلُّ فرد منهم، أفضل من كل فرد من غيرهم، ولا تمنع أن يفضلهم أخسُّ الشعوب إذا انحرفوا عن جادَّة الطريق، وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه، فذلك إنما يتحقَّق في أولئك الأنبياء والمهتدي من أهل زمانهم، ومن تبعهم بإحسان ما داموا على الاستقامة، وسلكوا الطريق الذي استحقوا به التفضيل.

قال القشيري[1]: أشهد الله سبحانه بني إسرائيل فضل أنفسهم، فقال: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأشهد محمداً ﷺ فضل ربه، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ وشتان بين مَن مشهوده فضل نفسه، وبين مَن مشهوده فضل ربه، وشهوده فضل نفسه، قد يورث الإعجاب، وشهوده فضل ربه، يورث الإيجاب. ثم إن اليهود كانوا يقولون: نحن من أولاد إبراهيم خليل الرحمن، ومن أولاد إسحاق ذبيح الله، والله تعالى يقبل شفاعتهما، فرد الله عليهم، فأنزل هذه الآية وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾؛ أي: واخشوا يا بني إسرائيل! وخافوا ﴿يَوْمًا﴾؛ أي: حساب يوم، أو عذاب يوم، وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال، وهو يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِى﴾ فيه؛ أي: لا تغني ولا تدفع فيه، أو لا تقضي ولا تؤدِّي فيه، والجملة صفة يوم، والرابط فيه محذوف، كما قدَّرنا ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من

(١) روح البيان.

عذاب الله، أو شيئاً مَّا من الحقوق التي لزمت عليها. وإيراده منكراً مع تنكير النفس؛ للتعميم والإقناط الكليّ. قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وكيف تنفع وقد قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية.

وقرأ ابن السّماك العدويُّ[1]: ﴿لاَّ تُجْزِى﴾ مِنْ أجزأ؛ أي: أَغْنَى. وقيل: جزى، وأجزأ بمعنى واحد ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾؛ أي: من النفس الأولى المؤمنة. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿ولا تقبل﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وهو القياس، والأكثر؛ لأنَّ الشفاعة مؤنثة. وقرأ الباقون بالياء التحتية، فهو أيضاً جائزٌ فصيح، لمجاز التأنيث، وحسنه أيضاً الفصل بين الفعل ومرفوعه. وقرأ سفيان[2]: ﴿وَلاَ يَقْبَلُ﴾ بفتح الياء، ونصب شفاعة على البناء للفاعل، وفي ذلك التفات، وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب؛ لأن قبله ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ﴾ ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ وبناؤه للمفعول أبلغ؛ لأنه في اللفظ أعمُّ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى؛ أي: ولا يقبل من النفس المؤمنة ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ للنفس الثانية الكافرة، إن شفعت عند الله تعالى، لتخليصها من عذابه؛ أي: لا توجد منها شفاعة فتقبل، ولا يؤذن لها فيها، والشفاعة: طلب الخير من الغير للغير، فلا[3] شفاعة في حق الكافر، بخلاف المؤمن. قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فمن كذب بها لم ينلها» والآيات الواردة في نفي الشفاعة خاصَّةٌ بالكافر: وسبب الآية كما مرّ: أن اليهود كانوا يقولون: يشفع لنا آباؤنا الأنبياء فآيسهم الله تعالى عن ذلك، لأن الأصول لا تنفع الفروع، إلا إذا كان مع الفروع إيمان ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾؛ أي: من النفس الكافرة المشفوع لها، وهي الثانية العاصية ﴿عَدْلٌ﴾؛ أي: فداءٌ من عذاب الله من مال، أو رجل مكانها، أو توبةٌ تنجو بها من النار. والعدل بالفتح مثل الشيء من خلاف جنسه، وبالكسر مثله من جنسه، وسُمِّي به

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

الفدية؛ لأنها تساويه، وتماثله، وتجري مجراه ﴿وَلَا هُمْ﴾؛ أي: ولا أصحاب النفوس الكافرة ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يمنعون من دخول عذاب الله تعالى، ومن أيدي المعذِّبين، فلا نافع، ولا شافع، ولا دافع لهم، والضمير، لما دلَّت عليه النفس الثانية المنكرة، الواقعة في سياق النَّفي من النفوس الكثيرة، والتذكير، لكونها عبارة عن العباد والأناسي. والنصرة ههنا أخصُّ من المعونة؛ لاختصاصها بدفع الضرر.

فإن قلت: ما الحكمة في تقديم الشفاعة على العدل هنا؟ وعكسه فيما يأتي في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾.

قلت: للإشارة هنا إلى من ميله إلى حُبِّ نفسه، أشدُّ منه إلى حب المال، وثم إلى من هو بعكس ذلك والمعنى؛ أي: ليس[1] لهم أنصارٌ يمنعونهم من عذاب الله، ويدفعون عنهم عقابه يعني[2]: أنهم يومئذٍ لا ينصرهم ناصرٌ، كما لا يشفع لهم شافعٌ، ولا يقبل منهم عدل، ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرُّشا، والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء، والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها. والخلاصة[3]: أن ذلك يومٌ تتقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا، من دفع المكروه عن النفس بالفداء، أو بشفاعة الشافعين عند الأمراء، والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق، والباطل على سواها، وتضمحل فيه جميع الوسائل، إلا ما كان من إخلاص في العمل، قبل حلول الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله تعالى.

وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية، يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب، بفداء يدفع، أو

---

(١) ابن كثير.
(٢) العمدة.
(٣) المراغي.

بشفاعة بعض المقربين إلى الحاكم، فيغيِّر رأيه، وينقض ما عزم عليه، فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة؛ ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع في ذلك اليوم، إلا مرضاة الله تعالى بالعمل الصالح، والإيمان الذي يبلغ قرارة النفس، ويتجلَّى في أعمال الجوارح ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾[1] وقرىء ﴿أنجيناكم﴾ والهمزة للتعدية إلى المفعول، كالتضعيف في نجيناكم، ونسبت هذه القراءة إلى النخعي، وذكر بعضهم أنه قرأ ﴿أَنجيتكم﴾ فيكون الضمير فيه موافقاً للضمير في نعمتي، ﴿وإذ﴾ في موضع[2] نصب عطفاً على نعمتي، عطف مفصَّل على مجمل، وكذلك الظروف الآتية في الكلام المتعلق ببني إسرائيل، وينقضي عند قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ والخطاب للموجودين في زمن النبي ﷺ، تذكيراً لهم بما أنعم الله على آبائهم؛ لأن إنجاء الآباء سببٌ في وجود الأبناء، والمعنى: ويا بني إسرائيل! اذكروا إذ نجينا آباءكم، وسلمناهم، وخلصناهم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من بطش فرعون وأتباعه، وأهل دينه؛ أي:[3] واذكروا قصة وقت تنجيتنا آباءكم فإن تنجيتهم تنجيةٌ لكم، ومن عادة العرب يقولون: قتلناكم يوم عكاظ، أي: قتل آباؤنا آباءكم. والنجو: المكان العالي من الأرض؛ لأنَّ من صار إليه يخلص، ثم سمي كلُّ فائز ناجياً؛ لخروجه من ضيق إلى سعةٍ؛ أي: جعلنا آباءكم بمكان حريز، ورفعناكم من الأذى. وفرعون: لقب مَنْ مَلَك العمالقة، ككسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وخاقان لمن ملك الترك، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وتُبَّع لمن ملك اليمن، والعمالقة الجبابرة، وهم أولاد عمليق بن لاود بن إرم، بن سام، بن نوح عليه السلام سكان الشام، منهم سمو الجبابرة. وملوك مصر، منهم سموا بالفراعنة، ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل، إذا عتا وتمرَّد، فليس المراد الاستغراق، بل الذين كانوا بمصر. وفرعون موسى: هو الوليد بن مصعب بن الريان، وكان من القبط، وعُمِّر أكثر من أربعمائة سنة. وقيل: إنه كان عطاراً

---

(١) البحر المحيط.

(٢) العمدة.

(٣) روح البيان.

أصفهانياً، ركبته الديون فأفلس، فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام، فلم يتيسَّر له المقام، فدخل مصر، فرأى في ظاهرها حملاً من البطيخ بدرهم، وفي سوقها بطيخة بدرهم، فقال في نفسه: إن تيسَّر لي أداء الديون فهذا طريقه، فخرج إلى السواد فاشترى حملاً بدرهم، فتوجه به إلى السوق، فكل من لقيه من المكاسين؛ أي: العشارين، أخذ بطيخةً، فدخل البلد وما معه إلا بطيخة، فباعها بدرهم ومضى بوجهه، ورأى أهل البلد متروكين سدًى، لا يتعاطى أحد سياستهم، وكان قد وقع بها وباءٌ عظيم، فتوجه نحو المقابر، فرأى ميتاً يدفن، فتعرض لأوليائه، فقال: أنا أمين المقابر، فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطوني خمسة دراهم، فدفعوها إليه، ومضى لآخر وآخر، حتى جمع في مقدار ثلاثة أشهر مالاً عظيماً، ولم يتعرَّض له أحدٌ قطُّ، إلى أن تعرَّض يوماً لأولياء ميتٍ، فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم، فأبوا ذلك، فقالوا: من نصبك هذا المنصب، فذهبوا به إلى فرعون؛ أي: إلى ملك المدينة، فقال: من أنت؟ ومن أقامك بهذا المقام؟ قال: لم يقمني أحدٌ، وإنما فعلت ما فعلت؛ ليحضرني أحدٌ إلى مجلسك، فأُنبِّهك على اختلال حال قومك، وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال، فأحضره، ودفعه إلى فرعون، فقال: ولِّني أمورك ترني أميناً كافياً، فولاه إياها، فسار بهم سيرةً حسنة، فانتظمت مصالح العسكر، واستقامت أحوال الرعيَّة، ولبث فيهم دهراً طويلاً، وترامى أمره في العدل والصلاح، فلما مات فرعون أقاموه مقامه، فكان من أمره ما كان، وكان فرعون يوسف عليه السلام ريَّان، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة.

وقد روى المؤرخون: أنَّ أول من دخل مصر من بني إسرائيل، يوسف عليه السلام، وانضم إليه إخوته بعد، وتكاثر نسلهم حتى بلغوا في مدى أربعمائة سنة، نحو: ستمائة ألف، حين خرجوا من مصر باضطهاد فرعون وقومه لهم إذ قد رأى تبسط اليهود في البلاد، ومزاحمتهم للمصريين، فراح يستن لهم، ويكلفهم شاقَّ الأعمال في مختلف المهن، والصناعات، وهم مع ذلك يزدادون نسلاً، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم، لا يشركون المصريين. في شيء، ولا يندمجون في غمارهم إلى ما لهم من أنانيةٍ، وإباءٍ، وترفع على

سواهم، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله، وأفضل خلقه؛ فهال المصريين ما رأوا، وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم، ويستأثروا بخيراتها، وينتزعوها من بين أيديهم، وهم ذلك الشعب النشيطُ، المُجِدّ، العامل، المفكِّر، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم، واستحياء بناتهم، فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلي حين ولادته، فكان من أمرهم ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ...﴾ إلخ.

والعبرة من هذه القصص: أنه كما أنعم على اليهود، ثُمَّ اجترحوا الآثام، فعاقبهم بصنوف البلاء، ثم تاب عليهم وأنجاهم أنعم على الأمة الإسلامية بضروب من النعم، فقد كانوا أعداءً، فألَّف بين قلوبهم، وأصبحوا بنعمته إخواناً، وكانوا مستضعفين في الأرض، فمكَّن لهم وأورثهم أرض الشعوب القوية، وجعل لهم فيها السلطان والقوة، وجعلهم أمة وسطاً لا تفريط لديها ولا إفراط، ليكونوا شهداء على من فرَّطوا، أو قصَّروا.

ثم لما كفروا بهذه النعم[1]، أذاقهم الله تعالى ألواناً من العذاب على يد التَّتار في بغداد، وفي الحروب الصليبية، إذ جاس الغربيون خلال الديار الإسلامية، ولا يزالون ينتقصون بلادهم من أطرافها، ويصبون عليهم العذاب، وهم لاهون ساهون، وكلما حلت كارثة، أو أصابتهم جائحة، أحالوا الأمر فيها على القضاء والقدر، دون أن يتعرَّفوا أسبابها، ويبادروا إلى علاجها، ويكونوا يداً واحدةً على رفع ما يحل بهم من النكبات، ويدهمهم من الويلات. وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حالٌ من آل فرعون؛ أي: واذكروا قصة وقت تنجيتنا آباءَكم من آل فرعون وقومه، حالة كونهم يذيقونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وأشده، ويكلفونكم أشقَّ الأشغال، وأتعبها، وأصعبها. وقيل: حالٌ من ضمير المفعول في نجيناكم، والمعنى: نجيناكم مسومين منهم أقبح العذاب، كقولك: رأيت زيداً يضربه عمرو؛ أي: حال كونه مضروباً لعمرو. وذلك[2] أنَّ فرعون جعل بني إسرائيل

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

خدماً وخولاً، وصنفهم في الأعمال، فصنف يبنون، وصنفٌ يحرثون ويزرعون، وصنفٌ يخدمونه، ومن لم يكن منهم في عمل، وضع عليهم الجزية، وقال وهبٌ: كانوا أصنافاً في أعمال فرعون، فذو القوة ينحتون السواري من الجبال، ويحملونها حتى قرحت أعناقهم وأيديهم، ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفةٌ ينقلون الحجارة والطين، يبنون له القصور، وطائفة منهم يضربون اللبن، ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون، وحدادون، والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة، ويؤدونها كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته، غلت يمينه إلى عنقه شهراً، والنساء يغزلن الكتان وينسجن. وقيل تفسير قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: يقتلّون أبناءكم الصغار بالذبح، فهو مستأنف استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ما حقيقة سوء العذاب الذي يذيقونهم، فأجيب بأنهم يذبحون أبناءهم؛ أي: يقتلونهم، والتشديد للتكثير، كما يقال: فتحت الأبواب، والمراد من الأبناء: هم الذكور خاصَّةً، بدليل المقابلة بما بعده، وأن الاسم يقع على الذكور والإناث في غير هذا الموضع، كالبنين في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فإنهم كانوا يذبحون الغلمان لا غير، وكذا أريد به الصغار دون الكبار؛ لأنهم كانوا يذبحون الصغار.

فإن قلت: ما الحكمة في ترك العاطف هنا في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾؟ وذكره في سورة إبراهيم؟.

قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى فوقع تفسيراً لما قبله، وما هناك من كلام موسى، وكان مأموراً بتعداد المحن في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فعدد المحن عليهم، فناسب ذكر العاطف. انتهى من «فتح الرحمن».

وقرأ الجمهور ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[1] بالتشديد، وهو أولى؛ لظهور تكرار الفعل باعتبار متعلقاته. وقرأ الزهريُّ، وابن محيصن ﴿يَذْبَحون﴾ مخففاً مِنْ ذَبَح المجرد؛ اكتفاءً بمطلق الفعل، وللعلم بتكريره من متعلقاته. وقرأ عبد الله

---

(١) البحر المحيط.

﴿يقتلون﴾ بالتشديد مكان يذبحون، والذبح: القتل، ويذبحون بدلٌ من يسومونكم، بدل الفعل من الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ وقول الشاعر:

مَتَى تَأْتِنا تَلْمُمْ بِنَا فِي دِيارِنا   تجد حطباً جزلاً وناراً تأجَّجَا

ويحتمل أن يكون ممَّا حذف منه حرف العطف؛ لثبوته في (سورة إبراهيم) وقول من ذهب إلى أنَّ الواو هناك زائدةٌ لحذفها هنا ضعيف، ويجوز أن يكون يذبحون في موضع الحال من ضمير الرفع في يسومونكم، ويجوز أن يكون مستأنفاً كما مرَّ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: يستبقون بناتكم ويتركونهن حيَّات؛ استبقاءً للخدمة، وذكر النساء، وإن كانوا يفعلون هذا بالصغائر؛ لأنه سماهن باسم المآل؛ لأنهم إذا استبقوهن صرن نساء بعد البلوغ؛ ولأنهم كانوا يستبقون البنات مع أمهاتهن، والاسم يقع على الكبيرات، والصغيرات عند الاختلاط. وذلك[1] أنَّ فرعون رأى في منامه، كأنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس، فأحاطت بمصر، وأخرجت كل قبطيٍّ بها، ولم تتعرض لبني إسرائيل، فهاله ذلك، وسأل الكهنة والسحرة عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلامٌ، يكون على يده هلاكك وزوال ملكك، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل، فقال لهن: لا يسقط على أيديكن غلامٌ يولد في بني إسرائيل إلا قتل، ولا جارية إلا تركت، ووكل القوابل، فكن يفعلن ذلك حتى قيل: إنه قتل في طلب موسى عليه السلام اثنا عشر ألف صبيٍّ، وتسعون ألف وليدٍ، وقد أعطى الله نفس موسى عليه السلام، من القوة على التصرف، ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياءً، ولذلك كانت معجزاته ظاهرةً باهرةً، ثم أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون، وقال: إن الموت وقع في بني إسرائيل، فتذبح صغارهم، ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يُذبَحوا سنةً، ويتركوا سنة، فولد هارون عليه السلام في السنة التي لا

---

(١) روح البيان.

يذبح فيها، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، فلم يردَّ اجتهادهم من قضاء الله شيئاً، وشمَّر فرعون عن ساق الاجتهاد، وحسر عن ذراع العناد، فأراد أن يسبق القضاء ظهوره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ إشارة[1] إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: محنة وبليَّة، وكون استحياء نسائهم؛ أي: استبقائهن على الحياة محنةً، مع أنه عفوٌ، وتركٌ للعذاب، لما أن ذلك كان للاسترقاق والاستعمال في الأعمال الشاقَّة، ولأنَّ بقاء البنات مما يشق على الآباء، ولا سيما بعد ذبح البنين، لما فيه من انقطاع النسل، وفساد أمر معيشتهن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: من جهته تعالى، بتسليطهم عليكم ﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ للبلاء، وتنكيرهما للتفخيم، والمعنى على هذا القول: وفي ذلكم المذكور من ذبح الأبناء واستبقاء البنات للخدمة، اختبارٌ وامتحانٌ شديدٌ واقعٌ علكيم من ربكم، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الإنجاء من فرعون، ومعنى البلاء حينئذٍ النعمة؛ لأنَّ أصل البلاء الاختبار، والله تعالى يختبر عباده تارة بالمنافع ليشكروا فيكون ذلك الاختبار منحةً؛ أي: عطاء ونعمةً؛ وأخرى بالمضار ليصبروا فيكون محنة، فلفظ الاختبار يستعمل في الخير والشر. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ ومعنى من ربكم؛ أي ببعث موسى وبتوفيقه لتخليصكم منهم، والمعنى على هذا القول: وفي ذلكم المذكور من تنجيتكم من عذابهم، نعمةٌ عظيمة واقعة لكم من ربكم. وحمل البلاء[2] على النعمة أرجح؛ لأنها هي التي صدرت من الله تعالى؛ ولأن موضع الحجة على اليهود إنعام الله تعالى على أسلافهم. اهـ. «مراح».

وقال أبو حيان:[3] هو أضعف من القول الذي قبله؛ لما فيه من إعادة اسم الإشارة إلى أبعد مذكور، وهو المصدر المفهوم من نجيناكم. والمتبادر إلى الذهن، والأقرب في الذكر، هو القول الأول. اهـ. ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! أيضاً ﴿إذ فرقنا﴾ وفلقنا، وشققنا، وفصلنا ﴿بِكُمُ﴾؛ أي: بسبب إنجائكم، فالباء

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

للسببية وهو أولى؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ لتعداد النعم والامتنان، وفي السببية دلالةٌ على تعظيمهم، وهو أيضاً من النعم. وقيل: الباء بمعنى اللام كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: لأن الله. ﴿ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: فصلنا بعضه عن بعض لأجل أن يتيسر لكم سلوكه، وهو[1] بحر القلزم، بحر من بحار فارس، أو بحر من ورائهم يقال له: إساف، فجعلنا فيه اثني عشر ملكاً، بعدد أسباط بني إسرائيل. والسبط: ولد الولد. والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب، وهم أولاد يعقوب، فخضتم فيها ﴿فأنجيناكم﴾ من الغرق بإخراجكم إلى الساحل ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: فرعون وقومه للعلم به بدخوله فيهم، وكونه أولى به منهم. والغرق: الرسوب في الشيء المائع، ورسب الشيء في الماء رسوباً؛ أي: سفل فيه. والإغراق: الإهلاك في الماء ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: الحال أنكم تنظرون، وتبصرون، وتشاهدون انفراق البحر حين سلكتم فيه، وانطباقه على آل فرعون بعد سلامتكم منه، وتنظرون إليهم أيضاً غرقى موتى، وجثثهم التي رماها البحر إلى الساحل بعد ثلاثة أيام، وفرعون معهم طافين. وفي ذلك آية باهرة من آيات الله سبحانه، حيث أنجى أولياءه، وأهلك أعداءه في زمن يسير، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، كما في الصحيحين، وغيرهما، فصامه موسى شكراً.

قال القرطبي: أن الله تعالى لمَّا أنجاهم وأغرق فرعون، قالوا: يا موسى! إنَّ قلوبنا لا تطمئن أن فرعون قد غرق، حتى أمر الله البحر فلفظه فنظروا إليه. وروي[2] أنه: لما دنا هلاك فرعون، أمر الله سبحانه موسى عليه السلام، أن يسري ببني إسرائيل من مصر ليلاً، فأمرهم أن يخرجوا، وأن يستعيروا الحلي من القبط، وأمر أن لا ينادي أحد منهم صاحبه، وأن يسرجوا في بيوتهم إلى الصبح، ومن خرج لطخ بابه بكف من دم؛ ليعلم أنه قد خرج، فخرجوا ليلاً وهم ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل، لا يعدون فيهم ابن العشرين لصغره، ولا ابن الستين لكبره، والقبط لا يعلمون، ووقع في القبط موت فجعلوا يدفنونهم، وشغلوا عن

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

طلبهم، فلما أرادوا السير ضُرب عليهم التيهُ، فلم يَدْرُوا أين يذهبون، فدعا موسى مشيخة بني إسرائيل وسألهم عن ذلك، فقالوا: إنَّ يوسف لما حضره الموت، أخذ على إخوته عهداً، أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم، فلذلك انسد عليهم الطريق، فسألهم عن موضع قبره، فلم يعلمه أحدٌ غير عجوز قالت: لو دللت على قبره، أتعطيني كُلَّ ما سألتك؟ فأبى عليها، وقال: حتى أسأل ربي، فأمره الله بإيتاء سؤلها، فقالت: إني عجوز كبيرة لا أستطيع المشي، فاحملني، وأخرجني من مصر، هذا في الدنيا، وأمَّا في الآخرة، فأسألك أن لا تنزل في غرفة إلا نزلتها معك. قال: نعم. قالت: إنه في جوف الماء في النيل، فادع الله أن يحسر عنه الماء، فدعا الله أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف، فحفر موسى ذلك الموضع، واستخرجه في صندوق من صنوبر. قالوا: إنَّ موسى استخرج تابوت يوسف من قعر النيل بالوفق، وهو أول علم أوجده الله سبحانه بنفسه، وعلمه آدم عليه السلام، فتوارثه الأنبياء آخراً عن أوَّل. ثم إنه حمله حتى دفنه بالشام، ففتح لهم الطريق فساروا، فكان هارون أمام بني إسرائيل، وموسى على ساقتهم، فلمَّا علم بذلك فرعون، جمع قومه فخرج في طلب بني إسرائيل، وعلى مقدمته هامان في ألف ألفٍ وسبعمائة ألف جواد ذكر ليس فيها رمكةٌ، على رأس كل واحد منهم بيضةٌ، وفي يده حربة، فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر، والماء في غاية الزيادة، فأدركهم فرعون حين أشرقت الشمس، فقال فرعون في أصحاب موسى: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، فلما نظر أصحاب موسى إليهم، بقوا متحيِّرين، فقالوا لموسى: إنا لمدركون يا موسى! أوذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا، اليوم نهلك، فإنَّ البحر أمامنا إن دخلناه غرقنا، وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا يا موسى! كيف تصنع؟ وأين ما وعدتنا؟ قال موسى: كلا إن معي ربي سيهدين، فأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام، أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فلم يطعه، فأُوْحِيَ إليه أَنْ كَنِّهِ، فضَرَبه، وقال: انفلِق يا أبا خالدٍ! انفلق، فصار فيه اثنا عشر طريقاً، كل طريق كالجبل العظيم، وكان لكل سبط طريق يأخذون فيه وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبساً، فخاضت بنو إسرائيل البحر، وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: ما لنا لا ترى إخواننا؟

وقال كل سبط: قد قتل إخواننا. قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم، فقال موسى: اللهم! أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه، أن قل بعصاك هكذا وهكذا يمنةً ويسرةً، فصار فيها كوى ينظر بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض، فساروا حتى خرجوا من البحر، فلما جاز أخر قوم موسى، هجم فرعون على البحر فرآه منفلقاً. قال لقومه: انظروا إلى البحر، انفلق من هيبتي حتى أُدرِك عبيدي الذين أَبقَوا، فهاب قومه أن يدخلوه، وقيل له: إن كنت رباً فادخل البحر، كما دخل موسى، وكان فرعون على حصانٍ أدهم؛ أي: ذكر أسود من الخيل، ولم يكن في قوم فرعون فرسٌ أنثى، فجاء جبريل على أنثى وديقٍ، وهي التي تشتهي الفحل، وتقدمه إلى البحر، فشمَّ أدهم فرعون ريحها، فاقتحم خلفها البحر؛ أي: هجم على البحر بالدخول وهم لا يرونه، ولم يملك فرعون من أمره شيئاً، وهو لا يرى فرس جبريل، وتبعته الخيول، وجاء ميكائيل على فرسٍ خلف القوم يعجِّلُهم، ويسوقهم حتى لا يشُذَّ رجل منهم، حتى خاضوا كلُّهم البحر، ودخل آخر قوم فرعون، وجاز آخر قوم موسى، وهمَّ أولهم بالخروج، فأمر الله البحر أن يأخذهم، فانطبق على فرعون وقومه، فأغرقوا، فنادى فرعون: لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين القصة، وقالت بنوا إسرائيل: الآن يدركنا فيقتلنا، فلفظ اليحر ستمائةٍ وعشرين ألفاً عليهم الحديد، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، فلفظ فرعون وهو كأنه ثورٌ أحمر، فلم يقبل البحر بعد ذلك غريقاً إلا لفظه على وجه الماء.

واعلم[1] أنَّ هذه الواقعة، كما أنها لموسى عليه السلام، معجزةٌ عظيمةٌ لأوائل بني إسرائيل، موجبةٌ عليهم شكرها، كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله ﷺ، معجزةٌ جليلةٌ تطمئن بها القلوب الأبية، وتنقاد لها النفوس الغبية، موجبةٌ لأعقابهم أن يتلقوها بالأذهان؛ لأنه ﷺ أخبرهم بذلك مع أنه كان أُميًّا لم يقرأ كتاباً، وهذا غيبٌ لم يكن له علمٌ عند العرب، فإخباره به دَلَّ على أنه أوحى إليه ذلك، وذلك علامةٌ لنبوته، فما تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها،

---

(١) روح البيان.

حيث اتخذوا العجل إلٰهاً بعد الإنجاء، ثمَّ صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم. فهذه معاملتهم مع ربهم، وسيرتهم في دينهم، وسوء أخلاقهم، ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها، حيث بدلوا التوراة، وافتروا على الله، وكتبوا بأيديهم، واشتروا به عرضاً، وكفروا بنبوة محمد ﷺ، إلى غير ذلك. فيا لها من عصابة ما أعصاها، وطائفةٍ ما أطغاها.

وفي الآية تهديدٌ للكافرين، وتنبيهٌ للمؤمنين ليتعظوا، وينتهوا عن المعاصي في جميع الأوقات، خصوصاً في الزمان الذي أنجى الله فيه موسى مع بني إسرائيل من الغرق، وهو اليوم العاشر من المحرم.

وفي سفر الخروج من التوراة[1]: أنهم خرجوا في شهر أبيبٍ بعد أن أقاموا بمصر أربعمائة وثلاثين سنة من عهد يوسف عليه السلام، ثم اتَّبعهم فرعون وجنوده، فغشيهم من اليَمِّ ما غشيهم، وأنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه، وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام، كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم.

وزعم بعض الناس: أنَّ عبور بني إسرائيل البحر، كان وقت الجزر وفي بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ رقارق يتيسَّر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديداً، وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض، قد جعلوا الماء الرقارق فرقتين عظيمتين ممتدَّين، كالطود العظيم، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ ولم يقل فرقنا لكم وقوله: ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ تشبيهٌ معروفٌ معهودٌ مثله في مقام المبالغة، كقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ ألا ترى أنَّ الأمواج والسفن الجواري لا تكون كشواهق الجبال، لكنه يراد بمثل هذا التعبير زيادة البيان، وإرادة التأثير في نفس السامع[2]، ولما اتبعهم فرعون وجنوده، ورآهم قد عبروا البحر، مشى إثرهم، وكان المدُّ قد بدأ، ولم يتم خروج بني

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى، حتى أغرق المصريِّين جميعاً، وتحقَّقت نعمة الله على بني إسرائيل، وتمَّ لهم التوفيق، ولعدوِّهم الخذلان. ونعم الله بغير طريق المعجزات، أتمُّ وأكثر، فليس بلازمٍ أن نجعل الامتنان في كونه معجزةً لموسى عليه السلام. انتهى.

ومثل هذا التأويل، ليس بضائرٍ إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات على يد الأنبياء تأييداً من الله لهم، أما إذا أنكروها فلا حاجة إلى الكلام معهم، إذ لا بُدَّ أن نثبت لهم قدرة الله وإرادته، ثم نثبت لهم إمكان الوحي، وإرسال الرسل، وتأييدهم بالمعجزات.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ بالتخفيف. وقرأ الزهري ﴿فرَّقْنا﴾ بالتشديد ويفيد التكثير؛ لأنَّ المسالك كانت اثنتي عشرة مسلكاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ومن قرأ ﴿فَرَقْنَا﴾ مجرداً اكتفى بالمطلق، وفهم التكثير من تعداد الأسباط ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا﴾؛ أي: قصة وعدنا ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ابن عمران عليه السلام، وقت انقضاء أربعين ليلة لإيتاء التوارة، فصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثي المجرد، فيكون صدور الوعد من واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، أو على أصلها، فإنَّ الوعد وإن كان من الله، فقبوله كان من موسى، وقبول الوعد شبه الوعد، أو أنَّ الله تعالى وعده بالوحي، وهو وعده المجيء للميقات إلى الطور[2]. قرأ الجمهور ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بالألف، وهي قراءة مجاهد، والأعرج، وابن كثير، ونافع، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وقرأ أبو عمرو ﴿ووَعَدْنَا﴾ بغير ألف هنا، وفي (الأعراف) و(طه) وقد رجح أبو عبيد، قراءة من قرأ ﴿وعدنا﴾ بغير ألف، وأنكر قراءة من قرأ ﴿وَٰعَدْنَا﴾ بالألف، ووافقه على معنى ما قال: أبو حاتم، ومكيٌّ، وقال أبو عبيد: المواعدة لا تكون إلا من البشر. وقال أبو حاتم: أكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين، كل واحد منهما يعد صاحبه،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وقد مرَّ تخريج واعد على تلك الوجوه السابقة، ولا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى؛ لأنَّ كُلاً منهما متواترٌ، فهما في الصحة على حد سواء.

وقوله ﴿مُوسَىٰٓ﴾ مفعولٌ أوَّل لواعدنا. (مو)[1] بالعبرانية الماء. و(شَى) بمعنى الشجر، فقلبت الشين المعجمة سيناً في العربية، وإنَّما سُمِّي به؛ لأنَّ أمَّه جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون، وألقته في البحر، فدفعته أمواج البحر حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغسلن، فوجدن التابوت فأخذنه، فسمِّي عليه السلام، باسم المكان الذي أصيب به، وهو الماء والشجر. ونسبه: هو موسى بن عمران، بن يصهر بن قاهث بن لاوَى، بن يعقوب إسرائيل، بن إسحاق، بن إبراهيم خليل الرحمن، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ أي: واعدناه تمام أربعين ليلة لإيتاء التوراة، وهو مفعول ثاني لواعدنا، ولكنه على حذف مضاف كما قدرنا أمره الله سبحانه بصوم ثلاثين وهو ذو القعدة، ثم زاد عليه عشراً من ذي الحجة. قاله أبو العالية، وأكثر المفسرين. وقيل ذو الحجة، وعشرٌ من المحرم، وعبَّر[2] عنها بالليالي؛ لأنها غرر الشهور، وشهور العرب وضعت على سير القمر، ولذلك وقع بها التاريخ. فالليالي أُولى الشُّهور، والأيَّام تبعٌ لها، أو لأنَّ الظُّلمة أقدم من الضوء، بدليل ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أو دلالةً على مواصلته الصوم ليلاً ونهاراً؛ لأنَّه لو كان التفسير باليوم، أمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلمَّا نصَّ على الليالي، اقتضت قوَّة الكلام أنَّه واصل أربعين ليلة بأيامها. وهذه المواعدة للتكليم، أو لإنزال التوراة. قال المهدويُّ: وكان ذلك بعد أن جاوز البحر، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، وصعد الجبل، وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة، فقعدوا فيما ذكره المفسرون عشرين يوماً وعشرة ليال، فقالوا:

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

قد أخلفنا، كما سيأتي بسطه في الأعراف.

وقرأ عليٌّ[1]، وعيسى بن عمر، بكسر باء ﴿أَرْبَعِينَ﴾ شاذاً؛ اتباعاً لكسرة العين؛ أي: جعلنا انقضاء أربعين وتمامها، ميعاداً لتكليمه، وإعطاء الكتاب له، لتعملوا به لمَّا عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، والمعنى: واذكروا إذ واعدنا موسى إعطاء الكتاب المسمى بالتوراة، بعد ما تم له أربعون ليلة في الرياضة؛ لأنَّ بعد تمام الخدمة من العبد، تكون العطايا من الرب سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ﴾ وجعلتم ﴿الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه السامريُّ من الحلي الذي استعاروه من القبط، بسبب العرس المسمَّى بالبهموت إلٰهاً ومعبوداً لكم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد ذهاب موسى إلى محل المناجاة ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أي: والحال أنكم ظالمون أنفسكم، وضارُّون لها بعبادة العجل، أو واضعون العبادة في غير موضعها؛ أي: بوضع عبادة الله تعالى في غير موضعها بعبادة العجل، والجملة حال من ضمير اتخذتم، وهذا تنبيهٌ على أن كفرهم بمحمد ﷺ ليس بأعجب من كفرهم وعبادتهم العجل زمن موسى.

وأتى بثم في قوله[2]: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ وهو ولد البقرة الذكر؛ لأنه تعالى، لمَّا وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه، وفضيلة بني إسرائيل، ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علوِّ درجتهم، وتعريفاً للغائبين، وتكملةً للدين، كان ذلك من أعظم النعم، فلما أتوا عقب ذلك بأقبح أنواع الكفر والجهل، كان ذلك في محل التعجب، فهو كمن يقول: إنَّني أحسنت إليك، وفعلت كذا وكذا، ثم إنك تقصدني بالسوء والأذى ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾؛ أي: محونا عنكم جريمتكم التي هي عبادة العجل حين تبتم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أي: من بعد الاتخاذ الذي هو متناه في القبح، فلم نعاجلكم بالإهلاك، بل أمهلناكم إلى مجيء موسى، فنبهكم وأخبركم بكفارة ذنوبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

تشكروا نعمة عفوي، وتستمروا بعد ذلك على طاعتي، فإنَّ الإنعام يوجب الشكر. وأصل الشكر: تصوُّر النعمة وإظهارها، وحقيقته العجز عن الشكر، والمعنى؛ أي: ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة، ولم نعاجلكم، بل أمهلناكم حتى جاءكم موسى، وأخبركم بكفارة ذنوبكم؛ ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر على النعم. قاله الجمهور وفي «البحر» ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي[1]: تثنون عليه تعالى بإسدائه نعمه إليكم، وتظهرون النعمة بالثناء. وقالوا: الشكر باللسان؛ وهو الحديث بنعمة المنعم والثناء عليه بذلك، وبالقلب؛ وهو اعتقاد حق المنعم على المنعم عليه وبالعمل، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ وبالله؛ أي: شكر الله بالله؛ لأنَّهُ لا يشكره حق شكره إلا هو. وقال بعضهم:

وشُكْرُ ذَوي الإحسانِ بالقولِ تارةً ... وبالقَلْبِ أُخْرَى ثُمَّ بالعملِ الأَسْنَى

وشكري لربّي لا بقلبي وطاعتِي ... ولا بلسانِي بل بِهِ شكره عنَّا

﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل! ﴿إذ آتينا﴾؛ أي: قصة إذ أعطينا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران رسولكم ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾؛ أي: الحكم الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وهو من عطف الصفة على الموصوف، لغرض التفسير والبيان لماهية الموصوف؛ أي: قصة إذ أعطينا له التوراة الجامعة بين كونها كتاباً، وحجة تفرق الحق والباطل، كقولك: لقيت الغيث الليث، تريد الشخص الجامع بين الجود والجراءة، فالمراد[2] بالفرقان والكتاب واحد، فكأنه قيل: إذ آتينا له الكتاب الفارق بين الحق والباطل. وقيل: الكتاب التوراة، والفرقان الآيات والمعجزات التي أعطاه الله تعالى، من العصا، واليد، وغيرهما، وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه، والمعنى: وإذ آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا بذلك الكتاب من الضلال إلى الحق، وبالعمل به إلى دار الثواب.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وهذا بيان الحكمة دون العلة؛ أي: الحكمة في إنزاله: أن يتدبَّروا فيه، فيعلموا أن الله تعالى لم يفعل ذلك إلا للدلالة على صحة نبوته، فيجتهدوا بذلك في اتِّباع الرشد، وإذا فعلتم ذلك آمنتم بمحمد؛ لأنه قد أتى من المعجزات بما يدلكم إذا تدبَّرتم فيه على صحة دعواه النبوَّة.

والمعنى[1]: واذكروا نعمة إيتاء التوراة والآيات التي أيَّدنا بها موسى، لتهتدوا بالتدبر فيها، والعمل بما تحويه من الشرائع، ليُعدَّكم للاسترشاد بها، حتى لا تقعوا في وثنيَّة أخرى، وأن من كمال الاستعداد لفهم الكتاب، أن تعرفوا أنَّ ما جاء به محمد ﷺ دليلٌ على صحة نبوته، فتؤمنوا به، وتهتدوا بهديه، وتتبعوا سبيل الرشاد الذي سلكه.

واعلم: أنه روي[2]: أن بني إسرائيل، لمَّا أمِنُوا من عدوهم بإغراق الله آل فرعون، ودخلوا مصر، لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، فوعد الله سبحانه موسى أن ينزل عليه التوراة، فقال موسى لقومه: إني ذاهبٌ لميقات ربي، آتيكم بكتابٍ فيه بيان ما تأتون، وما تذرون، ووعدهم أربعين ليلةً، واستخلف عليهم أخاه هارون، فلما أتى الوعد جاءه جبريل على فرس، يقال له: فرس الحياة، لا يصيب شيئاً إلا حَيِي؛ ليذهب بموسى إلى ربه، فلما رآه السامريُّ، وكان رجلاً صائغاً من أهل باجرمي، واسمه ميحا، ورأى مواضع الفرس تخضرُّ من ذلك، وكان منافقاً، أظهر الإسلام، وكان من قومٍ يعبدون البقر، فلما رأى جبريل على ذلك، قال: إنَّ لهذا شأناً، وأخذ قبضةً من تربة حافر فرس جبريل. وقيل: إنه عرف جبريل، لأنَّ أمه حين خافت عليه أن يُذْبَحَ سنةَ ذبحِ فرعون أبناءَ بني إسرائيل، خلفته في غابةٍ، وكان جبريل يأتيه فيغذيه بأصابعه، فكان السامريُّ يمصُّ من إبهام يمينه عسلاً، ومن إبهام شماله سمناً، فلمَّا رآه حين عبر البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه، فلم تزل القبضة في يده حتى انطلق موسى إلى

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

الطور، وكأن السامريَّ سمعهم حين خرجوا من البحر، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، ووقع في نفسه أن يفتنهم من هذا الوجه وكان بنو إسرائيل، استعاروا حُلِيًّا كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر، بعلَّة عرس لهم، فأهلك الله تعالى فرعون، وبقيت تلك الحُلِي في أيدي بني إسرائيل، فلمَّا ذهب موسى إلى المناجاة، عَدَّ بنو إسرائيل اليوم مع الليلة يومين، فلمَّا مضى عشرون يوماً، قالوا: قد تم أربعين ولم يرجع موسى إلينا فخالفنا، فقال السامريُّ: هاتوا الحُلي التي استعرتموها، أو أنَّ موسى أمرهم أن يلقوها في حفرة، حتى يرجع ويفعل ما يرى فيها، فلما اجتمعت الحُلِيُّ صاغها السامريُّ عجلاً في ثلاثة أيام، ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من ترابِ سنبك فرس جبريل، فخرجت عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، فصار جسداً له خوارٌ؛ أي: صوتٌ كصوت العجل، وله لحم، ودم، وشعر. وقيل: دخل الريح في جوفه من خلفه وخرج من فيه، كهيئة الخوار، فقال للقوم: هذا إلهكم وإلٰه موسى، فنسي؛ أي: أخطأ موسى الطريق وربُّه هنا، وهو ذهب يطلبه، فأقبلوا كلهم على عبادة العجل إلا هارون، مع اثني عشر ألفاً اتبعوا هارون، ولم يتبعه غيرهم، وهارون قد نصحهم، ونهاهم، وقال: يا قوم! إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. وقيل: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة، ثمَّ زيدت العشر، وكانت فتنتهم في تلك العشر، فلمَّا مضت الثلاثون ولم يرجع موسى، وظنُّوا أنه قد مات، ورأوا العجل وسمعوا قول السامري، عكفوا على العجل يعبدونه.

قال أبو اللَّيْثِ في «تفسيره»: وهذا الطريق أصحُّ، فلما رجع موسى ووجدهم على ذلك، ألقى الألواح، فرُفع من جملتها ستة أجزاء وبقي جزءٌ واحدٌ، وهو الحلال والحرام وما يحتاجون، وأحرق العجل وذرَّاه في البحر، فشربوا من مائه حُبّاً للعجل، فظهرت على شفاههم صفرةٌ، وورمت بطونهم، فتابوا، ولم تقبل توبتهم دون أن يقتلوا أنفسهم، وهذه حالهم. وأمَّا هذه الأمة فلا يحتاجون إلى قتل النفس للتوبة في مثل هذه الصورة.

الإعراب

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿بني﴾ منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وقد تغير بناء مفرده، كما سيأتي في مبحث التصريف ﴿بني﴾ مضاف ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعل، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعْمَتِىَ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ﴿نعمة﴾ مضاف، و(الياء) ضمير المتكلم في محل الجر مضاف إليه ﴿ٱلَّتِىٓ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لنعمتي ﴿أَنْعَمْتُ﴾ فعل وفاعل و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنعمتها ﴿وَأَوْفُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على اذكروا ﴿بِعَهْدِىٓ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأوفوا ﴿أُوفِ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهي الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنا يعود على الله، والجملة الفعلية جملة طلبية لا محل لها من الإعراب ﴿بِعَهْدِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأوف ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ الواو عاطفة ﴿إياي﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب مفعول به لفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وارهبوا إياي ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ ارهبوا فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة اذكروا ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ الفاء واقعة في جواب الأمر المحذوف، تقديره: تنبهوا. فارهبون نظير قولهم: زيداً فاضرب؛ أي: تنبه فاضرب زيداً، ثم حذف تنبه، فصار فاضرب زيداً، ثم قدم المفعول إصلاحاً للفظ؛ لئلا تقع الفاء صدراً؛ وإنما دخلت الفاء لربط هاتين الجملتين؛ أو زائدة لتحسين اللفظ، وكذا يقال في قوله الآتي: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ ارهبون فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة،

اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به مبنية على السكون، والجملة الطلبية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَءَامِنُواْ﴾ الواو عاطفة ﴿آمنوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة معطوفة على جملة اذكروا ﴿بِمَآ﴾ الباء حرف جر ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بآمنوا ﴿أَنزَلْتُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: بما أنزلته ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من ما الموصولة، أو الضمير المحذوف ﴿لِّمَا﴾ جار ومجرور متعلق بمصدقاً ﴿مَعَكُمْ﴾ مع منصوب على الظرفية المكانية، والكاف مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لما، أو صفة لها ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَكُونُوٓاْ﴾ فعل ناقص واسمه، مجزوم بلا الناهية ﴿أَوَّلَ﴾ خبرها منصوب ﴿كَافِرٍۭ﴾ مضاف إليه ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بكافر، وجملة تكونوا معطوفة على جملة آمنوا ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَشْتَرُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية معطوف على جملة آمِنوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتشتروا ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به لتشتروا ﴿قَلِيلًا﴾ صفة له ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ الواو عاطفة ﴿إياي﴾ ضمير نصب منفصل في محل النصب بفعل محذوف وجوباً، تقديره: واتقوا إياي ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ والجملة المحذوفة معطوفة على جملة آمنوا ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الفاء رابطة لجواب الأمر، أو زائدة، كما مرت الإشارة إليه (اتقوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء المحذوفة اجتزاء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَلْبِسُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول به ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ جار ومجرور متعلق بتلبسوا، والجملة معطوفة على

جملة آمنوا ﴿وَتَكْتُمُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية عطفاً على تلبسوا، داخلة تحت حكم النهي، ولك أن تجعل، الواو للمعية، و﴿تكتموا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد واو المعية، الواقعة في جواب النهي، والتقدير: لا يكن منكم لبس الحق بالباطل، وكتمانكم الحق ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول به. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من فاعل تكتموا، تقديره: ولا تكتموا الحق حالة كونكم عالمين حقيته. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل أمر وفاعل ومفعول به معطوف على آمنوا ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على آمنوا ﴿وَٱرْكَعُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على آمنوا ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق باركعوا.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، المضمن للتوبيخ والتعجب من هؤلاء اليهود؛ لأنه ليس هناك أقبح في العقول، من أن يأمر الإنسان غيره بخير، وهو لا يأتيه ﴿تأمرون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعول به ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ متعلق به، والجملة جملة طلبية لا محل لها من الإعراب ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ الواو عاطفة ﴿تنسون﴾ فعل وفاعل معطوف على تأمرون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ ﴿تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل تنسون، تقديره: وتنسون أنفسكم حالة كونكم تالين الكتاب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، تقديره: أتفعلون ذلك فلا تعقلون، والجملة المحذوفة مستأنفة، والفاء عاطفة و﴿لا﴾ نافية ﴿تَعْقِلُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على الجملة المحذوفة. ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ الواو استئنافية ﴿استعينوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ متعلق باستعينوا ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ معطوف على الصبر ﴿وَإِنَّهَا﴾ الواو حالية، على ما قيل، أو استئنافية ﴿إنها﴾ ناصب واسمه ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿كبيرة﴾ خبر إن ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، وشرطه أن يسبق بنفي، فيؤول الكلام هنا بالنفي، تقديره: وإنها لا تخف

ولا تسهل إلا على الخاشعين. والخشوع: حضور القلب، وسكون الجوارح ﴿عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بكبيرة، وجملة إن في محل النصب حال من الصلاة، أو مستأنفة وهو الأصح.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة للخاشعين ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿أَنَّهُم﴾ ناصب واسمه ﴿مُّلَاقُوا﴾ خبره مرفوع بالواو ﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، وجملة أن من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ظن، تقديره: الذين يظنون لقاء ربهم بالبعث ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق براجعون و﴿رَاجِعُونَ﴾ خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على المصدر المؤول من أن الأولى، تقديره: ويظنون رجوعهم إلى ربهم للمجازاة. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة ﴿اذْكُرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿نِعْمَتِيَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿الَّتِي﴾ اسم موصول للمفردة المؤنثة في محل النصب صفة لنعمتي ﴿أَنْعَمْتُ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: أنعمتها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بأنعمت ﴿وَأَنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر أن، تقديره: وأني مفضلكم على العالمين، وجملة أن في تأويل مصدر معطوف على نعمتي على كونه مفعولاً به لاذكروا، تقديره: اذكروا نعمتي عليكم، وتفضيلي إياكم على العالمين.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ الواو عاطفة ﴿اتقوا﴾ فعل، وفاعل مبني على حذف النون، معطوف على اذكروا ﴿يَوْمًا﴾ مفعول به ﴿لَّا﴾ نافية ﴿تَجْزِي﴾ فعل مضارع ﴿نَفْسٌ﴾ فاعل ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ متعلق بتجزي ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النَّصْب صفة ليوماً، ولكنها صفة سببية، والرابط محذوف، تقديره: فيه ﴿وَلَا﴾

الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿يُقْبَلُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بيقبل ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوفة على جملة لا تجزي على كونها صفة سببية ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: فيه ﴿وَلَا يُؤْخَذُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بيؤخذ ﴿عَدْلٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة لا تجزي على كونها صفة ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: ولا يؤخذ منها فيه عدل ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ نافية ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿يُنصَرُونَ﴾ فعل ونائب فاعل مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب، معطوفة على جملة لا تجزى على كونها صفة سببية ليوماً، والرابط محذوف أيضاً، تقديره: ولا هم ينصرون فيه.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً به لاذكروا مبنية على السكون ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي، وتفضيلي إياكم، ووقت تنجيتي إياكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بنجيناكم و﴿فِرْعَوْنَ﴾ ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به أول ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعول ثاني ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آل فرعون، والرابط واو الفاعل، تقديره: حالة كونهم سائمين إياكم سوء العذاب، ويحتمل أن تكون مستأنفة ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب بدل من جملة يسومونكم، بدل تفصيل من مجمل على كونها حالاً من آل فرعون، تقديره: حالة كونهم مذبحين أبنائكم، أو جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على يذبحون ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الواو اعتراضية، أو استئنافية ﴿في ذلكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿بَلَآءٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أولى لبلاء

﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية لبلاء، والتقدير: وبلاء عظيم واقع من ربكم، كائن في ذلكم العذاب، أو في ذلكم الإنجاء، والجملة الإسمية معترضة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً به لاذكروا مبني على السكون؛ لشبهها بالحرف شبهاً افتقارياً ﴿فَرَقْنَا﴾ فعل، وفاعل ﴿بِكُمُ﴾ متعلق بفرقنا على كونه مفعولاً ثانياً له ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ مفعول أول له، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، والتقدير: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي عليكم، وتفضيلي إياكم، ووقت تنجيتي إياكم من آل فرعون، ووقت فرقي بكم البحر ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿أنجيناكم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة فرقنا بكم البحر، على كونها مضافاً إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت فرقي بكم البحر، فإنجائي إياكم من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَآ﴾ فعل وفاعل معطوف على أنجيناكم، تقديره: وإغراقنا آل فرعون و﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب حال من آل فرعون، تقديره: حالة كونكم ناظرين إليهم وقت إغراقهم. ﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى في محل النصب، معطوف على نعمتي ﴿وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ مفعول ثان منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون حرف زائد؛ لشبه الجمع ﴿لَيْلَةً﴾ تمييز ذات لأربعين منصوب به، والتقدير: واذكروا وَقْتَ مواعدتنا موسى أربعين ليلة ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ فعل وفاعل، وهو من أخوات ظن ينصب مفعولين ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق باتخذتم، والجملة الفعلية في محل الجر، معطوفة على جملة واعدنا على كونها مضاف إليه لإذ ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل

النصب حال من فاعل اتخذ، تقديره: حالة كونكم ظالمين أنفسكم بعبادته.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وتراخ ﴿عَفَوْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَنكُم﴾ متعلق بعفونا ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بعفونا أيضاً، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة اتخذتم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل، والكاف في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، تقديره: لعلكم شاكرون نعمتنا عليكم، وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، أو في محل النصب حال من ضمير عنكم. ﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي على أنه مفعول به لاذكروا ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فعل وفاعل، وهو بمعنى أعطينا يتعدى إلى مفعولين ﴿مُوسَى﴾ مفعول أول ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ معطوف على الكتاب عطف صفة على موصوف، كما مر بسط الكلام فيه في مبحث التفسير، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت إيتائنا موسى الكتاب والفرقان ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ في محل الرفع خبره، وجملة لعلَّ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وبني منادى مضاف منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم؛ لأنه شبيه بجمع التكسير لتغير مفرده، ولذلك عاملته العرب بعض معاملة جمع التكسير، فألحقوا بفعله المسند إليه تاء التأنيث، فقالوا: قالت بنو فلان: وهل لامه ياءٌ؟ لأنه مشتق من البناء؛ لأن الابن فرع الأب ومبنيٌّ عليه، أو واو لقولهم: البنوة كالأبوة. والأخوة قولان: الصحيح الأول، وأما البنوة فلا دلالة فيها؛ لأنهم قد قالوا الفتوَّة، ولا خلاف في أنها من ذوات الياء إلا الأخفش. رجح الثاني، بأن حذف الواو أكثر. واختلف في وزنه، فقيل: هو فعل بفتح العين. وقيل: هو بسكونها، وهو أحد الأسماء العشرة التي سكنت فاؤها، وعوِّض من لامها همزة الوصل، وجمع ابن جمع

تكسير، فقالوا: أبناءٌ، وجمع سلامة، فقالوا: بنون وهو جمعٌ شاذٌّ، إذ لم يسلم فيه بناء الواحد، فلم يقولوا: إبنون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خفض بالإضافة، ولا ينصرف للعلمية والعجمة، وهو مركبٌ تركيب الإضافة، مثل: عبد الله، فإن إسر بالعبرانية هو العبد، وإيل هو الله. وقيل: إسرا مشتق من الأسر وهو القوة، فكأن معناه الذي قواه الله. وقيل: لأنه أسرى بالليل مهاجراً إلى الله تعالى. وقيل: لأنه أسر جنيّاً كان يطفيء سراج بيت المقدس، فعلى هذا بعض اسم يكون عربياً، وبعضه عجمياً، وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها، لغة القرآن، وهي قراءة الجمهور ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بوزن إسرافيل.

﴿اذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ الذِّكر والذُّكر بكسر الذال وضمها بمعنى واحد، يكونان باللِّسان وبالجنان. وقال الكسائي: هو بالكسر للِّسان، وبالضم للقلب، فضدُّ المكسور الصمت، وضد المضموم النسيان، وبالجملة فالذكر الذي محله القلب ضد النسيان، والذي محلُّه اللسان ضد الصمت، سواء قيل: إنها بمعنى واحد، أم لا ﴿والنعمة﴾ اسمٌ لما يُنعَم به، وهي شبيهة بفعل بمعنى مفعول، نحو: ذبحٍ، ورعي، والمراد بها الجمع؛ لأنها اسم جنس. قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ يقال: أوفى ووَفَّى ووَفَى مشدداً، ومخففاً، ثلاث لغات بمعنى واحد. وقيل: يقال: وفيت ووفَّيت بالعهد، وأوفيت بالكيل لا غير، والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً، والمراد منه الموثق، والوصيَّة، وأصل أوفوا أوفيوا بوزن أفعلوا، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، فلما سكنت التقى ساكنان، فحذفت الياء، وضمت الفاء؛ لمناسبة الواو، فصار وزنه أفعوا. وقوله: ﴿أُوفِ﴾ وزنه أفع؛ لمناسبة حذف لام الكلمة، بسبب جزم الفعل الواقع جواباً للطلب ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ وَزْنُ أوَّل أفْعَلُ، فاء الكلمة وعينها معتلاَّن، كلاهما واوٌ، ولم يتصرف من هذا اللفظ فعلٌ، فأصل الكلمة على هذا وولٌ، هذا مذهب سيبويه. وقال غيره: أصله أَوْأَلَ من وَأَلَ إذا نجا، أو طلب النجاة، أبدلت الهمزة الثانية واواً للتخفيف، ثم أدغمت فيها الواو الأولى، فقيل: أوَّل. وقيل: إنه من آل، فهو أأْوَلَ، وقع فيه قلبٌ مكانيٌّ، بجعل العين مكان الفاء، والفاء مكان العين، فصار وزنه أعفل؛ أي: أَوْأَلَ، ثم خفف بإبدال الهمزة الثانية واواً، وإدغام الواو الأولى فيها. انظر «الأشموني».

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى﴾ أصْلُه تشتريوا من اشترى، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء؛ لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، وضمت الراء؛ لمناسبة الواو ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وفي «المصباح» لبس الثوب من باب تعب لُبْساً بضم اللام، واللِّبس بالكسر، واللباس ما يلبس، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْساً، من باب ضرب خلطته. وفي التنزيل ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ والتشديد مبالغةٌ. وفي الأمر لُبْسٌ بالضم، ولبسة أيضاً؛ أي: إشكالٌ، والتبس الأمر أشكل، ولابسته بمعنى خالطته. اهـ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أصله: أَقْوِموا بوزن أفعلوا، نقلت حركة الواو إلى فاء الكلمة الساكن، فسكنت الواو بعد كسرة، فقلبت ياءً حرف مد ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الألف فيه منقلبةٌ عن واو، فأصله: صَلْوة بوزن فَعْلة، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والألف فيه أيضاً منقلبةٌ عن واو؛ لأنه من زكا يزكو، كنما ينمو وزناً ومعنى، فأصله: زَكْوة بوزن فعلةٍ، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الأمر طلب إيجاد الفعل، ويطلق على الشأن، والفعل منه أمر يأمر على وزن فعل يفعل، من باب نصر، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لامٍ، فتقول: مُرْ زيداً، وإتمامه قليلٌ أؤمر زيداً، فإن تقدم الأمر واوٌ، أو فاءٌ، فإثبات الهمزة أجود، وهو مما يتعدى إلى مفعولين أحدهما بنفسه، والآخر بحرف جر. ويجوز حذف ذلك الحرف، وهو من أفعال محصورةٍ يحذف من ثاني مفعوليها حرف الجر جوازاً تحفظ، ولا يقاس عليها. ذكره في «البحر» ﴿بِٱلْبِرِّ﴾ والبر الصلة، وأيضاً الطاعة. قال الراجز:

لاَ هُــمَّ رَبِّ إنَّ بَــكْــراً دُونَــكَــا   يَــبَــرُّكَ الــنَّــاسُ ويــفْــجَــرُوْنَــكَــا

والبرُّ: الفؤاد، وولد الثعلب والهِرُّ. وبَرَّ والده: أجلَّه وأعظمه. يَبَرُّهُ على وزن فعل يفعل، ورجلٌ بَارٌّ، وبَرٌّ، وبرَّتْ يمينه، وبرَّ حجُّه، جمع أنواعاً من الخير. اهـ. من «البحر». وفي «البيضاوي» البِرُّ: بالكسر التوسع في الخير، مأخوذ من البَرِّ، وهو الفضاء الواسع. والبُرُّ بالضم: القمح، والواحدة بُرَّةٌ.

والبِرُّ بالكسر ثلاثة أقسام: بِرٌّ في عبادة الله، وبرٌّ في مراعاة الأقارب، وبرٌّ

في معاملة الأجانب. وفي «السمين» والبرُّ سعة الخير من الصلة، والطاعة. والفعل منه بَرَّ يَبَرُّ، كعلم يعلم. والبَر بالفتح: الإجلال والتعظيم، ومنه ولد بَرٌّ بوالديه؛ أي: يعظِّمهما، والله تعالى بَرٌّ لسعة خيره على خلقه. اهـ.

﴿وَتَنسَوْنَ﴾ والنسيان ضد الذكر. وهو: السهو الحادث بعد حصول العلم. ويطلق أيضاً على الترك، وضدُّه الفعل. والفعل نسي ينسى على وزن فعل يفعل، وأصله: تَنْسَيُون بوزن تفعلون، تحركت الياء بعد فتح، فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف وبقيت الفتحة دالَّةً عليها ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ﴾ من تلا يتلو واويُّ اللام، أسند الفعل إلى واو الجماعة، وحذفت حركة الواو لام الفعل؛ للتخفيف، فسكنت فالتقى ساكنان، فحذفت الواو الأولى لام الكلمة، وأبقيت واو الجماعة للغرض الذي جيء بها له، فصار وزنه تفعون بعد أن كان تفعلون والتلاوة القراءة، وسميت بها؛ لأن الآيات، أو الكلمات، أو الحروف يتلو بعضها بعضاً في الذكر، والتلو التبع، وناقةٌ مُتْلٍ يتْبعها ولدها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ العقل: الإدراك المانع من الخطأ، ومنه عقال البعير يمنعه من التحرك، والمعقل: مكان يمتنع فيه، والعقل الدية؛ لأن جنسها إبلٌ تعقل في فِناءِ الولي، أو لأنها تمنع من قتل الجاني، والعقل ثوبٌ موشًّى قال الشاعر:

عَقْلاً ورَقْماً تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتْبَعُهُ ... كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأجوافِ مدموم

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ أصله: استَعْوِنوا بوزن استفعلوا، نقلت حركة الواو إلى العين فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد. والصبر: حبس النفس على المكروه، كالاجتهاد في العبادة، وكظم الغيظ، والحلم، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن المعاصي. وبما تقرر علم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبرٌ على الشدة والمصيبة. وصبرٌ على الطاعة، وهو أشدُّ من الأول، وأجره أكثر منه وصبر عن المعصية، وهو أشدُّ من الأول والثاني، وأجره أكثر منهما. اهـ. «كرخي» والفعل منه صبر يصبر، من باب نصر. وأصله: أن يتعدَّى لواحد. وقد كثر حذف مفعوله حتى صار كأنه غير متعد.

﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾؛ أي: إلا على المتصفين بالخشوع والخوف من الله

سبحانه، والخشوع بالجوارح، والخضوع بالقلب، أو الخشوع بالبصر، والخضوع بسائر الأعضاء ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يوقنون؛ لأن الظنَّ هنا بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ فاستعمل الظن استعمال اليقين مجازاً، كما استعمل العلم استعمال الظن، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾. اهـ. «كرخي». وأصل يظنون: يَظْنُنُون بوزن يفعلون، نقلت حركة النون الأولى إلى الظاء، فضمت، وأدغمت النون في النون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ أصله ملاقيوا بضم الياء، استثقلت الحركة على الياء فحذفت فسكنت، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة فحذفت، ثم ضمت القاف؛ لمناسبة الواو، وهذا بعد حذف نون الرفع للإضافة، والملاقاة: مفاعلة تكون من الجانبين؛ لأنَّ من لاقاك فقد لاقيته. قال المهدويُّ، والماوردي، وغيرهما: الملاقاة هنا وإن كانت صيغتها تقتضي التشريك، فهي من الواحد، كقولهم: طارقت النعل، وعاقبت اللص، وعافاك الله. وقد اختلف المفسرون في معنى ملاقاة ربهم: فحمله بعضهم على ظاهره من غير حذف ولا كناية، بأن اللقاء هو رؤية الله تعالى، وإلى اعتقادها ذهب أكثر المسلمون. وقيل: ذلك على حذف مضاف؛ أي: جزاءِ ربهم؛ لأن الملاقاة بالذوات مستحيلة في غير الرؤية. وقيل: ذلك كنايةٌ عن انقضاء أجلهم، كما يقال لمن مات: لقي الله، ومنه قول الشاعر:

غَداً نَلْقَىٰ الأحبه محمداً وصَحْبَهْ

وكنى بالملاقاة عن الموت؛ لأن ملاقاة الله متسبب عن الموت. اهـ. من «البحر» بتصرف ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والفضل: الزيادة واستعماله في الخير، وفعله فعل يفعل من باب نصر، وأصله: أن يتعدى بحرف الجر وهو على، ثم يحذف على، على حَدِّ قول الشاعر، وقد جمع بين الوجهين:

وجَدْنا نَهْشلاً فضَلَتْ فِقَيْماه كفَضْلِ ابنِ المخاض على الفَصيلِ

﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾ الجزاء القضاءُ عن المفضَّل والمكافأةُ. قال الراجز:

يَجْزِيْه رَبُّ العَرْش عَنِيّ إذْ جَزَى جَنَاتِ عَدْنٍ في العَلاَليِّ العُلاَ

والإجزاء الإغناء ﴿لا يُقبل﴾ وقبول الشيء التوجه إليه، والفعل قَبِل يَقْبَل

من باب فتح، والقبل ما واجهك ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ والشفاعة. ضمُّ غيره إلى وسيلته. من الشفع ضد الوتر؛ لأن الشفيع ينضمُّ إلى الطالب في تحصيل ما يطلب، فيصير معه شفعاً بعد أنْ كان وتراً ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ والأخذ ضد الترك، والأخذ: القبض والإمساك، ومنه قيل للأسير: أخيذ، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لام، وقلَّ الإتمام. والعَدْلُ: الفداء. وأصل العَدل بالفتح: ما يساوي الشيء قيمةً وقدراً، وإن لم يكن من جنسه، وبالكسر المساوي في الجنسِ، والحجم. والعَدْلُ بالفتح: المقبولُ القولِ من الناس ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ والنَّصر العطاء والانتصار: الانتقام. والنصرة أخصُّ من المعونة؛ لأنها مختصةٌ بدفع الضرر ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ والنجاة: التنجية من الهلكة بعد الوقوع فيها. والأصل: الإلقاء بنجوة. والنجو: المكان العالي من الأرض؛ لأنَّ من صار إليه يخلُص وينجو، ثم سُمِّي كلَّ فائز ناجياً؛ لخروجه من الضيق إلى السعة ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ اختلف في أصل آل، فقيل: أصله أهل بوزن فَعْل، أبدلت الهاء همزة؛ ليتوصل إلى إبدالها ألفاً، ثم أبدلت ألفاً، فقيل: آل، لأنها صارت همزةً ساكنةً بعد أخرى مفتوحةٍ، وعلى هذا الأكثر. وقيل: أصله أَوَلٌ بوزن فَعَلٌ بالتحريك، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وهو من آل يئول بمعنى رجع؛ لأنه يرجع إليك في قرابةٍ، أو رَأْيٍ، أو مذهب، وهذا مذهب الكسائي، وإلى ما ذكر أشار الشاطبيُّ في «حرز الأماني» بقوله:

فَـإِبْـدَالُـهُ مِـنْ هَـمْـزَةٍ هَـاءٌ أَصْـلُـهَـا　　وَقَـدْ قَـالَ بَـعْـضُ ٱلـنَّـاسِ مِـنْ وَاوٍ ٱبْـدِلاَ

ومراده ببعض الناس الكسائيُّ: وقد خصوا آلاً بالإضافة إلى العَلَم ذي الخطر ممن يُعْلَم غالباً، فلا يقال: آل الإسكاف والحجَّام. قال الشاعر:

نـحـن آلُ الـلَّـهِ فـي بَـلْـدَتِـنـا　　لـم نَـزَل إلاَّ عـلـى عَـهْـدِ إرم

قال الأخفش: لا يضاف آلٌ. إلاَّ إلى الرئيس الأعظم، نحو: آل محمد ﷺ، وآل فرعون؛ لأنَّه رئيسهم في الضلالة. قيل: وفيه نظر، لأنه قد سمع عن أهل اللغة في البلدان، فقالوا: آل المدينة، وآل البصرة. وقال الكسائي: لا يجوز أن يقال: فلانٌ من آل البصرة، ولا من آل الكوفة، بل يقال: من أهل البصرة، ومن

أهل الكوفة. انتهى قوله.

وقد سمع إضافته إلى اسم الجنس، وإلى الضمير. قال الشاعر:

وانــصُــرْ عــلــى آلِ الــصــلــيــ ــبِ وعــابــديــه الــيــوم آلــك

وقال هُذْبة:

أَنَا الفَارِسُ الحَامِي حَقِيقةَ وَالِدِي ... وَآلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقَةَ آلِكَا

وجمع بالواو والنون رفعاً، وبالياء والنون جراً ونصباً، كما جمع أهلٌ، فقالوا: آلون. والآل: السراب يجمع على أفعالٍ. قالوا: أأْوَالٌ. والآل: عمود الخيمة. والآل: الشخص، والآلة الحالة الشديدة. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه إذا كلَّفه العمل الشاقَّ. قال الشاعر:

إذا ما المَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً ... أَبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِيْنا

وقيل: معناه: يعلِّمونكم من السيماء وهي العلامة، ومنه تسويم الخيل. وقيل: يطالبونكم من مساومة البيع. وقيل: يرسلون عليكم من إرسال الإبل للرعي. وقال أبو عبيدة: يولونكم. يقال: سامه خطَّة خسفٍ؛ أي: أولاه إياها، وأصله يَسْوُمُونكم بوزن يفعلون، نقلت حركة الواو إلى السين، فسُكِّنت إثر ضمة، فصارت حرف مد ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ السُّوء: اسم مصدر من أساء الرباعيّ، ومصدر لِسَاءَ الثلاثي. يقال: ساء يسوء وهو متعدٍّ، وأساء الرجل؛ أي: صار ذا سوء. قال الشاعر:

لَئِنْ ساءني أن نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ ... لَقَدْ سَرَّني أنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَا

ومعنى ساءه: أحزنه وهذا أصله. ثُمَّ يستعمل في كل ما يستقبح، ويقال: أعوذ بالله من سوء الخُلُقِ وسوء الفعل، يراد قبحهما. وسوء العذاب: أشدُّه وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والذبح أصله الشقُّ. قال الشاعر:

كأنَّ بَيْنَ فَكِّهَا والفَكِّ ... فَأرةَ مِسْكٍ ذُبِحَتْ في سَكِّ

والذُّبَحَةُ: داء في الحلق يقال منه: ذبحه يذبحه ذبحاً، والذِبح المذبوح

﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ الهمزة فيه مبدلةٌ من واو؛ لتطرفها فيها إثر ألف زائدة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ والاستحياء هنا: الإبقاء حيّاً. واستفعل فيه بمعنى أفعل. استحياه وأحياه بمعنى واحد. وقد تقدم الكلام على استحيا من الحياء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ وأصل يستحيون يَستَحْيِيُون بوزن يستفعلون، عينه ولامه حرفا علةٍ، استثقلت الضمة على الياء التي هي لام الفعل، فحذفت، فسكنت، فالتقت ساكنةً مع واو الجماعة، فحذفت الياء لام الفعل؛ لالتقاء الساكنين، وضمت الياء؛ لمناسبة الواو، فصار وزنه يستفعون ﴿نِسَآءَكُمْۚ﴾ والنساء: اسمٌ يقع على الصغار والكبار، وهو جمع تكسير لنسوة، ونسوةٌ على وزن فعلة، وهو جمع قلة خلافاً لابن السراج، إذ زعم أنَّ فعلةً اسم جمع لا جمع تكسير، وعلى القولين لم يلفظ له بواحد من لفظه، والواحدة امرأة ﴿بَلَآءٌ﴾ والبلاء الاختبار والامتحان، وهو تارة يكون بما يسر؛ ليشكر العبد ربه، وتارةً بما يضر؛ ليصبر، وتارة بهما؛ ليرغب ويرهب. يقال: بلاه يبلوه بلاء، إذا اختبر، ثم صار يطلق على المكروه والشدة. يقال: أصاب فلاناً بلاءٌ؛ أي: شدَّةٌ، وهو راجعٌ لمعنى البِلى، كأنَّ المُبتلىٰ يؤول حاله إلى البلى وهو الهلاك والفناء، ويقال: أبلاه بالنعمة، وبلاه بالشدة. وقد يدخل أحدهما على الآخر، فيقال: بلاه بالخير، وأبلاه بالشر. قال الشاعر:

جزى الله بالإحسان ما فَعَلاَ بِكُم   فأَبْلاَهُمَا خَيْرَ البَلاءِ الَّذِي يَبْلُو

فاستعملهما بمعنى واحد، ويبنى منه افتعل، فيقال: ابتلى، وأصل بلاء بلاوٌ، فالهمزة فيه مُبْدلة من واوٍ، لأنَّ الواو إذا وقعت متطرِّفة بعد ألفٍ زائدة، قلبت، وكذلك الياء، كما تقدم في سماء، وبناء ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ افتعل من الأخذ. يقال: تَخِذ بكسر الخاء، يَتْخَذ بفتحها في المضارع، كعَلِم يَعْلَم من الأخذ، فهي بمعنى أخذ، أدغمت إحدى التاءين في الأخرى، كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى. وعليه تكون اتخذ أصلها إئتخذ، أبدلت الهمزة الساكنة ياءً، حرف مد للهمزة المتحركة بالكسر قبلها، ثم أبدلت الياء تاءً وأدغمت في التاء الثانية، ولما كثر استعمال هذا اللفظ من أخذ بصيغة الافتعال، توهموا أصالة التاء، فبنوا منه فعل يفعل. هذا ما ذهب إليه صاحب «القاموس»،

والجوهري في «صحاحه»، ولم يذكر الجوهري مادَّة تخذ، خلافاً لصاحب «القاموس»، فإنه ذكر المادتين أخذ، وتخذ، إلا أنه جعل الثانية من الأولى. وقال ابن الأثير: إنه ليس من الأخذ في شيء، وأشار بذلك إلى أنَّ تخذ مادةٌ مستقلةٌ، وقال: إن الافتعال من الأخذ إئتخذ؛ لأنَّ فاءَه همزةٌ، والهمزة لا تدغم، وغلَّط الجوهريَّ. وقول الجوهري أظهر. والله أعلم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ لما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، بني على سكون آخره، فوزنه فعلنا لا فعونا ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ آتينا أصله أأتى بوزن أفعل، أبدلت الهمزة الثانية حرف مد مجانساً لحركة الأولى، وسكن آخره حين أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أصله تهتديون بوزن تفتعلون، استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فسكنت الياء، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وضمت الدال؛ لمناسبة الواو ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ في «القاموس» البحر: الماء الكثير، أو الملح، والجمع بحورٌ، وبحار، وأبحر. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتعظيم في قوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ فإن فيها إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برها، وحسن موقعها؛ لأن الإضافة إلى العظيم والشريف تفيد التعظيم والتشريف، كما في قولهم: ﴿بيت الله﴾، وقوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: فن التعطُّف في قوله: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ومعناه: إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام، ويسميه بعضهم فن المشاركة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾؛ لأنه على حذف موصوف؛ أي: أوَّل فريق كافر به.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعيَّة في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى﴾؛ لأن الاشتراء مستعار للاستبدال بجامع الأخذ في كل، كما تقدم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

ومنها: تكرار الحق في قوله: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لزيادة تقبيح المنهي عنه، إذ في الإظهار ما ليس في الإضمار من التأكيد، ويسمى هذا أيضاً بالإطناب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فهو من باب تسمية الكُل باسم الجزء لعلاقة الجزئية؛ أي: صلُّوا مع المصلين.

ومنها: التقديم في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ لإفادة الحصر.

ومنها: حذف ياء المفعول فيهما؛ لرعاية رؤوس الفواصل.

ومنها: الاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار في قوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ مع أنَّ الأمر واقعٌ منهم؛ لإفادة التجدد والاستمرار.

ومنها: التعبير عن تركهم البر بالنسيان في قوله: ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لإفادة المبالغة في تركهم، فكأنَّ البر لا يخطر ببالهم، ولا يخالج نفوسهم، ولا يدور في خلدهم.

ومنها: إفراد الإيمان بالقرآن في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ بالأمر به مع اندراجه في العهد المذكور قبله، لما أنه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهد.

ومنها: تقييد المُنزَل بكونه مصدقاً لما معهم في قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾؛ لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر، فإنَّ إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدِّقه قطعاً، ومنه التكرار في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾؛ توطئةً لما بعده.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لبيان الكمال والتشريف؛ لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام؛ لبيان فضلهم وشرفهم على غيرهم من أهل

زمانهم.

ومنها: ذكر المحل وإرادة الحال في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾؛ أي: عذاب يوم.

ومنها: تنكير شيئاً مع تنكير نفس في قوله: ﴿لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا﴾؛ لإفادة التعميم والإقناط الكُليِّ.

ومنها: الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ مع أنَّ الجمل التي قبلها فعليةٌ، للمبالغة، والدلالة على الثبات والديمومية؛ أي: إنهم غير منصورين دائماً، ولا عبرة بما يصادفونه من نجاح مؤقت.

ومنها: الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾؛ أي: يذيقونكم، فإنه استعارةٌ من السوم في البيع.

ومنها: إضافة الصفة إلى الموصوف في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: العذاب السيىء الفظيع.

ومنها: تفسير العذاب السيىء بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾؛ لأنَّ التفصيل بعد الإجمال أوقع في النفس.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿يستحيون﴾؛ لأنه مجازٌ عن الاستبقاء للخدمة.

ومنها: التنكير في كُلٍّ من ﴿بَلَآءٌ﴾، و﴿عَظِيمٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ومنها: التشديد في قوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾؛ لإفادة التكثير. يقال: فتَّحت الأبواب.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال عليٌّ كرم الله وجهه: (قصم ظهري رجلان: عالمٌ متهتِّكٌ، وجاهلٌ متنسِّكٌ، ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به، كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه). قال الشاعر:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إنْ وَعظْتَ ويُقْتَدَى ... بِالرَّأي منك ويَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وقال أبو العتاهية:

وَصفْتَ التُّقَى حتَّى كأنَّكَ ذُو تُقَى ... ورِيحُ الخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال آخر:

وغيْرُ تَقِيٍّ يَأْمر النَّاسَ بالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهو عَلِيلُ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر في الآيات السالفة أنواعاً من النعم التي آتاها بني إسرائيل، كُلُّها مصدر فخار لهم، ولها تهتزُّ أعطافهم خيلاء وكبراً؛ لما فيها من الشهادة بعناية الله بهم... بيَّن هنا كبرى سيئاتهم التي بها كفروا أنعُم ربهم، وهي: اتخاذهم العجل إلٰهاً، ثم ختمها بذكر العفو عنهم، ثم قفَّى ذلك بذكر سيئة أخرى لهم ابتدعوها تعنتاً، وتجبُّراً، وطغياناً، وهي طلبهم من موسى أن يريهم الله سبحانه عِياناً حتى يؤمنوا به، فأخذتهم الصَّاعقة وهم يرون ذلك رأي العين. ثم أردف ذلك ذكر نعمتين أخريين كفروا بهما. أولاهما: تظليل الغمام لهم في التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة. وثانيتهما: إنزال المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ...﴾ الآيتين، ذكر سبحانه في هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم أن يدخلوا قريةً من القرى

خاشعين لله، فعصى بعضهم، وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذاباً من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصي، واقترفوه من الآثام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى؛ ذكر فيها نعمةً أخرى آتاها بني إسرائيل فكفروا بها. ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه، أصابهم ظمأ من لفح الشمس، فاستغاثوا بموسى، فدعا ربه أن يسقيهم، فأجاب دعوته. وقد كان من دأب بني إسرائيل، أن يعودوا باللَّوم على موسى إذا أصابهم الضيق، ويمنُّون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا. فقد روي أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس، فظلل عليهم الغمام. وقالوا: من لنا بالطعام، فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى. فقالوا: من لنا بالماء، فأُمِر موسى بضرب الحجر.

التفسير وأوجه القراءة

ثُمَّ بين سبحانه كيفية وقوع العفو المذكور بقوله: ﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً يا بني إسرائيل! وهذا هو الإنعام الخامس ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾؛ أي: قصة وقت قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين عبدوا العجل، بعد ما رجع من الميعاد الذي وعده ربُّه، فرآهم عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ أي: يا قومي! والإضافة فيه للشفقة ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ﴾ وأضررتم ﴿أَنفُسَكُم﴾ بتفويتها الثواب الواجب لها، بالإقامة على عهد موسى ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾؛ أي: بسبب اتخاذكم العجل معبوداً لكم، فقالوا لموسى: فماذا تأمرنا ﴿فَـ﴾ قال ﴿توبوا﴾ قلباً وقالباً؛ أي: فاعزموا على التوبة، والفاء للسببية، لأنَّ الظلم سببٌ للتوبة ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: إلى خالقكم الذي خلقكم بريئاً من العيوب، والنقصان، والتفاوت، وميَّز بعضكم من بعض بصور، وهيئات مختلفة، ولو[1] أظهرتم التوبة بالبدن دون القلب فأنتم ما تبتم إلى الله، وإنما تبتم إلى الناس. والتعرُّض[2] لعنوان البارئية؛ للإرشاد إلى أنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، ومن الغباوة منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

بلطيف حكمته، بريئاً من التفاوت، والتنافر، إلى عبادة العجل الذي هو مَثَلٌ في الغباوة، وأنَّ من لم يعرف حقوق مُنْعِمِه، حقيقٌ بأن تُستردَّ هي منه، ولذلك أمروا بالقتل، وفكِّ التركيب، فقالوا له: كيف نتوب إلى الله سبحانه ﴿فـ﴾ قال لهم ﴿اقتلوا أنفسكم﴾؛ أي: سلِّموا أنفسكم للقتل، وارضوا به، واصبروا عليه، وليقتل البريء منكم المجرم، وإنما قال أنفسكم؛ لأن المؤمنين إخوةٌ، وأخو الرجل كأنَّه نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين. كذا في «التيسير»، و«تفسير أبي الليث»، والفاء في قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ﴾ للتعقيب، وتوبتهم هي قتلهم؛ أي: فاعزموا على التوبة، فاقتلوا أنفسكم. كذا في «الكشاف».

وقال في «التفسير الكبير»: وليس المراد تفسير التوبة بقتل النفس، بل بيان أنَّ توبتهم لا تتمُّ، ولا تحصل إلا بقتل النفس، وإنما كان كذلك؛ لأنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام، أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: القتل في التوبة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي أنفع لكم ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ سبحانه من الامتناع الذي هو إصرارٌ، وفيه عذابٌ، لما أن القتل طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية، والبهجة السرمدية؛ أي: إنَّ التوبة أجْرٌ لَكُمْ عند خالقكم، من إقامتكم على عبادة العجل؛ لما فيها من الطهارة من الشرك. وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب منه تعالى، معطوف على محذوف؛ أي: ثم فعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم بارئكم؛ أي: قبل توبتكم، وتجاوز عنكم، وإنما لم يقل: فتاب عليهم، على أنَّ الضمير للقوم؛ لما أن ذلك نعمةٌ أُريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم.

فإن قلت[1]: أنه تعالى أمر بالقتل، والقتل لا يكون نعمةً.

قلت: إن الله سبحانه نبَّههم على عظيم ذنبهم، ثم نبَّههم على ما به يتخلَّصون من ذلك العظيم، وذلك من النعم في الدِّين؛ أي: قَبِلَ توبةَ من قُتل منكم، وغفَرَ لمن لم يُقْتل من بقيةِ المجرمين، وعفا عنهم من غير قتلٍ.

---

(١) روح البيان.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾؛ أي: الذي يُكثِر توفيق المذنبين للتوبة، ويبالغ في قبولها منهم: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: كثير الرحمة للمطيعين أمره حيث جعل القتل كفارة لذنوبهم. روي أنهم لمَّا أمرهم موسى بالقتل. قالوا: نصبر لأمر الله، فجلسوا في الأفنية محتبين مذعنين. وقيل لهم: من حَلَّ حبوته، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتقاه بيدٍ أو رجلٍ، فهو ملعون مردودٌ توبته، وأصلت القوم عليهم الخناجر؛ أي: حملوا عليهم الخناجر، ورفعوا بها وضربوهم بها، وكان الرجل يرى ابنه، وأباه، وأخاه، وقريبه، وصديقه، وجاره، فلم يمكنهم المضيُّ لأمر الله. قالوا: يا موسى! كيف نفعل؟ فأرسل الله سبحانه ضبابةً، وسحابةً سوداء، لا يبصر بعضهم بعضاً، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلما كثر القتل، دعا موسى وهارون، وبكيا، وتضرَّعا، وقالا: يا رب! هلكت بنو إسرائيل، البقية، البقية، فكشف الله السحابة، ونزلت التوبة، وأمرهم أن يكفُّوا عن القتل، فقتل منهم سبعون ألفاً، فكان من قتل شهيداً، ومن بقي مغفورةً ذنوبه. وأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام، إني أدخل القاتل والمقتول الجنة. هذا على رواية أن القاتل من المجرمين، على أن معنى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بعض المجرمين بعضاً، فالقاتل هو الذي بقي من المجرمين بعد نزول أمر الكف عن القتل، وإلا فالقاتل على الرواية الأخرى هو البريء، كما سبق في تفسير الآية.

ورُوي: أنَّ الأمر بالقتل من الأغلال التي كانت عليهم، وهي المواثيق اللازمة لهم لزوم الغَلِّ، ومن الإصر وهو الأعمال الشاقة، كقطع الأعضاء الخاطئة، وعدم جواز صلاتهم في غير المسجد، وعدم التطهير بغير الماء، وحرمة أكل الصائم بعد النوم، ومنع الطيبات عنهم بالذنوب، وكون الزكاة ربع مالهم، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح، وكما روي: أن بني إسرائيل إذا قاموا يصلُّون، لبسوا المسوح، وغلُّوا أيديهم إلى أعناقهم، ورُبَّما ثقب الرجل ترقوته، وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية، وحبس نفسه على العبادة. فهذه الأمور رفعت عن هذه الأمة؛ تكريماً للنبي ﷺ. **وحاصل معنى الآية**[1]: أي

---

(١) المراغي.

واذكر أيها الرسول الكريم! فيما تلقيه على بني إسرائيل، وغيرهم من العظات، قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل، حيث كان يناجي ربه: يا قوم! إنكم باتخاذكم العجل إلٰها قد أضررتم بأنفكسم، وأنقصتم مالها من الأجر والثواب عند ربكم، لو أنكم أقمتم على عهدي، واتَّبعتم شريعتي وقد فصِّلت هذه القصة في سورتي الأعراف وطه ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ...﴾ إلخ؛ أي: فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم، وميَّز بعضكم من بعض بصورٍ، وهيئات مختلفة. وفي قوله: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنهم بلغوا غاية الجهل، إذ تركوا عبادة البارىء، وعبدوا أغبى الحيوان، وهو البقر، وليقتل البرىء منكم المجرم.

وقصة القتل مذكورةٌ في التوراة التي يتدارسونها إلى اليوم، ففيها دعاءُ موسى: من للربِّ فإليَّ، فأجابه بنو لاوى، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً، ففعلوا، فقتل في ذلك اليوم، نحو: ثلاثة آلاف رجلٍ. والعبرة من القصة، لا تتوقَّف على عددٍ معين، فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرَّض له. ذلكم المذكور من التوبة، والقتل، أنفع لكم عند الله من العصيان، والإصرار على الذنوب؛ لما فيه من العذاب، إذ أن القتل يطهِّركم من الرجس الذي دنَّستم به أنفسكم، ويجعلكم أهلاً للثواب ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ﴾؛ أي: ففعلتم ما أمركم به موسى، فقبل توبتكم، وتجاوز عن سيئاتكم، إنه سبحانه هو التواب؛ أي: كثير قبول التوبة ممن تاب إليه. الرحيم: أي كثير الرحمة بمن يُنِيب إليه، ويرجع، ولولا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام، وكرَّر البارىء باللفظ الظاهر؛ توكيداً؛ ولأنها جملةٌ مستقلةٌ، فناسب الإظهار. وللتنبيه على أنَّ هذا الفعل هو راجح عند الذي أنشأكم، فكما رأى أن إنشاءكم راجحٌ؛ رأي: أنَّ إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجحٌ، فينبغي التسليم له في كل حالٍ، وتلقِّي ما يرد من قِبَله بالقبول، والامتثال. ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[١]: بظهور حركة الإعراب في ﴿بَارِئِكُمْ﴾ وروي عن أبي

---

(١) البحر المحيط.

عمرو الاختلاس. روى ذلك عنه سيبويه، وروي عنه الإسكان؛ وذلك إجراءٌ للمنفصل من كلمتين مُجرى المتصل من كلمة، فإنه يجوز تسكين مثل إبلٍ، فأُجري المكسوران في بارئكم مجرى إبلٍ. ومنع المبرد التسكين في حركة الإعراب، وزعم أن قراءة أبي عمرو لحنٌ، وما ذهب إليه ليس بشيء؛ لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله ﷺ، ولغة العرب توافقه على ذلك، فإنكار المبرد لذلك منكرٌ.

وقرأ الزهري ﴿باريكم﴾ بكسر الياء من غير همز. ورُوي ذلك عن نافع، وليست في المتواترت ولهذه القراءة تخريجان:

أحدهما: أنَّ الأصل الهمزة، وأنه من برأ، فخففت الهمزة بالإبدال المحض على غير قياس، إذ قياس هذا التخفيف، جعلها بين بين.

والثاني: أن يكون الأصل باريكم بالياء من غير همز، فيكون مأخوذاً من قولهم بَرَيْتُ القلم إذا أصلحته، أو من البَرَي وهو التراب، ثم حرَّك حرف العلة، وإن كان قياسه تقدير الحركة في مثل هذا رفعاً وجراً. وقد ذكر الزمخشري[1] في اختصاص ذكر البارىء هنا كلاماً حسناً هذا نصه: فإن قلت: من أين اختصَّ هذا الموضع بذكر البارىء؟

قلت: البارىء: هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ومميَّزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة، والصُّور المتباينة، فكان فيه تقريعٌ بما كان منهم، من ترك عبادة العالم الحكيم، الذي برأهم بلطيف حكمته، على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت، والتنافر، إلى عبادة البقر التي هي مَثَلٌ في الغَبَاوة، والبَلادة. في أمثال العرب: أبلد من ثور. حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله، ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، وينثر ما نظم من صورهم، وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة في ذلك، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها. انتهى.

---

(١) الكشاف.

ولمَّا فرغ سبحانه من محاورة موسى لقومه.. شرع في محاورتهم له عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ هذا هو الإنعام السادس؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت قول السبعين من أسلافكم، الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور للاعتذار عن عبادة العجل، وهم غير السبعين الذين اختارهم موسى أوَّل مرةٍ، حين أراد الانطلاق إلى الطور بعد غرق فرعون لأخذ التوراة ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي: لن نصدِّقك لأجل قولك ودعوتك على أنَّ هذا كتاب الله، وأنك سمعت كلامه، وأنَّ الله تعالى أمرنا بقبوله، والعمل به، ولم يريدوا[1] نَفْيَ الإيمان به بدليل: قولهم لك، ولم يقولوا بك، نحو: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾؛ أي بمصدِّق.

وقيل معناه: لن نُقِرَّ لك بأن التوراة من عند الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿جَهْرَةً﴾؛ أي:[2] عياناً لا ساتر بيننا وبينه، كالجهر في الوضوح والانكشاف؛ لأن الجهر في المسموعات، والمعاينة في المبصرات، ونصبها على المصدرية؛ لأنها نوع من الرؤية، فكأنها مصدر الفعل الناصب، أو حال من الفاعل؛ أي: حتى نرى الله مجاهرين، أو من المفعول؛ أي: حتى نرى الله مجاهَراً بفتح الهاء، وذلك أنَّه لمَّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وقال لهم: صوموا، وتطهَّروا، وطَهِّروا ثيابكم، ففعلوا، وخرج بهم إلى طور سيناء، فقالوا لموسى: أطلب لنا أن نسمع كلام ربنا، فقال موسى: أفعلُ، فلمَّا دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشَّى الجبل كُلَّه، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام. وقعوا سجوداً، فسمعوا الله سبحانه يكلِّم موسى، يأمره، وينهاه، فلمَّا انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نَرَى الله جهرةً، كما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ وقد عرفت أنَّ هذا الظرف معطوف على الظروف المتقدمة، وأنَّ التقدير فيه: واذكروا

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

إذ قلتم يا موسى! إلخ. والقائلون لهذا القول: هم سبعون رجلاً من خيارهم، كما عرفت. وقرأ الجمهور. ﴿جَهْـرَةً﴾ بسكون الهاء. وقرأ ابن عباس، وسهل بن شعيب، وحميد بن قيس ﴿جَهَرَةً﴾ بفتحها، وتحتمل هذه القراءة وجهين:

أحدهما: يكون جهرةً مصدراً، كالغلبة، فيكون معناها ومعنى جَهْرةً المُسَكَّنَةِ الهاءِ سواءً.

والثاني: أن يكون جمعاً لجاهر، كما تقول فاسق وفسقة، فيكون انتصابه على الحال؛ أي جاهرين بالرؤية. ذكره في «البحر».

والمعنى[1]: واذكروا يا بني إسرائيل! حين خرجتم مع موسى إلى جبل الطور لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل، فسمعتم كلام الله مع موسى، فقلتم لموسى لمَّا أقبل إليكم من المناجاة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾؛ أي: لن نصدقك في أن المخاطب لنا هو ربنا، وأن ما سمعناه كلامه ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾؛ أي: حتى نبصره ونراه رؤيةً جهرةً؛ أي: ظاهرة واضحة عِياناً، لا يستره عنا شيءٌ ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾؛ أي: فأحرقتكم النار النازلة من السماء؛ أي: فأخذت الصاعقة من قال ذلك، والباقون ينظرون بأعينهم. وقد فصَّل ذلك في الأعراف. وقرأ عمر، وعليٌّ ﴿الصَّعْقة﴾ بلا ألف. ذكره في «البحر». والصاعقة[2]: هي نارٌ مُحْرِقة فيها صوتٌ، نازلةٌ من السماء. وقيل: هي كُلُّ أمرٍ مُهْولٍ مُمِيْتٍ، أو مُزيلٍ للعقل والفهم، وتكون صوتاً، وتكون ناراً، وتكون غير ذلك.

وقيل: هي صوت ملكٍ صاح عليهم، وإنما أحرقتهم الصاعقة، لسؤالهم ما هو مستحيلٌ على الله في الدنيا؛ ولفرط العناد والتعنُّت، وإنما الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة، وللأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا، كما قيل: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة النازلة حين نزولها، فإن كانت ناراً فقد عاينوها، وإن كانت صوتاً هائلاً فقد مات بعضهم

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

أولاً، ورأى الباقون أنهم ماتوا، ويسمَّى هذا رؤية الموت مجازاً. وسيأتي[1] في الأعراف أنهم ماتوا بالرجفة؛ أي: الزلزلة، ويمكن الجمع بينهما، بأنه حصل لهم الجميع. انتهى. من «الفتوحات». وقال الواحديُّ: وإنما[2] أخذتهم الصاعقة؛ لأنهم امتنعوا من الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يريهم ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزتهم، ولا يجوز اقتراح المعجزات عليهم، فلهذا عاقبهم الله تعالى. وهذه الآية موبخة للمعاصرين في زمن الرسول ﷺ، على مخالفة محمد ﷺ مع قيام معجزته، كما خالف أسلافهم موسى، مع ما أَتَىٰ به من المعجزات الباهرة. وفي التوراة: إن طائفةً[3] منهم قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك في بني إسرائيل، وقالوا لموسى بعد موت هارون: إنَّ نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم، وإسحاق، فتعمم الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه، فلا يحقُّ لك أن تسودنا بلا مزيَّةٍ، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذهم إلى خيمة العهد، فانشقت الأرض، وابتلعت طائفةً منهم، وجاءت نارٌ من الجانب الآخر، فأخذت الباقين. اهـ.

وهكذا كان حال بني إسرائيل مع موسى، يتمرَّدُون، ويعاندون، وسوط العذاب يصبُّ عليهم صباً، فأصيبوا بالأوبئة وأنواع الأمراض، وسُلِّطت عليهم هوام الأرض وحشراتها، حتى فتكت بالعدد العديد، والخلق الكثير، فليس ببدعٍ منهم أن يجحدوا دعوة النبي ﷺ، ويعاندوها ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم﴾ وأحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وحرقكم بتلك النار الصاعقة، وموتكم يوماً وليلة، وقاموا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيا! وعاشوا بعد ذلك؛ لأنهم[4] لما ماتوا، جعل موسى يبكي ويتضرع إلى الله، ويقول: يا رب! إنهم خرجوا معي وهم أحياء، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلاً بعد

---

(١) الفتوحات.

(٢) الواحدي.

(٣) التوراة.

(٤) كرخي.

رجل، بعد ما مكثوا ميِّتين يوماً وليلة؛ وذلك لإظهار آثار القدرة؛ وليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يحيوا إلى يوم القيامة.

وقيَّد البعث بقوله[1]: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ مع أنه إنما يكون بعد الموت، لما أنه قد يكون من الإغماء، أو من النوم. قال قتادة: أحياهم، ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكان ذلك الموت بلا أجل، وكانت تلك الموتة لهم، كالسَّكْتَةِ لغيرهم قبل انقضاء آجالهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة. اهـ.

فإن قلت: كيف يجوز أن يكلِّفهم، وقد أماتهم؟ فإن جاز ذلك، فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذا بعثوا بعد الموت؟.

قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة، هو الإماتة ثم الإحياء، وإنما منع ذلك من التكليف، لأنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته ومعرفة ما في الجنة من اللذات، وما في النار من الآلام، وبعد العلم الضروري لا تكليف، فإذا كان المانع هو هذا، لم يمتنع في هؤلاء الذين أماتهم الله بالصعقة، أن لا يكون قد اضطرهم، وإذا كان كذلك صحَّ أن يكلفوا من بعد، ويكون موتهم، ثم الإحياء بمنزلة النوم، أو بمنزلة الإغماء ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا الله سبحانه وتعالى، نعمة إحيائه لكم بعد موتكم بالصاعقة بالتوحيد والطاعة، أو لعلكم تشكرون وقت مشاهدتكم بأس الله بالصاعقة، نعمة الإيمان التي كفرتموها بقولكم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فإن ترك النعمة لأجل طلب الزيادة كفرانٌ لها؛ أي: لعلكم تشكرون نعمة الإيمان، فلا تعودون إلى اقتراح شيء بعد ظهور المعجزة.

وفي «المراغي»[2]: يرى بعض المفسرين: أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة، أو غيرها؛ ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبيَّة لغيرهم. ويرى آخرون، أن المراد بالبعث: كثرة النسل؛ أي: إنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتَّى الأسباب، وظُنَّ أنهم ينقرضون، بارك الله في

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

نسلهم؛ ليعدَّ الشعب بالبلاء السابق، للقيام بحقِّ الشكر على النعم التي تمتَّع بها الآباء الذين حلَّ بهم العذاب بكفرهم لها. وإنما قصَّ الله سبحانه علينا هذا القصص، ووجهه إلى من كان من اليهود في عصر التنزيل؛ لبيان وحدة الأمة، وأن ما يبلوها به من الحسنات والسيئات، وما يجازيها به من النعم والنقم، إنما هو لمعنًى فيها يُسوِّغُ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنَّه وقع منه، ليعلم الناس أنَّ الأمم متكافلةٌ، سعادة الفرد منها، مرتبطةٌ بسعادة سائر الأفراد، وشقاؤه بشقائهم، ويتوقَّع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة، وإن لم يفعلها هو، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وفي هذا التكافل رُقِيُّ الأمة، وتقدمها في المدنية والحضارة، إذ يحملها على التعاون في البأساء والضراء، فتحوز قصب السبق بين الأمم. وأصل[1] هذه القصة: أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا رجع من الطور إلى قومه، فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه والسامري ما قال، وأحرق العجل وألقاه في البحر، وندم القوم على ما فعلوا، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين من قومه من خيارهم، فلما خرجوا إلى الطور، قالوا لموسى: سل ربنا حتى يسمعنا كلامه؟ فسأل موسى عليه السلام ذلك، فأجابه الله، ولما دنا من الجبل، وقع عليه عمودٌ من الغمام، وتغشَّى الجبل كله، ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه، وقال للقوم: ادخلوا، فكلم الله موسى يأمره وينهاه، وكلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نوراً ساطعاً، لا يستطيع أحدٌ من السبعين النظر إليه، وسمعوا كلامه تعالى مع موسى، افعل لا تفعل، فعند ذلك طمعوا في الرؤية، وقالوا ما قالوا، فأخذتهم الصاعقة، فخرُّوا صعقين ميتين يوماً وليلة، فلمّا ماتوا جميعاً، جعل موسى يَبْكي ويتضرَّع رافعاً يديه إلى السماء يدعو، ويقول: يا إلٰهي! اخترت من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم، وماذا أقول لهم إذا أتيتهم، وقد

---

(١) روح البيان.

أهلكت خيارهم، لو شئت أهلكتهم قبل هذا اليوم مع أصحاب العجل، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فلم يزل يناشد ربَّه حتى أحياهم الله سبحانه، وردَّ إليهم أرواحهم، وطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم.

قالوا: إن موسى[1] عليه السلام، سأل الرؤية في المرة الأولى في الطور، ولم يمت، لأن صعقته لم تكن موتاً، ولكن غشيةً، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وسأل قومه في المرة الثانية، حين خرجوا للاعتذار وماتوا، وذلك؛ لأنَّ سؤال موسى كان اشتياقاً وافتقاراً، وسؤال قومه كان تكذيباً واجتراءً، ولم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنُّتٍ، فإنهم ظنُّوا أنه تعالى يشبه الأجسام، وطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات، والأحياز المقابلة للرائي، وهي مَحالٌ. وليس في الآية دليل على نفي الرؤية، بل فيها إثباتها، وذلك أنَّ موسى عليه السلام، لمَّا سأله السبعون لم ينههم عن ذلك، وكذلك سأل هو ربه الرؤية، فلم ينهه عن ذلك، بل قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وهذا تعليقٌ بما يتصوَّر، قال بعض العلماء الحكماء: الحكمة في أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا وجوهٌ:

الأول: أن الدنيا دار أعدائه؛ لأن الدنيا جنة الكافر.

الثاني: لو رآه المؤمن لقال الكافر: لو رأيته لعبدته، ولو رأوه جميعاً لم يكن لأحدهما مزيةٌ على الآخر.

الثالث: أنَّ المحبة على غيبٍ، ليست كالمحبة على عينٍ.

الرابع: أن الدنيا محلُّ المعيشة، ولو رآه الخلق لاشتغلوا عن معاشهم، فتعطلت.

الخامس: أنه جعلها بالبصيرة دون البصر؛ ليرى الملائكة صفاء قلوب المؤمنين.

---

(١) روح البيان.

السادس: ليقدِّر قدرها، إذ كل ممنوع عزيزٌ.

السابع: إنما منعها رحمة بالعباد؛ لما جبلوا عليه في هذه الدار من الغيرة، إذ لو رآه أحد تصدَّع قلبه من رؤية غيره إياه، كما تصدَّع الجبل غيرةً من أن يراه موسى. والله أعلم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ هذا هو الإنعام السابع؛ أي: جعلنا السحاب الرقيق ظلاً عليكم، يحفظكم من حر الشمس، وكان يسير بسيرهم، وكانوا يسيرون ليلاً ونهاراً، وذلك في التِيه، وهو: وادٍ بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ، وقيل: اثنا عشر فرسخاً، مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين، لا يهتدون إلى الخروج منه، وسبب ذلك؛ مخالفتهم أمر الله تعالى إياهم بقتال الجبارين الذين كانوا بالشام؛ أي: جعلنا[1] الغمام ظُلَّة عليكم يا بني إسرائيل. وهذا كما ذكرنا جرى في التيه، وادٍ بين مصر والشام، فإنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر، وقعوا في صحراء لا أبنية فيها، وأمرهم الله تعالى بدخول مدينة الجبَّارين، الذين كانوا في الشام وقتالهم، فقبلوا أمره، فلما قربوا منها سمعوا بأنَّ أهلها جبارون أشدَّاء، قامة أحدهم سبعمائة ذراع، ونحوها، فامتنعوا، وقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فعاقبهم الله تعالى، بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وكانت المفازة يعني: التيه، اثني عشر فرسخاً، فأصابهم حرٌّ شديد، وجوع مفرط، فشكوا إلى موسى، فرحمهم الله تعالى، فأنزل عليهم عموداً من نور يدُلَّىٰ له من السماء، فيسير معهم بالليل يضيىء لهم مكان القمر إذا لم يكن قمرٌ، وأرسل غماماً أبيض رقيقاً. أطيب من غمام المطر، يظللهم من حر الشمس في النهار. وسُمِّي السحاب غماماً؛ لأنه يغمُّ السماء؛ أي: يسترها. والغَمُّ: حزن يستر القلب. ولم يكن لهم في التيه شيءٌ يسترهم، ويستظلُّون به، وكانت ثيابهم لا تتسخ، ولا تبلى، ثم سألوا موسى الطعام، فدعا ربه فاستجاب له، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾؛ أي: الترَنْجبين بفتح

---

(١) روح البيان.

الراء وتسكين النون: وهو شيءٌ أبيض مثل الثلج، كالشَّهد المعجون بالسمن. وقيل: هو يشبه العسل الأبيض. وقيل: هو كان يقع على أشجارهم من الفجر إلى طلوع الشمس، لكلِّ إنسان صاعٌ، أو المَنُّ جميع ما منَّ الله به على عباده من غير تَعَب، ولا زرع، ومنه قوله ﷺ: «الكَمْأَةُ مِن المَنّ وماؤُها شفاء للعين»؛ أي: ممَّا منَّ الله به على عباده من غير تعبٍ، ثُمَّ لما مَلُّوا من أكله، قالوا: يا موسى! قتلنا هذا المنُّ بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأنزل الله عليهم السلوى، وذلك قوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰٓ﴾؛ أي: وأرسلنا عليكم السلوى، وهو السُّماني، وهو: طائرٌ لذيذ اللحم، ليس له ذَنَبٌ، ولا يطير إلا قليلاً، ويموت إذا سمع صوت الرعد، فيلهمه الله أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون فيها مطرٌ ولا رعدٌ، إلى انقضاء أوان المطر والرعد، فيخرج من الجزائر، وينتشر في الأرض. وخاصِّيَّتهُ: أنَّ أكل لحمه يُليِّن القلوب القاسية، وكانت تحشره عليهم ريح الجنوب، وكانت الريح تقطع حلقومها، وتشق بطونها، وتمعط شعورها، وكانت الشمس تنضجها، فكانوا يأكلونها مع المنِّ. وأكثر المفسرين على أنهم يأخذونها، فيذبحونها، فكان ينزل عليهم المنُّ نزول الثلج، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتأتيهم السلوى، فيأخذ كل إنسان منهم كفايته إلى الغد، إلا يوم الجمعة يأخذ ليومين؛ لأنه لم يكن ينزل يوم السبت؛ لأنه كان يوم عبادة، فإن أخذ أكثر من ذلك دوَّد وفسد.

وقوله: ﴿كُلُوا۟﴾ مقولٌ[1] لقول محذوفٍ، معطوفٍ على فعلٍ محذوف، تقديره: أنعمنا عليكم بأنواع النعم من الطعام والشراب، من غير كدٍّ ولا تعبٍ، وقلنا لكم كلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ وحلالات ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وأعطيناكم؛ أي: كلوا من لذائذ ما رزقناكموه من المنِّ والسلوى، ولا ترفعوا منه شيئاً ادخاراً لغدٍ، ولا تعصوا أمري، فرفعوا، وادَّخروا، وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد، فقطع الله عنهم، ودوَّد ما ادّخروه، ولو لم يرفعوا لدام عليهم ذلك. والطيبات: جمع

---

(١) العمدة.

طيب، والطَّيب: ما لا تعافه طبعاً ولا تكرهه شرعاً. وفي الحديث المتفق عليه. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنوا إسرائيل، لم يخبث الطعام، ولم يخنز اللحم»؛ أي: لم ينتن ولم يتغيَّر «ولولا حواء، لم تخن أنثى زوجها الدَّهر». وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ أي: وما نقصونا بما ادخروا، معطوفٌ على محذوف، تقديره: فظلموا بأن كفروا تلك النعمة الجليلة، وادَّخروا بعد ما نهوا عنه، وما ظلمونا؛ أي: ما بخسوا بحقِّنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ أي: يضرُّون باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم، بلا مؤونة في الدنيا، ولا حساب في العقبى، فرفعنا ذلك عنهم؛ لعدم توكلهم علينا.

فإن قلت: ما الحكمة في ذكر كانوا هنا وفي الأعراف، وحذفها في آل عمران؟

فالجواب: أن ما في السورتين إخبارٌ عن قوم انْقَرضُوا، وما في (آل عمران) مثلٌ منبّه عليه بقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ إلخ. اهـ «كرخي». وقوله في الحديث: لم يخنز اللحم ولم تخن أنثى زوجها؛ أي: واستمرَّ نتن اللحم من ذلك الوقت، لأنَّ البادي للشيء كالحامل للغير على الإتيان به، وكذلك استمرت الخيانة من النساء؛ لأنَّ أُمَّ النساء خانت بأن أغواها إبليس قبل آدم حتى أكلت من الشجرة، ثم أتت آدم، فزيَّنت له ذلك حتى حملته على أن أكل منها، فاستمرَّت تلك الخيانة من بناتها لأزواجها.

قال في «الأشباه والنظائر»: الطعام إذا تغيَّر واشتدَّ تغيره تنجَّس، وحرم أكله واللَّبنُ، والزَّيْتُ، والسمنُ، إذا أنتن لا يحرم أكله. انتهى.

وفي سفر الخروج من التوراة[1]: أنهم أكلوا المن أربعين سنةً، وأنَّ طعمه كالرُّقاق بالعسل، وكان لهم بدل الخبز إذ كانوا محرومين من البقول، والخضر. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ كُلّ ما يطلبه الله من عباده، فإنما نفعه لهم، وما ينهاهم

---

(١) المراغي.

عنه، فإنما ذلك لدفع ضُرٍّ يقع عليهم. وقد جاء في الحديث القدسي: (فُكلُّ عمل ابن آدم له أو عليه) وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ هذا هو الإنعام الثامن؛ لأنه تعالى أباح لهم دخول البلدة، وأزال عنهم التيه. ﴿وَإِذْ﴾[1] معطوف على نعمتي على كونها مفعولاً لاذكروا، كما مرَّ مراراً؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي التي أنعمت بها علكيم، ووقت قولنا لآبائكم إثر ما أُنْقِذْتمُ من التيه ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ منصوبٌ على الظرفية؛ أي: مدينة بيت المقدس، كما قاله مجاهد، أو قرية أريحاء، كما قاله ابن عباس، وهي قريةٌ قريبةٌ من بيت المقدس. وجزم القاضي، وغيره بالأول، ورُجِّح الثاني بأنَّ الفاء في قوله ﴿فَبَدَّلَ﴾ تقتضي التعقيب، فيكون واقعاً عقب هذا الأمر في حياة موسى عليه السلام، وموسى تُوفِّي في التيه، ولم يدخل بيت المقدس. قاله الرازيّ. اهـ. «كرخي».

وعبارة الخازن: قال ابن عباس: القرية هي أريحا قرية الجبارين، بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة، قريةٌ بالغور قريبةٌ من بيت المقدس. قيل: كان فيها قومٌ من بقية عاد يقال لهم: العمالقة، ورأسهم عوج بن عُنُق، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون؛ لأنه الذي فتح أريحا بعد موسى؛ لأن موسى مات في التيه. وقيل: هي بيت المقدس، وعلى هذا فيكون القائل موسى، والمعنى: إذا خرجتم بعد مضيِّ الأربعين سنةً، فادْخلُوا بَيْتَ المقدس. اهـ.

والقَرْية[2]: اسمٌ للمكان الذي يجتمع فيه القوم، وقد تطلق عليهم مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهلها، والمعنى؛ أي: واذكروا قصة، إذ قلنا لكم بعد خروجكم من التيه على لسان موسى، أو على لسان يوشع، ادخلوا هذه القرية ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾؛ أي: من ثمارها، وطعامها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وأنى شئتم أَكْلاً ﴿رَغَدًا﴾؛ أي: واسعاً لا حجر فيه، على أنَّ النصب على

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

المصدرية، أو هو حال من الواو في كلوا؛ أي: راغدين متوسعين، وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الإقامة والسُّكنى. قال في «التيسير»؛ أي: أَبَحْنَا لكم، ووسعنا عليكم، فتعيشوا فيها أنَّى شئتم بلا تضييقٍ ولا منعٍ، وهو تمليكٌ لهم بطريق الغنيمة. وذكر الأكل؛ لأنه معظم المقصود ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾؛ أي: باباً من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب، والمراد الباب الثاني من بيت المقدس، ويعرف اليوم بباب حطةٍ، أو باب القُبَّة التي كان يتعبَّد فيها موسى وهارون، ويُصلِّيان مع بني إسرائيل إليها ﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: ركعاً منحنين، ناكسي رؤوسكم بالتواضع، على أن يكون المراد معناه الحقيقيَّ، أو ساجدين شكراً لله تعالى على خلاصكم وإخراجكم من التيه، على أن يكون المراد به معناه الشرعيَّ ﴿وَقُولُواْ﴾ بألسنتكم مسألتنا منك يا ربنا! ﴿حِطَّةٌ﴾؛ أي: حطٌّ ذنوبنا عنَّا، وغفرانها لنا بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: مسألتنا من الله أن يحط عنا ذنوبنا، أو بالنصب على المصدرية لفعل محذوف؛ أي: حُطَّ عنا ذنوبنا حطةً وذلك أنهم أصابوا خطيئةً بإبائهم على موسى دخول القرية. وقيل: أريد بها كلمة الشهادة؛ أي: قولوا كلمة الشهادة الحاطَّة للذنوب. والحاصل: أنهم أمروا بأن يدخلوا الباب على وجه الخضوع، وأن يذكروا بألسنتهم التماس حطِّ الذنوب، حتى يكونوا جامعين بين ندم القلب، وخضوع الجوارح، والاستغفار باللسان.

وقرأ الجمهور[1]: (حطة) بالرفع، على أنه خبر مبتدأ محذوف. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة بالنصب، على معنى احطط عنا ذنوبنا حطةً. وقيل معناه: الاستغفار، ومنه قولُ الشاعر:

فَازَ بِالحِطَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّـ ـهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُوراً

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ مجزومٌ على أنه جواب الأمر من الغفر، وهو: الستر؛ أي: نستر عليكم ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ أي: ذنوبكم، فلا نجازيكم بها لما تفعلون من السجود والدعاء، وهم الذين عبدوا العجل ثمَّ تابوا، وهي جمع خطيئة ضدُّ الصواب.

---

(١) البحر المحيط.

وقرأ نافع بالياء المضمومة مبنياً للمجهول[1]، وذكَّر الفعل؛ لأنَّ الخطايا مؤنث مجازي، أو لوقوع الفصل. وقرأ ابن عامر بالتاء المضمومة مبنياً للمجهول أيضاً. وقرأ الباقون نغفر بنون العظمة، وهي أولى؛ لجريانها على نظام ما قبله من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وما بعده من قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقرأ أبو بكر من طريق الجعفيِّ يَغفر بالياء المفتوحة، على أنَّ الفاعل ضمير الغائب العائد على الله سبحانه. وقرأت طائفة تَغفر بالتاء الفوقية المفتوحة، فيكون ضمير الفاعل عائداً على الحطة، كأنه تكون سبب الغفران، وليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ نفس اللَّفظة بمجردها لا تكون سبباً للغفران، وراوي هذه القراءة هو ابن عطية، وأمال الكسائي ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ وقرأ الجحدريُّ وقتادة ﴿تُغفر خطيئتكم﴾ بضم التاء، وإفراد الخطيئة. وقرأ الحسن ﴿يَغفر خطيئاتكم﴾ بالياء مفتوحةً، وبالجمع المُسَّلم. وقرأ أبو حَيْوَةَ ﴿تُغفر خطيئاتكم﴾ بالتاء مضمومة، وبالجمع المسلم. وحكى الأهوازي أنه قرأ ﴿خطأياكم﴾ بهمزة الألف، وسكون الألف الأخيرة. وحكى عنه أيضاً العكس. وتوجيه هذا الهمزة؛ أنه استثقل النطق بألفين مع أنَّ الحاجز حرفٌ مفتوحٌ، والفتحة تنشأ عنها الألف، فكأنَّه اجتمع ثلاث ألفات، فهُمِّزت إحدى الألفين، ليزول هذا الاستثقال.

والحاصل[2]: أنَّ من قرأ بضم الياء، أو التاء، كان خطاياكم، أو خطيئاتكم، أو خطيئتكم مفعولاً، لم يُسمَّ فاعله. ومن قرأ بفتح التاء، أو الياء، أو بالنون، كان ذلك مفعولاً به، وجزم هذا الفعل؛ لأنه جواب الأمر. **والمعنى**: أي إذا فعلتم ما ذكر استجبنا دعاءكم، وكفرنا عنكم خطاياكم. ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والامتثال لأمرنا ثواباً من فضلنا، وهم الذين لم يعبدوا العجل، جمع محسن، والمحسن[3]: من أحسن في فعله، وإلى نفسه، وغيره. وقيل: المحسن من صَحَّح عَقْدَ توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

فرائضه، وكفَّ شرَّهُ. وقيل: هو الفاعل ما يَجْمُل طبعاً، ويُحمد شرعاً. وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد؛ إيذاناً بأن المحسن بصدد زيادة الثواب، وإن لم يقل حطةٌ، فكيف إذا قالها، واستغفر، وبأنهُ يقول ويستغفر، لا محالة أمرهم بشيئين: بعملٍ يسيرٍ، وقولٍ صغير، فالعمل الانحناء عند الدخول، والقول التكلُّم بالقول، ثم وعد عليهما غفران السيئات، والزيادة في الحسنات.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: غيَّرَ الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية، ما قيل لهم من التوبة، والاستغفار ﴿قَوْلًا﴾ آخر مما لا خير فيه، فأحد مفعولي بدَّل محذوفٌ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ غير نعتٌ لقولاً، وإنما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة؛ تحقيقاً لمخالفتهم، وتنصيصاً على المغايرة من كلِّ وجهٍ، والمعنى: أنهم غيروا تلك الكلمة التي أمروا بها، وقالوا قولاً غير الذي قيل لهم، فقالوا: حنطةٌ بدل حطَّةٌ، وكذلك بدلوا الفعل الذي أمروا به من دخولهم سجداً، فدخلوا زحفاً. فالحاصل: أنهم دخلوا الباب زاحفين على أدبارهم، قائلين حنطةً على شعيرةٍ؛ استخفافاً بأمر الله تعالى. وقيل: قالوا[١]: بالنبطية، وهي لغتهم (حَطًّا سَمْقَاناً) يعنون حنطةً حمراء. وقال مجاهد: طُؤطىءَ لهم البابُ ليخفضوا رؤوسهم، فأبوا أن يدخلوه سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم مخالفةً في الفعل، كما بدَّلوا القول، وأما المحسنون ففعلوا ما أمروا به، ولذا لم يقل: فبدَّلوا بصيغة العموم، بل قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وظاهر نظم القرآن أنَّهم بدَّلوا القول فقط دون العمل، وبه قال جماعة. وقيل: بل بدلوا العمل والقول جميعاً، فمعنى قوله: ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: أمراً غير الذي أمروا به، فإن أمر الله قولٌ، وهو تغيير جميع ما أمروا به ﴿فَأَنزَلْنَا﴾؛ أي: فعقيب ذلك التبديل أنزلنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتغيير ما أمروا به قولاً وفعلاً، ولم[٢] يقل: عليهم على الاختصار. وقد سبق ذكر الذين ظلموا في الآية؛ لأنه سبق ذكر المحسنين أيضاً، فلو أطلق وأضمر، لوقع احتمال دخول

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

الكل فيه، ثم هذا ليس بتكرار؛ لأنَّ الظلم أعمُّ من الصغائر، والكبائر، والفسقُ لا بد وأن يكون من الكبائر، فالمراد بالظلم ههنا: الكبائر بقرينة الفسق، والمراد بالظلم المتقدم: هو ما كان من الصغائر، وقد أضمر ذلك في الأعراف فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن المُضمَر هو المُظهَر. وقال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمر، مبالغةً في تقبيح شأنهم ﴿رِجْزًا﴾؛ أي: طاعوناً، وبلاءً، وعذاباً مقدَّراً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والتنوين فيه للتهويل، والتفخيم، وما في قوله: ﴿بِمَا﴾ مصدرية ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعتنا. والرجز في الأصل: ما يخاف ويُسْتَكْرَهُ، وكذلك الرجس، والمراد به هنا الطاعون.

روي: أنه مات منهم بالطاعون في ساعةٍ واحدةٍ، أربعةٌ وعشرون ألفاً، ودام فيهم حتى بلغ سبعين ألفاً. وقال أبو حيان[1]: واختلفوا في الرجز هنا، فقال أبو العالية: هو غضب الله تعالى. وقال ابن زيد: طاعونٌ أهلك منهم في ساعة سبعين ألفاً. وقال وهبٌ: طاعونٌ عذبوا به أربعين ليلة، ثُمَّ ماتوا بعد ذلك. وقال ابن جبير: ثلجٌ هلك به منهم سبعون ألفاً. وقال ابن عباس: ظلمةٌ وموتٌ، مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً. وهلك سبعون ألفاً عقوبةً. والذي يدل عليه القرآن: أنه أنزل عليهم عذابٌ، ولم يبين نوعه، إذ لا كبير فائدةٍ في تعيين النوع، فنتركه مبهماً، وإن كان كثيرٌ من المفسرين على أنه الطاعون. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إن فسر الرجز بالثلج، كان كونه من السماء ظاهراً، وإن فسر بغيره، فهو إشارةٌ إلى الجهة التي يكون منها القضاء عليهم، أو مبالغةٌ في علوّه بالقهر والاستيلاء. وقال أبو مسلم: هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾. وفائدة التكرار التأكيد؛ لأنَّ الوصف دالٌّ على العلية، فالظاهر أن التبديل سببه الظلم، وأنَّ إنزال الرجز سببه الظلم أيضاً. وقال غير أبي مسلم: ليس مكرَّراً لوجهين:

أحدهما: أنَّ الظلم قد يكون من الصغائر، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ومن الكبائر كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والفسق لا يكون

---

(١) البحر المحيط.

إلا من الكبائر، فلما وصفهم بالظلم أولاً، وصفهم هنا بالفسق الذي هو لا بُدَّ أن يكون من الكبائر.

والثاني: أنه يحتمل أنهم استحقُّوا اسم الظلم بسبب ذلك التبديل، ونزول الرجز عليهم من السماء، لا بسبب ذلك التبديل، بل بالفسق الذي فعلوه قبل ذلك التبديل، وعلى هذا يزول التكرار. انتهى.

وقرأ ابن مُحَيصن[1]: ﴿رِجْزًا﴾ بضم الراء، وقد تقدم أنها لغةٌ في الرجز بكسر الراء. وقرأ النخعي، وابن وثاب، وغيرهما ﴿يَفْسُقُونَ﴾ بكسر السين وهي لغة فيه، واستدل بعضهم بقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وترتيبِ العذاب على هذا التبديل، على أن ما ورد فيه التوقيف من الأقوال لا يجوز تغييره، ولا تبديله بلفظ آخر. وقال قوم: يجوز ذلك إذا كانت الكلمة تسدُّ مسدها، وعلى هذا جرى الخلاف في قراءة القرآن بالمعنى، وفي تكبيرة الإحرام، وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة، والبيع، والتمليك، وفي نقل الحديث بالمعنى.

فائدة: وذكروا أنَّ في الآية سؤالاتٍ[2]:

الأول: قوله هنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وفي الأعراف ﴿وإذ قيل﴾ وأجيب: بأنه صرح بالفاعل في البقرة، لإزالة الإبهام، وحذف في الأعراف؛ للعلم به في (سورة البقرة).

الثاني: قال هنا: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ وهناك ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾. وأجيب: بأنَّ الدخول مقدم على السكنى، فذكر الدخول في السورة المتقدمة، والسكنى في المتأخرة.

الثالث: قال هنا: ﴿خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ وهناك ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾. وأجيب: بأنَّ الخطايا جمع كثرة، فناسب حيث قرن به ما يليق بجوده، وهو غفران الكثير. والخطيئات جمعُ قلة، لمَّا لم يضف ذلك إلى نفسه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

الرابع: ذكر هنا ﴿رَغَدًا﴾ وهناك حذف. وأجيب: بالجواب قبل.

الخامس: قدم هنا دخول الباب على القول، وهناك عكس. وأجيب: بأن الواو للجمع، والمخاطبون بهذا مذنبون، فاشتغاله بحط الذنب، مقدَّم على اشتغاله بالعبادة، فكُلِّفوا بقول حطة أولاً، ثم بالدخول غير مذنبين، فاشتغاله أوَّلاً بالعبادة، ثم بذكر التوبة ثانياً، على سبيل هضم النفس، وإزالة العجب، فلما احتمل الانقسام، ذكر حكم كل واحد منهما في سورةٍ بأيهما بدأ.

السادس: إثبات الواو في ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ هنا، وحذفها هناك. وأجيب: بأنه لما تقدَّم أمران كان المجيء بالواو، مؤذناً بأن مجموع الغفران، والزيادة جزاءٌ واحدٌ لمجموع الأمرين، وحيث تركت أفاد توزع كل واحد على كل واحد من الأمرين، فالغفران في مقابلة القول، والزيادة في مقابلة ادخلوا.

السابع: لم يذكر ههنا ﴿مِنْهُمْ﴾ وذكر هناك. وأجيب: بأنَّ أول القصة في الأعراف مبنيٌّ على التخصيص بلفظ مِنْ قال: ومن قوم موسى أمةٌ، فذكر لفظ من آخراً؛ ليطابق آخره أوله. وهنا لم تبن القصة على التخصيص.

الثامن: قال هنا ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ وهناك ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾. وأجيب: بأنَّ الإنزال مفيدٌ حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم، واستئصالهم بالكلية، وهذا إنما يحدث بالآخر.

التاسع: هنا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ وهناك ﴿يَظْلِمُونَ﴾. وأجيب: بأنه لمَّا بين هنا، كون ذلك الظلم فسقاً، اكتفى بذكر الظلم في سورة الأعراف؛ لأجل ما تقدم من البيان هنا. ذكره في «البحر».

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ هذا هو[1] الإنعام التاسع، وهو جامعٌ لنعم الدنيا والدين، أما في الدنيا؛ فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء، ولولا هو لهلكوا في التيه، وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنهم في مفازة

---

(١) البحر المحيط.

منقطعة، وأما في الدين؛ فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع، وقدرته، وعلمه، وعلى صدق موسى عليه السلام. والاستسقاء: طلب الماء عند عدمه، أو قلّته. وتقدَّم[1] غير مرة، أنَّ الظروف كلّها معطوفة على نعمتي، في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي التي أنعمت عليكم، واذكروا حين طلب موسى السقيا لقومه، وقد عطشوا في التيه، فاستغاثوا به، فدعا ربَّه أن يسقيهم ﴿فَقُلْنَا﴾ له بالوحي أن ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع، على قدر طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً، حملها آدم معه من الجنة، فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى ﴿ٱلْحَجَرَ﴾؛ أي: اضرب أيَّ حجر كان تتفجَّر منه العيون بقدرتنا، إن قلنا: إن أل فيه جنسية. أو اضرب الحجر المحمول معك، إن قلنا: إن أل فيه عهديةٌ، وهو الحجر الذي فرَّ بثوبه.

عبارة «الروح» هنا: اللام[2] فيه، إما للعهد، والإشارة بها إلى معلوم. فقد روي أنه كان حجراً طُوْرِياً حمله معه، وكان خفيفاً مربعاً كرأس الرجل، له أربعة أوجه، في كل وجه ثلاث أعين، أو هو الحجر الذي فرّ بثوبه، حين وضعه عليه ليغتسل، وبرأه الله تعالى مما رموه به من الأدرة، فأشار إليه جبريل أن ارفعه، فإن لله فيه قدرة، ولك فيه معجزة. قال رسول الله ﷺ: «كان بنوا إسرائيل ينظر بعضهم إلى سوءة بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، فجمع موسى بأثره يقول: ثوبي يا حجر! حتى نظرت بنوا إسرائيل إلى سوءة موسى، فقالوا: والله ما بموسى أُدرة» وهي بالمد: نفخةٌ بالخصية، وإما للجنس؛ أي: اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وهو الأظهر في الحجة؛ أي: أبين في القدرة، وأدلُّ عليها. فإنَّ إخراج الماء بضرب العصا من جنس الحجر، أيَّ حجر كان، أدلُّ على ثبوت نبوة موسى عليه السلام، من إخراجه من حجر معهود معين، لاحتمال أن يذهب الوهم إلى تلك الخاصية في ذلك الحجر

---

(١) العمدة.

(٢) روح البيان.

المعين، كخاصية جذب الحديد في حجر المغناطيس ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الفاء عاطفة على محذوف، والانفجار[1]: الانكباب. والانبجاس: الترشُّح والرشُّ، فالرشُّ أوَّل، ثم الانكباب. عبَّر بدل ما هنا في الأعراف بقوله: ﴿فَانۢبَجَسَتْ﴾ والأول أبلغ؛ لأنه انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء، فناسبِ ذكْرُ الانفجارِ هنا، الجَمْعَ قَبْلَه بين الأكل، والشرب الذي هو أبلغ من الاقتصار على أحدهما؛ أي: فضربه فانفجرت؛ أي: جرت وسالت ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الحجر ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ماءً عذباً؛ أي اثنا عشر نهراً بعدد قبائل بني إسرائيل، لكلِّ سبطٍ عينٌ، وكان يضربه بعصاه إذا نزل، فيتفجَّر، ويضربه إذا ارتحل، فييبس. وفي هذا الانفجار من الإعجاز، ظهور نفس الماء من حجر لا اتصال له بالأرض، فتكون مادته منها، وخروجه كثيراً من حجر صغير، وخروجه بقدر حاجتهم، وخروجه عند الضرب بالعصا، وانقطاعه عند الاستغناء عنه. والتاء في اثنتا للتأنيث، وفي ثنتا للالحاق، وهذه نظير ابنة وبنت.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؛ أي: كل سبط من الأسباط الاثني عشر ﴿مشربهم﴾؛ أي: موضع شربهم، ونهرهم من تلك الأنهار التي جرت من الحجر، فكان كل سبط يأتي عينهم الخاصة بهم، لا يدخل سبط على غيره في شربه. والمشرب: إما مصدر، أو اسم مكان. والحكمة في ذلك: أن الأسباط كانت بينهم عصبية، ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وكل سبط يريد تكثير نفسه، فجعل الله لكل سبط منهم نهراً على حدة، ليستقوا منها، ويسقوا دوابهم؛ لكيلا يقع بينهم جدال، ومخاصمة. وكان ينبع من كل وجه من الحجر، ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثني عشر ميلاً. ثم إن الله تعالى، قد كان قادراً على تفجير الماء، وفلق البحر من غير ضرب، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب، حكمة منه للعباد، في وصولهم إلى المراد، ويترتب على ذلك ثوابهم، وعقابهم في المعاد. ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله، وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه

---

(١) روح البيان.

لمَّا أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر، ويُمَقِّر الخلَّ، ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخِّره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب، ويصيِّره ماءً بقوة التبريد، ونحو ذلك. قال القرطبي في تفسيره: ما ورد من انفجار الماء، ونبعه من يد نبينا محمد ﷺ، وبين أصابعه، أعظم في المعجزة، فإنا نشاهد الماء يتفجَّر من الأحجار آناء الليل، وأطراف النهار، ومعجزة نبينا ﷺ لم تكن لنبيٍّ قبل، إذ لم يخرج الماء من لحم ودم.

واعلم[1]: أنَّ المعجزات كلها من صنع الله تعالى، وهي سُنَّةٌ جديدة غير ما نشاهد كل يوم، فحركة الشمس، وطلوعها من المشرق مع عظمها، لا تحدث دهشةً؛ لتعودنا إياها، ولكن إذا طلعت من المغرب دون المشرق كان معجزة، وأحدث غرابةً، ودهشةً، مع أن الحركتين من صنع الله تعالى، لا فارق بينهما. ولئلا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة، يهيِّىء الله الظروف لتحمُّلها، ويهيِّىء النبيَّ لقبولها، ويهيِّىء الحاضرين لمشاهدتها، وقبولها. فأمر الله موسى بإدخال يده جيبه، وإخراجها بيضاء، تهيئةً لمعجزاته الأخرى. وليس للعقل أن يحكم أيُّ المعجزات أعظمُ من الأخرى؛ لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه، فلا يمكن الإنسانَ مهما ارتقى عقله، أن يصل إلى صنعها، بل هي فوق قدرته. أمَّا[2] المخترعات العلمية، فهي مبنيَّةٌ على السُّنن العلمية مهما ظهرت مدهشة، كالكهرباءِ، والمُسِرَّةِ ـ التليفون ـ وغاية ما هناك: أن العلماء سخروها لأغراضهم، فالذي يتكلم في أوروبا، ويسمع صوته في مكة المكرمة، أو في مصر مثلاً بوساطة الراديو، إنما استطاع ذلك؛ لأنه استخدم الهواء الذي يحمل أمواج الصوت إلى العالم كُلِّه، وهكذا حال سائر المخترعات، إنما هي كشف لناموس إلٰهي، يتكرَّر دائماً على يد كل إنسان، لكن المعجزات تجري على طراز آخر، فهي خلق سنة جديدة في الكون، ولا تتكرر إلا بإذن الله، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة، ولا يدرك طريقاً لصنعها. وقوله: ﴿كُلُوا۟﴾ على تقدير القول؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) الطب الحديث.

قلنا[1] لهم، أو قيل لهم: كلوا ﴿وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ الذي يأتيكم من غير كدٍّ منكم، ولا تعبٍ، بل هو من محض فضل الله تعالى، وإنعامه؛ أي: وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من الأنهار الاثني عشر كلِّها، فالأكل يتعلَّق بالأولين، والشرب بالثالث. وإنما لم يقل من رزقنا، كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ إيذاناً بأن الأمر بالأكل، والشرب لم يكن بطريق الخطاب، بل بواسطة موسى عليه السلام. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تعتدوا في الأرض حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: متمادين ومبالغين في الإفساد، والطغيان بمخالفة موسى عليه السلام. وقال البيضاوي: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2]؛ أي: لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيَّده به؛ لأن العثيَّ وإن غلب في الفساد؛ فإنه قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً، كقتل الخضر عليه السلام الغلام، وخرقه السفينة. انتهى. والأصل في العثيِّ: مطلق التعدِّي، وإن غلب في الفساد، فيكون التقييد بالحال تقييداً للعامل بالخاص. وقوله: ﴿اثنتا عشرة﴾ قرأ الجمهور ﴿عَشْرَةَ﴾ بسكون الشين. وقرأ مجاهد، وطلحة، وعيسى، ويحيى بن وثاب، وابن أبي ليلى، ويزيد بكسر الشين. وروى ذلك، نعيم السعيديُّ، عن أبي عمرو، والمشهور عنه: الإسكان. وتقدم أنها لغة تميم، وكسرهم لها نادرٌ في قياسهم؛ لأنهم يخفِّفون فعلاً، يقولون في نمر: نمرٌ.

وقرأ ابن الفضل الأنصاري[3]، والأعمش بفتح الشين. وروي عن الأعمش الإسكان، والكسر أيضاً. قال الزمخشري: الفتح لغة. وقال ابن عطية: هي لغة ضعيفةٌ. وقال المهدويُّ: فتح الشين غير معروف، وإضافة المشرب إليهم في قوله: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ لأنه لمَّا تخصص كلُّ مشرب بمن تخصَّص به، صار كأنه ملكٌ لهم، وأعاد الضمير في مشربهم على معنى كل، لا على لفظها، ولا يجوز أن يعود على لفظها، فيقال: مشربه؛ لأن مراعاة المعنى هنا لازمة؛ لأن كل قد

(١) روح البيان.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

أضيفت إلى نكرة، ومتى أضيفت إلى نكرة وجب مراعاة المعنى، فتطابق ما أضيفت إليه في عود ضميرٍ، وغيره. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ وقال الشاعر:

وكُلُّ أناس قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِم ... ونَحنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ

وقال:

وكُلُّ أُناس سَوْفَ تَدْخُل بينهم ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وتقول: كل رجلين يقولان ذلك، ولا يجوز في شيء من هذا مراعاة لفظ كل، وثمَّ محذوفٌ، تقديره: مشربهم منها؛ أي: من الاثنتي عشرة عيناً، ونصَّ على المشروب؛ تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة.

والحكمة في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أنهم[1] لما أمروا بالأكل، والشرب من رزق الله، ولم يُقيِّد ذلك عليهم بزمان، ولا مكان، ولا مقدار من مأكول، أو مشروب، كان ذلك إنعاماً، وإحساناً جزيلاً إليهم، واستدعى ذلك التبسط في المآكل، والمشارب، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية، والقوة الاستعلائية تنهاهم عمَّا يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الفساد، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها، وهو الفساد في الأرض. وقال ابن عباس، وأبو العالية معناه: ولا تسعوا. وقال قتادة: ولا تسيروا. وقيل: لا تتظالموا الشرب فيما بينكم؛ لأن كل سبط منكم قد جعل له شربٌ معلوم. وقيل معناه: لا تتمادوا في فسادكم. وقال ابن زيد: لا تطغوا. وهذه الأقوال كلها متقاربة. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الجمهور على أنها أرض التيه، ويجوز أن يريدها، وغيرها، ممَّا قدِّر أن يَصِلوا إليها، فينالها فسادهم، ويجوز أن يريد الأرضين كُلَّها. وأل لاستغراق الجنس، ويكون فسادهم فيها، من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات، والبطر يؤذن بانقطاع الغيث، وقحط البلاد،

---

(١) البحر المحيط.

ونزع البركات، وذلك انتقامٌ يعُمُّ الأرض بالفساد.

وحاصل المعنى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾. أيْ وقلنا لهم[1]: كلوا مما رزقناكم من المن والسلوى، واشربوا ممَّا فجرنا لكم من الماء من الحجر الصَّلْد. وقد عبَّر عن الحال الماضية بالأمر؛ ليستحضر السامع صورة أولئك القوم في ذهنه مرة أخرى، حتى كأنَّهم حاضرون الآن، والخطاب موجَّه إليهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ أي: ولا تنشروا فسادكم في الأرض، وتكونوا قدوةً لغيركم فيه، وقد جاء هذا النهي عقب الإنعام عليهم بطيب المأكل، والمشرب؛ خيفة أن ينشأ الفساد بزيادة التبسط فيهما؛ ولئلا يقابل النعم بالكفران، وقد أراد موسى عليه السلام أن يجتث أصول الشرك التي تغلغلت جذورها في نفوس قومه، ويربأ بهم عن الذُّلِّ الذي ألفته نفوسهم، بتقادم العهد، واستعباد المصريين إياهم، ويعودهم العزة، والشَّمم، والإباء بعبادة الله وحده. وكانوا لا يخطون خطوةً إلا اجترحوا خطيئةً، وكُلَّما عرض لهم شيءٌ من مشاق السفر، برموا بموسى، وتحسَّروا على فراق مصر، وتمنَّوا الرجوع إليها، واستبطئوا وعد الله، فطلبوا منه أن يجعل لهم إلٰهاً غير الله، وصنعوا عجلاً وعبدوه، وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدوا بها، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين، كما قصه الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ فضرب الله سبحانه عليهم التيه أربعين سنة، حتى ينقرض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية، ويخرج جيلٌ جديدٌ يتربَّى على العقائد الحقَّة، وفضائل الأخلاق، فتاهوا هذه المدة، وقضى الله أمراً كان مفعولاً.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) المراغي.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب، معطوف على نعمتي ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ متعلق بقال، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ، تقديره: واذكروا وقت قول موسى لقومه ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون، وجملة النداء في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، تقديره: إنكم ظالمون أنفسكم، وجملة إن في محل النصب مقول قال، على كونها جواب النداء ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بظلمتم، والباء سببية، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، وهو من اتخذ المتعدي إلى مفعولين ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ مفعول أول للمصدر، والثاني محذوف، تقديره: إلٰهاً ﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ الفاء عاطفة تفريعية ﴿توبوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتوبوا، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة إن، على كونها مقولاً لقال ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟﴾ الفاء حرف عطف وتفصيل ﴿اقتلوا﴾ فعل وفاعل ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة توبوا، عطف تفصيل على مجمل، على كونها مقولاً لقال ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بخير ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بخير أيضاً ﴿فَتَابَ﴾ الفاء عاطفة سببية على محذوف، تقديره: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم ﴿تاب﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الباريء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بتاب، والجملة الفعلية معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ على كونها مضافاً إليه لإذ ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبر أول، لأن الرحيم خبر ثان لها، أو صفة للتواب، ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ خبره و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة مسوقة؛ لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، على كونها مفعولاً به لاذكروا، كما مرّ مراراً، تقديره: وقت قولكم يا موسى ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية، مبني بضم مقدر منع من ظهوره التعذر؛ لأنه اسم مقصور، وجملة النداء في محل النصب مقول لقلتم ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب ﴿نُّؤْمِنَ﴾ فعل مضارع منصوب بلن، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن يعود على قوم موسى ﴿لَكَ﴾ متعلق بنؤمن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلتم ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿نَرَى﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى الجارة، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة؛ للتخلص من التقاء الساكنين، منع من ظهورها التعذر؛ لأنه فعل معتل بالألف، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن يعود على قوم موسى، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به؛ لأن رأى هنا بصرية ﴿جَهْرَةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: حتى نرى الله رؤية جهرة، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى بمعنى إلى، تقديره: إلى رؤيتنا الله جهرة، الجار والمجرور متعلق بنؤمن؛ لأنه فعل مضارع ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿أخذتكم﴾ فعل ومفعول به، والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فاعل، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قلتم، على كونها مضافاً لإذ ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية ﴿أنتم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، ومتعلق النظر محذوف، تقديره: وأنتم تنظرون ما حل بكم، والجملة الإسمية في محل النصب حال من ضمير المخاطبين، تقديره: حال كونكم ناظرين ما حل بكم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول به،

والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة قوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾.
﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق ببعثناكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف في محل النصب اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، تقديره: لعلكم شاكرون، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بلعل التعليلية المتعلقة ببعثناكم، تقديره: ثم بعثناكم لشكركم إيانا على نعمة بعثكم. ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بظللنا ﴿ٱلْغَمَامَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر، معطوفة على جملة بعثنا.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على بعثناكم ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بأنزلنا ﴿ٱلْمَنَّ﴾ مفعول به ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ معطوف عليه ﴿كُلُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية مقول لقول محذوف معطوف على أنزلنا، تقديره: وقلنا لكم كلوا ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بكلوا ﴿طَيِّبَـٰتِ﴾ مضاف ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر مضاف إليه ﴿رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما رزقناكموه، وهو العائد على الموصول، والجملة الفعلية صلة الموصول، ورزق هنا بمعنى أعطى يتعدى إلى مفعولين. ﴿وَمَا﴾ الواو عاطفة ﴿مَا﴾ نافية ﴿ظَلَمُونَا﴾ فعل ماض وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فظلموا أنفسهم بكفران النعم، وما ظلمونا على كونها مقولاً لمحذوف، تقديره: قال الله تعالى: فظلموا أنفسهم. إلخ. ﴿وَلَـٰكِن﴾ الواو عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل؛ لتخفيف النون ﴿كَانُوٓا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول مقدم ليظلمون، وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، تقديره: ولكن كانوا ظالمين أنفسهم، وجملة كان معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، كما مرّ مراراً، تقديره: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي، ووقت قولنا لكم. . . إلخ. ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة إذ إليها ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلنا ﴿هَٰذِهِ﴾ ها حرف تنبيه، ذه: اسم إشارة في محل النصب على الظرفية عند سيبويه، وعلى المفعول به عند الأخفش، كما في «الفتوحات» ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ نعت لهذه، أو عطف بيان منه، أو بدل عنه. ﴿فَكُلُوا۟﴾ الفاء عاطفة ﴿كلوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ادخلوا ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بكلوا ﴿حَيْثُ﴾ ظرف مكان في محل النصب، مبني على الضم ﴿شِئْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لحيث، والظرف متعلق بمحذوف حال من فاعل كلوا؛ أي كلوا منها حال كونكم متنقلين في أي مكان شئتم ﴿رَغَدًا﴾ مفعول مطلق منصوب بكلوا، لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلا رغداً ﴿وَٱدْخُلُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلْبَابَ﴾ مفعول به على السعة، والجملة معطوفة على كلوا ﴿سُجَّدًا﴾ حال من فاعل كلوا؛ أي: متواضعين متطامين، كحال الساجد ﴿وَقُولُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ادخلوا ﴿حِطَّةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: مسألتنا حطة، أو أمرنا حطة، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قولوا، والأصل فيها النصب؛ لأن معناها حط عنا ذنوبنا، ولكنه عدل إلى الرفع؛ للدلالة على ديمومية الحط، والثبات عليه ﴿نَّغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير مستتر فيه؛ تقديره: نحن يعود على الله، والجملة الفعلية جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بنغفر ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ مفعول به ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ الواو عاطفة، والسين حرف استقبال ﴿نزيد﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مفعول به منصوب بالياء، والجملة معطوفة على جملة نغفر، على كونها جواب الطلب لا محل لها من الإعراب، وإنما لم يجزم؛ لأن الطلب عامل ضعيف فلا يقوى على العمل في المعطوف، أو الجملة مستأنفة.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ﴾ الفاء استئنافية، أو فصيحية؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم أمروا بقول حطة، وأردت بيان ما قالوا، فأقول لك: بَدَّل الذين ظلموا ﴿بَدَّل﴾ فعل ماض ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿ظَلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿قَوْلًا﴾ مفعول به منصوب ﴿غَيْرَ﴾ صفة لـ﴿قولاً﴾ منصوب وهو مضاف ﴿ٱلَّذِى﴾ مضاف إليه ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بقيل، والجملة صلة الموصول ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿أنزلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة بَدَّل، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ متعلق بأنزلنا ﴿ظَلَمُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿رِجْزًا﴾ مفعول به لأنزلنا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لرجزاً ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر وسبب ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَفْسُقُونَ﴾ خبره، وجملة كان من اسمها وخبرها، صلة (ما) المصدرية، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكونهم فاسقين، أو بفسقهم الجار والمجرور متعلق بأنزلنا.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ أصل قال: قَوَلَ بوزن فعل، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، وهو أجوف واويٌّ. يا قوم! أصله: يا قومي، حذفت ياء المتكلم، وبقيت الكسرة دالَّة عليها، وهكذا حيثما ورد في القرآن. والقوم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده امرؤٌ، وقياسه: أن لا يجمع، وشذَّ جمعه حيث قالوا: أقوام، وجمع جمعه قالوا: أقاويم. قيل: يختصُّ بالرجال. قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ولذلك قابله بقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ وقال زُهير:

وَمَا أدْرِي وسوف إخال أدْرِي ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

وقال آخر:

قَـوْمِـي هُـمُ قَـتَـلُـوا أُمَـيْـمَ أخَـي   فَـإذَا رَمَـيْـتُ يُـصِـيـبُـنِـي سَـهْـمِـي

وقال آخرُ:

لاَ يَـبْـعُـدَنَّ قَـومـي الـذيـنَ هُـمُ   سُـمُّ الـعِـدَاة وآفَـةُ الـجُـزْرِ

وقيل: لا يختصُّ بالرجال، بل يُطلق على الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾.

والمرسل إليهم يشمل النساء والرجال، وصاحب هذا القيل يقول: أمَّا إذا قامت قرينةٌ على التخصيص، فيبطل العموم، ويكون المراد ذلك الشيء المخصَّص. والقول الأول أصوب، ويكون اندراج النساء في القوم على سبيل الاستتباع، وتغليب الرجال على النساء، والمجاز خيرٌ من الاشتراك. وسُمِّي الرجال قوماً؛ لأنهم يقومون بالأمور اهـ. من «البحر».

﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ البارىء: هو الخالق. يقال: برأ الله الخلق يبرأُ، إذا خلقهم. وفي الجمع بينهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ما يَدُلُّ على التباين، إلا أن يحمل على التوكيد. وقد فرَّق بعض الناس بينهما، فقال: البارىء: هو المبدع المحدث. والخالق: هو المقدِّر الناقل من حال إلى حال. وقال بعض العلماء: برأ، وأنشأ، وأبدع نظائر. وأصل مادة بَرَأ يَدُلُّ على انفصال شيء من شيءٍ، وتميُّزه عنه. يُقَالُ: برأ المريض من مرضه، إذا زال عنه المرض وانفصل، وبرىءَ المَدينُ من دينه، إذا زال عنه الدين وسقط. ومنه البارىء في أوصاف الله تعالى؛ لأنه الذي أخرج من العدم، (وفصلهم عنه إلى الوجود). وفي «المختار»: أنَّ بَرِىء المريض، من بابَيْ سَلِم، وقَطَع، وأنَّ بَرَأ الله الخلق، من باب قطع لا غير. اهـ.

﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ أمرٌ من تاب يتوب، والأمر قطعةٌ من المضارع، وأصل مضارعه يَتْوُبون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى التاء، فسكنت الواو إثر ضمة، فصارت حرف مد، فلما بني منه الأمر، حذفت نون الرفع، وحرف المضارعة،

ودخل عليه الفاء العاطفة ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ القتل: إزهاق الروح بفعل أحدٍ، من طعنٍ، أو ضربٍ، أو ذبحٍ، أو خنقٍ، أو ما شابه ذلك، وأمَّا إذا كان من غير فعل، فهو موت هلاك ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ﴾ أصله: أَخْيَرُ صيغة تفضيل، ولمَّا كثر استعمال هذه اللفظة على لسان العرب، حذفوا همزها تخفيفاً، وسكَّنوا الياء، ونقلوا حركتها إلى الخاء، وكذلك فعلوا في شر أصله: أَشْرَرُ بوزن أفعل، خففوه لما كثر استعماله، بنقل حركة الراء الأولى إلى الشين، وإدغامها في الراء الثانية، وحذفوا الهمزة، فقالوا: شرٌّ وفي «البحر» ﴿خَيۡرٞ﴾ هي أفعل التفضيل، حذفت همزتها شذوذاً في الكلام، فنقص بناؤها، فانصرفت. وقد نطقوا بالهمزة في الشعر، كما في قوله: بلالٌ خير الناس وابن الأَخْيَرِ. وتأتي خير أيضاً لا بمعنى التفضيل، تقول: زيدٌ خيرٌ، تريد بذلك فيه خصلة جميلة، ومخفَّفاً من خير، تقول: رجل خيرٌ؛ أي: فيه خيرٌ، ويمكن أن يكون من ذلك ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أصله؛ تَوَبَ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ قلتم بوزن فلتم، وذلك أنَّ أصله: قَوَلَ بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم لَّما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك؛ سكن آخره لبنائه على السكون، فالتقى ساكنان الألف ولام الفعل، فحذفت الألف عين الفعل، فصار اللفظ هكذا. قلت: فاحتيج للتنبيه على نوع عين الفعل المحذوفة، هل هي واوٌ؟ أو ياءٌ؟ فحذفت حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة التي هي الواو، فضم أول الفعل، فقيل: قلت: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ أصله: نَرْأَي بوزن نَفْعَل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء فاء الفعل، ثم حذفت الهمزة؛ تخفيفاً، فقيل: نرى، وهذا الحذف لعين هذا الفعل، مطردٌ في الماضي من الرباعي، والمضارع منه، والأمر، كما تحذف من الثلاثي في المضارع، والأمر، وهذا الحذف الذي ذكرناه، هو إذا كان مدلول رأى الإبصار في يقظةٍ، أو منامٍ، أو الاعتقاد، وأمَّا إذا كانت رأى بمعنى أصاب رئته، فلا تحذف الهمزة، بل تقول: رآه يراه؛ أي: أصاب رئته. نقله صاحب كتاب الأمر ﴿جَهۡرَةٗ﴾ الجهرة العلانية، ومنه الجهر ضدُّ السر، وفتح عين هذا النحو مسموعٌ

عند البصريين، مقيسٌ عند الكوفيين، يقال: جهر الرجل الأمر، إذا كشفه، وجَهْرَتَ الركيَّة، إذا أخرجتَ ما فيها من الحمأة، وأظهرت الماء. قال الشاعر:

إذا وَرَدْنَـا آجـنـاً جَـهَـرْنَـا أو خَـالِـيـاً مِـنْ أَهْـلِـهِ غَـمَـرْنـا

والجَهْوَرِيُّ: العالي الصوت، وصوتٌ جهيرٌ عالٍ، ووجهٌ جهيرٌ ظاهر الوضاءة والأجهر: الأعمى. سمّي على الضد ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ البعث: الإحياء، وأصله: الإثارة. قال الشاعر:

أُنِـيـخُـهـا مـا بـدا لـي ثُـمَّ أَبْـعَـثُـهـا كَـأَنَّـهـا كَـاسِـرٌ فِـي الـجَـوِّ فَـتْـخَـاءُ

وقال آخر:

وفـتـيـان صـدقٍ قـد بـعـثـت بـسـحـرةٍ فَـقَـامُـوا جـمِـيـعـاً بَـيْـنَ عَـانٍ ونَـشْـوان

وقيل أصله: الإرسال، ومنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ وتأتي بمعنى الإفاقة من الغَشْي، أو النوم، ومنه ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ ظلّل بوزن فعل المضعف، مشتق من الظل، والظِلُّ أصله: المنفعة. والسحابة: ظُلَّةٌ لما يحصل تحتها من الظل، ومنه قيل: السلطان ظِلُّ الله في الأرض. قال الشاعر:

فَلَوْ كُنْتَ مَولَى الظِلِّ أو فِي ظِلالِهِ ظَلَمْتَ ولَكِنْ لاَ يَدَيْ لَكَ بِالظُّلْمِ

والغمام: اسم جنسٍ يُفرق بينه وبين مفرده هاء التأنيث، تقول: غمامةٌ، وغمامٌ، نحو: حمامةٍ وحَمامٍ، وهو السَّحابُ. وقيل: ما ابْيض من السحاب، وسُمِّي غماماً؛ لأنه يَغُمُّ وجه السماء؛ أي: يستره، ومنه: الغَمُّ، والغَمَمُ الأغَمُّ، والغُمَّة، والغُمَّى، والغَمَّاءُ. وغُمَّ الهلال، والنبت الغميم: هو الذي يستر ما يسامته من وجه الأرض ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ والمنُّ مصدر مننت؛ أي: قطعت. والمنُّ: الإحسان. والمَنُّ: صمغةٌ تنزل على الشجر حلوةٌ، وفي المراد به في الآية أقوالٌ: مرَّت في مبحث التفسير ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ اسم جنس واحدها سلواةٌ، قاله الخليل، والألف فيه للإلحاق لا للتأنيث، نحو: علقىٰ وعلقاةٍ، إذ لو كانت للتأنيث لما أُنِّث بالهاء. قال الشاعر:

وإنّـي لـتـعـروني لِـذِكْـرَاكِ سَـلْـوَةٌ   كَـمَا انْتَقَضَ السَّلواةُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ

وقال الكسائي: السلوى واحدةٌ، وجمعها سلاوى. وقال الأخفش: جمعه وواحده بلفظ واحد. وقيل: جمع لا واحد له من لفظه ﴿كُلُوا﴾ هذا أمرٌ من مادة أكل يأكل، كخرج يخرج، والقياس في بناء الأمر منه حذف حرف المضارعة، وتسكين فائه، واستجلاب همزة الوصل؛ للتوصل إلى النطق بالساكن فاء الكلمة، لكن هذا اللَّفْظُ، ولفظ الأمر من أمر يأمرُ، ولفظ الأمر من أخذ يأخذ، نطقت بها العرب هكذا شذوذاً عن القياس، فسمعت عنهم هكذا، والسماع مانع القياس، كما هو معروف، فوزن الكلمات الثلاث عُلْ. قال ابن مالك في لاميَّة الأفعال:

وشَـذَّ بـالـحَـذْفِ مُرْ وخُـذ وكُـلْ وفَـشَـا   وأمـر ومُـسْـتَـنْـدر تـمـيـمُ خُـذْ وَكُـلا

﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ جمع طيب، والطيب فيعلٌ، من طاب يطيب، وهو اللذيذ من كل شيء ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ والدخول معروف، وفعله دخل يدخل، وهو مما جاء على يفعل بضم العين، وكان القياس فيه أن يفتح؛ لأنَّ وسطه حرف حلق، كما جاء الكسر في ينزع، وقياسه أيضاً الفتح. ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ المدينة من قريت؛ أي: جمعت، سميت بذلك؛ لأنها مجتمع الناس على طريق المساكنة. وقيل: إن قَلُّوا قيل لها قرية، وإن كثروا قيل لها مدينة. وقيل: أقل العدد الذي تُسمَّى به قريةٌ ثلاثة فما فوقها، ومنه: قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه. والمقراة الحوض، ومنه القِرَى، وهو الضيافة. ولغة أهل اليمن القرية بكسر القاف، ويجمعونها على قِرًى بكسر القاف، نحو: رشوة ورشا، وأما قرية بالفتح، فجمعت على قرى بضم القاف، وهو جمعٌ على غير قياس ﴿من حيث شئتم﴾ أصله: شَيِىءَ بوزن فعِل بكسر العين، يفعل بفتحها، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار شاء، فأسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك فبني على السكون، فصار اللفظ شاءت، فالتقى ساكنان فحذفت الألف، فصار اللفظ شأت، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل المحذوفة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليها حركة العين المحذوفة، وهي هنا الكسرة؛ لأن العين المحذوفة ياء، فقيل: شئت بوزن فِلْت ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ والباب معروف وهو المكان الذي

يدخل منه، وجمعه أبواب، وهو قياس مطرد، وسمع جمعه على أبوبةٍ ﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد، وهو قياس مطرد في فاعل، وفاعلةٍ، الوصفين الصحيحي اللام ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أمرٌ من قال يقول، والأصل: يَقْوُلون بوزن يفعُلون، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمةٍ، فصارت حرف مد، ولمَّا بني الأمر من المضارع، حذفت حرف المضارعة، ونون الرفع، فقيل: قولوا بوزن فُعْلوا. وقال أبو حيان: كل أمرٍ من ثلاثي، اعتلت عينه فانقلبت ألفاً في الماضي، تسقط تلك العين منه إذا أُسند لمفرد مذكر، نحو: قُلْ، وبِعْ، أو لضمير إنَاث، نحو: قُلْنَ وبِعْن، فإن اتصل به ضمير الواحدة، نحو: قولي، أو ضمير الاثنين، نحو: قولا، أو ضمير الذكور، نحو: قولوا، ثبتت تلك العين، وعلة الحذف والإثبات مذكورة في كتب النحو، والصرف ﴿حِطَّةٌ﴾ بوزن فعلةٍ من حط، وهو مصدر كالحط، وقيل: هو هيئةٌ وحالٌ، كالجِلسة، والقِعدة، والحطُّ: الإزالة، يقال: حططت عنه الخراج أزلته عنه ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ الغفر، والغفران الستر، وفعله غفر يغفر بفتح العين في الماضي، وكسرها في المضارع، ومنه المغفر لستره الرأس، والجمُّ الغفير؛ أي: يستر بعضهم بعضاً من الكثرة ﴿خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾ جمع خطيئة بوزن فعيلة، والياء فيه زائدةٌ في المفرد، فلما جمعت جمع تكسير، أبدلت الياء الزائدة في المفرد همزةً، فصارت خطائىء بهمزتين، الأولى مبدلة من ياء فعيلةٍ الواقعة حرف مدٍ ثالثاً زائداً، كما في صحيفةٍ، وكتيبة، فالقياس إبدال هذه الياء همزةً، على حدِّ قول ابن مالك في «الخلاصة» في باب التصريف:

الـمَـدُّ زِيْـدَ ثَـالِـثَـاً فـي الـواحـد   هَـمْـزاً يُـرَى فـي مِـثْـل كَـالـقَـلائِـدِ

ثم أبدلت الهمزة الثانية ياء؛ لتطرفها، وانكسار ما قبلها، فصارت خطائي، ثم قلبت كسرة الهمزة فتحة؛ للتخفيف، فصارت خطاءي فأبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها، فصارت خطاءا، ثم أبدلت الهمزة ياء، فقيل: خطايا بعد خمس عمليات تصريفية. وقال أبو حيان: الخطيئة فعيلة من الخطأ، والخطأ: العدول عن القصد، يقال: خطىء الشيء أصابه بغير قصدٍ، وأخطأ إذا تعمَّد، وأما خطايا فجمع خطيَّة مشددة عند الفراء، كهدية، وهدايا، وجمع خطيئة المهموز عند سيبويه والخليل، وعند سيبويه أصله: خطائي، مثل: صحائف وزنه

فعائل، ثم أعلت الهمزة الثانية بقلبها ياءً، ثم فتحت الأولى التي كان أصلها ياء المد في خطيئة، فصار خطأي، فتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصار خطاءا فوقعت همزة بين ألفين، والهمزة شبيهةٌ بالألف، فصار كأنه اجتمع ثلاثة أمثال، فأبدلوا منها ياءً، فصار خطايا، كهدايا، ومطايا. وعند الخليل أصله: خطايىءَ، ثم قلب، فصار خطائي على وزن فعالى المقلوب من فعائل، ثم عمل فيه العمل السابق في قول سيبويه. انتهى.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ التبديل: تغيير الشيء بآخر. تقول: هذا بدل هذا؛ أي: عوضه، ويتعدى لاثنين، الثاني أصلُه حرفُ جر. تقول: بَدَّلت ديناراً بدرهم؛ أي: جعلت ديناراً عوض درهم، وقد يتعدَّى لثلاثةٍ، فتقول: بَدَّلت زيداً ديناراً بدرهم؛ أي: حصلت له ديناراً عوضاً من درهم ﴿قِيلَ﴾ أصله: قُوِلَ بضم أوله وكسر ثانيه، استثقل الانتقال من ضمة إلى كسرة، فحذفت حركة فاء الفعل، ونقلت إليه حركة العين، فسكنت الواو إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد، وهكذا كُلُّ من شاكل هذا النوع من معتل العين، إلا أن الياء تسلم فيما عينه ياءٌ، كجيىء، وبيع، وتقلب الواو ياء فيما عينه واو، كقيل. ﴿رِجْزًا﴾ الرجز: العذاب، وتكسر راؤه وتضم، والضم لغة بني الصُّعدات.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ والاستسقاء: طلب سقيا الماء، والطلب أحد المعاني التي سبق ذكرها في الاستفعال في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأصله: استسقَيَ بوزن استفعَلَ، قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أصل قلنا: قولنا، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فلما أسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرك، وبني آخره على السكون، التقى ساكنان الألف واللام، فحذفت الألف، وحذفت أيضاً حركة فاء الفعل، وعوض عنها حركةٌ مجانسةٌ للعين المحذوفة، فصار قلنا، كما مر ﴿بِّعَصَاكَ﴾ العصا الألف فيها منقلبةٌ عن واو، لتثنيته على عصوين، وقولهم: عصوته؛ أي: ضربته بالعصا، ويجمع على أفعل شذوذاً، فقالوا: أعص أصله: أعصو، وعلى فعول قياساً. قالوا: عصيٌّ أصله: عصوٌّ، يتبع حركة العين حركة الصاد و﴿ٱلْحَجَرَ﴾ الجسم الصلب المعروف عند الناس، ويجمع على أحجار وحِجار، وهما جمعان مقيسان

فيه، وقالوا فيه: حجارة بالتاء ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ والانفجار: انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر، والفجور، وهو الانبعاث في المعصية، كالماء، وهو مطاوع فعل. يقال: فجر فانفجر، والمطاوعة أحد المعاني التي جاء لها انفعل ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ اثنتان تأنيث اثنين، وكلاهما له إعراب المثنى، وليس بمثنى حقيقةً؛ لأنه لا يفرد، فلا يقال: إثنٌ ولا إثنةٌ، ولاَمُهُ ما محذوفة وهي ياء؛ لأنه من ثنيت العشرة بإسكان الشين لغة الحجاز، وبكسرها لغة تميم، والفتح فيها شاذ غير معروف، وهو أول العقود ﴿عَيْنًا﴾ والعين لفظٌ مشترك بين منبع الماء، والعضو الباصر، والسحابة تقبل من جهة القِبْلة، والمطر يمطر خمساً، أو ستاً ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ والأناس اسم جمع لا واحد له من لفظه، كما مر ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ والمشرب مفعلٌ من الشراب، يكون للمصدر، والزمان، والمكان، ويطَّرد من كلِّ ثلاثي متصرف مجرد لم تكسر عين مضارعه، سواء صحت لامه، كـ: سرق، ودخل، أو أُعِلَّت، كرمى، وغزا، وشذَّ من ذلك ألفاظٌ ذكرها الصرفيون في باب المفعل، كما بسطنا الكلام عليها في شرحنا «مناهل الرجال على لامية الأفعال».

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ قيل أصل هذه الكلمة: عثى يعثي، كرمى يرمي. وقيل أصلها: عثى يعثىٰ، كسعى يسعىٰ. وقيل أصلها: عثى يعثى، كرضى يرضى. وقيل أصلها: عثا يعثو، كسما يسمو، والموجود في القرآن يوافق الثانية والثالثة من اللغات، وعليه يكون التغيير الذي وقع فيها، أنَّ واو الجماعة اتصل بلام الفعل، سواء أكانت من باب سعى، أم من باب رَضِيَ، تحركت الياء وفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف. أمَّا التي من باب رمى وسما، فلا داعي للكلام عليهما، لعدم ورودهما في القرآن، والعثو والعثيُّ أشدُّ الفساد. يقال: عثا يعثو عثواً، وعثياً، وعثى يعثى عثيا، وعثى يعثى عثياً لغةٌ شاذَّةٌ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ للشفقة عليهم.

ومنها: التعرض لعنوان البارئية في قوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾؛ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، ومن الغباوة منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خلقهم بلطيف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة. اهـ. «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ علاقته اعتبار ما يؤول إليه؛ أي: أسلموها للقتل تطهيراً لها.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ والالتفات هنا من التكلم الذي يقتضيه سياق الكلام إلى الغيبة، إذ كان مقتضى المقام أن يقول: فوفقتكم فتبت عليكم، وفيه أيضاً مجاز بالحذف، تقديره: ففعلتم ما أمرتم به، فتاب عليكم بارئكم.

ومنها: العدول من ضمير الغائبين العائد إلى القوم، إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ حيث لم يقل: فتاب عليهم العائد إلى الأسلاف؛ إشعاراً بأنها نعمة، أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم.

ومنها: تقييد البعث بكونه من بعد الموت، مع أن البعث لا يكون إلا بعد الموت؛ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي؛ ولدفع ما عساه يتوهم أنَّ بعثهم كان بعد إغماءٍ، أو بعد نومٍ.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ أي: قلنا لهم كلوا، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، تقديره: فظلموا أنفسهم بكفرهم تلك النعمة، وما ظلمونا بذلك دل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ومنها: الجمع بين صيغتي الماضي والمضارع في قوله: ﴿ظَلَمُونَا﴾ وقوله: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدلالة على تماديهم في الظلم، واستمرارهم على الكفر.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدلالة على القصر الذي يقتضيه النفي السابق، وفيه أيضاً ضرب تهكم بهم.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: فأنزلنا عليهم؛ لزيادة التقبيح، والمبالغة في الذم، والتقريع.

ومنها: تنكير ﴿رِجْزًا﴾؛ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿كلوا من رزق الله﴾؛ تعظيماً للمنَّة والإنعام، وإيماءً إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب، ولا مشقةٍ.

ومنها: ذكر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مبالغةً في تقبيح الفساد.

ومنها: الإتيان بالحال؛ لتأكيد معنى عامله في قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّ معناها قد فُهِم من عاملها، وحسن ذلك اختلاف اللفظين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنها في تعداد قبائحهم، كسوابقها. والحاصل منها: أنهم لما[1] سئموا من الإقامة في التيه، والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها، وعن العوائد التي عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوفهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم، وأكثر أهل الظاهر من المفسرين، على أن هذا السؤال كان معصية، قالوا: لأنهم كرهوا إنزال المن والسلوى، وتلك الكراهة معصية؛ ولأن موسى وصف ما سألوه بأنه أدنى، وما كانوا عليه بأنه خير، وبأن قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ هو على سبيل الإنكار. ذكره في «البحر».

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما

---

(١) البحر المحيط.

قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر الكفرة من أهل الكتاب، وما حل بهم من العقوبة، أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم، دالاً على أنه يجزي كلاً بفعله.

وعبارة المراغي هنا مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر[2] باللائمة على اليهود في الآيات السالفة، وبين ما حاق بهم من الذل والمسكنة، وما نالهم من غضب الله جزاء ما اجترحوه من السيئات، من كفر بآيات الله تعالى، وقتل للنبيين، وعصيان لأوامر الدين، وترك لحدوده، ومخالفة لشرائعه. ذكر هنا حال المستمسكين بحبل الله ـ الدين المتين ـ من كل أمة، وكل شعب، ممن اهتدى بهدي نبي سابق، وانتسب إلى شريعة من الشرائع الماضية، وصدق في الإيمان بالله واليوم الآخر، وسطع على قلبه نور اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ...﴾ الآيتين، ذكر[3] سبحانه في هاتين الآيتين، جناية أخرى حدثت من أسلاف المخاطبين وقت التنزيل، ذاك أنه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التي ذكرها بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. إلخ. فقبلوها، وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم؛ رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم، وطلب إليهم التمسك بالكتاب، والعمل بما فيه بالجد والنشاط كي يُعِدُّوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه، ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك، وانصرفوا عن طاعته، ولولا لُطف الله بهم لاستحقوا العقاب في الدنيا، وخسروا سعادة الآخرة، وهي خير ثواباً، وخير أملاً، لكن وفقهم الله تعالى بعد ذلك فتابوا، ورحمهم فقبل توبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ...﴾ الآيتين، وفي هاتين الآيتين وما يتلوهما بعد تعدادٍ لنكث العهود، والمواثيق التي أخذت على بني إسرائيل، الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، وحل بهم جزاء ما عملوا، من

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

مسخهم قردة وخنازير، فأجدر بسلائلهم ـ الذين كانوا في عصر التنزيل تتخلَّل دورهم دور الأنصار ـ أن لا يجحدوا نبوة محمد ﷺ، وأن لا يصرُّوا على كفرهم، وعدم التصديق بما جاء به خوفاً من أن يحل بهم ما حلَّ بأسلافهم، مما لا قبل لهم به من غضب الله تعالى، فمن عهودهم التي نكثوها: أنهم اعتدوا يوم السبت. ذاك أنَّ موسى عليه السلام حظَّر عليهم العمل في هذا اليوم، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم، والاجتهاد في الأعمال الدينية، إحياءً لسلطان الدين في نفوسهم؛ وإضعافاً لشرههم في التكالب على جمع حطام الدنيا وادخاره، وأباح لهم العمل في ستة الأيام الأخرى، لكنهم عصوا أمره، وتجاوزوا حدود الدين، واعتدوا في السبت فجازاهم الله تعالى بأشد أنواع الجزاء، فخرج بهم من محيط النوع الإنساني، وأنزلهم أسفل الدركات، فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم، وليتهم كانوا في خيارها، بل جعلهم في أخسِّ أنواعها، فهم كالقردة في نزواتها، والخنازير في شهواتها، مبعدين من الفضائل الإنسانية بأنواع المنكرات جهاراً عياناً بلا خجل، ولا حياء، حتى احتقرهم كرام الناس ولم يروهم أهلاً لمعاشرة ولا معاملة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم، والعدني في مسنده من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: قال سلمان: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم؟ فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿يَحْزَنُونَ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! حين كنتم في التيه تأكلون من المن والسلوى، فمللتم منه، وذكرتم عيشاً كان لكم بمصر، وقلتم لنبيكم عليه السلام ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾؛ أي: على نوع واحد من الطعام الذي هو المن والسلوى، ولن نكتفي به. وهذا[1] تذكير لجناية أخرى لأسلاف بني

---

(١) روح البيان.

إسرائيل، وكفرانهم لنعمة الله عز وجل. خاطبهم تنزيلاً لهم مكان آبائهم؛ لما بينهم من الاتحاد، وكان هذا القول منهم في التيه حين سئموا من أكل المن والسلوى؛ لكونهما غير مبدلين، والإنسان إذا داوم شيئاً واحداً سئمه، وتذكروا عيشهم الأول بمصر؛ لأنهم كانوا أهل فلاحةٍ، فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم، فقالوا: يا موسى! لن نصبر على طعام واحد غير مبدَّلٍ بنوع آخر، والطعام ما يتغذى به. وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان؛ لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فيصيران طعاماً واحداً، أو أريد بالواحد نفي التبدل والاختلاف، ولو كان على مائدة الرجل ألوانٌ عدَّةٌ يداوم عليها كل يوم لا يبدلها. قيل: لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً.

وفي «تفسير البغوي» والعرب تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب. وقيل: المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء، فلا يقدر بعضنا على الاستعانة ببعض، لاستغناء كل واحد بنفسه، وكان فيهم أوَّل من اتخذ العبيد والخدم ﴿فَٱدْعُ لَنَا﴾؛ أي: فاسأَلْ لأَجْلِنا ﴿رَبَّكَ﴾ أن يخرج لنا مِنْ نباتِ الأرض. ولغةُ بني عامر بكسر العين، جَعَلُوا دعا من ذوات الياء، كرمى يرمي؛ والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء؛ أي: إن دَعَوته ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ أي يُظْهر لنا ويوجد شيئاً ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ ومفعولُ يُخْرِجْ محذوف، كمَا قدَّرْنَا والجزمُ في جواب الطلب، فإِنَّ دَعْوَتَه سببُ الإجابة؛ أي: إن تدع لنا ربك يخرج لنا شيئاً مما تنبته الأرض من الحبوب والبقول، فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه، ونريد ما تخرجه الأرض كعادتنا في مصر. وفي قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[1] إسناد مجازي بإقامة القابل وهو الأرض، مقام الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، ومِن تبعيضية، وما موصولة، ومن في قوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ بيانية واقعة موقع الحال من الضمير العائد إلى ما المحذوف؛ أي: مما تنبته الأرض، أو من ما الموصولة؛ أي: حال كون ذلك النابت من

---

(١) روح البيان.

بقول الأرض وحبوبها؛ أي: من أطايب بقولها. ويجوز أن تكون بدلاً من (ما) الأولى بإعادة الجار، فمِن على هذا تبعيضية، كهي في مما تنبت. والبقل: كل ما تنبته الأرض من الخضر، أو كل نبات لا يبقى له ساق، والمراد أصناف البقول التي يأكلها الناس، كالكراث، والسلق، والخص، والملوخية، والنعناع، والفجل، وشبهها ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ وقرأ[1] يحيىٰ بن وثاب، وطلحة بن مصرف، وغيرهما ﴿وقُثائها﴾ بضم القاف وهي لغة فيه. وقرأ الجمهور بكسرها وهي المشهورة، والقثاء: شيءٌ يشبه الخيار معروف، ولكن المراد به هنا: كلُّ شيء من خضرواتها، كالبطيخ، والخيار، والدباء، والقرع. فالمراد بالبقول؛ ما يؤكل ورقه من البقول، وبالقثاء؛ ما يؤكل ثمره منها، أو هو من عطف الخاص على العام، والبقل: ما ليس له ساق ضدُّ الشجر ﴿وَفُومِهَا﴾؛ أي: حنطتها وهو الأقرب؛ لأن ذكر العدس يدلُّ على أنه المراد؛ لأنه من جنسه. وقيل: هو الثوم، كما هو مرويٌّ عن ابن عباس، ومجاهد، وهو اختيار الكسائي لقراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾ بالثاء المثلثة؛ ولأنَّ ذِكْرَ البَصَلِ يدلُّ على أنه هو المراد فإنه من جنسه. قال ابن التمجيد في «حواشيه». وحمله على الثوم أوفق من الحنطة؛ لاقتران ذكره بالبصل والعدس، فإن العدس يطبخ بالثوم، والبصل. ﴿وَعَدَسِهَا﴾ وهو حب معروف يستوى كيله ووزنه ﴿وَبَصَلِهَا﴾ بقلٌ معروف تُطيب به القدور، وإنما طلبوا[2] هذه الأنواع؛ لأنها تُعين على تقوية الشهوة؛ أو لأنهم مَلُّوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة.

وقال أبو حيان: وأحوال[3] هذه الخمسة التي ذكروها مختلفة، فذكروا أولاً: ما هو جامع للحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، إذ البقل منه ما هو بارد رطب، كالهندبا، ومنه ما هو حار يابس، كالكرفس والسذاب، ومنه ما هو حار

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

وفيه رطوبةٌ عرضيَّة، كالنعناع. وثانياً: القثاء وهو بارد رطب. وثالثاً: الثوم وهو حار يابس. ورابعاً: العدس وهو بارد يابس. وخامساً: البصل وهو حار رطب، وإذا طبخ صار بارداً رطباً، فعلى هذا جاء ترتيب ذكر هذه الخمسة. انتهى.

وقوله: ﴿قَالَ﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله لهم، أو موسى عليه السلام، فقيل: قال إنكاراً عليهم. إلخ. والظاهر[1] عود الضمير في قال إلى موسى، ويحتمل عوده على الرب تعالى، ويؤيده ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾. والهمزة في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾؛ للإنكار، والاستبدال: الاعتياض. وقرأ أبيٌّ ﴿أتبدلون﴾ وهو مجاز؛ لأن التبديل ليس لهم إنما ذلك إلى الله تعالى، لكن لما كان حصول التبديل بسؤالهم جعلوا مبدلين، وكان المعنى: أتسألون تبديل ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾؛ أي: أتأخذون لأنفسكم، وتختارون لها الطعام الذي هو أدنى، وأخسُّ من البقل وما بعدها ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؛ أي: بدل الذي هو خير وأنفس؛ **لأن الباء تدخل على المتروك** دون المأخوذ، وخيريَّة المن والسلوى في اللَّذاذة، أو سقوط المشقة والسعي في تحصيلها، وغير ذلك. ولا كذلك الفوم، والعدس، والبصل، وأمثالها. قال بعضهم: الحنطة وإن كانت أعلى من المن والسلوى، لكن خساستها هٰهنا بالنسبة إلى قيمتها، وليس في الآية ما يدل على قطعها عنهم على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى. وحصول ما طلبوا مكانه؛ لتحقق الاستبدال في صورة المناوبة؛ لأنهم أرادوا بِقَوْلِهِمْ لن نصبر على طعام واحد أن يكون لهم هذا تارة وذاك أخرى. وقرأ زهيرٌ الفَرْقَبِيُّ، ويقال له: زهَير الكسائيُّ ﴿أدنأ﴾ بالهمزة.

والمعنى: أي[2] قال لهم موسى منكراً عليهم ويحكم: أتريدون استبدال الطعام الذي هو أخسُّ، من البقل، والقثاء، والفوم، والبصل، عن الطعام الذي هو أنفس، وأفضل، وأعلى، الذي هو المن والسلوى، فإنه خير في اللذة، والنفع، وعدم الحاجة إلى السعي، فدعا موسى فاستجبنا له وقلنا لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟

---

(١) البحر المحيط. (٢) العمدة.

﴿مِصْرًا﴾؛ أي: انحدروا واخرجوا من التيه، وانزلوا إن كنتم تريدون هذه الأشياء مصراً من الأمصار، وانزلوا بلدة من البلدان؛ لأنكم في البرية فلا يوجد فيها ما تطلبون، وإنما يوجد ذلك في الأمصار والبلدان، وليس المراد هنا مصر فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وإذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، فكيف يجوز دخول مصر فرعون وهو الأظهر. وقيل: مصر فرعون الذي خرجتم منه، وصرفه حينئذٍ مع وجود السببين، وهما: العلمية والتأنيث المعنوي لإرادة البلد، أو لسكون وسطه، كنوح، ولوط، وفيها العجمة والتعريف، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعبارة «الروح» هنا: والمصر:[1] البلد العظيم من مَصَرَ الشيء يَمْصُرُهُ؛ أي: قطعه سمي به؛ لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، وقد تسمى القرية مصراً، كما تسمى المصر قرية، وهو ينصرف ولا ينصرف، فصرف هٰهنا؛ لأن المراد به غير معين. وقيل: أُرِيْدَ به مصر فرعون، وإنما صرف؛ لسكون وسطه، كهند، ودعد، ونوح؛ أو لتأويله بالبلد دون المدينة، فلم يوجد فيه غير العلمية. انتهى. قال أبو حيان: فتلخَّص من قراءة التنوين أن يكون مصراً غير معين لا من الشام ولا من غيره، أو مصراً غير معين من أمصار الشام، أو معيناً وهو بيت المقدس، أو مصر فرعون، فهذه أربعة أقوال. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿اهبِطوا﴾ بكسر الباء، لأنه من باب ضرب. وقرىء بضم الباء على أنه من باب دخل وهما لغتان، والأفصح الكسر، والجمهور على صرف مصراً هنا. وقرأ الحسن، وطلحة، والأعمش، وأبان بن تغلب بغير تنوين، وبُيِّن كذلك في مصحف أبي بن كعب، ومصحف عبد الله، وبعض مصاحف عثمان ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ تعليل للأمر بالهبوط؛ أي: فإن لكم فيه ما سألتموه من بقول الأرض ونباتها، ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم، وفسادهم، وبغيهم، وعدوانهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾؛ أي: جعلت على فروع بني إسرائيل الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: الذل والهوان بضرب الجزية عليهم، وإلزامهم

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

إياها إلزاماً لا يبرح ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة؛ أي: جُعِلتا محيطتينَ بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقتا بهم وجعلتا ضَرْبَةَ لازبٍ لا تنفكان عنهم مجازاةً لهم على كفرانهم، كما يضرب الطين على الحائط، فهو استعارة بالكناية، فترى اليهود وإن كانوا مياسير، كأنهم فقراء إما على الحقيقة، أو على التكلف مخافة أن تضاعف عليهم الجزية. والمضروب عليهم الذلة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ قاله الجمهور، أو الذين كفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير حق، أو القائلون ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ومن تابعهم من أبنائهم أقوالٌ ثلاثةٌ. ذكره في «البحر».

﴿وَبَآءُو﴾؛ أي: رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ وسخطٍ عظيم كائن ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: استحقُّوا الغضب واللعنة من الله تعالى بسبب طغيانهم، وكفرهم نعمة الله تعالى. وفي وصف الغضب بكونه من الله تعظيمٌ للغضب، وتفخيمٌ لشأنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من ضَرْبِ الذلة والمسكنة عليهم، ورجوعهم بغضب من الله، وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بِسَبَبِ أن اليهود كانوا يجحدون على الاستمرار بآيات الله الباهرة؛ التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدي موسى عليه السلام؛ التي من جملتها ما عُدَّ عليهم من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر، وما لم يُعَدَّ، كاليد، والعصا، والضفادع، والقُمَّل، والجراد، أو بسبب أنهم يجحدون بمحمد ﷺ، وينكرون صفته في التوراة، والإنجيل، وبالقرآن، وآية الرجم التي في التوراة والإنجيل ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عندهم؛ أي: وبسبب قتلهم الأنبياء ظلماً حتى عندهم، كشعياء، وزكريا، ويحيىٰ، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام. وفائدة[1] التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل: أن يكون بحق الإيذان بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق، إذ لم يكن أحد معتقداً بحقية قتل أحدهم عليهم السلام، فإن قيل: كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم، كمثل من يُقْتَلُ في سبيل الله من

---

(١) روح البيان.

المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم. قال ابن عباس، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ: لم يقتل قَطُّ من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نُصِرَ، فظهر أن لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ مع أنه يجوز أن يراد به النصرة بالحُجَّة وبيان الحق، وكلهم بهذا المعنى منصور. روي أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً.

فإن قلت: لِمَ عرّف الحق هنا ونكره في آل عمران والنساء؟

قلت: لأن ما هنا لكونه وقع أولاً إشارة إلى ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الذي أذن الله أن تقتل النفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فكان التعريف به أولى، وهناك أريد به ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في معتقدهم ودينهم، فكان بالتنكير أولى انتهى. من فتح الرحمن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كفرهم بآيات الله العظام، وقتلهم أنبياء الله الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾؛ أي: بِسَبَبِ عصيانهم بترك المأمورات ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: وبسبب اعتدائهم ومجاوزتهم الحد بارتكاب المنهيات؛ أي: ذلك بسبب مجاوزتهم أمري وارتكابهم محارمي؛ أي: جرّ بهم العصيان والتمادي في العدوان إلى المشار إليه، فإن صغار الذنوب إذا دووم عليه أدت إلى كبارها، كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحري كبارها، وسقم القلب بالغفلة عن الله تعالى منعهم عن إدراك لذاذة الإيمان وحلاوته؛ لأن المحموم ربما وجد طعم السُّكر مرّاً، فالغفلة سمٌّ للقلوب مهلكٌ، فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله نفرتك عن الطعام المسموم و(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾ مصدرية، كما أشرنا إليه في الحل؛ أي: ذلك بعصيانهم، ولم[1] يعطف الاعتداء على العصيان؛ لئلا يفوت تناسب مقاطع الآي؛ وليدل على أن الاعتداء صار كالشيء الصادر منهم دائماً، والمعنى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

---

(١) البحر المحيط.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن[1] ما حل بهم من ضروب الذلة والمسكنة، واستحقاق الغضب الإلٰهي، كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من الكفر بآيات الله التي آتاها موسى، وهي معجزاته الباهرة التي شاهدوها، فإن إعناتهم له وإحراجهم إياه دليلٌ على أنه لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم لها جاحدون منكرون، ويقتلون النبيين بغير الحق، فهم قتلوا شعياء، وزكرياء، ويحيى، وغيرهم بغير الحق؛ أي: بغير شبهة عندهم تسوِّغ هذا القتل، فإن من يأتي الباطل قد يعتقد أنه حق؛ لشبهةٍ تَعِنُّ له، وكتابهم يحرِّم عليهم قتل غير الأنبياء فضلاً عن الأنبياء إلا بحق يوجب ذلك. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أن قتل غير النبيين لا يكون إلا كذلك، مزيد تشنيع بهم، وتصريح بأنهم ما كانوا مخطئين في الفهم، ولا متأوّلين للحكم، بل هم ارتكبوه عامدين مخالفين لما شرع الله لهم في دينهم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: إن كفرهم بآيات الله، وجرأتهم على النبيين بالقتل إنما كانا بسبب عصيانهم، وتعدِّيهم حدود دينهم، فإن للدين هيبةً في النفس تجعل المتديِّن به يحذر مخالفة أمره، حتى إذا تعدَّى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان الدينيُّ في نفسه، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد إلى أن تصير المخالفة طبعاً وعادة، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذي كان متغلغلاً في قرارة نفسه، ثم دعا الله سبحانه وتعالى أهل الملل من المؤمنين بألسنتهم، واليهود، والنصارى، والصابئين إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله، وساقه بصيغة الخبر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذه الآية معترضة بين قصص بني إسرائيل؛ أي إنَّ[2] الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب، وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة، والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق؛ للتصريح بأنَّ تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعاً أصلاً، ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والأولى[1] أن يقال: إن المراد إن الذين صدقوا محمداً ﷺ، وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبينَ أن[2] حال هذه الملة الإسلامية، وحال من قبلها من سائر الملل، يرجع إلى شيء واحد، وهو: أنَّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، استحقَّ ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كلُّه، والأجر دقُّه وجلُّه، والمراد بالإيمان ها هنا هو ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لمَّا سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره» ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً، ولم يبق يهودياً، ولا نصرانياً، ولا مجوسياً. اهـ. من الشوكاني.

وقيل المعنى[3]: إن الذين آمنوا بالأنبياء الماضين قبل مبعث محمد ﷺ، كبحيرا الراهب، وورقة بن نوفل، وقُسِّ بن ساعدة، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، ووفد النجاشي، وغيرهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: تهودوا وصاروا يهود من هاد إذا دخل في اليهودية، ويهود إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل، وخُصُّوا به، لما كانت توبتهم توبةً هائلة، وإما معرب من يهوذا بالذال المعجمة اسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، فقلبتها العرب دالاً مهملة. وقيل: إنما سمي اليهود يهوداً؛ لأنهم إذا جاءهم رسول، أو نبيٌّ هادوا إلى ملكهم فدلُّوه عليه فيقتلونه ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ جمع[4] نصران، كندامى جمع ندمان، سُمّوا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح عليه السلام؛ أو لأنهم كانوا معه في قريةٍ يقال لها: ناصرة، فسموا باسمها، أو لاعْتِزَائِهم إلى نَصْرَةَ، وهي قريةٌ كان ينزلها عيسى عليه السلام، والمعنى؛ أي: والذين كانوا على الدين المحرَّف الباطل الذي كان لليهود والنصارى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾؛ أي: الخارجين من دين إلى دين، وهم قوم من اليهود، أو النصارى صبئوا من دينهم. وقرأ نافع

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.
(٣) العمدة.
(٤) روح البيان.

﴿الصابون﴾ بغير همز جمع صابىء من صبأ إذا خرج من الدين، وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية، والنصرانية، وعبدوا الكواكب، والملائكة، فكانوا كعبدة الأصنام، وإن كانوا يقرؤون الزبور، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤُهم.

فإن قلت: لِمَ قدم النصارى على الصابئين هنا. وعكس في المائدة والحج؟.

قلت: لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب، فقدموا في البقرة لكونها أولاً، والصابئون مقدمون على النصارى في الزمن، فقدموا في الحج، ورُوعي في (المائدة) المعنيان فقدموا في اللفظ وأخروا في المعنى إذ التقدير: والصابئون كذلك، كما في قول الشاعر:

فَمَنْ يَكُ أمس في المَدِينةِ رَحْلُه ... فَإنِّي وقَيَّارٌ بها لغريبُ

إذ التقدير: فإني لغريبٌ بها وقيَّار كذلك. اهـ. «فتح الرحمن». وروي أنه جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: لِمَ يسمَّى الصابئون صابئين؟ فقال النبي ﷺ: «لأنهم إذا جاءهم رسول أو نبي أخذوه، وعمدوا إلى قدر عظيم فأغلوه، حتى إذا كان محمًى صبُّوه على رأسه حتى ينفسخ». كذا في «روضة العلماء». واختلف القرَّاء فيه، فهمزوه جميعاً إلا نافعاً، فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت، ومن لم يهمزه جعله من صبا يصبو إذا مال ﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره فلهم أجرهم، والجملة خبر إن؛ أي: من ﴿ءَامَنَ﴾ من هؤلاء الكفرة ﴿بِٱللَّهِ﴾ وبما أنزل على جميع النبيين، ويجوز أن تكون من في موضع نصب بدلاً من الذين أمنوا وما بعده؛ أي: من صدَّق منهم بوحدانية الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ بمجيء ﴿اليوم الآخر﴾ مع ما فيه من البعث، والحساب، والميزان، والمجازاة، وغيرها؛ أي: من أحدث منهم إيماناً خالصاً بالمبدإ والمعاد على الوجه اللائق، ودخل في ملة الإسلام دخولاً حقيقيّاً ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مرضياً مقبولاً عند الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾؛ لتضمن اسم إنَّ معنى الشرط ﴿أَجْرُهُمْ﴾ الموعود لهم؛ أي: ثواب أعمالهم مدّخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مالك أمرهم

ومُبْلِغهم إلى كمالهم اللائق بأن يدخلهم الجنة، وعند متعلِّق بما تعلَّق به لهم من معنى الثبوت. أخبر سبحانه أن هؤلاء إذا آمنوا وعملوا الصالحات لم يؤاخذوا بقديم أعمالهم، ولا بفعل آبائهم، ولا يُنَقصون من أجور أعمالهم، وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة حين يخاف الكفار العقاب، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وقرأ الجمهور ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع والتنوين. وقرأ الحسن ﴿ولا خوف﴾ من غير تنوين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصِّرون على تضييع العمر وتفويت الثواب، ولا يحزنون على ما خلفوا وراءَهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم النعيم المقيم، والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن عنهم. وخلاصة الكلام: من أخلص إيمانه وأصلح عمله دخل الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ تذكيرٌ[1] لجناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! وقت أخذنا لعهد آبائكم على العمل بما في التوراة، وذلك قبل التيه حين خرجوا مع موسى من مصر ونجوا من الغرق؛ أي: واذكروا قصة حين أخذنا وطلبنا من آبائكم العهد المؤكد باليمين على قبول التوراة، والعمل بما فيه، واتباع موسى، وأبيتم من إقراره وقبوله ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ كأنه ظُلَّة حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. والطور: جبلٌ معروف بفلسطين، والطور معناه: الجبل بالسريانية، وذلك أنَّ موسى عليه السلام جاءهم بالألواح، فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقَّة، فكبرت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه، وظلَّله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا أُلقى عليكم، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا، وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجودٌ؛ لئلا ينزل عليهم، فصارت عادةً في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون بهذا السجود رُفِع عنا العذاب، ثم رفع الجبل ليقبلوا التوراة لم يكن جبراً على الإسلام؛ لأن الجبر ما يسلب الاختيار وهو جائز، كالمحاربة مع الكفار ليدخلوا في الإسلام، وأما قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ وأمثاله فمنسوخ بالقتال. قال ابن عطية: والذي لا يصحُّ

---

(1) روح البيان.

سواه، أنّ الله تعالى جبرهم وقت سجودهم على الإيمان؛ لأنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة بذلك، والمعنى؛ أي؛ اقتلعنا جبل الطور، ونتقناه من أصله، ورفعناه فوق رؤوسكم مقدار قامة حتى يكون كالظُلَّة، وقلنا لكم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾؛ أي: ما أعطيناكم من الكتاب واعملوا بما فيه، فهو على تقدير القول كما قدرنا ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي بجدٍّ، واجتهادٍ، وعزيمةٍ، ومواظبة من غير تقصير ولا توان، والمعنى: خذوا الذي آتيناكموه حال كونكم عازمين على الجِدِّ بالعمل به. اهـ. «كرخي».

﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾؛ أي: وادرسوا ما في الكتاب من الثواب والعقاب، واحفظوا ما فيه من الحلال والحرام، ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لكي[1] تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى، وإلاَّ رضخت رؤوسكم بهذا الجبل، أو رجاءً[2] منكم أن تكونوا متقين، فلمَّا رأوا ذلك نازلاً بهم قبلوا، وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فصار ذلك سنة في سجود اليهود، كما مر آنفاً ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما رفعنا فوقكم وقبلتم الميثاق ﴿تَوَلَّيۡتُم﴾؛ أي: أعرضتم عن الوفاء بالميثاق، وتركتم العمل بكل ما أمرتم به ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ أي من بعد أخذ الميثاق منكم على العمل بما في الكتاب، وهذا تأكيد لما يفهم من ثُمَّ ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تفضله سبحانه وتعالى عليكم بتأخير العذاب عنكم ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ لكم بقبول التوبة منكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: لصرتم من الهالكين في الدنيا والآخرة، أو من المغبونين بذهابكم، وانعدامكم في الدنيا والعذاب في العقبى، ولكن تفضَّل عليكم حيث رفع الطور فوقكم حتى تُبتم فزال الجبل عنكم، ولولا ذلك لسقط عليكم، والخسران في الأصل: ذهاب رأس المال وهو ههنا هلاك النفس؛ لأنها الأصل.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ أمراً من ذكر الثلاثي. وقرأ أُبيٌّ ﴿واذَّكَّرُو مَا فِيهِ﴾ أمراً من اذَّكَّر، وأصله: واذتكروا، ثم أبدل من التاء دال، ثم أدغم الذال في

---

(١) الخازن.

(٢) نسفي.

(٣) البحر المحيط.

الدال، إذ أكثر الإدغام يستحيل فيه الأول إلى الثاني، ويجوز في هذا أن يستحيل الثاني إلى الأول ويدغم فيه الأول، ويقال: إذكر، ويجوز الإظهار، فتقول: إذ ذكر. وقرأ ابن مسعود ﴿تَذَّكَّرُوا﴾ على أنه مضارع انجزم على جواب الأمر الذي هو خذوا، وذكر الزمخشري أنه قرىء ﴿وتذكَّروا﴾ أمراً من التذكر، ودخول[1] ثُمَّ مشعرٌ بالمهلة، ومن تشعر بابتداء الغاية، لكن بين الجملتين كلام محذوف، تقديره ـ والله أعلم ـ فأخذتم ما آتيناكم، وذكرتم ما فيه، وعملتم بمقتضاه، ثم تولَّيتم من بعد ذلك، وقد علم أنهم بعد ما قبلوا التوراة تولوا عنها بأمور، فحرَّفوها، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله، وعصوا أمره، ومن ذلك ما اختصَّ به بعضهم، وما عمله أوائلهم، وما عمله أواخرهم، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب يخالفون موسى، ويظاهرون بالمعاصي في عسكرهم حتى خسف ببعضهم، وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، وكلٌّ هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرؤون بها، ثُمَّ فعل ساحروهم ما لا خفاء فيه حتى عُوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح، وهمُّوا بقتله. والإشارة[2] في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾ إلى قبول ما أُوتوه، أو إلى أخذ الميثاق والوفاء به ورفع الجبل، أو خروج موسى من بينهم، أو الإيمان. أقوالٌ، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي ثُمَّ توليتم، وأعرضتم، وانصرفتم عن الطاعة بعد أن أخذ عليكم الميثاق، وأراكم من الآيات ما فيه عبرة لمن ادَّكَر، فلولا لطف الله بكم، وإمهاله إياكم، إذ لم يعاملكم بما تستحقون لكنتم من الهالكين بالانهماك في المعاصي. والخلاصة: إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعده عنكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادتي الدنيا والآخرة، وقد منَّ الله تعالى على أمة محمد ﷺ حيث فرض عليهم الفرائض واحدةً بعد واحدة، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقرَّت الواحدة في قلوبهم فرض عليهم الأخرى، وأما بنو إسرائيل فقد فرض عليهم بدفعة واحدة، فشق عليهم ذلك، ولذا لم يقبلوا حتى رأوا العذاب، ثُمَّ إن[3] الله تعالى أمر بحفظ الأوامر والعمل، وبعدم النسيان

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

والتضييع، وقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ وهو المقصود من الكتب الإلٰهية؛ لأنَّ العمدة العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان، وترتيلها بالأنغام، فإنَّ ذلك نبذ لها. قال الغزالي: وما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتاباً إلى أحد أمرائه، وأمره أن يبني له قصراً في ناحيةٍ من مملكته، فلم يكن حظُّ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبني القصر، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذٍ العقاب من الملك الذي أرسل به إليه؟

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ خطاب لمعاصري النبي ﷺ من اليهود؛ أي: وبالله قد عرفتم يا بني إسرائيل! ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ﴾؛ أي: تجاوزوا الحد ظلماً ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: من أسلافكم، محلُّه نصبٌ على أنه حال ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: جاوزوا ما حدَّ لهم فيه من التجرُّد للعبادة وتعظيمه، واشتغلوا بالصيد، وأصل السبت القطع؛ لأنَّ اليهود أمروا بأن يسبتوا فيه؛ أي: يقطعوا الأعمال، ويشتغلوا بعبادة الله، ويسمَّى النوم سباتاً؛ لأنه يقطع الحركات الاختيارية، وفيه تحذيرٌ وتهديدٌ؛ فكأنَّه يقول: إنكم تعلمون ما أصابهم من العقوبة، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ قهراً ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾ جمع قرد، كالديكة جمع ديك، وهذا أمر تحويل وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة؛ لأنهم لم يكن لهم قدرةٌ على التحول من صورة إلى صورة، وهو إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: لمَّا أردنا ذلك صاروا كما أردنا من غير امتناع ولا لبث ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: ذليلين، هو وقردةٌ خبران لكان؛ أي: كونوا جامعين بين القرديَّة والخسىء، وهو الصغار والطرد.

فإن قلت: كيف أُمروا بذلك مع أنه ليس في وسعهم؟.

قلت: هذا أمر إيجادٍ لا أمر إيجاب، كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والمعنى؛ أي[1]: وعزتي وجلالي، لقد عرفتم عقوبة الذين تجاوزوا الحد في الاصطياد باصطيادهم في يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه، وأمروا بالتفرُّغ فيه للعبادة، فقلنا لهم: كونوا وصيروا بقدرتنا قردةً؛ أي: حيواناً معروفاً خاسئين؛

---

(١) العمدة.

أي: ذليلين مطرودين عن الرحمة والشرف.

وأصل هذه القصة[1]: أنهم كانوا في زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها: أيلة بين المدينة والشام على ساحل بحر القلزم، فحرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فكان إذا دخل السبت لم يبق حوتٌ في البحر إلا اجتمع هناك، إمَّا ابتلاءً لأولئك القوم، وإما لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس بن متى، في كُل سبت يجتمعن لزيارتها، ويُخْرِجن خَراطِيمَهن من الماء حتى لا يرى الماء من كثرتها، وإذا مضى السبت تفرقن ولَزَمْن مقل البحر فلا يرى شيءٌ منها، ثُمَّ إن الشيطان وسوس إليهم، وقال: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فعمد رجالٌ من أهل تلك القرية فحفروا الحياض حول البحر، وشرعوا منه إليها الأنهار، فإذا كانت عشيَّة الجمعة فتحوا تلك الأنهار، فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض، فلا يقدرن على الخروج؛ لبعد عمقها؛ وقلة مائها، فإذا كان يوم الأحد يصطادونها، فأخذوا، وأكلوا، وملَّحوا، وباعوا، فكثرت أموالهم، ففعلوا ذلك زماناً أربعين سنة، أو سبعين لم تنزل عليهم عقوبةٌ، وكانوا يتخوَّفون العقوبة، فلمَّا لم يعاقبوا استبشروا وتجرَّءُوا على الذنب، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أحل لنا، ثم أستنَّ الأبناء سنة الآباء، فلو أنهم فعلوا ذلك مرة أو مرتين لم يضرهم، فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ـ وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ـ ثلاثة أصنافٍ: صنف أمسك ونهى، وصنف أمسك ولم ينه، وصنفٌ انتهك الحرمة، وكان الناهون اثني عشر ألفاً فنهوهم عن ذلك، وقالوا: يا قوم! إنكم عصيتم ربكم وخالفتم سنة نبيكم، فانتهوا عن هذا العمل قبل أن ينزل بكم البلاء، فلم يتعظوا وأبوا قَبُولَ نصحهم، فعاقبهم الله بالمسخ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾ ثُمَّ إنَّ المجرمين لما أبوا قَبُوْل النصح قال الناهون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وصيَّروها بذلك ثنتين، فلعنهم داود، وغضب الله عليهم؛ لإصرارهم على المعصية، فمسخوا ليلاً، فلما أصبح الناهون أتوا أبوابها فإذا هي مغلقة لا يسمع منها صوتٌ ولا يعلو منها دخان،

---

(١) روح البيان.

فتسوَّروا الحيطان ودخلوا، فرأوهم قد صار الشُّبَّان قردة، والشيوخ خنازير لها أذناب يتعاوون، فعرفت القردة أنسابهم من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن ذلك، فكانوا يشيرون برؤوسهم؛ أي: نعم والدموع تفيض من أعينهم، ودلَّ ذلك على أنهم لمَّا مسخوا بقي فيهم الفهم والعقل، ثُمَّ لم يكن ابتداء القردة من هؤلاء، بل كانت قبلهم قردةٌ، وهؤلاء حولوا إلى صورتها؛ لقبحها جزاءً على قبح أعمالهم وأفعالهم، وماتوا بعد ثلاثة أيام، ولم يتوالدوا، والقردة التي في الدنيا: هي نسل قردة كانت قبلهم ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾[1]؛ أي: صيَّرنا مسخة تلك الأمة وعقوبتها ﴿نَكَالًا﴾؛ أي: عبرة تُنكل من اعتبر بها؛ أي: تمنعه من أن يقدم على مثل صنيعهم ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: لما قبلها وما بعدها من الأمم والقرون؛ لأنَّ مسختهم ذكرت في كتب الأولين واعتبروا بها، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين، فاستعير ما بين يديها للزمان الماضي، وما خلفها للمستقبل ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: تذكرةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم، أو لكل مُتَّق سمعها، فاللام للاستغراق العرفيِّ على كلا التقديرين، وخصَّ المتقين بالذكر؛ لأنهم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي[2]: جعلنا تلك العقوبة، والمسخة التي مسخناهم بها ﴿نَكَالًا﴾؛ أي: عقوبة رادعة زاجرة ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: للأمم التي في زمانها، التي ترى تلك الفرقة الممسوخة عن الإتيان بمثل فعلهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ أي: وزاجرة للأمم التي تأتي بعدها إلى يوم القيامة أن يعملوا بمثل ما عملوا، فيمسخوا مثل ما مسخوا ﴿وَمَوْعِظَةً﴾؛ أي: عبرةً وتذكرةً ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين من هذه الأمة؛ لئلاَّ يفعلوا مثل فعلهم؛ فإن كلَّ من سمع تلك الواقعة يخاف أن ينزل به مثل ما نزل بهم إن فعل مثل فعلهم، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة التسوية بين مؤمن اليهود،

---

(١) روح البيان.

(٢) العمدة.

والنصارى، والصابئين، ومؤمن غيرهم في كينونة الأجر لهم، وأن ذلك عند من يرى أن إيمانهم في الدنيا أنتج لهم الأمن في الآخرة، فلا خوف مما يستقبل، ولا حزن على ما فات، إذ من استقر له أجره عند ربه فقد بلغ الغاية القصوى من الكرامة. انتهى. من «البحر».

واعلم: أن عقوبة الأمم الماضية بالخسف والمسخ على الأجساد، وعقوبة هذه الأمة على القلوب، وعقوبات القلوب أشدُّ من عقوبات النفوس. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ...﴾ الآية. ثم علامة[1] مسخ القلوب ثلاثة أشياء: لا يجد حلاوة الطاعة، ولا يخاف من المعصية، ولا يعتبر بموت أحد، بل يصير أرغب في الدنيا كل يوم. كذا في «زهرة الرياض». ورُوي عن عوف بن عبد الله أنه قال: كان أهل الخير يكتب بعضهم بثلاث كلمات: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال محمد بن علي الترمذي: صلاح أربعة أصناف في أربعة مواطن: صلاح الصبيان في الكتَّاب، وصلاح القُطَّاع في السجن، وصلاح النساء في البيوت، وصلاح الكهول في المساجد. انتهى.

الإعراب

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! إذ قلتم ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ منادى مفرد العلم في محل النصب على المفعولية مبني بضمة مقدرة منع من ظهورها التعذر، وجملة النداء في محل النصب مقول لقلتم ﴿لَن﴾ حرف نصب ونفي واستقبال ﴿نَّصْبِرَ﴾

---

(١) روح البيان.

فعل مضارع منصوب بلن، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقلتم، وإن شئت قلت: ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ إلى قوله ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ مقول محكي لقلتم؛ لأن مرادنا لفظه لا معناه ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ جار ومجرور متعلق بنصبر ﴿وَاحِدٍ﴾ صفة لطعام ﴿فَٱدْعُ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿ادع﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على موسى، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ على كونها مقولاً لقلتم ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلق بادع ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿يُخْرِجْ﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازاً، تقديره: هو يعود على ربك، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿لَنَا﴾ متعلق بيخرج ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بيخرج أيضاً على أنه مفعول به ليخرج، أو مفعول يخرج محذوف؛ تقديره: يخرج لنا شيئاً ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور صفة لذلك المحذوف؛ أي: شيئاً كائناً مما تنبت الأرض و﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: شيئاً مما تنبته الأرض ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ جار ومجرور ومضاف إليه بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ بدل تفصيل من مجمل، أو حال من مفعول تنبت المحذوف، تقديره: حال كونه كائناً من ﴿بَقْلِهَا﴾ و ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ معطوف على ﴿بَقْلِهَا﴾، وكذا قوله: ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ معطوف على بقلها جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أن العطف إذا كان بغير مرتب يكون على الأول ولو كثرت المعطوفات، وإن كان بمرتب، كالفاء، وثم، يكون الكل معطوفاً على ما قبله.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر يعود على موسى، أو على الرب سبحانه، والجملة مستأنفة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إلى قوله ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ مقول محكي لقال، لأن مرادنا لفظه لا معناه، وإن شئت قلت: الهمزة للاستفهام الإنكاري المضمن

للتوبيخ، والمعنى: لا ينبغي لكم ذلك الاستبدال ولا يليق بكم ﴿تستبدلون﴾ فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة في محل النصب مقول قال ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿هُوَ أَدْنَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول ﴿بِٱلَّذِى﴾ متعلق بتستبدلون ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول قول محذوف، تقديره: قلنا لهم ﴿مِصْرًا﴾ مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على قراءة التنوين وهو خط المصحف؛ لأنه نكرة؛ لأن المعنى انزلوا بلداً من البلدان؛ لأنهم كانوا وقتئذٍ في صحراء التيه. وقيل: معرفة؛ لأن المعنى اهبطوا مصر فرعون، وإنما صرف حينئذٍ، لخفته بسكون وسطه، كهند، ودعد، ونوح، ولوط، ونحوها. وقرأه الحسن وغيره بلا تنوين، كأنهم عنوا مكاناً بعينه، كما سبق ﴿فَإِنَّ﴾ الفاء تعليلية ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم لإن ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر ﴿سَأَلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: فإن ما سألتموه من البقول كائن وحاصل لكم في مصر لا في التيه، وجملة إن مستأنفة؛ مسوقة لتعليل الأمر بالهبوط في مصر ﴿وَضُرِبَتْ﴾ الواو استئنافية، أو اعتراضية؛ لأن قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معترض في خلاف القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، يدل على هذا قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فإن قتل الأنبياء إنما كان من فروعهم وذريتهم. ذكره في «الجمل». ضرب: فعل ونائب فاعل مغير الصيغة، والتاء علامة تأنيث نائب الفاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق بضربت ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ نائب فاعل ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معترضة

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿وَبَآءُو﴾ فعل وفاعل معطوف على ضربت ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلق بباؤوا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لغضب ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة للمفرد البعيد في محل الرفع مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء

حرف جر وسبب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب أنهم كانوا، والجملة الإسمية مستأنفة، أو معترضة ﴿أنهم﴾ ناصب واسمه ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خبر كان ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بيكفرون، وجملة كان في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله سبحانه ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به معطوف على يكفرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور متعلق بيقتلون، أو بمحذوف حال من فاعل يقتلون، تقديره: حالة كونهم ملتبسين بغير الحق، أو حالة كونهم ظالمين متنكرين للحق في اعتقادهم، ولو اعترفوا لاتصفوا بالواقع ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِمَا﴾ الباء حرف جر وسبب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ؛ تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم، والجملة الإسمية مستأنفة، أو معترضة ﴿عَصَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم ﴿وَّكَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْتَدُونَ﴾ خبر كان، وجملة كان معطوفة على جملة عصوا على كونها صلة لما المصدرية، والتقدير: ذلك كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب معطوف على الموصول الأول وجملة ﴿هَادُوا۟﴾ صلة للموصول الثاني ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ معطوف على اسم إن، وكذلك قوله: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ معطوف على اسم إن ﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصول في محل النصب بدلٌ من اسمِ إن، وجملةُ ﴿ءَامَنَ﴾ صلة من الموصولة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بآمن ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿ٱلْـَٔاخِرِ﴾ صفة لليوم ﴿وَعَمِلَ﴾ معطوف على آمن ﴿صَـٰلِحًا﴾ مفعول به لِعَمِل، أو مفعول مطلق لعمل؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: وعمل عملاً صالحاً ﴿فَلَهُمْ﴾ الفاء رابطة الخبر باسم إن؛ لما في الموصول من معنى الشرط، أو رابطة الجواب بالشرط إن قلنا ما شرطية ﴿لهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الإسمية في محل الرفع خبر إن إذا

جعلنا مَن موصولة، أو في محل جزم جواب الشرط إذا جعلناها شرطية، وجملة الشرط مع جوابها في محل الرفع خبر إن، وجملة إن مستأنفة، أو معترضة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الأجر، تقديره: فلهم أجرهم حال كونه ثابتاً مدخراً لهم عند ربهم، أو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر، وأفرد الضمير في آمن وعمل؛ نظراً للفظ من وجمعه في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ نظراً لمعناه ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ نافية ﴿خَوْفٌ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة؛ تقدم النفي عليها وبطل عمل لا؛ لتكررها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وكذلك جملة قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ معطوفة على جملة الجواب.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي على أنه مفعول به لاذكروا ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول به ومضاف إليه والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿وَرَفَعْنَا﴾ الواو عاطفة، أو حالية ﴿رفعنا﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجر معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿أَخَذْنَا﴾ ولكن بتقدير: قد ﴿فَوْقَكُمُ﴾ فوق منصوب على الظرفية المكانية متعلق برفعنا، والكاف في محل الجر مضاف إليه ﴿ٱلطُّورَ﴾ مفعول به ﴿خُذُوا۟﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ تقديره: وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم، أو حال من فاعل رفعنا، تقديره: ورفعنا فوقكم الطور قائلين خذوا... إلخ: ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول لخذوا ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف؛ لأن آتى بمعنى أعطى، تقديره: آتيناكموه، وهو العائد على ﴿مَا﴾ الموصولة، والجملة صلة لما الموصولة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿خُذُوا۟﴾ تقديره: ملتبسين بقوة واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿خُذُوا۟﴾ ﴿مَا﴾ اسم

موصول في محل النصب مفعول به لاذكروا ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة، تقديره: ما استقر فيه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تتقون﴾ خبرها، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: لكي تتقون عقابي، وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، والتقدير: واذكروا ما فيه لإتقائكم عقابي.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ فعل وفاعل معطوف على محذوف، تقديره: فقبلتم الميثاق ثم توليتم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتوليتم ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أخذ الميثاق منكم، ثم توليكم بعد ذلك وأردتم بيان ما يترتب على ذلك، فأقول لكم: لولا فضل الله ﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود مضمن معنى الشرط ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه وخبره محذوف وجوباً، تقديره: موجود، والجملة الإسمية قائمة مقام الشرط لا محل لها من الإعراب ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بفضل الله ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ معطوف على فضل الله ﴿لَكُنتُم﴾ اللام واقعة في جواب لولا ﴿كنتم﴾ فعل ناقص واسمه ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ متعلق بمحذوف خبر كان، وجملة كان جواب لولا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام موطئة لقسم محذوف، تقديره: وعزتي وجلالي ﴿لقد علمتم﴾ ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿عَلِمْتُمُ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وعلم هنا بمعنى عرف يتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ٱعْتَدَوْا۟﴾ فعل ماض وفاعل، والجملة

صلة الموصول ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من الضمير في اعتدوا، تقديره: حالة كون المعتدين كائنين منكم ﴿فَقُلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿قُلْنَا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿اَعْتَدَوْا﴾ على كونها صلة الموصول، والعائد ضمير ﴿لَهُمْ﴾ و﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق باعتدوا ﴿كُونُواْ﴾ فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمها ﴿قِرَدَةً﴾ خبرها ﴿خَٰسِئِينَ﴾ خبر ثان لها، ولا مانع من جعلها صفة لقردة، وقيل: كلاهما خبرها، وإنهما نزلا منزلة كلمة واحدة، كقولهم: هذا حلو حامض، وهو قول جيد وجملة ﴿كُونُواْ﴾ في محل النصب مقول ﴿قلنا﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول أول والجملة معطوفة على جملة ﴿قلنا﴾ ﴿نَكَٰلًا﴾ مفعول ثان لجعلنا ﴿لِّمَا﴾ اللام حرف جر و﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر باللام، والجار والمجرور صفة لنكالاً، أو متعلق بنكالاً، لأنه اسم مصدر لنكَّل الرباعي ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الاعتبارية ﴿بَيْنَ﴾ مضاف ﴿يَدَيْهَا﴾ مضاف إليه مجرور بالياء؛ لأنه مثنى، ويدي مضاف والهاء مضاف إليه، والظرف متعلق بمحذوف صلة لما الموصولة؛ أي: لما استقر بين يديها ﴿وَمَا﴾ معطوف على ﴿مَا﴾ الأولى ﴿خَلْفَهَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف صلة لما الثانية ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ معطوف على ﴿نَكَٰلًا﴾ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جار ومجرور صفة لموعظة، أو متعلق بموعظة، لأنه مصدر ميمي بمعنى عظة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ادع وزنه أفع لحذف لامه لبناء الأمر ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ والبقل: كلُّ ما تنبته الأرض من النجم؛ أي: مما لا ساق له، وجمعه بقول ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ والقثاء: اسم جنس معروف، الواحدة قثاءة، وفيها لغتان: المشهور منهما كسر القاف، وقرىء بضمها، والهمزة أصل بنفسها لثبوتها في قوله: أَقْثَأَتِ الأرضُ؛ أي: كثر قثاؤها، ووزنها فعَّال. اهـ. «سمين». وقال الخليل: وهو الخيار، ويقال: أرض مقثاة؛ أي: كثيرة القثاء ﴿وَفُومِهَا﴾ قال الكسائي، والفراء، والنضر بن شميل، وغيرهم. الفوم هو الثوم، أبدلت الثاء فاءً، كما قالوا في مغفور: مغثور، وفي جدث: جدف، وفي عاشور: عافور. قال أمية بن أبي الصلت:

كَـانَـتْ مَـنـازِلُـهـم إذْ ذاك ظـاهـرة فِـيهَـا الـقـرادِيْسُ والـفُـومَـانُ والـبَـصَـلُ

وأنشد مؤرِّج لحسَّان:

وأنـتـم أُنَـاسٌ لِـئـامُ الأُصُـولِ طَـعَـامُـكُـم الـفُـومُ والـحَـوْقَـلُ

يعني: الفوم والبصل، وهذا كما أبدلوا بالفاء الثاء، قالوا في الأثافي: الأثاثي وكلا البدلين لا ينقاس؛ أعني: إبدال الثاء فاءً والفاء ثاءً، وقال ابن قُتيبة، والزجاج: هي الحبوب التي تؤكل، وقال أبو مالك وجماعة: الفوم: الحنطة، ومنه قول أحيحة بن الجلاَّح:

قَـدْ كُـنْـتُ أحْـسِـبُـنِـي كَـأغْـنَـى واحـد قَـدِمَ الـمَـديـنـة عـن زراعـة فُـوم

قيل: وهي لغة مصر، وهو اختيار المبرد. وقال الفراء: وهي لغةٌ قديمة. وقيل: هي الحبوب التي تخبز. وقيل؛ هو الخبز نفسه. وقيل: إنه الحمص ﴿وَعَدَسِهَا﴾ والعدس معروف، وعدس من الأسماء الأعلام، وعدس زجرٌ للبغل ﴿وَبَصَلِهَا﴾ البصل معروف بـ ﴿الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أصله: أَدْنَيَ بوزن أفعل، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وهو أفعل تفضيل من الدنوِّ وهو القُرْبُ. يقال: منه دنا يدنو دنواً، وقال عليُّ بن سليمان الأخفش: هو أفعل من الدناءة وهي الخسَّة والرداءة، خُفِّفت الهمزة بإبدالها ألفاً، وقال أبو زيد في المهموز: دَنُؤ الرجل يدنأ دناءةً ودناءً. ودَنَأَ يدنأُ، وقال غيره: هو أفعل من الدون؛ أي: أحطُّ في المنزلة، وأصله: أدون فصار وزنه أفلع؛ نحو: أولى لك؛ لأنه أفعل من الويل أصله: أويل، فقلب. وفي «الفتوحات» ﴿أَدْنَىٰ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: وهو الظاهر، وهو قول الزجاج أن أصله: أَدْنَوُ من الدنو هو القرب، فقلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ومعنى الدنو في ذلك القرب؛ لأنه أقرب وأسهل تحصيلاً من غيره لخساسته، وقلة قيمته.

والثاني: أصله: أدنأ مهموزٌ من دنأ يدنأ دناءةً، إلا أنه خففت همزته بقلبها ألفاً.

والثالث: أنَّ أصله أدون مأخوذ من الشيء الدون؛ أي: الرديء، نقلت الواو التي هي عين الكلمة إلى ما بعد النون التي هي لامها، فصار أدنو بوزن أفلع، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً. اهـ. من «السمين».

﴿اهبطوا﴾؛ أي: انزلوا وانتقلوا من هذا المكان إلى مكان آخر فيه ما تطلبون، فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالي إلى الأسفل، بل قد يستعمل في الخروج من أرض إلى أرض مطلقاً. اهـ. من «الشهاب» وفي «المصباح» وهبطت من موضع إلى موضع من بابي ضرب وقعد، انتقلت وهبطت الوادي هبوطاً نزلته. اهـ. ﴿مِصْـرًا﴾ والمصر في أصل اللغة: الحد الفاصل بين الشيئين، وحكي عن أهل هجر أنهم إذا كتبوا بيع دار، قالوا: اشترى فلانٌ الدار بمصورها؛ أي: حدودها اهـ. «سمين» وفي «الخطيب» المصر البلدة العظيمة. اهـ. وقال عديُّ بن زيد:

وجَاعِلُ الشمس مِصْراً لا خفاء به ... بَيْنَ النهارِ وبَيْنَ الليلِ قَدْ فَصَلا

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ والسؤال الطلب، ويقال: سأل يسأل سؤالاً والسؤل المطلوب، وسَاْل يَسَاْل على وزن خاف يخاف، ويجوز تعليق فعله وإن لم يكن من أفعال القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ قالوا: لأن السؤال سببٌ إلى العلم فأجري مجرى العلم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾؛ أي: أُلزموها وقُضِيَ عليهم بها، والذلة بالكسر: الصغار، والهوان، والحقارة، والذُّلُّ بالضم ضدُّ العِزِّ، والذلَّةُ مصدر ذَلَّ يذلُّ ذُلاً وذلَّةً. وقيل: الذلة كأنها هيئة من الذُلّ، كالجلسة، والذُّلُّ الخضوع وذهاب الصعوبة ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ المسكنة: مفعلة من السكون، ومنه سمي المسكين؛ لقلة حركاته وفتور نشاطه، فهو مفعيلٌ منه.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وأصل باء بَوَأَ بوزن فعل، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، ثم أسند الفعل إلى واو الجماعة فبني على الضم، فألف باء منقلبةٌ عن واو لقولهم: باء يبوء، مثل: قال يقول، وقال ﷺ: (أبوء بنعمتك) والمصدر البواء، ومعناه: الرجوع. يقال: باء بكذا؛ أي: رجع قاله الكسائيُّ، أو اعترف قاله أبو عبيدة، أو استحقَّ قاله أبو رَوْقٍ، أو نزل وتمكَّن قاله المبرد، أو تساوى قاله الزجاج، وانشدوا لكل قولٍ ما يستدل به من كلام العرب، وحذفنا ذلك. اهـ. من «البحر».

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع نبي أصله: فعيل فمن قرأه بالهمز، كنافع لم يحدث فيه تغييراً، على أن آخر الكلمة همزةٌ هي لامها، ومن قرأ بترك الهمز، إما أن يكون أبدلت فيه الهمزة ياء، ثم أدغمت فيها ياء فعيل، ثم جاءت ياء الجمع، وعلى أنَّ لام الكلمة أصلها واو من النبوة، فهو فعيل بمعنى مفعول، اجتمعت الواو والياء؛ لأن الأصل على هذا نبيوٌ، فلمَّا اجتمعتا وسبقت إحداهما ساكنة، قلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء، على حدِّ قول ابن مالك:

إنْ يَسْكُنِ السَّابِقُ مِنْ وَاوٍ وَيَا ... واتَّصَلاَ ومِنْ عُرُوضٍ عَرِيَا

فَيَاءَ الواوَ اقْلِبَنَّ مُدْغِمَا ... وشذَّ مُعْطًى غَيْرَ ما قَدْ رُسِمَا

قال الكسائيُّ: النَّبيُّ: الطريق، سُمِّي به؛ لأنه يهتدى به. قالوا: وبه سُمي الرسول؛ لأنه طريقٌ إلى الله تعالى ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أصله: عَصَيُوا بوزن فعلوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة، فحذفت الألف لكونها أوَّل الساكنين، وبقيت الفتحة دالَّة عليها ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أصله: يعتديون من اعتدى من باب افتعل، استثقلت الضمة على الياء فحذفت، ثم حذفت الياء لمَّا سكنت مع واو الجماعة، وضمت الدال؛ لمناسبة الواو، فوزنه يفتعون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أصله: أأمنوا أبدلت الهمزة الساكنة حرف مد للأول، وكذلك القول في ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ من هاد يهود من باب قال إذا تاب ورجع، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، فهو أجوف واويٌّ. وقيل: من هاد يهيد من باب باع إذا تحرَّك، وعليه قلبت الياء ألفاً، فهو أجوف يائي، والأول أولى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ جمع نصران، كندامى جمع ندمان، وألفه للتأنيث، ولذلك منع الصرف في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ والياء في نصراني؛ للمبالغة، كما في أحمري، سموا بذلك؛ لأنهم نصروا المسيح؛ أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها: نصران؛ أو ناصرة فسموا باسمها، أو باسم من أسسها. اهـ. «بيضاوي» ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ جمع صابىء. وفي «السمين» والصابىء التارك لدينه. اهـ. وفي «المصباح» وصبا يصبو صبواً من باب قعد، وصبوةً أيضاً، مثل شهوة إذا مال وصبأ من دينٍ إلى دين،

يصبأ مهموز بفتحتين خرج فهو صابىء، ثم جعل هذا اللقب علماً على طائفة من الكفار. يقال: إنها تعبد الكواكب في الباطن، وتنسب إلى النصرانية في الظاهر، وهم الصابئة والصابئون، ويدَّعون أنهم على دين صابىء بن شيث بن آدم، ويجوز التخفيف، فيقال: الصابون وقرأ به نافع. اهـ. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والأجر في الأصل مصدر. يقال: أجره الله يأجره أجراً من بابي ضرب وقتل، وقد يعبَّر به عن نفس الشيء المجازَىٰ به، والآية الكريمة تحتمل المعنيين. اهـ. «سمين» ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أصله: مِوْثاقٌ مفعال من التوثيق، سكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً حرف مد ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ والطُّور: يطلق على أيِّ جبل كان، كما في «القاموس» ويطلق أيضاً: على جبال مخصوصة بأعيانها، وهذا الجبل الذي رفع فوقهم كان من جبال فلسطين، كما في «الخازن» عن ابن عباس. اهـ. «كرخي» ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلَّ تعليلية؛ أي: لكي تتقوا المعاصي، أو رجاءً منكم أن تكونوا متقين. اهـ. «بيضاوي». وأصل تتقون: تَوْتَقِيون بوزن تفتعلون؛ لأن أصل المادة من الوقاية، فأصل التقوى وقيا، أبدلت الواو تاءً والياء واواً، فقيل: تقوى، وبعد هذا الإعلال يصير الإفتعال منه، كما هنا تَوْتَقْوون بواوين، فتبدل الواو الأولى ياءً؛ لكسر ما قبلها وهي في الطرف، واستثقلت الضمة على الياء، فحذفت فسكنت، فالتقى ساكنان الياء، وواو الجماعة، فحذفت الياء، ثم ضمت القاف؛ لمناسبة الواو، وسبب تشديد التاء؛ أنَّ فاء الكلمة التي هي واوٌ، كما مر آنفاً أن المادة من الوقاية، أبدلت تاءً، ثم أدغمت في تاء الافتعال؛ لأنَّ فاء الكلمة إذا كان حرف لين وبني منها افتعال، أبدل تاءً، وأدغم في تاء الافتعال على حدّ قول ابن مالك:

ذُو اللِّيْن فَاتَا في افتعالٍ أبدلا

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التولي تفَعُّلٌ من الوَلْي، وأصلُه: الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والاعتقادات اتساعاً ومجازاً. اهـ. «سمين» ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ علمتم بمعنى عرفتم فيتعدَّى لواحد فقط. والفرق بين العلم والمعرفة: أنَّ العلم يستدعي معرفة الذات، وما هي عليه من الأحوال، نحو: علمت زيداً قائماً، أو ضاحكاً، والمعرفة تستدعي معرفة

الذات فقط، أو يقال في الفرق بينهما: إن المعرفة يسبقها جهل، والعلم قد لا يسبقه جهل، ولذلك لا يجوز إطلاق المعرفة على الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا﴾ أصله: اعتدَيوا؛ لأنه من العدوان واويُّ اللام، أبدلت الواو ياء في الافتعال؛ لوقوعها خامسةً، فاتصل بالفعل واو الجماعة فضمت الياء؛ لمناسبتها، ثم أبدلت الياء ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فالتقى ساكنان فحذفت الألف؛ فقيل: اعتدوا بوزن افتعوا ﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾ والسبت في الأصل مصدر سبت؛ أي؛ قطع، وقال ابن عطية: والسبت إما مأخوذ من السُّبوت الذي هو الراحة والدعة، وإما من السبت وهو القطع؛ لأن الأشياء فيه سبتت وتمَّ خلقها، ثم سمي به اليوم من الأسبوع، ومنه قولهم: سَبَتَ رأسَه؛ أي حَلَقَه ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ أمرٌ من كان يكون، وأصل يكون: يَكْوُن بوزن يفعُل بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت إثر ضمها فصارت حرف مد، فلمَّا بُني الأمر من مضارعه حذف منه حرف المضارعة ونون الرفع، فقيل: كونوا بوزن فعلوا ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ وفي «المختار»: خسأ الكلب طرده من باب قطع، وخسأ هو بنفسه خضع وانخسأ أيضاً، وخسأ البصر حسر من باب قطع وخضع. اهـ. ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾ والنكال المنع، ومنه النكل، والنكل: اسمٌ للقيد من الحديد واللِّجام؛ لأنه يمنع به، وسمي العقاب نكالاً؛ لأنه يمنع به غير المعاقب أن يفعل فعله، ويمنع المعاقب أن يعود إلى فعله الأول، والتنكيل: إصابة الغير بالنكال ليرتدع غيره، ونكل عن كذا ينكل نكولاً من باب قعد إذا امتنع. اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾؛ لما فيه من إسناد ما للفاعل إلى المحل؛ لأن المنبت الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، علاقته

المحلية؛ لأن الأرض لما كانت محلاً للإنبات أسند إليها.

ومنها: الإجمال ثم التفصيل في قوله: ﴿مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾. إلخ؛ لأنه أوقع في النفس.

ومنها: الاستفهام الإنكاري المضمن للتوبيخ في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾؛ لأن ضربهما عليهم كناية عن إحاطتهما بهم، كما تحيط القبة بمن ضربت عليه نظير قول الشاعر:

إنَّ السَّماحةَ والمُروءةَ والنَّدى ... في قُبَّةٍ ضُربت على ابنِ الحَشْرَجِ

ومنها: الأمر للتعجيز والإهانة في قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ على حد قوله: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾؛ لأنهم لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم، إذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون إلى طريق من الطرق.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للتعظيم.

ومنها: تقييد قتل الأنبياء بغير الحق في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ للإيذان بأن ذلك عندهم أيضاً بغير الحق، إذ لم يكن أحد منهم معتقداً بحقية قتل نبي من الأنبياء، وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ...﴾ إلخ. اهـ. من «أبي السعود».

ومنها: تكرير اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾؛ للتأكيد إن قلنا: إن الثاني مشار به إلى ما أشير إليه بالأول.

ومنها: التعبير بالمضارع عن الماضي في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. الخ؛ لإفادة الاستمرار والدوام.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنه على تقدير القول؛ أي: قلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة واجتهاد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ إذ التولي حقيقة في الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والاعتقادات اتساعاً ومجازاً. اهـ. «سمين».

ومنها: استعمال الأمر في الإهانة والتحقير في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ لأنه ليس لهم قدرة على تحولهم إلى القردة، بل المراد بالأمر الإخبار عن تعلق القدرة، بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾؛ لأنه استعير فيه ما بين يديها للزمان الماضي، وما خلفها للمستقبل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جل وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر[1] فيما سبق بعض قبائح بني إسرائيل، وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، أردفه بذكر نوع آخر من مساوئهم وقبائحهم، ألا وهو مخالفتهم لأنبيائهم وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، مع كثرة اللجاج والعناد للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وجفائهم في مخاطبة نبيهم موسى عليه السلام.

وعبارة أبي حيان هنا: ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنه تقدم ذكر مخالفتهم لأنبيائهم، وتكذيبهم لهم في أكثر أنبائهم، فناسب ذلك ذكر هذه الآية؛ لما تضمنت من المراجعة، والتعنت، والعناد مرة بعد مرة. اهـ.

---

(١) العمدة.　　(٢) البحر المحيط.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهذا توبيخ آخر لأخلاقِ بني إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم؛ أي: واذكروا يا بني إسرائيل! قصة إذ قال موسى عليه السلام، لأسلافكم وأجدادكم الذين نكثوا ميثاقي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾؛ أي: إن ربكم يأمركم أن تذبحوا بقرة حين تدافعوا في القتيل الذي وجد فيهم، ولم يظهر قاتله، فترافعوا إلى موسى، فاشتبه أمر القتيل على موسى، وكان[1] ذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله تعالى ليبين لهم بدعائه، فدعاه لهم، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها، فيحيا فيخبرهم بقاتله. واسم القتيل عاميل، وكان القاتل ابن عم المقتول، وكان مسكيناً والمقتول كثير المال، فاستعجل ميراثه. وقيل: كان أخاه. وقيل: ابن أخيه ولا وارث له غيره، فلما طال عليه عمره قتله ليرثه. وقال عطاء: كان تحت عاميل بنت عم لا مثل لها في بني إسرائيل في الحسن والجمال؛ فقتله لينكحها. كذا في «البحر». وأول هذه القصة، قوله سبحانه وتعالى الآتي: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ وإن كان مؤخراً في التلاوة، فحق[2] ترتيبها أن يقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ إلـخ. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ إلخ. ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ إلخ. وقوم موسى أتباعه وأشياعه.

فإن قلت: إذا كان حق الترتيب هكذا، فما وجه عدول التنزيل عنه؟

قلت: وجهه أنه لما ذكر سابقاً خبائثهم وجناياتهم ووبخوا عليها، ناسب أن يقدم في هذه القصة ما هو من قبائحهم، وهو تعنتهم على موسى، لتتصل قبائحهم بعضها ببعض. اهـ. من «الخازن».

روي عن ابن عباس، وسائر المفسرين[3]: أن رجلاً فقيراً في بني إسرائيل

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) المراح.

قتل ابن أخيه، أو أخاه، أو ابن عمه لكي يرثه، ثم رماه في مجمع الطريق، ثم شكا ذلك إلى موسى عليه السلام، فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه؟ فسأله فأوحى الله إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فتعجبوا من ذلك، ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حال، واستقصوا في طلب الوصف، فلما تعينت البقرة لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسان معين، ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها فذبحوها، وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فصار المقتول حياً وعين لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية، فقتلوه قوداً، فلم يعط من ماله شيئاً، ولم يُورَثُ قاتلٌ بعده.

وقد روى الحسن مرفوعاً: أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفس محمد بيده، لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم)[1] وإنَّما اختصَّ البقر من سائر الحيوانات، لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله، فاختبروا بذلك إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه؛ أو لأن أراد تعالى أن يصل الخير للغلام الذي كان باراً بأمه، كما سيأتي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بضم الراء، وعن أبي عمرو السكون والاختلاس، وإبدال الهمزة ألفاً ﴿قَالُوٓا۟﴾ كلام مستأنف واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا صنعوا؟ هل سارعوا إلى الامتثال أولاً؟ فقيل: قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ أي: أتجعلنا مكان هزء وسخرية، وتستهزىء بنا وتلعب بنا يا موسى؟ حيث نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة، ولا جامع بينهما، وإنما قالوا ذلك: لأنهم لم يعلموا أن الحكمة هي حياة القتيل بضربه ببعض البقرة، وإخباره بقاتله. قال بعض العلماء: كان ذلك هفوة منهم وجهالة، فما انقادوا للطاعة وذبحها، وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالإجلال والاحترام، ثم ينتظروا ما يحدث بعد ﴿قَالَ﴾ موسى وهو استئناف أيضاً ﴿أَعُوذُ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: امتنع بالله تعالى وألتجىء إليه من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي[1]: من المستهزئين بالمؤمنين؛ لأن الهزء والسخرية في أثناء تبليغ أمر الله تعالى جهل وسفه، ودل على أن الاستهزاء بأمر الدين كبيرة، وكذلك بالمسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل، وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المزاح من الاستهزاء. وقال علي ـ رضي الله عنه ـ لا بأس بفكاهة يخرج بها الإنسان من حد العبوس. روي أنه قَدِمَ رجل إلى عبيد الله بن الحسين وهو قاضي الكوفة، فمازحه عبيد الله، فقال: جبتك هذه من صوف نعجةٍ، أو من صوف كبش؟ فقال: أتجهل أيها القاضي؟ فقال له عبيد الله: وأين وجدت المزاح جهلاً؟ فتلا هذه الآية، فأعرض عنه عبيد الله؛ لأنه رآهُ جاهلاً لا يعرف المزاح من الاستهزاء، أو المعنى مِنَ المُبلِّغِين عن الله الكذب. اهـ. «صاوي».

وأصل هذه القصة[2]: أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل، وله عِجْلَةٌ أتى بها إلى غَيْضة، وقال: اللهم! إني استودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر، ومات الرجل، فصارت العجلة في الغيضة عواناً؛ أي: نصفاً بين المسِنَّة والشابَّة، وكانت تهرب من كل من رآها، فلما كبر الابن كان باراً بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث، يصلي ثلثاً، وينام ثلثاً، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق فيبيعه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمه يوماً: إن أباك قد ورثك عجلة استودعها في غيضة كذا، فانطلق وادع إلٰه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، أن يردها عليك، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيَّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تلك البقرة تسمَّى المذهبة؛ لحسنها وصفرتها؛ لأن صفرتها كانت صفرة زينٍ لا صفرة شين، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها، وقال: أعزم عليك بإلٰه إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها يقودها فتكلَّمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أيها الفتى البارُّ لوالدته! اركبني، فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أُمِّي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

بني إسرائيل، لو ركبتني ما كنت تقدر عليَّ أبداً، فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفَعَلَ لبرِّك بأمك، فسار الفتى بها إلى أمه، فقالت له: إنك فقير لا مال لك ويشقُّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة. قال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير، فانطلق بها إلى السوق، فبعث الله ملكاً لِيرُيَ خَلْقَهُ قُدْرَتَهَ، وليختبر الفتى كيف برُّه بأمه، وكان الله به خبيراً، فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال بثلاثة دنانير واشترط عليك رضى والدتي، فقال الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك، فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضى أمي، فردَّها إلى أمه وأخبرها بالثمن، فقالت: ارجع فبعهابستة دنانير على رضىً مني، فانطلق بها إلى السوق فأتى الملك، فقال: أستأمرت أمك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا انقصها من ستة على أن استأمرها، فقال الملك إني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى ورجع إلى أمه وأخبرها بذلك، فقالت: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي؛ ليختبرك، فإذا أتى فقل له: أتأمر أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل، فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها: أمسكي هذه البقرة، فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيلٍ يقتل في بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلا بملىء مسكها دنانير، فأَمْسَكوها، وقدر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها، فما زالوا يستوصفونها حتى وصف لهم تلك البقرة بعينها مكافأةً له على برّه بوالدته، فضلاً منه ورحمة. والوجه في تعيين البقرة دون غيرها من البهائم؛ أنهم كانوا يعبدون البقر والعجاجيل، وحُبِّب إليهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ ثم تابوا وعادوا إلى طاعة الله تعالى وعبادته، فأراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حبب إليهم؛ ليظهر منهم حقيقة التوبة، وانقلاع ما كان منهم في قلوبهم وقيل: كان أفضل قرابينهم حينئذٍ البقر، فأمروا بذبح البقرة؛ ليجعل الله التقرب لهم بما هو أفضل عندهم.

وفي هذه القصة[1] بيان نوع آخر من مساويهم، لنعتبر به ونتعظ، وفيه من

---

(١) المراغي.

وجوه العبر:

١ ـ أن التنطع في الدين والإلحاف في السؤال، مما يَقْضِي التشديدَ في الأحكام، ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ وبما جاء في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ: «وكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

٢ ـ أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه، وليعلم بأجابتهم ما كان في نفوسهم من حب عبادته.

٣ ـ استهزاؤهم بأوامر الأنبياء.

٤ ـ أن يحيا القتيل بقتل حي، فيكون أظهر لقدرته تعالى في اختراع الأشياء من أضددادها.

ثم إن القوم[١] لما علموا أن ذبح البقرة عزمٌ من الله وجدٌّ، استوصفوها من موسى فـ ﴿قَالُواْ﴾ كأنه قيل: فماذا قال قوم موسى بعد ذلك؟ فقيل: توجهوا نحو الامتثال، وقالوا: يا موسى! ﴿ٱدۡعُ لَنَا﴾؛ أي: سل لأجلنا ﴿رَبَّكَ﴾ أن يبين لنا سنَّها إن دعوته ﴿يُبَيِّن﴾ ويوضح ﴿لَّنَا﴾ ويعرِّف ويُعيِّن ﴿مَا هِيَ﴾؛ أي: جواب ما تلك البقرة؛ أي: ما سنُّها؟ أصغيرةٌ أم كبيرة. وهذا تشديد منهم على أنفسهم. و﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿هِيَ﴾ خبره، والجملة في حيز النصب ببيين؛ أي: يبين لنا جواب السؤال. وقد سألوا عن حالها وصفتها، لمَّا قرع أسماعهم ما لم يعهدوه من بقرةٍ ميتةٍ يضرب ببعضها ميت فيحيىٰ، فما ههنا سؤالٌ عن الحال والصفة. تقول: ما زيد، فيقال: طبيب أو عالم؛ أي: ما سنُّها وما صفتها من الصغر والكبر ﴿قَالَ﴾؛ أي: موسى عليه السلام، بعد ما دعا ربه بالبيان وأتاه الوحي ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة المأمور بذبحها ﴿بَقَرَةٞ لَّا﴾ هي ﴿فَارِضٞ﴾؛ أي: مسنةٌ هرمةٌ من الفرض وهو القطع، كأنها قطعت سنُّها وبلغت

---

(١) روح البيان.

آخره ﴿وَلَا﴾ هي ﴿بِكْرٌ﴾؛ أي: فتية صغيرة، ولم يؤنِّث البكر والفارض؛ لأنهما كالحائض في الاختصاص بالأنثى، والفارض المسنة التي لا تلد، والبكر الفتيَّة التي لم تلد ﴿عَوَانٌ﴾؛ أي: وسطٌ نصفٌ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبح البقرة تعرفوا القاتل، ولا تكثروا السؤال فيشدَّد عليكم، وحذف الجار قد شاع في هذا الفعل، حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين، فأبوا عن الانتهاء فـ ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً منهم لموسى، وهذا مستأنف أيضاً، كأنه قيل: ماذا صنعوا بعد هذا البيان الثاني والأمر المكرر، فقيل: قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ أي: سَل لنا ربك ما لونها؟ أهي سوداء أم صفراء أم حمراء؟ ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ جواب ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان حتى تتبين لنا البقرة المأمور بها، واللون عرض مشاهد يتعاقب على بعض الجواهر.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام، بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجيء البيان منه تعالى ﴿إنه﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة التي أمرتكم بذبحها ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ والصفرة لون بين البياض والسواد وهي الصفرة المعروفة، وليس المراد بها هنا السواد، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: سود، والتعبير عن السواد بالصفرة؛ لما أنها من مقدماته؛ وإما لأن سواد الإبل يعلوه صفرة ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: صافية صفرتها لم يخالطها لون آخر، وهو مبتدأ وخبر، والجملة صفة ثانية لبقرة، والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها. يقال في التأكيد: أصفر فاقعٌ، كما يقال: أسود حالك. وفي إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال اللون؛ لملابسته به ما لا يخفى من فضل التأكيد، كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتها، كما في جد جده، وجنونك جنونٌ. قيل: كانت صفراء الكل حتى القرن والظلف ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها وتبهجُّهم، أي: تعجبهم لحسن صورتها، ومنظرها، وهيئتها، وشدة صفرتها لغرابتها وخروجها عن المعتاد، والمعنى: يعجبهم حسنها، وصفاء لونها، ويُفرِّح قلوبهم لتمام خلقتها، ولطافة قرونها وأظلافها، والسرور: لذَّةٌ في القلب عند حصول نفعٍ أو توقعه، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ (من لبس نعلاً صفراء قلَّ همُّه)؛ لأن الله تعالى قال: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ ونهى ابن الزبير، ومحمد بن كثير عن لباس النعال السود؛ لأنها تهمُّ. وذكر أنَّ الخُفَّ الأحمر خُفُّ فرعون، والخفَّ

الأبيض خُفُّ وزيره هامان، والخُفُّ الأسود خفُّ العلماء. وروي أنَّ خُفَّ النبي ﷺ كان أسود؛ أي: إنها بقرةٌ صفراء فاقع لونها فاذبحوها، ولا تكثروا السؤال، فأبوا عن قبول ذلك فـ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ أي: سَلْ لنا ربك ما حالها؟ أعاملةٌ هي أم سائمة؟ إن دعوته ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ جواب ﴿مَا هِيَ﴾؛ أي: ما حال تلك البقرة؟ أعاملة أم سائمة؟ وفي «الكشاف» هذا تكريرٌ للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشافٌ زائدٌ؛ ليزدادوا بياناً لوصفها، والاستقصاء شؤمٌ. وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاةً، سألتني أضائنٌ أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني وفي الحديث: «أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحرِّم لأجل مسألته».

﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ﴾؛ أي: إن[1] جنس البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فـ ﴿تشابه﴾ أي: تشاكل ﴿عَلَيۡنَا﴾؛ أي: فاشتبه أمرها علينا، فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتنا ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى وصفها، وسنعرف ما التبس علينا من أمرها وتشابه، أو لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها. وعن عطاء: لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد؛ أي: لو لم يقولوا إن شاء الله. وقال الطبري: لما زادوا نبيهم أذًى وتعنتاً، زادهم الله عقوبة وتشديداً، ولو أنَّ بني إسرائيل، كما قال ابن عباس (أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم) والمراد بالاستثناء هنا التعليق بالمشيئة، وسمي التعليق بها استثناء؛ لصرفه الكلام عن الجزم، وعن الثبوت في الحال من حيث التعليق بما لا يعلمه إلا الله تعالى. اهـ. «كرخي» قال أبو عبد الله[2]، محمد بن أبي الفضل المرسيُّ في «ريِّ الظمآن»: وجه الاشتباه عليهم: أنَّ كُلَّ بقرة لا تصلح عندهم أن تكون آيةً؛ لما علموا من ناقة صالح، وما كان فيها من العجائب، فظنُّوا أن الحيوان لا يكون آية إلا إذا كان على ذلك الأسلوب، وذلك لمَّا نُبِّئُوا أنها آيةٌ سألوا عن ماهيتها وكيفيتها، ولذلك لم يسألوا موسى عن ذلك، بل سألوه أن يسأل الله لهم عن ذلك، إذ الله تعالى هو العالم بالآيات، وإنما سألوا عن

---

(١) العمدة.

(٢) البحر المحيط.

التعيين وإن كان اللفظ مقتضاه الإطلاق؛ لأنهم لو عملوا بمطلقه لم يحصل التقصّي عن الأمر بيقينٍ. انتهى كلامه. وقال غيره: لما لم يكن التماثل من كل وجه، وحصل الاشتباه عليهم، ساغ لهم السؤال، فأُخبِروا بسنها فوجدوا مثلها في السن كثيراً، فسألوا عن اللون فأخبروا بذلك، فلم يَزُل اللبس بذلك، فسألوا عن العمل فأخبروا بذلك، وعن بعض أوصافها الخاصِّ بها فزال اللبس بتبيين السن، واللون، والعمل، وبعض الأوصاف، إذ وجود بقرٍ كثيرٍ على هذه الأوصاف يندر، فهذا هو السبب الذي جرَّأهم على تكرار السؤال.

وقرأ الجمهور[1] ﴿تَشَٰبَهَ﴾ جعلوه فعلاً ماضياً على وزن تفاعل مسنداً لضمير البقر على أنَّ البقر مذكر. وقرأ الحسن ﴿تشابهُ﴾ بضم الهاء جعله مضارعاً محذوف التاء، وماضيه ﴿تَشَٰبَهَ﴾ وفيه ضمير يعود على البقر على أنَّ البقر مؤنث. وقرأ الأعرج كذلك، إلا أنه شدَّد الشين جعله مضارعاً وماضيه ﴿تَشَّابَهَ﴾ أصله: تتشابه، فأدغم، وفيه ضمير يعود على البقر. وروي عن الحسن أيضاً. وقرأ محمد المعيطيُّ المعروف بذي الشامة (تَشَبَّه علينا) جعله ماضياً على تفعل. وقرأ ابن مسعود ﴿يَشَّابَهُ﴾ بالياء وتشديد الشين جعله مضارعاً من تفاعل، ولكنه أدغم التاء في الشين. وقرىء ﴿مُتَشَبِّه﴾ اسم فاعل من تشبَّه. وقرأ بعضهم ﴿يَتَشَابَهُ﴾ مضارع تشابه، وفيه ضمير يعود على البقر. وقرأ أُبيٌّ ﴿تَشَابَهَت﴾ وقرأ الأعمش ﴿مُتشابِهٌ﴾ و﴿مُتشابهةٌ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿تَشَّابَهَتْ﴾ بتشديد الشين مع كونه فعلاً ماضياً وبتاء التأنيث آخره. فهذه اثنتا عشرة قراءة، وتوجيه هذه القراءات ظاهرٌ إلا قراءة ابن أبي إسحاق ﴿تشابهت﴾، فقال بعض الناس: لا وجه لها، وتبيين ما قاله: أنَّ تشديد الشين إنما يكون بإدغام التاء فيها، والماضي لا يكون فيه تاءان، فتبقى إحداهما وتدغم الأخرى، ويمكن أن توجه هذه القراءة على أن أصله: اشابهت، والتاء هي تاء البقرة، وأصله: إن البقرة اشابهت علينا، فأدغمت التاء في الشين فاجتلبت همزة الوصل. وقد أطال الكلام هنا أبو حيان، فراجعه فإنه لا يليق بمختصرنا هذا.

---

(١) البحر المحيط.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى عين البقرة المأمور بذبحها، أو إلى ما خفي من أمر القاتل، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا بذبح البقرة. وفي تعليق هدايتهم بمشيئة الله إنابة، وانقيادٌ، ودلالةٌ على ندمهم على ترك موافقة الأمر. وتوسط الشرط هنا بين اسم إنَّ وخبرها؛ ليحصل توافق رؤوس الآي؛ وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله جاء خبر إن اسماً؛ لأنه أدل على الثبوت، وعلى أن الهداية حاصلة لهم، وأكد بحرفي التأكيد إنَّ واللام، ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى، إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم، وأكدوا تلك النسبة ولو كان تعليقاً محضاً لما احتيج إلى تأكيدٍ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾؛ أي: إن البقرة التي أمرتكم بذبحها ﴿بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ أي؛ لا مذللة ذللها العمل. يقال: دابة ذلول بيِّنة الذل بالكسر، وهو خلاف الصعوبة، وهو صفة لبقرة، بمعنى: أنها بقرة غير مذللة بأيِّ عمل، ولا مُهيَّأة لأي خدمة. قال الحسن: كانت البقرة وحشية، ولهذا وصفت بأنها لا تثير الأرض بالحرث، ولا يُسْنَى عليها فتسقي، ولم يقل: ذلولة بالتاء؛ لأن فعولاً إذا كان وصفاً لم تدخله الهاء، كصبور وقوله: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي تقلب الأرض للزراعة صفة ذلول، كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ للأرض، وقوله: ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ معطوف على تثير على كونه صفةً لذلول؛ أي: ليست بسانية يسقي عليها بالسواني، ولا الأولى للنفي، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى: لا ذلولٌ تثير وتسقي على أن الفعلين صفتان لذلول، كأنه قيل: لا ذلولٌ مثيرةٌ وساقيةٌ، كذا في «الكشاف» والمعنى؛ أي: ولا تحمل الماء إلى الأرض المهيأة للزراعة، يعني: أنها فارغة من أي عمل ليست مسخرة لحرث الأرض، ولا لسقاية الزرع، ولا لغيرهما.

قال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: دلت الآية على أن البقرة كانت ذَكَراً؛ لأن إثارة الأرض وسقي الحرث من عمل الثيران، وأما الضمائر الراجعة إليها على التأنيث فللفظها، كما في قوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ فالتاء للتوحيد لا للتأنيث خلافاً لأبي يوسف، إلا أن يكون أهل ذلك الزمان يحرثون بالأنثى، كما يحرث أهل هذا الزمان بالذكر ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: سليمة من جميع العيوب، سلمها الله تعالى منها، أو معافاة من العمل وآثاره، سلَّمها أهلها منه، أو مخلصة اللون

صافيته من سلم له كذا إذا خلص له، لم يشب صفرتها شيء من الألوان، ويؤيِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: لا خَلْط في لونها يخالف لون جلدها، فهي صفراء كُلُّها حتى قرنها وظلفها. قال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد، بل هي صافيةٌ، وأصله: وشيةٌ، كالعدة، والصفة، والزنة. أصلها: وعدٌ ووصفٌ ووزنٌ، واشتقاقها من وشى الثوب وهو استعمال ألوان الغزل في نسجه، وقال بعضهم: الشية بكسر الشين العلامة، والمراد: لا لمعة فيها من لون آخر سوى الصفرة ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال قوم موسى لموسى عندما سمعوا هذا النعوت ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾؛ أي: في هذا الوقت الحاضر الذي أجبت فيه الجواب الأخير ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: بحقيقة وصف البقرة وما بقي إشكالٌ في أمرها. وقرأ الجمهور ﴿الأن﴾ بإسكان اللام والهمزة بعده. وقرأ ورش عن نافع بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وهي في المتواتر وعن نافع ـ في الشاذ ـ روايتان: إحداهما: حذف واو قالوا إذ لم يعتدَّ بنقل الحركة، إذ هو نقلٌ عارض، والرواية الأخرى إثبات الواو اعتداداً بالنقل، واعتباراً لعارض التحريك؛ لأنَّ الواو لم تحذف إلا لأجل سكون اللام بعدها، فإذا ذهب موجب الحذف عادت الواو إلى حالها من الثبوت.

والمعنى: أي في هذا الوقت الحاضر الذي قلت فيه: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ نطقت بالبيان الشافي، وأتيت بالوصف التام الذي تتميَّز به عن أجناسها، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار لأمه، فاشتروها بملء جلدها ذهباً ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم ما قاربوا أن يذبحوها، لأجل غلاء ثمنها؛ أو لخوف الفضيحة بإظهار الله نبيه موسى على القاتل؛ أي: قاربوا أن يتركوا ذبحها لأجل ذلك، والجملة حال من ضمير ذبحوا؛ أي: فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه. والخلاصة: أنهم ذبحوها بعد توقف وبطءٍ. قيل: مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة، فعلى العاقل أن يسارع إلى الامتثال، وترك التفحص عن حقيقة الحال، فإن قضية التوحيد تستدعي ذلك، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعمَّا شاهدوه من آيات الله الباهرة، فقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ وهذا مؤخر لفظاً مقدَّم معنى؛ لأنه أول القصة؛ لأنَّ أصيل

الكلام وتركيبه أن يقال: وإذ قتلتم نفساً، وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى، فقال موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ وتضربوا القتيل ببعض البقرة فيُحييٰ فيخبر عن قاتله، وإنما[1] أخَّره ولم يقدِّمه لفظاً؛ لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة؛ للكشف عن القاتل؛ وليواصل قبائح بني إسرائيل بعضها ببعض، كما مر. فهو اعتراضٌ بين المعطوف وهو قول: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ والمعطوف عليه وهو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ كما سيأتي في مبحث الإعراب. وأضيف القتل إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ لرضاهم بفعل أولئك الأسلاف، وخوطبت الجماعة بالقتل مع كون القاتل واحداً؛ لوجود القتل فيهم. والقتل: نقضُ البنية الذي بوجوده تنتفي الحياة. واسم القتيل: عاميل بن شراحيل. وقيل: نكَّار بن شراحيل، والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل! قصة إذ قتل أسلافكم نفساً محرَّمة ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾؛ أي: اختلفتم، وتنازعتم، وتخاصمتم ﴿فِيهَاۖ﴾؛ أي: في شأن قتل تلك النفس وبيان قاتلها، وأصبح كلٌّ فريق يدفع أن يكون قاتلها وينسبه إلى غيره من الدرء وهو الدفع؛ أي: تدافعتم وتخاصمتم في شأنها، إذ كُلٌّ واحد من الخصماء يدافع الآخر؛ أي: يدفع الفعل عن نفسه، ويحيله على غيره.

قال أبو حيان[2]: ويحتمل هذا التدارؤ وهو التدافع أن يكون حقيقةً، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدي لشدة الاختصام، ويحتمل المجاز بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض فدفع المطروح عليه ذلك إلى الطارح، أو بأن دفع بعضهم بعضاً بالتُّهمة والبراءة. اهـ.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ بالإدغام. أصله: تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال فتعذَّر الابتداء بالمدغم الساكن، فاجتلبوا همزة الوصل، فصار ادرأتم. وقرأ أبو حيوة، وأبو السوار الغنويُّ ﴿فادَّرَأْتُم﴾ بغير ألف قبل الراء، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخۡرِجٞ﴾؛ أي: مظهر لا محالة ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ ـه،

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

وتخفونه، وتسترونه من أمر القتل لا يتركه مكتوماً مستوراً. جملةٌ معترضة بين المعطوف عليه وهو قوله: ﴿فَٱدَّٰرَٰءۡتُمۡ﴾ وبين المعطوف وهو قوله: ﴿فَقُلۡنَا﴾ لموسى ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾؛ أي: اضربوا هذا القتيل، والضمير راجع إلى النفس بمعنى القتيل، أو بمعنى الشخص، أو بمعنى الإنسان ﴿بِبَعۡضِهَاۚ﴾؛ أي: ببعض البقرة أيِّ بعضٍ كان؛ أي: بعضوٍ من أعضائها. قيل: بلسانها؛ لأنه آلة الكلام، أو بعجب الذنب؛ لأنه أوَّل ما يخلق وآخر ما يبلى، ويركَّب عليه الخلق. وقيل: بفخذها الأيمن. وقيل: غير ذلك من الأعضاء، والبعض أقلُّ من النصف، وفي الكلام حذف، تقديره: فضربوه ببعضها، فقام القتيل حياً بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دماً، فقال: قتلني فلان، ثم سقط ومات مكانه، فقتل قاتله، فحرم ميراثه الذي استعجله؛ لأن من استعجل بالشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه. وفي الحديث: «ما وَرِثَ قاتلٌ بعد صاحب البقرة» ثُمَّ إنَّ موسى عليه السلام، أمرهم بضربه ببعضها وما ضربه بنفسه؛ نفياً للتهمة، كيلا ينسب إلى السحر، أو الحيلة. والخطاب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإحياء العجيب ﴿يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يوم القيامة لمنكري البعث في زمنه ﷺ، والحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجة إلى تقدير القول، كما في القول الآتي، بل تنتهي الحكاية عند قوله: فـ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ وقيل: الخطاب للحاضرين عند حياة القتيل، والكلام حينئذٍ على تقدير القول؛ أي: فضربوه فحيي وقلنا كذلك. إلخ؛ أي: كما أحيا الله سبحانه هذا القتيل بعد موته في الدنيا يحيي الله الموتى في الآخرة من غير احتياج إلى آلةٍ.

فإن قلت: إن بني إسرائيل كانوا مقرين بالبعث، فما معنى إلزامهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؟.

قلت: كانوا مقرين قولاً وتقليداً، فثبته عياناً وإيقاناً، وهو كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾.

﴿وَيُرِيكُمۡ﴾ أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ أو أيها الحاضرون حياة القتيل ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير، ويجعلكم مبصرين براهين قدرته وتوحيده، وإحيائه للموتى عند البعث، وصدق رسله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لكي تعلموا وتفهموا قدرة الله، وأن محمداً مُحِقٌّ صادق،

وأن من قدر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء نفوس كثيرة، فتُصدِّقوا بالبعث بعد الموت. يقال: عقلت نفسي عن كذا؛ أي: منعتها منه؛ أي: لتكمُل عقولكم وتعلموا أنَّ من قدر على إحياء نفس واحدة، قادر على إحياء الأنفس كلها، وتمنعوا نفوسكم عن هواها، وتطيعوا الله فيما يأمركم به. ولعل الحكمة في اشتراط ما اشترط في الإحياء من ذبح البقرة وضربه ببعضها، مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداءً بلا واسطة أصلاً؛ لاشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى، والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين، وأنَّ من حقِّ الطالب أن يُقدِّم قربةً، ومن حق المتقرِّب أن يتحدَّى الأحسن ويغالي بثمنه، كما يروى عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنه ضحَّى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار، وأنَّ المؤثر هو الله تعالى، وإنما الأسباب أماراتٌ لا تأثير لها.

واعلم: أن الضرب كان على جيد القتيل، وذلك قبل دفنه، ومن قال: إنهم مكثوا في طلبها أربعين سنة، أو من يقول: إنهم أمروا بطلبها ولم تكن في صلب ولا رحم، فلا يكون الضرب إلا بعد دفنه. قيل: على قبره. والأظهر أنه المباشر بالضرب لا القبر، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ خطاب لأهل عصر النبي ﷺ من الأحبار، و﴿ثُمَّ﴾؛ لاستبعاد القسوة من بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها. وعبارة «الصاوي» هنا: نزَّل استبعاد قسوة قلوبهم؛ لظهور خوارق العادات العظيمة منزلة التراخي، فأتى بثم، وأكده بالظرف بعده. اهـ. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ والقسوة والقساوة: عبارةٌ عن الغلظ والصلابة، كما في الحجر، ووصف القلوب بالقسوة والغلظ؛ مثلٌ لنبوِّها وتكبرها عن الاعتبار، وأنَّ المواعظ لا تؤثر فيها، أي ثمَّ صَلُبَتْ وغلظت قلوبكم يا كفار بني إسرائيل! فلم تقبل الحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد سماع تلك الآيات الباهرة، أو رؤيتها من إحياء القتيل وإخباره بقاتله، والمسخ قردةً وخنازير، ورفع الجبل فوقهم، وانبجاس الماء من حجر، وغيرها من الآيات، والقوارع التي تميع منها الجبال، وتلين بها الصخور ﴿فَهِيَ﴾؛ أي: القلوب ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾؛ أي: مثل الحجارة في

شدتها وقسوتها، والفاء لتفريع مشابهتها لها، على ما ذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه، كقولك: احمَرَّ خدُّه فهي كالورد؛ أي: فقلوبكم أيها اليهود مثل الحجارة الجامدة في القساوة، والصلابة، واليبس ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ منها ﴿قَسْوَةً﴾؛ أي: بل هي أزيد قساوة وصلابة من الحجارة. وعنى بهذه القسوة. تركهم الإيمان بمحمد ﷺ بعد ما عرفوا صدقه، وقدرة الله على عقابهم بتكذيبهم إياه. وقوله: ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز أو بمعنى بل، أو للتخيير؛ أي: إن شئتم فاجعلوها أشدَّ منها، كالحديد، فأنتم مصيبون، وإنما لم تحمل ﴿أَوْ﴾ على معناها الأصلي وهو الشكُّ والتردُّد؛ لَمَّا أنَّ ذلك محال على علام الغيوب.

فإن قلت: لِمَ قيل: ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟ وفعل القسوة مما يبنى فيه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟

قلت: لكونه أبين وأدلَّ على فرط القسوة من لفظ أقسى؛ لأن دلالته على الشدة بجوهر اللفظ الموضوع لها مع هيئة موضوعة للزيادة في معنى الشدة، بخلاف لفظ الأقسى، فإن دلالته على الشدة والزيادة في القسوة بالهيئة فقط.

والحكمة في ضرب قلوبهم مثلاً بالحجارة، وتشبيهها بها دون غيرها من الأشياء الصلبة من الحديد، والصفر، وغيرهما؛ لأن الحديد تلينه النار وهو قابلٌ للتليين، كما لان لداود عليه السلام، وكذا الصفر حتى يضرب منها الأواني والحجر لا يلينه نارٌ ولا شيءٌ آخر، فلذلك شُبِّه قلب الكافر بها، وهذا والله أعلم في حقِّ قوم علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون، والمعنى؛ أي: إن قلوبكم صلبت بعد إذ رأيتم الحقَّ وعرفتموه، واستكبرت عن الخضوع والإذعان لأمر الدين، فهي كالحجارة صلابةً ويبساً، بل أشدُّ منها. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾[1] بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة، وتقريرٌ لقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ و﴿مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ والاسم قوله: ﴿لَمَا﴾ واللام لام الابتداء؛ أي: لأحجاراً ﴿يتفجر﴾؛ أي: يتفتح بكثرة وسعةٍ ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ إلى ما ﴿الْأَنْهَارُ﴾ جمع

---

(١) روح البيان.

نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء، والمعنى؛ أي: وإن من الحجارة ما فيه خروقٌ واسعةٌ يتدفَّق منها الماء الكثير؛ أي: يتصبَّب؛ أي: وإن من بعض الحجارة الحجر الذي يتصبَّب ويخرج منه الأنهار الكبار. قيل: أراد به جميع الأحجار. وقيل: أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى عليه السلام، ليسقي الأسباط ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾؛ أي: من الحجارة ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ ويتصدَّع ويتخرَّق طولاً أو عرضاً. أصله: يتشقق، كما سيأتي. والتَّصدُّع جعْلُ الشيء ذا نواحي ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾؛ أي: ينشق إنشقاقاً قليلاً بالطول أو بالعرض ينبع منه الماء؛ ليكون عيناً نابعةً دون الأنهار. وقرأ الجمهور ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ في المواضع الثلاثة مشددة. وقرأ قتادة في كلها مخففة على جعلها مخففة من الثقيلة. ذكره في «البحر».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ بالياء مضارع تفجر. وقرأ مالك بن دينار ﴿ينفجر﴾ بالياء، والنون مضارع انفجر، وكلاهما مطاوعٌ، أمَّا يتفجر فمطاوع فجَّر بالتشديد، وأما ينفجر فمطاوع فجر مخففاً، والتفجُّر التفتُّح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يندفق منها الماء الكثير الغمر. وقرأ أبيٌّ، والضحاك ﴿منها الأنهار﴾ بتأنيث الضمير. وقرأ الجمهور ﴿مِنْهُ﴾ بتذكيره، فالقراءة الأولى حملٌ على المعنى، وقراءة الجمهور حمل على اللفظ؛ لأنَّ ما، لها هنا لفظٌ ومعنى؛ لأن المراد به الحجارة، ولا يمكن أن يراد به مفرد المعنى فيكون لفظه ومعناه واحداً، إذ ليس المعنى وإن من الحجارة للحجر الذي يتفجر منه الأنهار؛ إنما المعنى وإن من الحجارة للأحجار التي يتفجر منها الأنهار، كما مرَّ. وقرأ الجمهور[2] ﴿يَشَّقَّقُ﴾ بتشديد الشين، وأصله: يتشقق، فبه قرأ الأعمش، فقلبت التاء شيناً وأدغمت الشين في الشين، فصار يشقق. وقرأ الأعمش أيضاً تَشَقق بالتاء والشين المخففة، ورأيتها معزوة لابن مصرف، ورأيت في بعض نسخ تفسير ابن عطية ما نصه: وقرأ ابن مصرف ﴿ينشقق﴾ بالنون وقافين، والذي يقتضيه اللسان بقاف واحدة مشددة، وقد يجيء

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الفلك في شعر، وهي قراءة شاذة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾؛ أي: من الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ﴾ وينزل ويتردى من أعلى الجبل إلى أسفله. وقرأ الأعمش ﴿يَهْبُطُ﴾ بضم الباء، وقد تقدم أنها لغة. ذكره في «البحر» ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ أي من خوف الله سبحانه وتعالى، وانقيادها لأمره. والخشية هي الخوف عن العلم، وهنا مجاز عن انقيادها لأمر الله؛ أي: فخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله، وأنها لا تمتنع عما يراد منها، وقلوبكم يا معشر اليهود! لا تلين، ولا تخشع، ولا تتحرك من خوف الله تعالى، ولا تفعل ما أمر به، وهذا[1] كله تعليل لتفضيل الحجارة عليهم.

والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل، فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، ويتفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به، وقلوب هؤلاء اليهود لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَافِلٍ﴾؛ أي: بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عن العمل الذي تعملونه، أو عن عملكم، فما إما موصول اسمي أو حرفي، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلوب، وما يترتَّب عليها من الأعمال السيئة، فقلب الكافر أشدُّ في القساوة في الحجارة، وإنها مع فقد أسباب الفهم والعقل منه، وزوال الخطاب عنها تخضع له تعالى وتتصدع. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقَلْبُ الكافر مع وجود أسباب الفهم والعقل، وسعة هيئة القبول لا يخضع، ولا يلين، والمعنى[2]؛ أي: وليس الله سبحانه غافلاً عن أفعالكم الخبيثة، ولا ساهياً عنها، بل هو محصٍ لها وحافظٌ إياها، وسيعاقبكم عليها في الآخرة؛ أي: وإن الله لبالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم عليها في الآخرة.

قرأ الجمهور[3]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، وهو الجاري على نَسَقِ قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، ويعقوب، وخلف، وأبو بكر بالياء؛ نظراً

---

(١) البضاوي.

(٢) العمدة.

(٣) البحر المحيط.

إلى ما بعده، ويكون ذلك التفاتاً إذ خرج من الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿يعملون﴾ وحكمة هذا الالتفات: أنه أعرض عن مخاطبتهم وأبرزهم في صورة من لا يقبل عليهم بالخطاب، وجعلهم كالغائبين عنه؛ لأن مخاطبة الشخص ومواجهته بالكلام، إقبال من المخاطب عليه وتأنيسٌ له، فقطع عنهم مواجهته لهم بالخطاب؛ لكثرة ما صدر عنهم من المخالفات والخلاصة: إن[1] هذه الحجارة تارة تتأثر تأثراً يعود بمنفعة عظيمة على الناس، والحيوان، والزرع بخروج الأنهار، وأخرى تتأثر تأثراً ضعيفاً يترتب عليه منفعة قليلة، فتنبع منه العيون والآبار، وحيناً تتأثر بالتردِّي والسقوط بلا منفعة للناس، وقلوب هؤلاء لا تتأثر بحال، فلا تجدي فيها الحكم والمواعظ التي من شأنها أن تنفذ في الوجدان، وتصل إلى الجنان، وإن الله تعالى لكم بالمرصاد، فهو حافظ لأعمالكم ومحصيها عليكم، ثم يجازيكم بها وهو يربِّيكم بصنوف النِّقم إذا لم تجد فيكم ضروب النعم، ولا يخفى ما في هذا من شديد التهديد والوعيد.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب معطوف على نعمتي، والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي، وحين قال موسى لقومه ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ متعلق بقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ فعل ومفعول به، والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول قال. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿تَذْبَحُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بحذف النون ﴿بَقَرَةً﴾ مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بباء محذوفة متعلقة بيأمركم، تقديره: إن الله يأمركم بذبح

---

(١) المراغي.

بقرة ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كما مرت الإشارة إليه ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾ مقول محكي منصوب بقالوا، وإن شئت قلت: ﴿أَتَتَّخِذُنَا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿تتخذ﴾ فعل مضارع من أخوات ظن، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى، ونا ضمير لجماعة المتكلمين في محل النصب مفعول أول ﴿هُزُوًاۖ﴾ مفعول ثان، ولكن على تأويله باسم مفعول، تقديره: مهزؤاً بنا، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿أَعُوذُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على موسى ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قال ﴿أَنۡ﴾ حرف نصب ومصدر ﴿أَكُونَ﴾ فعل مضارع ناقص منصوب بأن، واسمها ضمير يعود على موسى ﴿مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ خبر ﴿أَكُونَ﴾ وجملة ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: من كوني من الجاهلين، الجار والمجرور متعلق بأعوذ.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ مقول محكي منصوب بقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱدۡعُ﴾ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وهي الواو، وفاعله ضمير مستتر يعود على موسى، والجملة في محل النصب مقول قالوا ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلق بادع ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿يُبَيِّن﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَّنَا﴾ متعلق بيبين، والجملة جواب الطلب لا محل لها من الإعراب ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿هِيَۚ﴾ ضمير للمفردة المؤنثة الغائبة في محل الرفع خبر لما الاستفهامية، والجملة الإسمية في محل النصب مفعول به ليبين، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: يبين لنا جواب ما هي ﴿قَالَ﴾ فعلٌ ماضٍ وفاعل مستتر يعود على موسى، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ...﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، وجملة إن في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا﴾ ناصب واسمه ﴿بَقَرَةٞ﴾

خبره، وجملة إن في محل النصب مقول يقول ﴿لَّا﴾ نافية ﴿فَارِضٌ﴾ صفة لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة، وجوزوا اعتراض لا النافية بين الصفة والموصوف؛ لأنه شائع كثير في كلامهم، كما في قولهم: مررت برجل لا طويل ولا قصير ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَّا﴾ نافية ﴿بِكْرٌ﴾ معطوف على ﴿فَارِضٌ﴾ وتكررت لا؛ لأنها متى وقعت قبل خبر، أو نعت، أو حال وجب تكرارها، كقولهم: زيد لا قائم ولا قاعد، ومررت به لا ضاحكاً ولا باكياً ﴿عَوَانٌۢ﴾ صفة ثانية لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة ﴿بَيْنَ﴾ منصوب على الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف. واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل الجر مضاف إليه، والظرف متعلق بعوان؛ لأنه بمعنى متوسط. وجوَّز إضافة بين إلى مفرد كونه بمعنى متعدد؛ لأن اسم الإشارة هنا قائم مقام اثنين، حيث وقعت الإشارة به إلى الفارض والبكر معاً. نظير قول عبد الله بن الزبعري يوم أحد قبل إسلامه:

إنَّ لـلـخَـيْـر ولِـلـشـرِّ مـدَى ... وكِـلاَ ذلـك وَجْـهٌ وقَـبَـل

﴿فَٱفْعَلُواْ﴾ الفاء فاء الفصيحة مبنية على الفتح؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما يقول الرب تعالى، وأردتم بيان ما هو الأصلح واللازم لكم، فأقول لكم: افعلوا ما تؤمرون ﴿افعلوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به وجملة ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما تؤمرون به.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ٱدْعُ لَنَا﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْعُ﴾ فعل أمر وفاعل مستتر ﴿لَنَا﴾ متعلق به ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿يُبَيِّن﴾ فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله ضمير يعود على الرب ﴿لَّنَا﴾ متعلق بيبين، والجملة جملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿مَا﴾ اسم استفهام في

محل الرفع مبتدأ ﴿لَوْنُهَا﴾ خبر، والجملة الإسمية في محل النصب مفعول به ليبين ﴿قَالَ﴾ فعل وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ...﴾ إلخ. مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة إن في محل النصب مقول يقول ﴿صَفْرَآءُ﴾ صفة لبقرة ﴿فَاقِعٌ﴾ صفة صفراء ﴿لَّوْنُهَا﴾ فاعل فاقع، ويجوز أن يكون ﴿فَاقِعٌ﴾ خبراً مقدماً و﴿لَّوْنُهَا﴾ مبتدأ مؤخراً، والجملة صفة لصفراء ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على البقرة، والجملة صفة ثانية لبقرة، تقديره: سارَّةٌ للناظرين.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن أردت بَسْطَ إعرابه، فقد تقدَّم لك قريباً، فجدِّد به عهداً ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾ ناصب واسمه ﴿تَشَٰبَهَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على البقر ﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بتشابه، وجملة تشابه في محل الرفع خبر إن، وجملة إن جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، ولكن في محل النصب مقول قالوا ﴿وَإِنَّآ﴾ ناصب واسمه ﴿إِن﴾ حرف شرط جازم ﴿شَآءَ﴾ في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل، وجواب الشرط محذوف، تقديره: اهتدينا، وجملة إن الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين إن وخبرها ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مُهْتَدُونَ﴾ خبر إن مرفوع بالواو وجملة إن معطوفة على جملة قوله ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ على كونها مقولاً لقالوا، وعلى كونها تعليلية.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُۥ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ خبره، والجملة الإسمية في محل النصب مقول قال ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول يقول ﴿لَّا﴾ نافية ﴿ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة، وإن شئت قلت ﴿لَّا﴾ اسم بمعنى غير في محل الرفع صفة

لبقرة، ولكن نقل إعرابها إلى ما بعدها؛ لكونها على صورة الحرف ﴿ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة مرفوع بالضمة الظاهرة ﴿تُثِيرُ﴾ فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير يعود على ذلول ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لذلول، تقديره: لا ذلول مثيرة الأرض، ويجوز أن تكون جملة ﴿تُثِيرُ﴾ حالاً من الضمير في ذلول، تقديره: لا تذل في حال إثارتها، وهذه الجملة الفعلية في المعنى مفسرة لذلول، فالنفي مسلط على الموصوف وصفته؛ أي: إنها بقرة انتفى عنها التذليل وإثارة الأرض، وانتفى عنها سقي الحرث أيضاً على ما سيأتي ﴿وَلَا﴾ الواو عاطفة ﴿لَا﴾ زائدة زيدت؛ لتأكيد نفي لا الأولى ﴿تَسْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ذلول ﴿ٱلْحَرْثَ﴾ مفعول به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة تثير الأرض على كونها صفة ثانية لذلول، تقديره: لا ذلول مثيرة الأرض وساقية الحرث، فالنفي مسلط على الموصوف بصفته ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صفة ثانية لبقرة ﴿لَّا﴾ نافية للجنس تعمل عمل إن ﴿شِيَةَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لَّا﴾ تقديره: لاشية موجودة فيها، وجملة ﴿لَّا﴾ في محل الرفع صفة ثالثة لبقرة، تقديره: موصوفة بعدم وجود شية فيها ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل مستأنف ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنى حرف التعريف، أو معنى حرف الإشارة، كأنه قلت: هذا الوقت والظرف متعلق بجئت، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿جِئْتَ﴾؛ أي: حال كونه ملتبساً بالحق ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ الفاء عاطفة على محذوف معلوم من السياق، تقديره: فطلبوها فوجدوها عند فتى بار فذبحوها. ﴿ذبحوها﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، وتلك المحذوفة معطوفة على جملة قالوا ﴿وَمَا﴾ الواو حالية ﴿مَا﴾ نافية ﴿كَادُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، لأنه من أفعال المقاربة، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في محل النصب خبر كاد، وجملة كاد في محل النصب حال من فاعل ذبحوها؛ أي: حال كونهم غير مقاربين فعل الذبح؛ يعني؛ قبل زمان الذبح.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ الواو عاطفة قصة على قصة ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في

محل النصب معطوف على نعمتي، تقديره: واذكروا يا بني إسرائيل! نعمتي وحين قتلتم نفساً ﴿قَتَلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿نَفْسًا﴾ مفعول به ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾ الفاء عاطفة ﴿ادّارأتم﴾ فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾ متعلق بادارئتم، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿قَتَلْتُمْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو اعتراضية ﴿الله مُخْرِجٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف الذي هو قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ والمعطوف عليه الذي هو قوله ﴿فَذَبَحُوهَا﴾. ﴿مَّا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿مُخْرِجٌ﴾؛ لأنه اسم فاعل من أخرج يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: هو يعود على الله ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَكْتُمُونَ﴾ خبره، وجملة كان صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: تكتمونه.

فإن قلت: كيف أُعمِل مخرجٌ وهو في معنى المضي؟

قلت: قد حكي ما كان مستقبلاً في وقت التدارُؤ، كما حكي الحاضر في قوله: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا﴾ الفاء عاطفة ﴿قلنا﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة قوله: فذبحوها ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾، فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مقول القول ﴿بِبَعْضِهَا﴾ جار ومجرور متعلق باضربوه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف وجوباً؛ لوقوعه صفة لمصدر محذوف، تقديره: يحيي الله الموتى يوم القيامة إحياءً مثل إحياء هذا القتيل ﴿يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين قصتي بني إسرائيل رداً على مشركي العرب المنكرين للبعث، كما سبق في مبحث التفسير ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الواو عاطفة ﴿يريكم﴾ فعل مضارع ومفعول أول، والفاعل ضمير مستتر يعود على الله ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة قوله كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على كونها معترضة لا محل لها من الإعراب ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل حرف نصب وتعليل بمعنى كي، والكاف اسمها، وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبرها،

وجملة لعل جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها سِيْقَتْ لتعليل الإراءة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿قَسَتْ﴾ فعل ماض مبني بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والتاء علامة تأنيث الفاعل ﴿قُلُوبُكُم﴾ فاعل، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فضربوه فَحَيِيَ القتيل، ثم قست قلوبكم، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ والأول أوضح وأولى ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقست ﴿فَهِىَ﴾ الفاء حرف عطف وتفريع ﴿هي﴾ مبتدأ ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، أو الكاف اسم بمعنى مثل في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿ٱلْحِجَارَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الإسمية معطوفة مفرَّعة على جملة قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى بل ﴿أَشَدُّ﴾ بالرفع معطوف على الكاف إذا كانت اسماً، أو على ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾؛ لأن الجار والمجرور في موضع رفع. وقرىء أشد بالفتح على أنه معطوف على الحجارة ﴿قَسْوَةً﴾ تمييز نسبةٍ منصوبٌ بأشد ﴿وَإِنَّ﴾ الواو استئنافية ﴿إِنّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لأنَّ ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم إن مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ فعل مضارع ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، وتقدير الكلام: وإن الذي يتفجر منه الأنهار لكائن من الحجارة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿مِنْهَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ مقدم على اسمها ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر ﴿يَشَّقَّقُ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ما، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، وتقدير الكلام: وإن الذي يشقق فيخرج منه الماء لكائن من الحجارة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى

﴿فَيَخْرُجُ﴾ الفاء عاطفة ﴿يخرج﴾ فعل مضارع ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به ﴿الْمَاءُ﴾ فاعل ليخرج، والجملة معطوفة على جملة ﴿يشقق﴾ على كونها مستأنفة ﴿وَإِنَّ﴾ الواو عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿مِنْهَا﴾ خبر مقدم لإن ﴿لَمَا﴾ اللام حرف ابتداء ﴿يَهْبِطُ﴾ فعل مضارع. وفاعل مستتر يعود على ما، والجملة صلة الموصول، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بيهبط ﴿وَمَا﴾ الواو استئنافية ﴿مَا﴾ نافية حجازية تعمل عمل ليس ﴿اللَّهُ﴾ اسمها ﴿بِغَافِلٍ﴾ خبرها منصوب بفتحة مقدرة على الأخير منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف جر زائد، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ الحجازية مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ ﴿عن﴾ حرف جر ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل الجر بعن، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لما الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: عما تعملونه، والجار والمجرور متعلق ﴿بِغَافِلٍ﴾ ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلتها، وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعن، تقديره: وما الله بغافل عن عملكم، والجار والمجرور متعلق بغافل أيضاً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الذبح: قطع أعلى العنق. والنحر: طعن أسفله. والبقرة واحد البقر تقع على الذكر والأنثى، نحو: حمامة وحمام، والصفة تُميِّز الذكر من الأنثى. تقول: بقرة ذكر وبقرة أنثى. وقيل: بقرة اسم للأنثى خاصة من هذا الجنس، والذكر الثور، نحو: ناقة وجمل، وأتان وحمار، وسمي هذا الجنس بذلك؛ لأنه يبقر الأرض؛ أي: يشقها بالحرث، أو بقرنه، ومنه: بقر بطنه إذا شقَّه، ومنه سمي محمد الباقر، وهو محمد بن علي، بن الحسين، بن علي بن أبي طالب، وكان هو وأخوه زيد بن علي من العلماء الفصحاء.

وفي «المصباح» وبقرت الشيء بقراً من باب قتل، شققته وبقرته فتحته، والمراد بقرة مبهمة، كما هو ظاهر النظم، فكانوا يخرجون من العهدة بذبح أي بقرة كانت، كما في الحديث السابق، لكن ترتب على تعنتهم فسخ الحكم الأول بالثاني، والثاني بالثالث تشديداً عليهم، لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق

بالكلية، بل على طريقة تقييده وتخصيصه شيئاً فشيئاً، ولا يصح أن يكون المراد من أول الأمر بقرة معينة، كما قيل: إذ لو كان كذلك لما عُدَّت مراجعتهم المحكية من قبيل الجنايات، بل كانت تُعَدُّ من قبيل العبادات، فإن الامتثال للأمر بدون الوقوف على المأموريَّة مما لا يتيسر. اهـ. من «أبي السعود». والمراد من تذبحوا بقرة؛ أن تذبحوها وتأخذوا بعضها وتضربوا به القتيل فيحيا فيخبركم بقاتله، ففي الكلام اختصار يدل عليه السياق ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وفي «المصباح» هزأت به أهزأ مهموزاً من باب تعب، وفي لغة من باب نفع سخرت منه، واسم المصدر منه الهُزْؤ بضم الزاي وسكونها؛ للتخفيف، وقرىء بهما في السبع. اهـ. أي أتصيرنا هُزُواً، وهزواً مفعول ثاني لتتخذنا، وفي وقوعه مفعولاً ثلاثة أقوال:

أحدها: على حذف مضاف، أي: ذوي هزؤ.

والثاني: أنه اسم مصدر واقع موقع المفعول؛ أي مهزواً بنا.

والثالث: أنهم جعلوا نفس الهزؤ مبالغة وهذا أولى. اهـ. «سمين». ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ والعياذ والمعاذ: الاعتصام والالتجاء، والفعل. منه عاذ يعوذ، وأصل أعوذ: أَعْوُذُ بوزن أفعُل، نقلت حركة الواو إلى العين، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد ﴿أَكُونَ﴾ أصله: أَكْوُنُ، نقلت حركة الواو إلى الكاف، فسكنت الواو وضمت الكاف فجعلت الواو حرف مد، كما مر في أعوذ ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الجهل معروف وهو ضد العلم، والفعل منه جَهِل يجهَل. قيل: وقد جمع على أجهال وهو شاذ. قال الشَّنْفَرى:

ولاَ تَزْدَهِي الأَجْهَالَ حِلْمِي وَلاَ أرَى سَؤُوْلاً بأطراف الأقاويل أنْمُلُ

ويحتمل أن يكون جمع جاهل، كأصحاب جمع صاحب، وهو أبلغ من قولك: أن أكون جاهلاً، فإنَّ المعنى أن أنتظم في سلك قوم اتصفوا بالجهل ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ﴾ أصله: يَقْوُل بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلى القاف، فسكنت إثر ضمة فصارت حرف مد ﴿لَا فَارِضٌ﴾ الفارض: المسنُّ التي انقطعت ولادتها من الكبر. يقال: فرضت من بابي قعد وكرم، والمصدر الفروض، والفرض القطع، ويقال لكل ما قدم وطال أمره: فارضٌ، وكأنَّ المسنة سُمِّيت

فارضة؛ لأنها فرضت سِنَّها؛ أي: قطعتها وبلغت آخرها. قال خفَّافُ بن نُدْبَة:

لَعَمْري لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً   تُسَاقُ إِلَيْهِ ما تَقُومُ عَلَى رِجْل
وَلَمْ تُعْطِهِ بِكراً فَيَرْضَى سَمِيْنَهُ   فَكَيْفَ تُجازَى بالمَوَدَّةِ والفَضْلِ

وفي «المختار» فرضت البقرة طَعُنت في السِن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ وبابه جلس وظرف. اهـ. فالمصدر فراضةً وفروضاً، كما في «القاموس» ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ والبكر: الصغيرة التي لم تلد من الصغر. وقال ابن قتيبة التي ولدت ولداً واحداً، والبكر من النساء التي لم يمسَّها الرجل. وقال ابن قتيبة أيضاً: هي التي تحمل، والبكر من الأولاد الأول، ومن الحاجات الأولى. قال الراجز:

يا بِكْرَ بِكْرَين ويَا خَلَبَ الكَبِدْ   أَصْبَحْتَ مِنّي كَذِراعٍ مِنْ عَضُدْ

والبكر بفتح الباء الفتى من الإبل، والأنثى بَكْرة، وأصله: من التقدم في الزمان، ومنه البكرة والباكورة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ والعوان: النصف وهي التي ولدت بطناً أبو بَطْنَيْنِ. وقيل: التي ولدت مرة. وفي «المصباح» العوان النصف في السن من النساء والبهائم، والجمع عُوْنٌ بضم العين وسكون الواو، والأصل: عُوُنٌ بضم الواو، لكن سُكِّن تخفيفاً. اهـ. و﴿بَيْنَ﴾ ظرف مكان متوسط متصرف. تقول: هو بعيد بين المنكبين، ونقيٌّ بين الحاجبين. قال تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ودخولها إذا كانت ظرفا بين ما تمكن البُيَنَةُ فيه، والمال بين زيد وبين عمرو مسموعٌ من كلامهم، وينتقل من المكانية إلى الزمانية إذا لحقتها ما، أو الألف فيزول عنها الاختصاص بالأسماء، فيليها إذ ذاك الجملة الإسمية والفعلية، وربما أضيفت بيناً إلى المصدر. ولبين في كتب الكوفيين بابٌ معقودٌ كبيرٌ. ذكره في «البحر».

﴿مَا لَوْنُهَا﴾ واللون: عَرَض مشاهَد يتعاقب على بعض الجواهر، كما مر. وجمعه على القياس ألوان، واللون أيضاً النوع، ومنه ألوان الطعام؛ أي: أنواعه. وقالوا: فلان متلوِّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد، ومنه قولهم: يتلون تلون الحرباء، وذلك أن الحرباء لصفاء جسمها أيَّ لون قابلته ظهر عليها، فتنقلب من لون إلى لون ﴿صَفْرَآءُ﴾ والصُّفرة: لونٌ بين البياض والسواد وقياس الفعل من هذا المصدر صَفِرَ فهو أصفر وهي صفراء، كقولهم: شَهِبَ فهو أشهب

وهي شهباء، والهمزة في صفراء مبدلة من ألف، وذلك أن أصلها: صفرى كسكرى، فزيدت ألفٌ قبل الألف الأخيرة؛ للمد كألف كتاب وغلام، فأبدلت الألف الثانية همزة. قال ابن مالك في الكافية:

مِنْ حَرْفِ لِيْنٍ آخرٍ بَعْدَ ألفْ مَزِيْدٍ ابدلْ همزةً وذا ألِفْ

وهذا أشمل من قوله في الألفية: فأبدل الهمزة من واو ويا؛ لأنه لم يذكر الألف في ألفيته. وذكره في الكافية، حيث ذكر حروف اللين ﴿فَاقِعٌ لَّوۡنُهَا﴾؛ أي: شديد الصفرة. والفقوع بضم الفاء: نصوع الصفرة وخلوصها، فالفاقع شديد الصفرة وقد فقع لونه من بابي خضع ودخل. اهـ. «مختار» والفقوع أشدُّ ما يكون من الصفرة وأبلغه يقال: أصفر فاقعٌ ووارِسٌ، وأسودُ حالِكٌ وحايِكٌ، وأبيضُ نَقَقٌ ولَمَقٌ، وأحمر قانِي وزَنْجِيٌّ، وأخضر نَاضِرٌ ومُدْهَامٌّ، وأزرق خَطْبَانيٌ وأَرْمَكُ رَدَانِيٌ ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أصله: تَسْرُر بوزن تفعل، نقلت حركة الراء الأولى إلى السين، فسكنت فأدغمت في الراء الثانية. والسرور: لذةٌ في القلب عند حصول نفع، أو توقعه، أو رؤية أمر معجب رائق، ومنه السرير الذي يجلس عليه إذا كان لأولي النعمة، وسرير الميت شَبِيْهاً له به في الصورة وتفاؤلاً بذلك. وقال قوم: السرور، والفرح، والحبورُ، والجذل نظائر، ونقيض السرور الغَمُّ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ شاء أَصْلُهُ: شَيِءَ بوزن فَعِل بكسر العين، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾ أصله: مهتديون جمع مهتدٍ اسم فاعل من اهتدى، استثقلت الضمة على الياء فحذفت وسكنت الياء؛ فحذفت لالتقاء الساكنين، وضُمَّت الدال؛ لمناسبة الواو، أو كما يقول بعضهم: نقلت حركة الياء إلى الدال والمؤدّى واحد ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ الذلول: الرِيْضُ الذي زالت صعوبته. يقال: دابةٌ ذلولٌ بيّنَةُ الذِل بكسر الذال، ورجلٌ ذليلٌ بين الذُلّ بضم الذال، والفعل ذلَّ يَذِل والذِّلّ بالكسر ضد الصعوبة، وبالضم ضِدُّ العزّ، والمراد به هنا الأول ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الإثارة: الاستخراج والقلقلة من مكان إلى مكان قال النابغة:

يُثِرْنَ الحصى حَتَّى يُبَاشِرْنَ تُرْبَهُ إذا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيْقَهَا بِالكَلاكِلِ

وأصل تثير: تُثْوِر بوزن تُفعِل واويُّ العين، نقلت حركة الواو إلى الثاء،

فسكنت الواو إثر كسرة فقلبت ياء حرف مد ﴿وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ والحرث: مصدر حرث يحرث وهو شقُّ الأرض ليبذر فيها الحبَّ، ويطلق على ما حُرث وزُرع، وهو مجاز في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ والحرث الزرع، والحرث الكسب، والحرائث الإبل الواحدة حريثة. وفي الحديث: (أصدق الأسماء الحارث)؛ لأنَّ الحارث هو الكاسب، واحتراث المال اكتسابه. يقال: حرث من باب نصر وكتب.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ المسلمة: المخلصة المبرأة من العيوب. يقال: سلم له كذا؛ أي: خلَص سلاماً، وسلامة مثل لذاذاً ولذاذة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ والشِّيَةَ: مصدر وَشِي الثوب يشيه وشْياً وشيةً، إذا حسَّنه وزيَّنه بخطوطٍ مختلفة الألوان، ومنه قيل للساعي في الإفساد بين الناس: واشٍ؛ لأنه يحسِّن كذبه عندهم حتى يُقبل. والشية: اللُّمعة المخالفة للون البدن، كما مر. ومنه ثورٌ موشَّىٰ القوائم، والشيةُ في الأصل: مصدر وشي من باب وعد وشْياً وشيةً، إذا خلط لوناً بلون آخر، والمراد هنا نفس اللون، والتصرُّف فيها كالتصرف في عدة. اهـ. شيخنا. وفي «السمين» وشيةٌ مصدر وشيت الثوب أشيه وشْياً وشِيَةً، فحذفت فاؤها؛ لوقوعها بين ياءٍ وكسرةٍ في المضارع، ثم حمل ما في الباب عليه وعوِّض عنها تاء التأنيث في المصدر، ووزنها علةٌ، ومثلها صِلةٌ وعِدةٌ وزِنةٌ ومنه ثوبٌ موشًى؛ أي: منسوجٌ بلونين فأكثر، وثورٌ موشى القوائم؛ أي: أبلقها، ويقال: ثورٌ أَشْيَه، وفرسٌ أبلق، وكبشٌ أخرج، وتيس أبرق، وغرابٌ أبقع، كلُّ ذلك بمعنى أبلق. اهـ.

﴿ٱلْـَٔـنَ﴾ ظرف زمان يقتضي الحال ويُخلِّص المضارع له عند جمهور البصريين، وهو لازمٌ للظرفية لا يتصرَّف غالباً بُني؛ لتضمنه معنى حرف الإشارة، كأنك قلت: هذا الوقت؛ أو لتضمنه معنى حرف التعريف، كأنك قلت: الوقت الحاضر. واختلف في أل التي فيه، فقيل: للتعريف الحضوريِّ. وقيل: زائدةٌ لازمةٌ. اهـ. «كرخي» وزعم الفراء أنه منقولٌ من الفعل. يقال: آن يئين أيْناً؛ أي: حان ﴿جِئْتَ﴾ أصل الفعل: جَيَأ بوزن فعل من باب ضرب، تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار جاء، فأسند الفعل إلى ضمير الرفع المتحرِّك فسُكِّن آخره، فصار جاءت، فالتقى ساكنان الألف وآخر الفعل، فحذفت الألف فصار

جأت على وزن فلت، فاحتيج إلى معرفة عين الفعل المحذوفة، هل هي واو أو ياء؟ فحذفت حركة الفعل وعوِّض عنها حركة مجانسة للعين المحذوفة وهي الكسرة، فقيل: جئت بوزن فلت، وهكذا كلُّ ما كان من هذا الباب ﴿كَادُواْ﴾ أصل: كاد كَوِدَ بوزن فعِل بكسر العين يفعل بفتحها، بدليل قولهم: يكاد، تحركت الواو في الماضي وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فقيل: كاد، والدليل على أنَّ أصل العين واوٌ قولهم: كاد يفعل كذا كُوْداً ومكادةً؛ أي: قارب ولم يفعل ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾ والقتل: نقض البنية بوجوهٍ تنتفي الحياة عندها. فادرائتم: من الدرء وهو الدفع، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ وادَّارأ تفاعل منه، ولمصدره حكمٌ يخالف مصادر الأفعال التي أوَّلها همزة وصل. ذكر في النحو. اهـ. «بحر». وأصله: تدارأتم بوزن تفاعل من الدرء وهو الدفع؛ أي: تدافعتم، فأدغمت تاء الافتعال في الدال التي هي فاء الفعل بعد أن أبدلت التاء دالاً، ثم استجلبت همزة الوصل؛ للتوصل به إلى النطق بالساكن؛ يعني: الحرف المدغم، فقيل: اداراءتم. وعبارة «السمين» هنا: أصل ادارأتم: تفاعلتم من الدرء وهو الدفع، فاجتمعت التاء مع الدال وهما متقاربان في المخرج، فأريد الإدغام، فقلبت التاء دالاً وسكنت لأجل الإدغام ولا يمكن الابتداء بساكن، فاجتلبت همزة الوصل؛ ليُبْتَدَأ بها، فبقي اددارأتم فأدغم. اهـ.

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ فيه حذف همزة أفعل من اسم الفاعل، إذ القياس مُؤخرجٌ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أصله يحيي بوزن يفعل، حذفت منه همزة أفعل وسكنت ياؤه الأخيرة؛ للتخفيف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مضارع الرباعي، والرؤية هنا بصرية، فالهمزة للتعدية أكسبت الفعل مفعولاً ثانياً وهو آياته، والمعنى: ويجعلكم مبصرين آياته، والكاف هو المفعول الأول، وأصله: يرئيكم بوزن يفعل، نقلت حركة الهمزة عين الفعل إلى الراء فائه، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً، فقيل: يرى، فالعين من أرى الرباعي في الماضي والمضارع محذوفة دائماً ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ القساوة والقسوة: غلظ القلب وصلابته وعدم لينه لقبول الخير. يقال: قسا يقسو من باب عدا قسواً، وقساوة وقسوة، وفيه إعلال بالحذف. أصله: قسو، قلبت الواو ألفاً؛ لتحركها بعد فتح، فلما اتصلت

بالفعل تاء التأنيث الساكنة التقى ساكنان الألف والتاء، فحذفت الألف ﴿أَشَدُّ﴾ أصله: أَشْدَدُ بوزن أفعل صيغة تفضيل، نقلت حركة الدال الأولى إلى الشين، فسكنت فأدغمت في الدال الثانية ﴿يَشَّقَّقُ﴾ أصله: يتشقق، أبدلت التاء شيناً وأدغمت في الشين. والشقُّ: أن يجعل الشيء شقين وتشقق منه ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ والخشية: الخوف مع تعظيم المخشيِّ. يقال: خشي يخشى، كرضي يرضى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ الغفلة، والسهو، والنسيان متقاربة. يقال: منه غفل يغفل، ومكانٌ غفلٌ لم يعلم به. اهـ. «بحر».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرير للسؤال والجواب وهو داخل في باب الإطناب، كأنهم يكررون السؤال استكناهاً لحقيقة البقرة.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾؛ لأنَّ قبل هذه الجملة جملٌ محذوفة، تقديرها: فطلبوها ووجدوها عند فتى بار لوالدته، فاشتروها فذبحوها.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ لأن هذه الجملة معترضة بين قوله: ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصالُ، تجَيء تحليةً يزدادُ بها الكلام البليغ حسناً. وفائدة الاعتراض هنا: إشعار المخاطبين بأنَّ الحقيقة ستَنْجَلِي لا محالة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ حيث شبه عدم الإذعان بالقسوة بجامع عدم قبول التأثير في كل، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من القساوة قست بمعنى لم تُذْعن، فلم تقبل المواعظ ولم تؤثر فيها. اهـ. «صاوي» وقيل: فيه الاستعارة المكنية التبعية تشبيهاً لحال القلوب في عدم الاعتبار والاتعاظ بما هو ماثلٌ أمامها، ناطقٌ بلسان الحال بالحجارة النابية التي من خصائصها القسوة والصلابة.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾؛ لأن أداة الشبه مذكورةٌ، ووجه الشبه محذوف، فقد شبَّه قلوبهم في نُبُوِّها عن الحق وتجافيها مع إحكامه بالحجارة القاسية، ثم ترقَّى في التشبيه فجعل الحجارة أكثر ليناً من قلوبهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ حيث أطلق المحلَّ الذي هو المجرى المسمَّى بالنهر، وأراد الحالَّ فيه وهو الماء، والقرينة حالية؛ لأن التفجر إنما يكون للماء لا للنهر.

ومنها: المجاز العقليُّ في إسناد الخشية إلى الحجارة، ؛ لأنه مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى، وأنها لا تمتنع عمَّا يريد منها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد، ولا تلين، ولا تخشع، ولا تفعل ما أُمرت به.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، ومنه يرجى نجاح كل الآراب، لا سيما تفسير أفضل الكتاب[1].

* * *

(١) خاتمة: إلى هنا وقفت الأقلام في ترقيم المجلَّد الأول على الحزب الأول من القرآن الكريم، في تكملته في أوائل الشهر السادس من شهور سنة ألف وأربع مئة وسبع عشرة بتاريخ ٦/٦/١٤١٧ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلَّم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.
انتهى المجلد الأول على الحزب الأول من تفسير حدائق الروح والريحان، ويليه المجلد الثاني وأوَّله قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...﴾ الآية.
تم تصحيح هذا المجلد بيد مؤلفه ليلة السبت بعيد العشاء الموافق تاريخ ١١/٤/١٤٢٠ هـ.

شعر

الـعَـبْـدُ ذُو ضَـجَـرٍ والـربُّ ذُو قـدَرٍ والـدَّهْـرُ ذُو دُوَلٍ والـعِـلْـمُ مَـقْـسُـوم

والخَيْرُ أجْمعُ فيما اخْتار خالِقُنَا وفـي اختـيـار سـواه الـلُّـومُ والـشُّـوم

آخر

فَـلَـيْـتَـكَ تَـحْـلُـو والـحـيـاةُ مَـرِيْـرَةٌ وَلَـيْـتَـكَ تَـرْضَـى والأنـامُ غِـضَـابُ

ولَـيْـتَ الـذي بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـكَ عَـامِـرٌ وبَـيْـنـي وبَـيْـنَ الـعَـالَـمِـيـن خَـرَابُ

آخر

فَـزادِي قَـلِـيـلٌ مـا أُراه مُـبـلِّـغـي على الزادِ أبكي أم لِبُعْدِ مَسافَتي

أَتَـيْـتُ بـأعـمـالٍ قِـبَـاحٍ رَدِيـئَـةٍ وَمَا في الوَرى خَلْقٌ جَنَى كَجِنَايتي

الفهرس